

المقدم

المقدم اسم من أسماء الله تعالى الدالة على قدرته المطلقة، فهو الذي يقدم الأشياء وهو مقدم الوجود كله.

المقدم "هو الذي يقدم ما يجب تقديمه من شيء حكما وفعلا على ما أحب وكيف أحب وما قدمه فهو مقدم وما أخره فهو مؤخر تعالى الله علوا كبيرا"^١.
وابن القيم عن هذا الاسم العظيم يقول في قصيدته:

"وهو المقدم في محبتنا على الأهلين والأزواج والولدان ...

وعلى العباد جميعهم حتى على النفس التي قد ضمها الجنان"^٢

المقدم: هو فاعل الأشياء وخالق المخلوقات دون سابق عليه، فهو المقدم وهو الفاعل لما يريد، بيده الأمر وهو على كل شيء قدير.

والمقدم اسم فعل يدل على من بيده أسباب تقديم الأشياء بعضها عن بعض، واسم الله المقدم هو مصدر لكل تقديم، فهو مقدم لأنه لا يتقدم عليه شيء فهو الأول الذي لم يسبقه شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، إذن هو المتقدم في الوجود وفي الخلود، قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}^٣.

المقدم هو الغني الذي ليس له حاجة ولا تتعلق الحاجة بذاته العلية، قال تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}^٤، بل هو الذي يخلق الحاجات في نفوس خلقه ثم يتقدم لهم بتسخير مشبعات هذه الحاجات لهم مناً منه وتكرماً عليهم.

^١ تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٥٩.

^٢ شرح قصيدة ابن القيم، ج ٢، ص ٣٤٨.

^٣ الحديد ١ . ٣.

^٤ الحج ٦٤.

ويمكن أن يكون اسم المقدم في حق الله تعالى بمعنى المقدم على صيغة اسم المفعول، فهو الذي يقدمه عباده المؤمنون بالمحبة، ويقدمونه عز وجل بالتزويه والتقدّيس فلا يعبدون معه أحداً ولا يشركون به شيئاً، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ}°.

وهذا التقديم من العباد المؤمنين ما هو إلا نتاج إيمانهم الخالص بالمقدم المطلق الذي تقدم إليهم بكل النعم التي منحها لهم من عقلٍ وصحةٍ ورزقٍ ورحمةٍ وغيرها من النعم التي لا تحصى ولا تعد، قال تعالى: {وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ}٦.

وحكمة المقدم شاعت أن لا يتساوى جميع الخلق في كل الأمور، بل أوجد الله تعالى فروقاً عدة بين البشر من حيث القوة والذكاء والمال والجمال، فتفاوت نصيب كل إنسان عن الآخر في امتلاكه لها، ومن هنا جاء هذا التقديم والتأخير في هذه الأشياء.

والتقديم بين البشر كما هو في الدنيا أيضاً موجود في الآخرة، قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}٧، فالخالق عز وجل يلفت نظر الإنسان إلى قضية التفضيل بالتقديم والتأخير في الدنيا وكذلك في الآخرة، فبالرغم من اختلاف البشر عن بعضهم البعض في كثير من الأمور إلا أن هناك مقياساً واحداً للتفاضل بين الناس يوم يقوم الحساب وهو تقوى الإنسان الذي يصل بصاحبه إلى أعلى درجات التفضيل عند الله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}٨، فحكمة الخالق المطلقة جعلته يخلق الذكر مختلفاً عن الأنثى، وخلق البشر بعد ذلك مختلفين في أشكالهم وألوانهم، وبعلمه المطلق وضع لهذا الاختلاف مقياساً

° المؤمنون ٥٧ . ٥٩.

٦ النحل ١٨.

٧ الإسراء ٢١.

٨ الحجرات ١٣.

يفصل بينهم ويميز الأفضل فيهم، فكان المال والجمال والقوة خارج هذا المقياس، ألا وهو التقوى وخشية الله تعالى.

والمقدم أكبر وأعظم من المبادر، لأنّ المقدم هو من يخلق الأفعال أولاً من غير سابق لها في الوجود، مثل خلقه للكرم والعلم وللرحمة، فتقدم الخالق إلى عباده بخلقها لهم، أما المبادر فهو الذي يقوم بالأفعال بعد أن توجد، فلا يخلقها فيبادر إلى فعلٍ هو في الأصل متواجد من قبل قيامه به، فالمبادر هو الذي يبادر بفعل الأفعال ابتداءً مع إن هذه الأفعال موجودة ومخلوقة من قبل، أي أنه لا يقوم بخلقها، ولهذا فالمبادر لا يبادر إلا والشيء متوفراً للإقدام عليه، والمقدم هو الذي أوجد الأشياء من لا شيء.

والمقدم هو المحصي لتوقيت تقديم الأشياء حسب الحاجات ومتطلباتها، فلا يقدم الحياة إلا بموعد، ولا يقدم الخير والرزق وغيرها إلا بنسقٍ معين يتناسب وحاجة الإنسان، ومن أمثلة ذلك الآتي:

١- المقدم يقدم العدل على الظلم:

العدل نقيض الظلم، لا يمكن أن يلتقيا معاً، والعدل المطلق الذي لا ظلم فيه هو الذي عند الله تعالى العادل الذي لا يميز في إحقاق الحق بين إنسان وآخر، قال تعالى: {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}٩، فلا يعاقب إلا بما يستحق الإنسان ولا يتجاوز الحد في العقاب، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}١٠، فمن عدل الخالق عز وجل أنه لا يقدم العقاب إلا بعد نصح وإرشاد، وبعد تقديم الشرح والتفصيل للحق والباطل، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا

٩ ق ٢٩.

١٠ فصلت ٤٦.

كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} ^{١١}.

فلا يظلم الله أحد، بل أنه يقدم رحمته وعدله للناس لعلمهم عن المعاصي والآثام يرجعون ويحيدون، فالعدل الحقيقي أن لا تعاقب إلا بعد العلم بالشيء والتفصيل فيه، فلا تأخذ الجاهل بجريرة عمل لا يدري عاقبته، ويترك أبواباً مفتوحة لمن كان عالماً بالذنب كي يعود عنه، فمن عاد فقد غفر له العادل، ومن بقى على ما هو عليه استحق العذاب الذي كتبه الله عليه، قال تعالى: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ} ^{١٢}، فلا يأخذ الله إنسان بجريرة إنساناً آخر وإن كان والده أو زوجه أو ابنه، فكل إنسان سيحاسب على أعماله، قال تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} ^{١٣} وقال تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا} ^{١٤}، وهذا هو العدل الحق فلا ظلم فيه ولا جور.

وعلى خليفة الله أن يقدم عدله عن ظلمه، فلا يتسرع في الحكم على أمرٍ قد يخفى عليه بعضه، وإن كان هذا الحكم على نفسه، يجب أن يكون عادلاً معها فلا يوقعها في الهلاك، ولا يهمل جوانب الصلاح فيه والخير، فيعطيها حقها دون أن يبالغ في ذلك، وأن يقدم عدله عن ظلمه مع من حوله، فلا يستغل ما أعطاه الله من سلطة أو قوة أو مال فيظلم به ويتجبر، فتراه يأخذ حقاً ليس له ويستغل بما يملك ما لا حق له في امتلاكه، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

^{١١} الحج ٦ . ١٠ .

^{١٢} طه ٨١، ٨٢ .

^{١٣} الإسراء ١٣ .

^{١٤} المدثر ٣٧، ٣٨ .

سَمِيعًا بَصِيرًا^{١٥}، وبما أن الله هو العادل المطلق في عدله فقد كان لازماً على خليفة الله تعالى في الأرض أن يلزم العدل في أموره وعلاقته بكل ما يحيط به، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}^{١٦}. وقد قدّم الله عبده العادل عن غيره فأحبه وقرّبه منه، لأنه عادلٌ ويحب أن يعم العدل في الأرض، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلَاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا قَالَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ"^{١٧}.

١- المقدّم يقدم الجنة عن النار:

خلق الله الجنة والنار، وأول ما نفخ الروح في آدم عليه الصلاة والسلام قدّم له الجنة مسكناً له، قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}^{١٨}، فكانت بذلك عطاءً من المولى له دون مقابل رحمةً منه وحباً بالإنسان، وقد خرج منها آدم بخطأ سماعه وسوسات الشيطان الرجيم، قال تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا

^{١٥} النساء ٥٨.

^{١٦} النحل ٩٠.

^{١٧} صحيح البخاري ج ٢١، ص ٧٤.

^{١٨} البقرة ٣٥.

وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} ^{١٩}، وبتوبته على آدم وزوجه قدم لهما الجنة برحمته ومغفرته لهما، وهذا يوضح تقديم المغفرة عن العذاب، وهذا داعٍ لجعل الجنة قريبة من البشر أكثر منها إلى النار، قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} ^{٢٠}، فالخالق مقدّم بتلك الرحمة التي وسعت كل شيء جنته عن النار، بتوضيحه طرق الخير والهداية ولعلم الإنسان بها وتمييزه لها وكذلك طرق الضلالة والفساد والهلاك، فالعقل البشري يدرك بما وهبه الله من قدرة على التمييز بين طرق الجنة والنار، فكم خاطبه وألقى إليه الحجج والبراهين ليسعى إلى النور والحق، ولم يتركه يتخبط في ظلمات الجهل والباطل، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} ^{٢١}، وقال سبحانه وتعالى أيضاً: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} ^{٢٢}، وقوله أيضاً: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} ^{٢٣}.

والجنة أبوابها تُفتح بكلمة التوحيد بدايةً وبالعمل الصالح الذي يكون أحياناً بكلمة طيبة تخفف عن مسكين، ومسحة يد على رأس يتيم، أما الخلود في النار فمن مقدمة أسبابه الكفر والشرك بالله، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ

^{١٩} الأعراف ١٩ . ٢٤ .

^{٢٠} النساء ١٤٧ .

^{٢١} الأنعام ٥٧ .

^{٢٢} التوبة ٣٣ .

^{٢٣} يونس ٣١، ٣٢ .

لَاتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَا ضَلَّانَهُمْ وَلَا مَتَّيِّئَهُمْ وَلَا مُرْتَبِّئَهُمْ فَلْيُبَيِّنَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا أَمْرَهُمْ فَلْيُعَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا^{٢٤}، إذن رحمة الخالق وحبه لعباده يسرا سبل الوصول إلى الجنة، وأوضحا كيفية المحافظة عليها، فلا أروع حين يقدم الخليفة نيته في الوصول إليها عن كل النوايا الأخرى، فيسعى لها لتسعى إليه فينجو بالتوبة الصادقة من النار.

٢- المقدم يقدم المغفرة عن العذاب:

عند خلق الجنة والنار لزم وجود المغفرة والعذاب، لكن المغفرة متقدمة عن العذاب لكثرة مسبباتها وفي أولها التوبة الصادقة والعودة عن الذنب والاستغفار، فميزان الإنسان يتقل بشهادة التوحيد التي تفتح له باب شفاعة رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - هذه الشفاعة التي تبعد عذاب جهنم والحريق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُو بِهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ"^{٢٥}، فما من باب مغفرة ورحمة إلا وقدمه المولى عز وجل للإنسان وقربه منه، فبتحذيره من الولاء للشيطان واتباع خطواته مهّد ووضّح حبه ورحمته بالعباد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^{٢٦}.

٣- المقدم يقدم الفضائل على الرذائل:

الفضائل في الدنيا كثيرة وكذلك الرذائل، والبشر متفاوتون فيها، فالفضيلة من شأنها أن ترقى بالإنسان إلى أسمى درجات الإنسانية، فتجعله يطهر من كل الآفات الاجتماعية الخطيرة التي قد

^{٢٤} النساء ١١٦ . ١٢١.

^{٢٥} موطأ مالك ج ٢، ص ١٤٤.

^{٢٦} النور ٢١.

تصيب أي فرد وإصابة فرد واحد تنتقل عدوى هذه الأمراض إلى المجتمع بجميع جوانبه، والردائل حين تنتشر في المجتمع تنتشر هنا وهناك فيصعب تطهيره منها وتخليصه من نتائجها. وخليفة الله بالإضافة هو من يقدم الحسنة عن السيئة، أو من يبدل الرذيلة بالفضيلة بفضل الله تعالى عليه ورحمته، فيبدل الله سيئاته بالحسنات التي يُثاب عليها، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} ٢٧.

والمقدم المطلق قد قدم الحياة عن الموت، قال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ٢٨، وكذلك قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ٢٩، فمن الآيتين السابقتين نلاحظ أن:

الله تعالى قد قدم خلق الحياة عن خلق الأحياء، هذه الحياة التي تتطلب الخلق والرزق والنوم والرحمة وغيرها، فهو الذي قدم الحياة للأحياء وسخر لهم أسبابها وسببها من تقديم وتهيئة المناخ الملائم لاستمرارها، بتوفير القدر الملائم من درجة الحرارة التي لو زادت باقتراب الشمس عن موضعها ولو بمقدار ضئيل لاحترق كل من عليها من الأحياء، ولو أنها نقصت بابتعاد الشمس لتجمد من عليه، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ٣٠، وكذلك بتوفير كميات مناسبة من الأكسجين وثنائي أكسيد الكربون وغيرها من المكونات والاحتياجات بمعايير مناسبة لاستمرار الحياة فينا، كل ذلك خلقه الله تعالى بنسب دقيقة لو اختلفت نقصاً أو زيادة لما كان الحال على ما هو عليه، قال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي

٢٧ الفرقان ٧٠، ٧١.

٢٨ الزمر ٤٢.

٢٩ الروم ٤٠.

٣٠ الأنبياء ٣٣، ٣٤.

لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^{٣١}، فالله بذلك قدّم إلى البشر مقومات البقاء والاستمرار.

وقد تقدم المقدم المطلق إلى خلقه أيضاً بخلق جاذبية الأرض التي تساعد على إمكانية البقاء فوقها وهذا من باب تقديم تسخير الأرض للإنسان الذي لو لم يكن هذا النظام البديع حوله لما استطاع أن يستقر على الأرض، كما أن الله عز وجل تقدم للإنسان بخلق المحيطات والأنهار والجبال والوديان والبحار وغيرها من مكونات الطبيعة الهائلة، قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ^{٣٢}، وقال أيضاً: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ^{٣٣}.

والمقدم المطلق هو الذي يقدم الحياة على الموت، فهو سبحانه من وهب الحياة للخلق ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً مذكوراً، ثم رزقهم وسخر كل ما يحتاجون إليه من مقومات الحياة، ثم بعد ذلك خلق الموت والفناء لأن الخلود من صفات الله تعالى، قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^{٣٤}، فكل مخلوق له بداية وله نهاية، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ^{٣٥}.

^{٣١} يس ٤٠.

^{٣٢} لقمان ١٠.

^{٣٣} النحل ١٥ . ١٨.

^{٣٤} الرحمن ٢٦، ٢٧.

^{٣٥} الروم ٤٠.

وفي قول الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ} ^{٣٦} هذا التقديم في الآية الكريمة لا يعني تقديم ترتيب ولكنه يفيدنا بضرورة الفناء لكل حي على هذه الأرض، أي أنه عز وجل خلق الموت للحياة التي تتقدمه والتي خلقها الله تعالى بإرادته المطلقة ومشيئته على الأرض، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ^{٣٧}، أي أنه جعل الخليفة الذي أراده حياً وحياته هذه شاء عز وجل أن تكون على الأرض التي سخرها الله تعالى له من أجل تكليفه بحمل الأمانة، وهذه الحياة الأولى ليست حياة خلود ولا استمرارية بل هي حياة مؤقتة مصيرها للزوال والفناء، قال تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} ^{٣٨}، والتي سينال كل عامل في الحياة الدنيا جزاءه فيها بالثواب، قال تعالى: {قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ^{٣٩}، أو بالعقاب، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} ^{٤٠}، فكل من أحياهم الله في تلك الحياة الخالدة هم أيضاً خالدون ولكن هذا الخلود هو خلود موصوف بصفة صبغها الإنسان بها من خلال الحياة الأولى المؤقتة، فإما خلود نعيم نتيجة إيمانه الصادق بالله وبعمله في مرضاته بالتزام أوامره والبعد عن نواهيه، وإما خلود شقاء نتيجة كفره وعصيانه بالمقدم جل جلاله الذي قدم إليه كل السبل والوسائل ليستعملها ويحسن استعمالها، فيخرج بذلك من دائرة الشقاء إلى دائرة النعيم، ولكنه بجهله وعناده وجحوده عمي أن

^{٣٦} الملك ١، ٢.

^{٣٧} البقرة ٣٠.

^{٣٨} الأعلى ١٧.

^{٣٩} آل عمران ١٥.

^{٤٠} النساء ١٦٧ . ١٦٩.

يصل ويرى الحق والهدى، وأصر على الكفر والضلال فاستحق بذلك أن يكون ممن يخلدون في شقاء دائم في الحياة الدنيا والحياة الآخرة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} ^{٤١}.

اللهم اجعلنا ممن يخلدون في رحمتك ولا يألوا لساننا عن ذكرك.

بذلك فإن المقدم خاطب العقل البشري لاستيعاب هذا التقديم والتأخير، ليصل بتفكيره إلى حكمة الله وقدرته على تقديم وتأخير ما يشاء، فلا يصيبه اليأس إذا تأخر عليه أمر ما، ولا يأخذه الغرور إذا تقدم لديه أمر ما عن باقي البشر، كما حدث مع قارون إذ أن الله تعالى رزقه أموالاً كثيرة فتباهى بها وتكبر، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} ^{٤٢}، فبدل أن يقدم الشكر لله على هذه النعمة قدم الجحود والتكبر والتفاخر والعناد، فاجعله الله بالعقاب الذي استحقه بهذا الجحود.

وعليه، على خليفة الله أن يكون مقدماً للتالي:

١- العقل على اللسان:

خلق الله الإنسان وأنعم عليه بكثير من النعم التي لا يمكن أن نعدّها أو نحصرها، قال تعالى: {وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{٤٣} ومن النعم ما هو مادي ومنها ما هو

^{٤١} البقرة ١٦١، ١٦٢.

^{٤٢} القصص ٧٦ . ٧٨.

^{٤٣} النحل ١٨.

معنوي، ومن ضمن النعم التي أنعم الله بها علينا هي نعمة العقل الذي هو مركز التمييز والتحليل، فإذا غاب العقل عن الإنسان لمرضٍ أو غيره سقطت عن هذا الإنسان المسؤولية تجاه ما يمكن أن يقوم به من أفعال وأقوال، حتى أن التكاليف الشرعية تسقط عنه لعدم قدرته على فهمها وإدراك عقوبة التهرب منها.

وبما أن العقل كان منبع الأفكار والتصورات والتحليلات فإنه محور التخاطب ومقصد التفاهم، وقد خاطب الله العقل البشري في أكثر من آية بل أنه خلق الكون كله عبارة عن رسالة لهذا العقل الذي ميّز به الإنسان ليصل إلى الحقيقة فيكون بذلك مستحقاً لخلافة الأرض وحمل الأمانة، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}،^{٤٤} فالسمع والبصر والإحساس مسؤول العقل عنهم فهو الذي يحل عن طريقه الإنسان ما يسمعه ويدرك مدى أهميته وصدقه، وكذلك يستوعب كل ما نبصره من حقائق وأدلة ويعمد العقل إلى تصنيف ما يراه، فالعقل البشري هو أساس الفهم والإدراك اللذان هما سبيلنا للهداية ومعرفة اليقين، قال تعالى: {ذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}،^{٤٥}

ومن ضمن النعم التي أنعم الله علينا نعمة النطق باللسان للتعبير وإخراج ما في النفس من هموم ومن سعادة ومن علم ومن تساؤلات وغيرها، وقد أمر الله تعالى أن نحفظ هذا اللسان من شرور

^{٤٤} المؤمنون ٧٩ . ٨٥ .

^{٤٥} البقرة ١٧٠، ١٧١ .

كثيرة قد تصيبه إذا تُرك دون ضابط يتحكم فيه ليقيه الزلات والمهالك، ومن عيوب ترك اللسان سائباً حراً لا رادع له وقوعنا في اللغو الذي لا طائل منه سوى مضيعة الوقت والخسارة، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} ^{٤٦}، فقد كان من صفات المؤمنين المتقين إعراضهم عن اللغو كما جاء في الآية الكريمة السابقة، فاللسان من شأنه أن يكون سبيل هداية وفلاح في الدنيا والآخرة إذا أحسن الإنسان استعماله وحافظ عليه نعمة من الخالق له، يوجهه للدعوة للحق والخير، قال تعالى أيضاً: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} ^{٤٧}.

ومن هنا كان لابد من عمل مقارنة بين العقل واللسان لنصل إلى ضرورة تقديم العقل عن اللسان في حياتنا:

أولاً: العقل مركز التحليل والفهم، تصل إليه الحقائق فيحلها كي يصل إلى النتيجة النهائية، فهو إذن دليل هداية من الله عز وجل لنا، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ^{٤٨}، فالعقل إذن أصل الفهم ووسيلة الإدراك، أما اللسان فهو وسيلة لتخريج ما في داخلنا وما ن فكر فيه ونشعره حتى ولو كان ذلك شعوراً عابراً.

ثانياً: لا يصل الإحساس أو المعلومة إلى اللسان من غير أن تمر على العقل أولاً، فالعقل إذن متقدم على اللسان بقدرته على التحليل والإدراك.

^{٤٦} المؤمنون ١ . ٤

^{٤٧} القصص ٥٥، ٥٦.

^{٤٨} البقرة ١٦٤.

ثالثاً: يتقدم العقل عن اللسان أنه بغياب العقل تسقط التكاليف الشرعية عن الإنسان، أما اللسان فإنه لا تسقط بغيابه التكاليف الشرعية، إذن بمسؤوليته عن التكاليف الشرعية يتقدم عن اللسان الذي تبقى بغياب قدرته على النطق مسؤلية العقل عن قيامنا بكافة التكاليف الشرعية. إذن فالعقل يتقدم اللسان بقدراته وأهميته وتمييزه، لذلك فقد لزم على الخليفة بالإضافة أن يكون مقدماً لعقله عن لسانه، وذلك بأن لا ينطق بما لا يدرك ولا يفهم، لأنه إذا أُعطيَ اللسان هذا الحق كان كثير الزلات والخطايا وذلك من شأنه أن يؤدي صاحبه إلى الهلاك والخسارة، فلا بد أن يكون هذا الخليفة راعياً للسانه بعقله فلا ينطق كل ما يهوى ويريد، ولا يُلغي العقل في سبيل الثرثرة والنميمة فمن شأن العقل إذا اتجه في الاتجاه السليم في التفكير أن يردع اللسان وقت الحاجة وأن يكون متقدماً عليه في السيطرة، فلا ينطق إلا بما يسمح العقل السليم والراجح من حكمة وصواب.

فالنميمة تكثر واللغو يزيد إذا غُيِبَ العقل، والجهل يسود في غيابه، ويقدم الباطل عن الحق إذا كان العقل البشري لاهياً مغيباً عن الله تعالى، قال عز وجل: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} ^{٤٩}، وليعلم الإنسان أنه مسؤول عن لسانه طالما يملك نعمة العقل السليم، فسيُسال الإنسان عما نطق به يوم القيامة، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} ^{٥٠}.

ولكن كيف نصل إلى تحقيق الغاية من نعمتي العقل واللسان؟.

لابد أن نوجه تفكيرنا أولاً فيما حولنا من أمور وأحداث، فلا نشغله بتوافه الأمور ولا نضيّعه فيما لا يفيد، بل نتدبر في خلق الله وأن نحرض على تقديم كل ما فيه معرفة وفائدة له، فبالعلم الصحيح والثقافة السليمة يتجدد نشاط العقل ويقوى أمام أي نوع من أنواع التخلف في التفكير أو

^{٤٩} الأنفال ٢٢.

^{٥٠} ق ١٦ . ١٨.

الجهل في أمور ديننا ودينانا، ونحن نلاحظ أن كثيراً من المفاصد والمشاكل التي يقع فيها الناس سببها نقص العلم المفيد وعدم توجيه العقل باتجاه الله تعالى، فيمتلئ بالأفكار الخاطئة والآراء الفاسدة التي من شأنها أن تصل بالمجتمع ككل إلى أشد أنواع الركود والسلبية، فإذا وصلنا بالعقل إلى درجة رفيعة من العلم المفيد المدعوم بالإيمان الصادق القوي كان اللسان أداة فعّالة للإصلاح والخير، فلا ينطق إلا بعد تفكير ولا يتهور بل يتأنى فيما يخرج منه.

٢- اللجوء لله والتوكل عليه عن اللجوء لغيره:

الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان للإنسان، فبالرغم من قصر الرحلة ما بين الحياة والموت إلا أن الإنسان يلاقي فيها الكثير من الابتلاءات والهموم التي تجعله يلتجأ إلى القوي العزيز فيحتمي به، فالشعور بالأمان مقصد وغاية كل إنسان في طبيعة خلقه وحاجة ضرورية فطرنا الخالق عليها، لذلك إذا واجهتنا المشاكل والصعاب قل هذا الأمان وحل محله الخوف الذي يقود الإنسان إلى الله عز وجل كي يجد الأمان الذي كان، والله تعالى هو الملجأ الوحيد الذي يجب أن يتجه إليه الإنسان في كل وقت فكيف بأوقات المصائب والشدائد!.

ويختلف الناس في طاقة تحملهم وفي صبرهم على البلاء كل حسب درجة إيمانه بالله وبقيته بقوته وإحساسه بإحاطة الخالق به برحمته وحبه، فكلما زادت درجة الإيمان صعدت الروح المعنوية للإنسان عند نزول الشدائد، قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} ^{٥١}، فتلك الطمأنينة التي تسكن روح المؤمن الصادق هي نتاج رضا المولى عليه وحبه له، ولا يصل المؤمن إليها إلا بلجوء الإنسان واعتماده في أموره على الواحد الأحد، فينأى بذلك عن اللجوء لغير الله من أولياء أو طرق أبواب المنجمين والعرفانين ويترك أمره بين أيديهم متوكلاً على قدرتهم ومعتمداً على حلولهم الواهية.

^{٥١} البقرة ١٥٦، ١٥٧.

فخليفة الله بالإضافة هو من يلجأ إلى الله أولاً وأخيراً في السراء والضراء، فتجده لا يدعو ولا يناجي سوى ربه، لأنه لا يرجو الأمل إلا فيه، قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} ^{٥٢}، فالخليفة بالإضافة يقدم اللجوء إلى الله في كل أمره فيتوكل عليه ومن شأن هذا التوكل غرس شجرة الصبر في نفس الخليفة فيرويهما بثقته بالله سبحانه وتعالى، فنُتِبَت أَمْلاً متجدداً لا يعرف اليأس فيه ولا الخوف، فمن كان الله في قلبه كانت الطمأنينة مسكنه، ولا يأتي حب اللجوء إلى الله والتوكل عليه إلا عندما تقترب من الله بالذكر والخشوع والطاعة: قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} ^{٥٣}.

فمن فضل تقديم اللجوء إلى الله تعالى عدم العبودية لغيره عز وجل، لأن من شأن اللجوء لغيره أن يجعل الإنسان عبداً لرغبات ذلك المسيطر بحجة القدرة والسلطة الفائقين في نظر ذلك الإنسان البسيط، فتجعل حاجته وخوفه من شدة أصابته أو مصيبة حلت به أسيراً لذلك الشخص لثقته أن بيده حل أزمته والخروج منها، ومن ذلك تقديم بعض الناس اللجوء للوسطاء وكأن أبواب الالتجاء إليه مغلقة، وهذا ضعف إيمان حفظنا وإياكم الله منه، لذا فالخليفة هو الذي يوحد واحد أحداً لا شريك له، له الملك وبيده الأمر وهو على كل شيء قدير، لذلك نجد البعض من يتولاهم الوهم ووسوسة الشيطان يلتجئون إلى ما دون الله، بممارسة السحر والشعوذة عند محترفي هذه الأعمال، فتأخر بعض الأزواج بالإنجاب أو تأخر بعض الشباب بالزواج، أو إصابة العديد من الأشخاص ببعض الأمراض النفسية، فبدلاً من التوكل واللجوء إلى الله تعالى من قبل هؤلاء الأشخاص، يقدمون اللجوء إلى تلك الفئة من الناس بدون أن يكون لهم قدرة على منفعتهم أو ضرهم، لذلك كان لزاماً أن يكون العلم متقدماً في حياتنا على الجهل، لأنه بوجود جهلنا

^{٥٢} السجدة ١٥، ١٦.

^{٥٣} الرعد ٢٨.

بالمعتقدات ستسود الظلمات جوانب حياتنا وتؤدي بنا إلى الخسارة الكبيرة، بعكس ازدهار العلم في حياتنا الذي من شأنه أن يقوي ثقتنا بالله ويقدم حبا وطاعتنا له عز وجل عن كل ما سواه. إذن بالتوكل على الله تعالى واللجوء إليه تتطلق الروح بكامل حريتها ترجو الرحمن الرحيم لقضاء حاجتها وهي تعرف أنه القادر، فتسعى لرضاه وطاعته ومحبته، بذلك ينتفي كل أنواع الخوف والاستعباد البشري لبعضهم البعض، فإذا خسر الإنسان مثلاً مكان عمله وهو على حق فلن يستجدي ولن يذل نفسه لأي إنسان لأنه على يقين أن الله هو الرزاق الكريم، وإذا فقد الإنسان أحد أبنائه لم يأخذه اليأس والحزن بل احتسبه عند خالقه ومالكه، بذلك تنمو في نفس المؤمن التقي قوة تنبع من الثقة بالله وقدرته ورحمته سبحانه وتعالى فتشد أزره في ساعات الشقاء والهم، وتمنحه التواضع والرحمة في ساعات الرخاء والعطاء.

وخليفة الله تعالى هو من يدعم صبره بالتوكل على الله وحده وعدم اللجوء إلى سواه، قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، فالصبر على ما يصيبنا ويحل بنا منبعه الإيمان القوي الذي يسكن القلب الخاشع، الذي لا يعرف طريقاً للفوز والنجاح بعيداً عن حب الله، فيقدم حبه عز وجل عن حب ما عداه فلا يدعو غيره ولا يلتجأ لسواه لثقة هذا الخليفة بأن الله يستمع شكواه، فالله تعالى متقدم بالسمع عن الدعاء، قال سبحانه وتعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}،^{٥٤} إذ أنه يسمع النجوى وما في القلوب من غير أن تنطق الألسن بها، وكيف لا يسمع وهو السميع العليم وهو أيضاً عليم بما تخفيه الصدور التي خلقها.

ويشترط في قبول هذه الدعوة الصدق في اللجوء لله، فلا يدعو الإنسان ربه بلسانه دون قلبه، بل يجب أن يكون قلبه متضرعاً لله قبل لسانه، فالخالق لهما يعلم ما تتطوي عليه جوارحنا ومشاعرنا، فهو المهيم على كل ذاتنا وحواسنا، فلا نستطيع إخفاء ما بداخلنا عليه سبحانه وتعالى.

^{٥٤} البقرة ١٨٦.

٣- إقبال القلب على الخيرات عن إدباره:

القلب جزء من الإنسان يشعر به بمن حوله، وأحياناً يكون في إقباله على أمرٍ ما خيراً له، وفي بعض الأحيان يكون إقباله شراً له، ومن الصفات التي تحيي القلب وتدفي ثنياه الرحمة والحب والعطاء والطمأنينة، ولكن كيف نعود القلب على تشرب هذه الصفات؟.

لا سبيل لذلك إلا بطلب حب الله الذي إذا سكن قلب الإنسان هجرته القسوة والعناد، وحلت محلها الرحمة والمودة، بذلك يتحول هذا القلب إلى صوت ينادي بالحق ويدعو إلى الخير وينبض بالمحبة، لأن الله تعالى هو الرحيم وهو الودود وهو المقدم والمؤخر، وبالتالي لا بد أن يتصف من طلب حب الله تعالى وتقرّب تلك الرحمة والود فيقدم الخير عن الشر والحب عن الكراهية والرحمة عن القسوة، لأن الله تعالى مقدم لرحمته عن عقابه، فقد قدم إرسال الرسل والأنبياء رحمة وهداية للبشر قبل أن يأخذهم عقابه وعذابه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^{٥٥}.

فإذا تشبّع القلب البشري بهذه الصفات النبيلة كان له أن يعي ويبصر دروب الهداية والخير، التي قدمها الخالق لنا دون انتظار مقابل، فلا يلهو عن طاعة بمعصية، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^{٥٦}، ولا تأخذه دنياه عن آخرته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^{٥٧} ولا يفتح أبوابه للنفاق والرياء بل يشرعها للصدق والحق، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^{٥٨}.

^{٥٥} الأنبياء ١٠٧.

^{٥٦} الفرقان ٧٢ . ٧٤.

^{٥٧} البقرة ٨٦.

^{٥٨} الأحزاب ٢٤.

إن فلننعمش قلوبنا بنور الرحمة والحب والتسامح، فنكون من المتقدمين في طاعة الله والسعي لنيل رضاه عز وجل، فلا نتشاجر على أمور مادية زائلة ولا نتناحر على دنيا فانية مصيرها للزوال، فيقبل القلب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى الإصلاح والدعوة لحب الإنسان فهو مخلوق كرمه وقدمه الله تعالى على كل المخلوقات، فلا نبخل على بعضنا البعض بالإففاق وبالكلمة الطيبة لأن ذلك جزاؤه عند الله عظيم، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^{٥٩}، ولا نبخل كذلك بعلمٍ نوخر بنشره أفكاراً فاسدة وغير صحيحة، فالعلم إذا تقدّم وانتشر بين البشر بكافة الأعمار والرتب والجنسيات والديانات كان مقدماً للتفاهم والحوار فيما بينهم، مما يدعوهم لحب بعضهم البعض وبذلك الحب يتقدمون لإصلاح الأرض وإعمارها.

فالله المقدم جل جلاله هو الذي لم يسبق بسابق، ولا بسابقة، وبهذا فهو لا يدخل مجالا للمقارنة حيث انعدام الشبيه والمثيل. ولأنه المقدم فهو الذي يعطي دون أن يأخذ وهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء دون سابق طلب، فهو علام الغيوب جل جلاله.

ولأنه علام الغيوب فعلمه مقدّم على بلوغ العباد بما سيأتيهم به قبل إتيانه إليهم، وهو الذي يعلم ما سيكون في الأرحام قبل أن يكون فيها، ولأنه المقدم فهو على كل شيء وكيل، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ

^{٥٩} البقرة ٢٦١ . ٢٦٤.

وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^{٦٠}.

٤- حب الآخرة عن حب الدنيا:

خلق الله تعالى الإنسان وخلق معه شهوات عدة قد يستطيع الإنسان أن يكبح جماحها فيغلبها ويسيطر عليها، وقد لا يستطيع فتسيطر هي عليه، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}^{٦١}، وهنا يأتي اختلاف البشر في اختيار أي أنواع الحب الذي يأخذها من الآخر إذ أنه لا يمكن أن يجتمع كل منهما في قلب واحد، ويكون البشر فريقين متباينين:

الفريق الأول من قدّم حب الآخرة عن حب الدنيا:

من علامات فوز الإنسان ونجاحه في الدنيا عدم اللهث وراء ملذاتها، وهذا الفريق من الناس هم من صدقوا في حب الله، فرغبوا بالقرب منه ولقائه، فكانت الدنيا بالنسبة إليهم آخر مطلبهم وهمهم، وليس المقصود هنا أن لا يحب الإنسان الحياة وأن لا يشعر بها بل المقصود هو تقديم طلب الآخرة عن طلب الدنيا، بل أن تكون الدنيا سبيل الوصول إلى رضا المولى عز وجل، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}^{٦٢}.

ومن ضمن هذا الفريق أولئك الذين نراهم يبيعون الدنيا من أجل لقاء الله تعالى وحبه، فيقدمون حياتهم وأرواحهم في سبيله، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ

^{٦٠} الأنعام ١٠٢ - ١٠٥.

^{٦١} آل عمران ١٤، ١٥.

^{٦٢} يونس ٦٢ - ٦٤.

عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَقَضَلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} ^{٦٣}، في الآية الكريمة السابقة نجد نوعين من التقديم للآخر وهما:

الأول: هو الخالق عز وجل قدّم لمن طلب حبه ورضاه وبذل روحه في سبيله الجنة، التي سوف يحيى فيها هؤلاء الشهداء خالدين فيها، مقدّما لهم الرزق والبشرى والسعادة الأبدية، فقدّمهم على كثير من المؤمنين بهذه الدرجة من الرضا والحب.

والله سابقٌ بتقديمه الجنة للشهداء فتقدم عنهم بالعطاء الأكبر والأبقى، لأن الدنيا التي ضحى بها الشهداء فهي فانية، أما جنة الخلد فهي الباقية الأزلية، قال تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ^{٦٤}.

الثاني: هم أولئك الذين قدّموا حب المولى عز وجل عن حب الدنيا وما فيها، فقدّموا بذلك أرواحهم في سبيل إعلاء كلمته، فاستحبوا الشهادة عن حب الحياة.

الفريق الثاني من قدّم حب الدنيا عن حب الآخرة:

حب الدنيا قد يسيطر على الإنسان فيأخذه بعيداً عن الحق، وعندها تعمى بصيرته وتُصم أذنيه عن جميع الحقائق والثوابت والأدلة على زوال هذا الحب، قال تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ^{٦٥}، وقال أيضاً جل جلاله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} ^{٦٦}.

^{٦٣} آل عمران ١٦٩ . ١٧١.

^{٦٤} الشورى ٣٦.

^{٦٥} الشورى ٣٦.

^{٦٦} النحل ١٠٧ . ١٠٩.

ومن صفات هذا الفريق انشغاله الدائم بالدنيا وما فيها، فتراه شاردًا عن ذكر الله لاهياً عن طاعته، لا يجد لنفسه وقتاً يجلس معها فيحاورها حتى تتقي، إما الخليفة فهو المتقي الذي يقدم أفعال الخير والمحبة على كل الأفعال، بل يلغي من ذاكرته كل ما ليس في مرضاة الله تعالى، فيصل إلى عقد صلحٍ مع نفسه التي لن ترضى بديلاً عن حب الخالق لها، وبهذا لا يكون من المنغمسين في المفساد، حتى لا يخرج بذلك من دائرة المستخلفين في الأرض المتقدمين في الدنيا والآخرة.

ولذا فعلى خليفة الله أن يكون من المتقدمين في طلب الآخرة عن طلب الدنيا، فلا يسعى لطلب الدنيا على حساب آخرته، ولا يُخسر رصيده عند ربه ليربح رصيده بين البشر، وعليه أن يكون على علمٍ بأن الدنيا مقدّمة له أصلاً من الخالق جل جلاله، ونصيبه منها مقدّر ومقدّم عن وجوده فيها، فلا يحزنه ما فاته منها، بل عليه أن يكون محباً لها كهدية من المولى عز وجل إليه فيرعى مصالحها في نفسه ويصلح حسب قدراته ما يفسد فيها ويطلب آخرته بها.

٥- حب الله عن سواه:

هناك الكثير ممن نخصهم في هذه الدنيا بمحبة مميزة، ولكل منهم درجة معينة يصل إليها، وهنا يتقدم البشر عن بعضهم البعض في مشاعر الحب ودرجاته وفي اختيار أحبائهم، فالإنسان قد يقدم حب نفسه فوق كل حب فلا يؤثر أحد عليها، ينظر طلباتها أولاً، ويستجيب لأوامرها ورغباتها، ومنهم من يحب ماله حباً يفوق حبه لأقرب الناس إليه، فيجعل منه كائناً ينبض بالحياة، يخشى عليه النقصان ويفرحه الزيادة فيه فتبتهج نفسه، قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} ^{٦٧}، فيتقدم حب المال في نفسه عن كل شيء، حتى أنه يتقدم عن رغبته في رضا الله تعالى واتباع أوامره، قال تعالى: {فَانْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ تَقْرِيضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُمْضَاهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ

حَلِيمٍ} ^{٦٨}، فيقدّم حبه للمال الذي قدّمه الخالق له عن تقوى قلبه التي بها يفوز وينال الجنة، فلا ينفق ولا يتصدق مقدّمًا خوفه على ماله عن خوفه من سخط وعقاب الله تعالى عليه، فالشح مرضٌ فتاك يقضي على صاحبه في الدنيا والآخرة، ومنهم من يحب شهواته وغرائزه التي خلقها الله فينا طالباً الاعتدال فيها، فيقدّم إرضائها عن ما سواها، بأن يصبح عبداً لها لا يحركها هو بل هي التي تتحكم فيه، قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا} ^{٦٩}، فلا تجتمع طاعة الله تعالى مع حب الشهوات فلا بد أن يتقدم حب أحدهما عن الآخر، فمن يكن عبداً لشهواته ونزواته لن يستطيع أن يكون ملتزماً بأوامر الله وفي مقدمتها التوازن والاعتدال في هذا النوع من الحب، ومن الناس من يقدّم حب الله تعالى عن كل ما عداه من أنواع الحب، فيقدّمه عن حب الوالدين والزوجة والأبناء والمال والشهوات وكل ما في الدنيا، فيكون مقدّمًا للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، لأن حب الخالق عز وجل هو الحب الباقي بفناء الدنيا، فقد استحقوا ما عند الله من خير بصدقهم له، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} ^{٧٠}.

٦- مصاعب الأمور عن توافها:

من شأن مصاعب الأمور أن تعود النفس البشرية على تحمل المشاق والمعاناة، فلا تضعف عند حلول أزمة أو مشكلة، فتعود على الصبر والثبات، بذلك تغرس مصاعب الأمور في النفس الشهامة والنبيل، ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة، إذ أنه يعرض لمحن شداد ومصاعب جمة لكنه كان نبيلاً بطبعه ودوداً، ينأى بنفسه عن رذائل الأمور، لا يتوانى عن تقديم العون والمساعدة لمن يطلبهما، وكذلك كانوا صحابة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام،

^{٦٨} التغابن ١٦، ١٧.

^{٦٩} مريم ٥٩.

^{٧٠} الأحزاب ٢٣، ٢٤.

نفوسهم لا تستسيغ السهل، وأرواحهم تُلين الصعب بحبها لله تعالى، فلا تشدهم توافه الأمور ولا تستهويهم إلا مصاعب الأمور التي من شأنها أن تقوي نفوسهم وتجعلها تعتاد التحمل والثبات، فلا يهتزوا إذا حلت مصيبة ما بهم، أو إذا ألم بهم حزن وهم، بذلك كانوا عنواناً للشهامة والمروءة، ذلك أنهم قدّموا ثقتهم بالله تعالى على كل شيء، ومن تعود على مصاعب الأمور هانت عليه أمور الدنيا كلها كبيرها قبل صغيرها.

وعلى خليفة الله أن يكون قوي النفس نبيل الطباع، لا يستسلم لأهون الأسباب، فيكون حبه لله درعاً يقي نفسه به الهوان والاستسلام والضعف، وأن يعود نفسه على ركوب الصعاب فلا يرضى بالبسيط.

٧- علو الهمة عن إحباطها:

لا يصل الإنسان إلى أي مرتبة علمية أو عملية إلا بعلو الهمة، فلا يمكن أن يواصل أي إنسان طريقه بوجود الصعاب والمشاق إذا كان محبط يائس، لأن من شأن الهمة المحبطة أن تُفشل أي عمل أو تقتل أي أمل من شأنه رفع قيمة نظرته للحياة وهدفه منها.

ولم يكن للإسلام أن ينتشر أو يعم الأرض إلا بأصحاب الهمم العالية، فكم من معركة خاضها المسلمون قديماً وهم الأقل عدّة وعتاداً فضلاً عن ذلك كان الرجل منهم بمائة رجل من الكافرين، بفضل الهمم العالية التي يملكونها بإيمانهم القوي، قال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ

نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} ^{٧١}، فلا يجب أن يستكين الإنسان لأي هم أو مشكلة كي لا يصاب بالهزيمة، والهزيمة نوعان:

هزيمة مادية: وهي الخسارة التي تصيب كل ما هو مادي من أموال وأموال عديدة.

هزيمة معنوية: وهي أشد من الهزيمة المادية، لأنه من الممكن تعويض ما هو مادي، أما الهزيمة المعنوية فهي التي تصيب النفس فتدميها وتكسر فيها العنقوان وحب الوصول والأمل في الرقي والفوز، ولا يطلب الإنسان مطلباً ولا يسعى لأمرٍ إلا ويكون الاعتماد فيه على الله تعالى، لأن في اعتماد الإنسان على الخالق تثبيت للقلب وتسكين للروح وشدٌ للهمة، فلا تتزعزع ولا تنهزم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ^{٧٢}.

وعلى خليفة الله تعالى أن يكون من أوائل المتسابقين لرضا الله تعالى، فلا يرضى أن يكون متأخراً عن صفوف المتقدمين، فبهمة العالية يهون كل المصاعب، فلا يرضى إلا بمعالي الأمور ولا يسعى إلا للقيمة حيث التآلق والتميز.

فمثلاً لا يوجد عالمٌ في الدنيا أتى إليه العلم ساعياً باحثاً عنه، بل إنه لم يصل إلى ما وصل إليه من درجة عالية من العلم إلا بفضل الهمة العالية التي تحته على المضي والتحمل وتذليل الصعاب، فكم من طالب علمٍ لا يكمل طريقه بسبب همته المحبطة بسبب فشله ذات مرة أو بسبب فقدان الدافع للمواصلة في طريق العلم والمعرفة.

وللتقديم عدة أنواع منها:

أولاً: تقديم العطاء:

وفي هذا النوع من التقديم نجد أن المقدم المطلق يقدم للناس كافة أنواع العطاء والرزق، سواء للمؤمن منهم وللكافر العاصي، وهذا العطاء من باب رحمة المقدم المطلق بالعباد، قال تعالى: {وَلَوْ يُوَٰخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ

^{٧١} البقرة ٢٤٩ . ٢٥٢ .

^{٧٢} الأنفال ٤٥ .

أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون^{٧٣}، وهذا التأخير في العقاب هو أيضاً عطاء مقدّم من الله عز وجل للعباد، فعن طريقه تكون الفرص سانحة للتوبة والندم على التقصير في حق الله تعالى، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ^{٧٤}، وقوله تعالى أيضاً: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ^{٧٥}.

وهذا العطاء لا يكون الناس فيه سواء فمنهم من يقدمهم الله في العطاء فيكون نصيبهم أكبر من نصيب الآخرين، فيكون هذا التفاوت بين الناس من ناحية الفقر والغنى والصحة والمرض وغيرها، من أجل أن يتراحم الناس فيما بينهم ويتعاونون، فيتصدق الغني على الفقير ويساعد القوي الضعيف فلا يعتدي عليه ولا يظلمه، وتكون القوة البشرية مسخرة لإحقاق الحق على الأرض كما أراد الخالق لنا.

بذلك يكون المقدّم قدّم لعباده باباً آخرًا لكسب الحسنات ووضعها في ميزانهم يوم الحساب، وهذا كله عطاء في عطاء وتقديم في تقديم، فما من حرمان أو منع من الخالق على المؤمن إلا وله بعداً آخرًا يكون فيه الخير له، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ^{٧٦}.

ومن باب التقديم في العطاء أن يرزق الله الإنسان من حيث لا يحتسب، ودون بذل الكثير من الجهد والعناء، وفي قصة مريم عليها السلام أكبر دليل على ذلك، فقد كان زكريا عليه السلام عندما يدخل المحراب وجد عندها رزقاً دون أن تكلف نفسها عناء البحث عنه، قال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

^{٧٣} النحل ٦١.

^{٧٤} المائدة ٣٩.

^{٧٥} التوبة ٢٧.

^{٧٦} صحيح مسلم ج ١٤، ص ٢٨٠.

حِسَابٍ}٧٧، وكذلك عندما جاءها المخاض رزقها المغني المقدم من التمر عوناً لها ورزقاً، قال تعالى: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا}٧٨، فلو أن أقوى الرجال قام بهز نخلة لما سقطت منها ثمرة واحدة إلا إذا شاء العليم القدير القوي.

ثانياً: تقديم ترتيب:

قدم الله تعالى عن الإنس الجن والملائكة في الخلق، فهم سابقون عليه وهذا يتضح من حوار الخالق مع الملائكة والجن عندما أمرهم بالسجود لآدم.

ثالثاً: تقديم تفضيل:

وهو ما كان من تفضيل الله تعالى لآدم على غيره من الخلائق بأن خلقه بيديه وبما زوّده من القدرة على التفكير والتأمل والتعلم عن طريق العقل الذي ميّزه الله به، وما كان أيضاً من تفضيله عز وجل للأنبياء والرسل والصالحين والصدّيقين والشهداء بأن جعلهم في أعلى المراتب متقدمين بذلك على بقية المؤمنين، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}٧٩، وقوله تعالى أيضاً: {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}٨٠، ومنها تفضيل الله جل جلاله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن جعلهم شهداء بالحق على الناس، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}٨١.

رابعاً: ترتيب حاجة:

٧٧ آل عمران ٣٧.

٧٨ مريم ٢٢ . ٢٥.

٧٩ النساء ٦٩.

٨٠ الحديد ١٩.

٨١ البقرة ١٤٣.

وذلك ما كان من الله تعالى من خلقه للحاجات في نفوس العباد، وقدم عليها مشبعاتها في الخلق حتى يجد الإنسان كل ما يحتاجه للحياة موجوداً أمامه، فيسهل عليه الحصول على حاجاته الضرورية لحياته، مثل تقديمه لخلق الأبوين عن الأبناء لأن الأبناء في حاجة لمن يرعاهم ويكفلهم ويمدهم بالحب والحنان والطعام والملبس وغيرها من الحاجات الضرورية للطفل التي لا يمكنه الحصول عليها إلا عن طريق أبوين يقدمانها له.

وسبحان الله جل جلاله ما أكرمه وما أرحمه بعباده فهو الذي يقدم وجود الحليب في ثدي الأم قبل خروج جنينها إلى هذه الدنيا، فبذلك يكون قد قدم الله تعالى له الغذاء، ومن الذي سيقدمه له، ومن يزوده بالرعاية والحنان قبل أن يخرج حياً للحياة، ونجد في قصة خلق سيدنا عيسى عليه السلام، والذي مثله عند الله كمثل آدم آية، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^{٨٢}، بأن خلقه دون أب، أي قدم حمله دون حاجة للأب، وفي هذا الأمر المعجزة التي لم يكن لها سابقة إلا خلق آدم عليه الصلاة والسلام من تراب بدون أب وأم، وفي هذه القصة تقديم من المقدم المطلق لكافة الناس المعجزات التي تجعلهم يؤمنون بالله عز وجل وقدرته، فبايمانهم بهذه المعجزات يخرجون من دائرة الكفر والعصيان، وهذا من باب رحمة الله تعالى بعباده.

الخوف من مجيء الموت بغتة وأنت على معصية:

على الإنسان أن يكون على استعداد دائم للقاء الخالق عز وجل في أية لحظة، قال سبحانه وتعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ^{٨٣}، وقال تعالى أيضاً: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ

^{٨٢} آل عمران ٥٩.

^{٨٣} الأعراف ١٨٧.

لَا يَشْعُرُونَ^{٨٤}، وبما أن ميعاد الساعة لا يعلمه إلا رب العالمين، لذلك سيأتي مباغثة للناس جميعاً، ولن يعطي أي فرصة لأي إنسان بعد قيام الساعة أن يصلح أو يرجع عما فيه، فمن الناس من تأتيه الساعة وهو على هدى من ربه، ومنه من تباغثه وهو على معصية، هنا يتقدم الناس عن بعضهم البعض في حسن الخاتمة وسوء الخاتمة.

فكل إنسان سيُبْعَثُ على ما مات عليه، وهنا يتقدم الناس عن بعضهم البعض حتى في خاتمته، فمنهم من كانت خاتمته طيبة كأن يأتيه الأجل وهو ساجدٌ قانت لله تعالى، أو وهو في حالة إحرام، أو وهو يتلو آيات الله، أو وهو يعلم الناس علماً نافعاً، أو مستشهداً في سبيل الله تعالى، وهناك من تكون خاتمته سيئة كأن يوافيه الأجل وهو منغمس في المعاصي والذنوب وما أكثرها حفظنا وجميع الخلائف منها.

والله عز وجل قدّم لنا العلم بأن الساعة آتية لا محالة وأنها قد تكون قريبة أو بعيدة منا، فهذا من شأنه أن لا يكون للإنسان حجة على الله بعدم علمه بموعد قيام الساعة، لأن من شأن التأكيد على قيامها والتقديم لها أن يجعل من الإنسان حريصاً على أن يكون مستعداً لها في كل وقت وحين، قال تعالى: {أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}^{٨٥}، قال تعالى أيضاً: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}^{٨٦}، فقد قدّم الله تحذيره للبشر بمجيء يوم القيامة بغتة لذلك فعلى البشر أن يقدموا خوفهم من مفاجأتها عن حبهم للدنيا، فلا يشعروا بالأمان مهما أسعدتهم الدنيا وفتحت أبوابها لهم، فالساعة آتية لتأخذهم من كل ما هم فيه، فالغني والفقير والشقي والسعيد ستلحق بهم يوم القيامة، ولن يبقى مع الإنسان أحداً ممن قدّم حبهم في الدنيا عن حب الله، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ

^{٨٤} الزخرف ٦٦.

^{٨٥} يوسف ١٠٧.

^{٨٦} النحل ٧٧.

وَبَيْنِهِ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا
عَبْرَةٌ تَرَاهُهَا قَنَرَةٌ أَوْ لَيْكٌ هُمْ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ^{٨٧}.

وخليفة الله تعالى من كانت له حسن الخاتمة فلا يلقي الله تعالى إلا في أحسن حال، إذ أنه لا يموت على معصية أو مفسدة، بل يموت على طاعة وحب الله، فما من إنسان تقرب إلى الله وإلا وكان الله تعالى متقدماً له في القرب، وبذلك فلن يرضَ لعباده المتقين إلا حسن الخاتمة، حتى يلاقوه في أحسن صورة.

الخوف من عدم قبول العمل عن الأمان:

الإنسان بصفة عامة يكون الخوف جزءاً من نفسه، ولذا الناس مختلفون في نسبة هذا الخوف في نفوسهم وفي مسبباته، فهناك من يقدم الخوف من رب عمله عن الخوف مما سواه، فتراه حريص على رضاه وتنفيد ما يأمره به حتى لو كان ذلك مخالفاً لضميره، كي يحافظ على البقاء في عمله وكأن رزقه محكوم ومربوط برب عمله فقط، إذا رضي عنه فهو في أمان أما إذا غضب عليه شعر بالخوف يهدد مصيره العملي، وهناك أشكال عديدة لمثل هذا النوع من الخوف، ولكن هناك من يقدم الخوف من الله تعالى عن كل ما عداه من أنواع الخوف الأخرى، فتراه يسرع لرضا الخالق أولاً، فلا يلتفت لغضب هذا أو ذاك إذا كان هو على حق، ومن أكبر أسباب هذا الخوف أن يكون عمله لا يستحق الجزاء الكبير، أو أن يقال أنه محسن وهو ليس كذلك.

فعلى خليفة الله تعالى في الأرض أن يكون ممن يقدمون رضا الله عز وجل قبل أي شيء، وأن يكون في شعور دائم أنه مقصر في حق الخالق عليه، فلا يرضى بعمله ويكتفي به راجياً أن يكون قد وصل إلى مرتبة الأمان لدى المولى عز وجل، فكم من أناس كانوا يعملون في الدنيا ما يعتقدون أنه حسن ولم يكن كذلك، قال تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}^{٨٨}، فيكون عمل الإنسان لا طائل منه.

^{٨٧} عبس ٣٣ . ٤٢ .

^{٨٨} الكهف ١٠٤ .

والله عز وجل يقدم ويؤخر أمور العباد كما يشاء بحكمته وعلمه، قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ^{٨٩}، فقد يقدم الله تعالى أمراً عن أمرٍ آخر للإنسان، فتراه متذمراً غير راضٍ بما جاءه من الأمر ويكون على يقين أن في هذا التقديم والتأخير شرٌّ له، وفي الحقيقة يكون في ذلك الخير كله ولكن لقصر قدرة الإنسان على الفهم والوعي والإدراك لتوابع الأمور فإنه لن يصل إلى حقيقة الخير الذي يريده الله به، فبدل أن يقدم هذا الإنسان الشكر عن التذمر نجده دائم التآفف والضيق مما فيه، ومن أمثلة ذلك عندما يكون للأب عدد من الفتيات يتفاوتن في أعمارهن ويقدم الله نصيب أصغرهن في الزواج عن أكبرهن، فنلاحظ إصابة الوالدين بالإحباط لهذا التقديم بين بناتهم ولو أنهما أدركا أن لله حكمة وخير في هذا التقديم لكانا على شكر وحمد لله على ما قدم وأخر.

والله تعالى قدّم البشر بعضهم على بعض في درجات التفضيل ومنهم الأنبياء والرسل، قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَنْتَبْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} ^{٩٠}، فبعض الرسل من كلمه الله وبعضهم من رفعه في المكانة والمنزلة، وقد قدّم الله تعالى بحكمته المطلقة رسولنا الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - عن البشر أجمعين من أنبياء ورسل وصالحين، فقدّمه باصطفائه من بين الخلق جميعاً ليكون المصطفى آخر الأنبياء والمرسلين، ويكون الدين الذي جاء به رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام هو الدين الباقي ليوم القيامة، وكذلك قدمه رسولا للجن والإنس جميعاً، وبهذا جاءت رسالته جامعة وخاتمة، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ

^{٨٩} البقرة .٢١٦.

^{٩٠} البقرة .٢٥٣.

اتَّبَعْنَ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ^{٩١}، قال تعالى أيضاً: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}^{٩٢}، وقال تعالى أيضاً: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا}^{٩٣}، فتقدّم الدين الإسلامي عن باقي الأديان السابقة له بالتالي:

أولاً: أنه كان خاتمة الأديان السماوية، فتقدّم بهذا الشرف الكبير عن باقي الأديان الأخرى، فلا دين بعده يُقبل من الإنسان، وبتقدّمه هذا يتقدّم أتباعه المخلصين درجات عند ربهم.

ثانياً: هذا الدين باقٍ ليوم الدين، لأنه هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى للبشر، فلا يُقبل ممن جاء بعده دينٌ سواه.

ثالثاً: ببقائه ليوم القيامة فقد تقدّم وعد الله تعالى له بالحفظ من التحريف والتغيير، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}^{٩٤}، فالوعد بهذا الحفظ تقديم لهذا الدين عن ما سبقه من أديان سماوية أخرى لم يعد الله بحفظها فحرفها البشر وغيروا ما جاء فيها من تشريعات وأحكام لا تتناسب مع أهوائهم.

رابعاً: جاء الدين الإسلامي ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام للجن والإنس كافة أي لا سابقة في ذلك أبداً، وبهذا فالإسلام ومحمد مقدمين بهذا الأمر الذي يتضمن شيئين اثنين هما:

١. آخر رسالة.

٢. وآخر رسول.

خامساً: تقدّم الدين الإسلامي أيضاً بالتبشير به حتى قبل نزوله في الأديان السابقة له، فقد ذكر الله تعالى مجيء الدين الإسلامي في الكتب السماوية السابقة له تمهيداً لقدمه وتقديمه له.

^{٩١} آل عمران ١٩، ٢٠.

^{٩٢} آل عمران ٨٥.

^{٩٣} المائدة ٣.

^{٩٤} الحجر ٩.

بذلك فقد قدّم الله تعالى أمة محمد عليه الصلاة والسلام عن بقية الأمم، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} ٩٥.

ويتضمن اسم المقدم صفات تخص الخالق عز وجل منها:
المقدم هو العليم:

علم الله تعالى المطلق بجميع الأمور جعلت من الأمور ما هي مقدّمة ومنها ما هي مؤخّرة، ذلك حسب علمه تعالى وحكمته في تسيير أمور هذا الكون، فقد اقتضى علمه خلق الملائكة والجن قبل خلق الإنسان، فبذلك تقدّم خلق الملائكة والجن عن خلق آدم عليه السلام، ولكن علمه المطلق أيضاً اقتضى أن يتقدّم آدم عليه الصلاة والسلام عن الملائكة والجن بحمل أمانة استخلاف الأرض، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} ٩٦، فنلاحظ كما جاء في الآيات الكريمة السابقة أن علم الخالق المطلق قد جعل من الإنسان خليفة متقدماً عن ما عداه من المخلوقات، وقد كان هذا العلم مختصاً به وحده لا يُطلع عليه أحد من خلقه.

إذن فالعليم هو المقدم والمؤخر للأمور حسب حكمته ومشيبته عز وجل، وحسب علمه بخلقهم جميعاً، قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ٩٧، فعلمه يحيط ببواطن الأمور قبل

٩٥ آل عمران ١١٠.

٩٦ البقرة ٣٠ . ٣٣.

٩٧ الملك ١٤.

ظواهرها، فيدرك ما هو خير وما هو شر مهما كانت هذه الأمور خافية، فكيف يخفى عليه شيء وهو الذي لا يعجزه أي شيء في الأرض أو في السماء، قال تعالى: {عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} ^{٩٨}، ومن علمه المستقبلي المطلق جاءت حكمة التقديم والتأخير لأمر العباد، فيضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، فإنه لا يقدم العطاء عن المنع، ولا يضع الثواب مكان العقاب، ولا يقدم الذل عن العز في موضع يحتاج للعز.

وخليفة الله بالإضافة عليه أن لا يقدم أمراً أو يؤخر آخراً إلا عن علمٍ ودراية، فلا يقدم عمله عن عبادةٍ أو حديثٍ لا طائل منه عن ذكر الخالق عز وجل، وأن يكون مقدماً للخير في نفسه والحب عن كل المشاعر الأخرى، فلا يبدأ بالعداء ولا يتقدم الخيار السيئ عن الطيب في حل الأمور، وكذلك لا بد لخليفة الله في الأرض أن يكون مقدماً لعلمه عن حاجاته الأخرى فلا يجعل الفرصة تقوته لتحصيل المزيد من العلم النافع ويتركها تذهب سدى، بل عليه أن يكون من المتقدمين في طلبه والسعي بحثاً عن جديده ومفيده، وقد كان صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أشد الناس حرصاً على التسابق لمعرفة أمور دينهم ودنياهم، لعلمهم أنه يتكلم بلسان الله تعالى فلا ينطق إلا بما هو مفيد وحق، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} ^{٩٩}، فكانوا مقدمين لقول الله عند الكلام، سمّاعين للحق ومقدمين له عن الباطل.

وبهذا التقديم الإيجابي يصبح بوسع خليفة الله أن يدرس الموروثات الاجتماعية تحت عناية معيارية، ونسبية فلا يتأثر أو يقع تحت آثار سلبية في التفكير أو الرأي، وبذلك يستطيع أن يصل إلى معيارية ليفصل بها بين الخطأ من هذه الموروثات والصواب، ليتكون لديه كم هائل من العلم الذي يمنحه الثقة بما يحل من حوادث وأمر تتعلق به وبمن حوله.

المقدم هو الرحيم:

^{٩٨} سبأ ٣.

^{٩٩} النجم ٣، ٤.

من رحمة الله تعالى بالعباد أنه قدّم مشبعات الحاجة، فقد خلق الله تعالى الإنسان ولكن قدّم عن خلقه وجود كل احتياجاته سواء كانت مادية أو معنوية، فمثلاً أوجد كل احتياجات الإنسان من هواء وماء وطعام لإشباع حاجاته المادية من مأكّل ومشرب، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ١٠٠، وقال تعالى أيضاً: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ١٠١، وكذلك قدّم تهيئة حاجاته المعنوية أيضاً من حنان وحب ورعاية بخلق المجتمع وما يحويه من أهل وأصدقاء وأحباب، فيخرج الوليد إلى الدنيا وهو محاط بما يطلبه ويحتاجه.

الحمد لله على رحمته التي خلق الناس بها وغفر لهم بها وقدّم الخير لهم والهدى بها، قال تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} ١٠٢، فقد قدّم الله فواتح الخير والهدى للبشر وذلك بأنه:

أ- قدّم رحمته عن عقابه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} ١٠٣.

١٠٠ الأنعام .٩٩.

١٠١ النحل .١٠ .١٤.

١٠٢ فصلت .٢ .٤.

١٠٣ الأحزاب .٤١ .٤٣.

ب- قَدَم البرهان والحجة عن الجزاء العادل:

لم يكن الله تعالى يأخذ أحداً من عباده بالعذاب أو الجزاء إلا بعد أن يفصل له ويوضح عاقبة الأمور، فإقامة الحجة والدليل هو الرد على كل جاحد وكافر بالله تعالى، قال تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ^{١٠٤}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} ^{١٠٥}.

ج- قَدَم النصيحة قبل العقاب:

من رحمة الله تعالى أن العقاب الأخروي استند إلى تقديم سابق، تمثل بالعبر والنصح والرسول، فلم يكتب الله العقاب على عباده العاصين إلا بعد أن قَدَم إليهم البراهين بشكل تحذير ونصح، وقَدَم المعجزات لعلهم عن كفرهم يرجعون، قال تعالى: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ^{١٠٦}، وقال تعالى: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} ^{١٠٧}، فما من عقل بشري إلا وله القدرة على أن يستشعر هذا النصح وهذه الرحمة في النصح.

د- قَدَم العطاء قبل الحرمان:

تقدم الله تعالى للبشر بالعطايا والنعم المتعددة، قبل أن يكون مانعاً لنعمة ما فهو المعطي لغيرها، فالإنسان إذا حرمه الله من نعمة واحدة فإنه قد قَدَم له نعماً أخرى لا تحصى ولا تعد، فالمرء إذا كان فقيراً فهو محروم من نعمة المال، لأن المال نعمة من ضمن النعم التي تقدم بها الرزاق على العباد بالتفاوت، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

^{١٠٤} النساء ١٦٤، ١٦٥.

^{١٠٥} النساء ١٧٤.

^{١٠٦} آل عمران ١٠١.

^{١٠٧} إبراهيم ٥٢.

مُنِيرٍ} ^{١٠٨}، وقال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{١٠٩}، فمنهم من كان غنياً ومنهم من كان فقيراً ومنهم من كان متوسط الحال، وذلك التفاوت لعلم الله المطلق بعباده، فالفقير محروم من نعمة المال ولكن الله تقدّم إليه بنعمٍ أخرى كثيرة، فوجوده في الدنيا نعمة، وهذه الصحة التي يتمتع بها هي أيضاً مقدمة من الله تعالى له، والصبر على فقره نعمة، وبصره وعقله وغيرها من النعم التي لا يمكن حصرها، قدّمها الله تعالى إليه قبل أن يحرمه نعمة المال، ويكون في هذا الحرمان نعمة من الله إذ يختبر صبره ويبتليه ليعطي ويجزي له العطايا يوم يقوم الحساب، ففي الحرمان من نعمة ما اختبار وابتلاء للإنسان على تحمّل ذلك.

وخليفة الله هو من كان ينظر إلى عطاء الله قبل حرمانه، فيشكره ويحمده على ما تقدّم به عليه، فلا ينسى ولا يتذمر من منع الخالق له أو حرمه من نعمة واحدة فقط، بالتالي لا بد له أن يتصف بهذه الصفة أي أن يكون معطياً قبل أن يكون مانعاً على حسب قدرته الجسدية والعقلية، فيقدّم الحب والخير والعون والنصح والعلم قبل أن يحرّم، فمثلاً بحبه للإنفاق فإنه يقدّم في نفسه أولاً حب العطاء عن حب الشح والمنع، ويقدم في نفس الوقت حب العون والمساعدة للفقراء كما أراد الله تعالى قبل حبه للمال، ويقدم حبه لله ولطاعته عن حبه للمال والغنى في الدنيا، قال تعالى: {إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلْمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ^{١١٠}،

^{١٠٨} لقمان ٢٠.

^{١٠٩} النحل ١٨.

^{١١٠} البقرة ٢٧١ - ٢٧٤.

والله تعالى قد تقدّم بالعتاء لإنسان ما ومنع غيره ليكون لهذا المحروم حق في مال من أُعطي له، قال تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} ^{١١١}، فهذا الحق قد تقدّم به الله تعالى على البشر بعتائه لكي يتقدموا به لله طمعاً بنيل الثواب والحسنات التي تكون من نصيب المنفقين، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ^{١١٢}.

هـ- قدّم الخير عن الشر:

الخير والشر مخلوقان مع الإنسان أسكنهما الله النفس البشرية منذ بداية الخلق، فمنهم من تقدّم الخير في نفسه عن الشر ومنهم من تقدّم الشر فيها، دون إجبار من المولى عز وجل الذي ترك للعقل البشري باب الاختيار مفتوحاً أمامه، فيسعى الإنسان إلى اختياره في الدنيا إلى أحدهما، ومع أن الله قد خلق حب الشهوات في النفس البشرية إلا أنه تقدّم عنها بخلق العقل والإيمان اللذان يمنعان الإنسان من اللهث ورائها، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أُوِّبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ^{١١٣}، فالشهووات موجودة ولكن تقدّم عليها وجود الكابح لها إذا اختار الإنسان الخير، فكان استعماله لها في الخير، فلا يزنّى ولا يبخل ولا يقع في معصية هو يدرك عاقبتها بما أعطاه الله تعالى من قدرة على التمييز بين الخير والشر، فمن اتبع أوامر الخالق قد نجا ومن اتبع الشيطان فقد هلك، قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا} ^{١١٤}.

^{١١١} الذاريات ١٩.

^{١١٢} البقرة ٢٦١، ٢٦٢.

^{١١٣} آل عمران ١٤، ١٥.

^{١١٤} مريم ٥٩.

المقدم هو المؤخر:

المقدم هو المؤخر سبحانه وتعالى، فقدرته على التأخير تسير على نسق مرتب، فلا يقدم ولا يؤخر إلا بحكمة وتقدير، فالمقدم صفة لله تتعلق بقدرة الخالق ومشيبته وحكمته وكذلك المؤخر، كلاهما صفتان قائمتان بالله تعالى وهو متصف بهما معاً، فقد قدم المقادير حتى قبل أن يخلق الخلق، ووضع الموازين التي يسير عليها الكون، فلا يستطيع أحد أن يؤخر ما قدمه الله أو أن يقدم ما آخره، فقد يتأخر ما نتوقع نحن البشر حدوثه في حينه أو أن يسبق وقت توقعه، فأحياناً نتوقع الفرج من الهم ولا يأتي في الوقت المحدد، وأحياناً أخرى يأتي الفرج دون أن نتوقعه.

وقد يقدم الخالق عز وجل بعض الخلق عن بعض في الدرجات، كما رفع وقدم الخلق على باقي ما خلق، قال تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} ^{١١٥}، في حين أنه جعل بعض الخلق في أسفل الدرجات، أمثال أبي جهل وأبي لهب.

فخليفة الله تعالى هو الذي على يقين بأن الله تعالى هو المقدم والمؤخر في الرتبة والخلق، فأرادته عز وجل اقتضت ذلك، وأن يصبر على أمور دنياه، وعليه أن يكون مقدماً لما قدمه الله تعالى، فيقدم أحبائه الله المتقين من العباد عن غيرهم، ويترك أذلاء الله وأعداءه، وأن يخلق هذا الاسم في نفسه عدم الأمان حتى ولو كان كثير الطاعات، وكذلك أن يزيل اليأس حتى مع كثرة المعاصي، قال تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} ^{١١٦}.

المقدم هو القادر:

الله عز وجل القدرة الكاملة والمطلقة على التقديم والتأخير، فالخالق قادر على أن يقدم قيام الساعة أو أن يؤخرها كما يشاء، لأنه هو واضعها بعلمه وحكمته وتقديره، والقادر إذا أراد شيئاً

^{١١٥} الشرح ٤.

^{١١٦} الأعراف ٩٩، ١٠٠.

فيأمره أن يكون فيكن، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} ^{١١٧}، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^{١١٨}، وقدرة الله في التقديم لا تأتي إلا عن علم وحكمة وإرادة، فقدرتة على التقديم تتضح في أمور منها:

أ- قدرته على تقديم الهداية للبشر:

فالله عز وجل قادر على هداية من يشاء من عباده، قال تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ^{١١٩}، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ} ^{١٢٠}، فقدّم الله تعالى الهداية للبشر وترك لهم اختيار سبيل الهداية أو سبيل الضلال، فبالرغم من تقديم القادر على الهداية فإن البشر تقدّموا عن بعضهم البعض في الهداية، قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} ^{١٢١}.

ب- قدّم بقدرته خلق الكون عن خلق الإنسان:

فقد خلق الله تعالى السماوات والأرض والجبال والهواء والتراب والماء وباقي مكونات الكون قبل أن يخلق الإنسان، ليقدم للإنسان ما يحتاجه منها، قال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ

^{١١٧} الأنعام ٧٣.

^{١١٨} النحل ٤٠.

^{١١٩} الأنعام ٨٨.

^{١٢٠} الحج ١٦.

^{١٢١} البقرة ٢٥٣.

تَعْلَمُونَ} ^{١٢٢}، وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْيَوْمَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} ^{١٢٣}.

المقدم هو القريب:

الله عز وجل قريبٌ من عباده دائماً، لا يغفل عنهم ولا تأخذه سنة ولا نوم، يقدم ويؤخر ما يشاء من أمرهم كما تقتضي حكمته وإرادته، والخالق لا يقدم إلا ما فيه خير الناس أجمعين، فيستشعر العبد الصادق في هذا التقديم قرب الخالق عز وجل منه وذلك بالآتي:

الله قريب بتقديم وده للعباد:

هذا الود الذي يتقدم به لعباده إذا صدقوا عهده وودده، فيتقدم حب الله لهم ووده، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} ^{١٢٤}.

الله قريب بتقديم إجابة دعوته:

قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} ^{١٢٥}.

الله قريب بتقديم هدايته للعباد:

إن الله يهدي من أراد أن يهتدي، قال تعالى: {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} ^{١٢٦}.

^{١٢٢} البقرة ٢٢.

^{١٢٣} إبراهيم ٣٢، ٣٣.

^{١٢٤} المائدة ٥٤.

^{١٢٥} البقرة ١٨٦.

^{١٢٦} سبأ ٥٠.

فعلى خليفة الله بالإضافة أن يكون قريباً من الله، حريصاً على قصر المسافة بينه وبين خالقه، وأن يكون متقدماً في السير نحو جنته ونعيمه، ومن كان قريباً من الله سبحانه وتعالى كان الله قريباً منه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"^{١٢٧}.

ولا يمكن القرب من الخالق دون الآتي:

أ- تقديم ذكر الله عن أي شيء آخر:

الإكثار من ذكر الله من أقوى الوسائل للقرب من الله، قال تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}^{١٢٨}، فلا أروع ولا أظهر من روح باتت تذكر الله سراً وعلناً، قولاً وفعلاً، ولا أقرب من الله من إنسان دائم الذكر له، رطباً باسمه، فيستشعر الخليفة قربه من الخالق بحبه ووده له.

ولقد قدّم الله الذاكرون له والحافظون لحبه وطاعته وحدوده عن غيرهم من الناس، وبذلك بتقديم جنان الخلد لهم، قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}^{١٢٩}، وقال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ

^{١٢٧} صحيح البخاري ج ٢٢، ص ٤٠٩.

^{١٢٨} آل عمران ١٩١ . ١٩٤.

^{١٢٩} النساء ١٣.

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ {١٣٠}، فاستحقوا هذا التقديم من الخالق بما عملوه وقدموه في حياتهم الدنيا، فأين منهم من نسي ذكر الله وتلهى عنه بما في الحياة الدنيا من شهوات وزينة؟.

وخليفة الله بالإضافة هو من ذكر الله في قلبه قبل لسانه، مستحضراً إياه في كل لحظة، فينأى بذكر الله تعالى عن أية مفسدة أو معصية من الممكن أن يقع فيها من نسي ذكر الله تعالى.

ب- تقديم الطاعات عن ملاهي الدنيا:

لا تكون الطاعة بوجود حب الشهوة والنزوة، فالنفس البشرية قد تقع في لحظة ضعف تحت سيطرة الشيطان الرجيم، وهو لا يأمر الإنسان إلا بالمعصية والرذيلة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {١٣١}، فقد قدم الشيطان وعده بتضليل الإنسان طالما هو في غير طاعة الله، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ} {١٣٢}، فبذلك تقدم المخلصون لله في الطاعة والعبادة بالخروج من سيطرة الشيطان الرجيم عليه.

ج - تقديم الخير والمعروف:

الخير أصل كل المكارم والصلاح، فما من أمرٍ بُني على حب الخير إلا وكان نتيجته الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة، لذلك فالأمر بالمعروف والدعوة للخير من أسباب رقي الأمة، وهما لا يأتیان في أمة إلا بالعلم الصحيح الذي يصل بالإنسان إلى الحق، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا

١٣٠ المائدة ٨٣ . ٨٥ .

١٣١ ١٦٨ ، ١٦٩ .

١٣٢ ص ٧٩ . ٨٣ .

كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^{١٣٣}، هذه هي الأمة التي دعا إليها الله ورسوله الكريم والخير منبعه الرحمة، فإذا تقدّمت الرحمة في قلوب الناس كان الخير رائداً للحياة، فالإحساس ببعضنا البعض خير نقدمه على شكل رحمة ومحبة ومودة، عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى"^{١٣٤}.

وخلفاء الله في الأرض كانوا سابقين لشرف نيل طاعة الله تعالى، متقدمين بحبهم وخضوعهم له عز وجل، لا يتأخرون عن تلبية أوامره، ولا يتقدمون إلا في الخير والصلاح، وهم المتصفون بصفات الله تعالى التي منها تقديمهم لما يجب أن يكون مقدّماً وتأخيرهم لما هو واجب تأخيره، هذه هي المعادلة الطبيعية التي تصل إلى طريق النجاح والفوز.

فصحة الإنسان من جهله إذا جاءت متأخرة لا أمل يُرجى منها، فليستوعب أصحاب المعاصي قيمة هذا التقديم والتأخير في حياتهم، فهم بذلك يقدمون الفوز والخسارة، وكذلك إذا قدّم الإنسان الشرور والمعاصي فليس عليه توقع الخير أو الصلاح، فمن يقدّم خير يجده ومن يقدم شر سيجده أيضاً.

ولذا فالخليفة دائماً يُقدّم الصبر والشكر والحمد لتُفتح له أبواب الرزق والعطاء والرحمة، وتقدّم بطلب الجنة التي لن يؤخرها الرحمن عنه، وعليه فقد قدّم الخالق الحياة ابتلاء وامتحان للعباد، قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}^{١٣٥}، فالصبر على الضراء والحمد عند زوال النعم هو مفتاح تقديم للسعادة في الآخرة، فالإيمان الحقيقي صبر على البلاء ورضا بالقدر وشكر في الشدة والرخاء، فتقديم الصبر لا يكون على الفقير والمحتاج

^{١٣٣} آل عمران ١٠٤، ١٠٥.

^{١٣٤} صحيح مسلم ج ١٢، ص ٤٦٨.

^{١٣٥} الأنبياء ٣٥.

والضعيف، بل أن القوي والغني هما بحاجة لتقديم الصبر والشكر أكثر، ذلك أن الله قدّم لهما ما يصعب معه الصبر والثبات، فالله جل جلاله خلق الإنسان بتركيبية معينة تشير إلى حب المال والحياة، والجنة لها ثمن عكس ذلك تماماً.

فليتقدّم الإنسان بنزع بذور التماذي بحب الدنيا ليغرس مكانها بذرة طيبة إذا وجدت الأرض الصالحة لها أنبتت في نفسه حب الله وتقدّم في طلبه عن أي شيء آخر.

فقد أسعدك الله بالعلم والحكمة فلما البحث عن الشقاء بالجهل والضلال؟ قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ^{١٣٦}، بالطبع لا يستوي من كان يميل عن الحق مع علمه به، ومن يسير عليه، لذلك قدّم الله العالم والعارف فقدّم لهم علامات الهداية التي يبحثون عنها ويجتهدون للوصول إليها، عن الجاهل والمتلهي فقدّموا لأنفسهم الظلمات والخسران، فلا يكون لهم وزناً عند الله، قال تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} ^{١٣٧}، فلكل إنسان درجة ومكانة عند الله فمن المتقدّم ومن المتأخر، فقد يكون الإنسان في الدنيا ذو مكانة ودرجة رفيعة بين الناس ويكون هيناً عند الله تعالى.

وعليه فالخليفة هو الذي قدّم الإيمان على الكفر والشرك، وقدّم الطاعة على العصيان، وهو الذي استمد صفة التقديم للحق والخير على الظلم والشر من المقدم المطلق جل جلاله، وهو الذي تقدم للإيمان بالرسول صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وهو المؤمن بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم، ولهذا فهو المقدم للمعروف في أهله، والمنتهي عما نهى الله عنه، والمجتنب لما أوجب

^{١٣٦} الزمر ٩، ١٠.

^{١٣٧} الكهف ١٠٣، ١٠٦.

اجتنبه، وإذا حكم بين الناس يُقدّم العدل قولاً وفعلاً وعملاً، ويقدم التفكير والتذكر عند إقدامه على ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات، ولا يتأخر عن إزهاق الباطل فيتقدم على دمه إحقاقاً للحق.

اللهم يا المقدم اغفر لنا ما تقدم منا من خطايانا وما جهلنا وما نسينا، وما أسرفنا في أمرنا، وما أنت أعلم به منا، اللهم يا المقدم قدم لنا من الخير الباقيات والأفعال الصالحات والأعمال المنجيات، اللهم أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير، فنسألك أن تقدم لنا الحسنات وفعل الخيرات والنجاة من كل ذنب في الحياة ويوم الممات ويوم البعث إنك قريب سميع مجيب الدعوات، اللهم يا المقدم قدم لنا ما قلنا من كلمات مصلحات وأفعال صالحات ونوايا طيبات وتجاوز لنا عن الزلات، اللهم يا مقدم إليك قدمنا عملنا، ولك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا وبقولك احتكنا فاجعلنا من المتقدمين لا من المتخلفين عن الفوز برحمتك ورضاك. اللهم يا المقدم اجعلنا بتوحيديك نتقدم وبذكرك نتقدم وبتسبيحك نتقدم، وبطاعتك نتقدم وبأخذ ما أمرت الأخذ به نتقدم وبالانتهاء عما نهيت عنه نتقدم، اللهم اجعلنا بذلك نتقدم حتى بلوغ الجنة، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت سبحانك جل جلالك.

اللهم اجعل حسناتنا مقدمة لطاعتك، واجعل طاعتنا مقدمة لرضاك، واجعلنا على ما يرضيك حتى ترضى عنا، وأن نكون في رضاك خالدين في جنة الخلد، وقدّم حمل أعمالنا ثقلاً في موازين رحمتك، نستغفرك ونتوب إليك حتى ترحمنا وتغفر لنا، سبحانك لا إله إلا أنت المقدم جل جلالك واحد أحد لا شريك لك.

المؤخر

المؤخر اسم من أسماء الله عز وجل يحمل في طياته معنى الإرادة المطلقة في تدبير وتوقيت جميع الأمور، فيؤخر أمراً على أمر ويقدم أمراً على آخر بعلمه وحكمته المطلقين، فمن بيده التقديم لا بد أن يكون بيده التأخير أيضاً.

المؤخر: هو الذي يؤخر ما يجب تأخيره وهو يعلم أن في تأخيره خير^{١٣٨}

المؤخر: هو الذي يملك الأمر الذي به تتم مستوجبات التقديم أو التأخير، وهو المتصرف كما يشاء متى ما شاء، وهو العليم بمبررات التقديم والتأخير في كل ظرف، وهو الذي تقديمه حق وتأخيره حق سبحانه محق الحق ودامغ الباطل جل جلاله.

^{١٣٨} تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٥٩.

والمؤخر هو اسم فاعل من آخر في حين أنه المصدر للتأخير، فالله عز وجل هو الذي أوجد التأخير والتقديم وفق الأولويات بين جمع الأشياء لحكمة لا يعلمها إلا هو، ومن أجل تنظيم هذا الكون والخلق بهذا النظام الذي أبدعه الخالق سبحانه وتعالى، قال عز وجل: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} وَأَيَّةُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ^{١٣٩}، ومن أجل تسهيل حياة الخليفة الذي أراده الله تعالى منذ البداية أن يكون مقيماً في الأرض، راعياً لها قال سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} ^{١٤٠}.

والمؤخر المطلق بحكمته المطلقة آخر خلق المخلوقات بعضها عن بعض، فأخر خلق الإنس عن الملائكة والجن، فقد آخر خلق آدم عليه السلام على خلق الملائكة والجن وبالرغم من تأخير خلقه عنهم إلا أن الله تعالى قدّمه عليهم بتفضيله عنهم، ذلك أن المولى عز وجل حمّله الأمانة التي أبت الأرض والجبال أن تحملنها، وهذه الأمانة هي استخلاف الإنسان في الأرض، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} ^{١٤١}.

^{١٣٩} يس ٣٦ . ٤٠ .

^{١٤٠} البقرة ٣٠ . ٣٣ .

^{١٤١} الأحزاب ٧٢ .

ولكن الله هو المؤخر عن علم وليس لإهمال أو تقصير مما يتنافى مع قدرة الخالق المطلقة بل هو المؤخر لتحكمه في تقدير الأمور، والمؤخر المطلق هو المقدر الوحيد لموعد الخلق والموت والميلاد والحساب والرزق وغيرها فكل أمور الخلق بمواعيد مسبقة ومقدرة من المؤخر ولا حول ولا إرادة للإنسان في ذلك، فلا يد للإنسان فيما قدر الله من أمور عظيمة تأتي على الخلق دون علم أو معرفة، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} ^{١٤٢}، فيوم الحساب يوم عظيم وعلى الإنسان أن يكون متيقناً من قدومه بدون أن يعرف توقيت وقوعه لأن ذلك من علم الغيب الذي لا يطلع الله عليه أحد من خلقه، بل يأتي على غفلة من الإنسان الذي سبق أن حذره الله تعالى من وقوعه، فيكون مجيء هذا اليوم على ضعف وغفلة من الإنسان وعلى علم وقوة من الله عز وجل، فمهما كان الإنسان على درجة كبيرة من العلم أو من المقربين إلى الله فإن ذلك الموعد يبقى خافياً عليه ويبقى من أسرار الغيب، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان هو المصطفى من عباد الرحمن الذي اختاره الرحمن ليبلغ آخر رسالاته السماوية وبالرغم من ذلك فإنه كان خافياً عليه علم وقوع الساعة، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنْمَّا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنْمَّا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ^{١٤٣}، فالعلم المطلق للأشياء وموعد وقوعها هي عند الله تعالى، لا يطلع عليه أحد من الخلق في الأرض أو في السماء.

المؤخر: هو الذي أصدر أمر الخلق مسبقاً على من خلق، وآخر الحساب والعقاب والثواب عن الأعمال، وآخر الأفعال عن الأقوال، وآخر علم الغيب عن المعرفة على كل ما خلق.

والمؤخر هو المقدم بما له من مطلق الأمر في الخلق والإرادة والسيطرة الكاملة، وإذا كان الله تعالى مؤخراً فليس معنى ذلك أنه قد يترك عباده سدىً دون عقاب أو ثواب مهما طال الزمن أو

^{١٤٢} سبأ ٢٩، ٣٠.

^{١٤٣} الأعراف ١٨٧.

قصر عليهم، فهو المؤخر وهو الرقيب مع تأخيره وهو المهيم بحكمته في تأخير الأمور، فلا يترك عباده ولو طال الوقت دون محاسبة أو يهمل الخلق بسبب تأخير يوم الحساب.

قال سبحانه وتعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} ^{١٤٤}، وقال كذلك: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكْ نُطْفَئْ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَاقَةَ فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} ^{١٤٥}، في الآية الكريمة السابقة يربط الله بين إقرار وقوع يوم الحساب وبين عملية الخلق والرباط هنا هو القدرة المطلقة لله، وهذا يلغي أي تبرير أو حجة للمذنب في حق الله وحق نفسه بتقصيره في الطاعات والعبادة، فقد أمهله الخالق ليعمل ويصلح لكنه آخر إصلاحه وخيره لوقت لا ينفع فيه الندم أو التحسر على ما فات من الوقت، وكذلك الكافر والجاحد كان لديه متسع من الوقت ليرجع إلى الله فيؤمن به ويعود لكن الكثير منهم سرقهم الوقت وشغلتهم الدنيا وغرهم الشيطان فلم يعرفوا الحق إلا في اليوم الذي لا فائدة تعود عليهم فيه، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا إِنَّا أُنزَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} ^{١٤٦}.

وقد يتساءل البعض: لماذا لم يكن من صفات الله تعالى المؤجل؟

الله عز وجل بتأخيره لبعض الأمور وفق حكمته المطلقة، يكون مؤخراً ولا يكون مؤجلاً ولا لاغياً، لأن اللاغى للذنب أو الخطأ تتجلى فيه صفة العفو الغفور، فالله بصفتيه يلغي لنا أخطاءنا ويبدلها حسنات إذا توافرت فيه الشروط التي تجعل هذا الإنسان ضمن من يشملهم الله تعالى بهاتين الصفتين وهي التوبة الصادقة والندم على ما ارتكبه من ذنب واتباع السيئة الحسنة.

^{١٤٤} إبراهيم ٤٢.

^{١٤٥} القيامة ٣٦ . ٤٠.

^{١٤٦} النبأ ٣٨، ٤٠.

وفي اسم المؤخر رسالة لكل الخلق لكنها تُفهم على طريقتين، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} ^{١٤٧}، ليس من صفات الله المؤجل لأن التأجيل لا يتم إلا بمشاركة آخر فيه، فمثلاً إذا كان مقرراً أن ينعقد اجتماع بين رئيسك في العمل وبينك ويتم تأجيل هذا الموعد، فإن هذا التأجيل يحدث بالاتفاق بينك وبين رب العمل على إلغاء الموعد المحدد للاجتماع واستبداله بموعد آخر متفق عليه بينكما، ولهذا في التأجيل المشاركة والله واحد أحد لا شريك له، إما في التأخير أمر ذاتي يتعلق بالواحد جل جلاله. وما نسميه بالتأخير على المستوي البشري أو الخلق، هو في حقيقته بأسباب المشاركة دائماً، فعندما يتأخر التلميذ عن الوصول في الموعد المناسب للمدرسة فإن وراء ذلك أسباب منها المواصلات أو الحوادث أو الطبيب بأسباب المرض أو الوالدين بأسبابهما، أو الأخوة وفي جميعه بأسباب المشاركة، أما الله المؤخر لا شيء يؤخره عن أن يفعل ما يشاء أن يفعله متى ما شاء وكيفما يشاء.

وبما أن الله تعالى لا يشاركه أحد في إرادته وحكمه، إذ أنه فعّال لما أراد إذن هو المؤخر المطلق بتأخيره ما يشاء، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ^{١٤٨}، فقدرتة على فعل أي شيء متى أراد هي التي تؤخر وتقدم ما تريد، فالتأخير للأمر لا يكون إلا ممن بيده الأمر كله وأوله وآخره، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^{١٤٩} أما من كُتِبَ عليه الأمر فلا يملك تقديم هذا الأمر أو ذلك أو تأخيره، لأنه لا يملك أمر (كن)، قال تعالى: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} ^{١٥٠}، فالمؤخر بالإضافة هو الذي يدرك الأهداف والغايات من وراء كل عمل يقدم عليه ويحدد لهذه الأعمال المواعيد المحددة التي تساعد في تحقيق أهدافها المرجوة ومنها.

^{١٤٧} الفرقان ٧٠، ٧١،

^{١٤٨} المائدة ١٢٠.

^{١٤٩} النحل ٤٠.

^{١٥٠} سبأ ٣٠.

١. المفهوم الصحيح:

إن هذه الرسالة تصل إلى عقل وقلب الخليفة بالشكل الصحيح الإيجابي، إذ أن تأخير الله تعالى للأشياء لا يكون عن غفلة أو عن نسيان بل يكون عن خبرة وعلم مطلقين بمقادير الأشياء ومواقيتها التي يجب أن تكون فيها، ووضعها في المواضع الصحيحة لها، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} ^{١٥١}، وكذلك قوله تعالى: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ} ^{١٥٢}، وأيضاً قوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيم_Sِكِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ^{١٥٣}.

فيستشعر الإنسان في هذا التأخير رحمة المؤخر به وحبه، لأن يكون لدى الإنسان الوقت الكافي للطاعة والإصلاح فيسير في الأرض بالشكل الذي يرضي الله، فيزرع الخير أينما سار، وينشر الحب في كل جهات الأرض الذي به تعمر النفوس وتقترب إلى خالقها تطلب رضاه، بذلك يرفع درجته عند الله، قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} ^{١٥٤}، هذا جزء من قرأ رسالة الله قراءة صحيحة فوصلت لعقله وقلبه في الوقت المناسب فأحسن الخالق له جزء إحصانه، فقد أفر هذا الخليفة كل حب في قلبه إلى ما وراء حب المؤخر فأخر عنه الله كل شر.

١٥١ سبأ ٢٨ . ٣٠.

١٥٢ يس ٤٣، ٤٤.

١٥٣ الزمر ٤٢.

١٥٤ الرعد ٢٠، ٢٤.

وهناك نوع آخر من الخلق يتأخرون في فهم الرسالة التي يضمنها هذا الاسم، وهم المذنبون الذين يقضون جزءاً من أعمارهم في فعل ارتكاب الذنوب والمعاصي لكن يأتي اسم المؤخر وما يحمله من فرص لهؤلاء المذنبين للتوبة والرجوع للحق والعودة لما فيه خيرهم وصلاحهم، فيقبل الخالق توبتهم، ويصلحون حالهم بإنقاذها من عذاب الحريق، قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{١٥٥}، وقال تعالى أيضاً: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} ^{١٥٦}، فرحمة الله تعالى بعباده كما جاءت في الآية الكريمة السابقة على ثلاث مراحل هي:

الرحمة الأولى: تتمثل في تأخير اليأس من رحمة الله تعالى عن القلوب النادمة والإسراف في تأنيب النفس والغرق في بحر الحسرة والندم، وكذلك بقبول التوبة من المذنبين ومغفرة ما قدموا من سوء يصل بصاحبه إلى العذاب المهين، فتأتي رحمة الله تعالى بفتح باب التوبة أمام هؤلاء المذنبين زارعة الأمل في قلوبهم بالنجاة من النار وسوء المصير، فتبدأ الرحمة بقبول التوبة أصلاً، ولولا ذلك لما كان الغفران للذنوب.

فما من قلبٍ يستطيع أن ينتعش الأمل فيه دون أن يشعر بأن هناك باباً قد يُفتح له إذا طرقه بالشكل الصحيح وفي الوقت الصحيح، عندها لن يتأخر هذا الإنسان عن طرقة وهذا الشعور هو من رحمة الله بنا يزرعه فينا فلا نكون فريسة اليأس الذي يقودنا إلى أبشع النهايات.

^{١٥٥} الأنعام ٥٤.

^{١٥٦} الزمر ٥٣ . ٥٦.

والرحمة الثانية: هي تأخير أخذهم بالعقاب الفوري لدى ارتكابهم للذنوب مفسحاً لهم الوقت للرجوع للحق، فالمؤخر المطلق قادر على تسليط العقاب الفوري على الإنسان لكنه يؤخر ذلك رحمة به، وقد سبق أن أخذ أقواماً سابقة بالعقاب الفوري لشدة كفرهم وليأخذوا عبرة مما أصابهم ويكونوا برهاناً لقدرة الخالق على الانتقام فنصل بذلك التحليل إلى رحمته مع امتلاك القدرة في التأخير، قال تعالى: {كَذَّبْتَ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ كَذَّبْتَ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَوْلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبَّيْنَاهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} ^{١٥٧}، فتأخير الله تعالى قد يكون عن حلم أو عن صبر، فصفة الله المؤخر تحمل بين طياتها صفة الحليم، فقد يؤخر المولى عز وجل العقاب مع العفو والغفران له فيكون بذلك حليماً، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} ^{١٥٨}، وقد يؤخر الله العقاب على الذنوب مع بقائها فيكون الله صبوراً، فصفة الصبر عند الله لا تحتل غفران الذنب والعفو عن مرتكبه بل تحتل التأخير فقط، قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِلُ الْكَافِرِينَ أَهْمِلُهُمْ رُوبِدًا} ^{١٥٩}.

^{١٥٧} القمر ١٨ . ٣٢ .

^{١٥٨} آل عمران ١٥٥ .

^{١٥٩} الطارق ٩ . ١٧ .

الرحمة الثالثة: تتمثل في توضيح الصورة التي ستكون عليها حالتنا يوم الدين، وهذا من شأنه أن ينزل الخوف والرغبة في قلوب المذنبين، فقد صور لنا المؤخر الحال الذي سيكون عليه الغافلون، فيأتي تحذيره عز وجل رحمة للبشر، ففي التحذير من الشيء لفت لنظر الغافل والجاهل لما كان لاهياً عنه فيتوقف عند هذا التحذير مستشعراً حاله يومئذ فيرجع عما كان فيه ويعود للحق، فمع وجود العقل البشري وقدرته على التمييز والاختيار أمكن للإنسان استيعاب الدروس واستنباط العبر التي تعود بالفائدة على الإنسان بنجاته من الهلاك المحقق بسيره في طرق الضلال وعدم استعمال العقل كما أراد الخالق عز وجل له أن يُستعمل، فلقد بُعثت الرسل والأنبياء للتبشير والتحذير فأين من ذلك المكذبين؟ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾^{١٦٠}.

فالجهل لا يبقى جهلاً مع وجود الوقت الكافي للمعرفة التي من شأنها أن تعود بصاحبها للحق وطريق الهداية، فينقلب من الخاسرين إلى الفائزين، فتكون رحمته عز وجل قد تجلت في تأخيره أخذ هؤلاء بالعقاب الفوري لوقوع الذنب، فمن رحمة المؤخر عز وجل أنه لا يقدم عقابه عن الذنب الذي يرتكبه الإنسان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمَلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمَلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ"^{١٦١}، ما أروع رحمة الله بعباده وما أروع حبه لهم مع قدرته عليهم وضعفهم وقلة حيلتهم، بل أنه لا يعاقبه عليه في حين وقوع الذنب، إذ أنه يؤخر ذلك مانحاً المذنب فرصاً عديدة للرجوع للصواب والحق، فما أعظم هذا الخالق القادر الكريم، ولو أن كل كافر أو جاحد تأمل في هذا الاسم مستدركاً ما فيه من محبة وود من المولى عز وجل لهم ما ابتعدوا عن رحمته وطلب رضاه.

^{١٦٠} الأعلى ٩ . ١٣ .

^{١٦١} صحيح البخاري، ج ٢٣، ص ٢٠٠ .

٢ . المفهوم الخاطئ:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} ^{١٦٢}، ويتكون هذا المفهوم لدى الكافرين والمتكبرين عن نعم الله تعالى ومنها تأخيره العذاب الفوري لهم مع قدرته على ذلك، إذ أنهم يتمادون في تكذيبهم وطغيانهم بحجة عدم وقوع الساعة كما سبق أن كذبت الأقوام السابقة، قال سبحانه وتعالى: {وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} ^{١٦٣}، وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} ^{١٦٤}، فتأخير الله تعالى ليوم الدين وتأخيره العقاب جعلاً من الكافر والجاحد أكثر تمادياً وطغياناً ظناً منهما بما أن الموعد غير محدد فإن الساعة لن تقوم، ولو أن الكافر فهم رسالة المؤخر له لأدرك مدى حرصه عز وجل على نجاته من عذاب الجحيم ولكان استفاد من وقته بما ينفعه في يوم لا ينفع الإنسان إلا عمله الذي هو المسؤول عنه أمام الله تعالى، قال عز وجل: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأْسَ رَبِّكَ أُوحِيَ لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ^{١٦٥}، والفهم الخاطئ لهؤلاء الكفرة لا يصل بهم إلى الاقتناع بأن حتى هذا التأخير له نهاية وموعد محدد في علم الله، فموعد لا يعلمه إلا واضعه عز وجل، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ

^{١٦٢} يونس ٧، ٨.^{١٦٣} الكهف ٣٥، ٣٦.^{١٦٤} سبأ ٣.^{١٦٥} الزلزلة ١ . ٨.

فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ^{١٦٦}، أي أن هذا التأخير لا يكون بلا نهاية بل إن له نهاية آتية لا محالة بأجل محدد ووقتٍ معين هما في علم الغيب عند العزيز الجبار المالك لكل شيء، لا يقع هذا الموعد إلا في الوقت الملائم له والمفروض له وقوعه حسب علم وحكمة الله تعالى.

وخليفة الله بالإضافة هو من أحسن قراءة هذه الرسالة وأحسن الاستفادة منها، فكان همه لقاء الخالق محباً ودوداً له عاملاً من أجل رضاه فيكون له البشرى يوم اللقاء العظيم، متيقناً أن هذا اليوم قائماً في أية لحظة لا يمسه عنا إلا المؤخر ولا يؤخره عنا إلا الرحيم ولا يرحمنا إلا وداً ومحبةً بنا، فلا يسرتسل في الاتكال على الوقت لتصلح ما أخطأ فيه ولا يسير في الدنيا لاهياً عن موعد الساعة، فيسير بين الناس بتذكيرهم بذلك إذا تناسوا وبتحذيرهم من مباغته هذا اليوم إذا ألتهم الحياة الدنيا بالسعي وراء الكسب المادي ومغرياتها العديدة.

وفي اسم المؤخر عدة صفات ينطوي عليها منها:

المؤخر هو القادر:

تتجلى قدرة الخالق في تأخير ما يشاء من الأمور بعلمه المطلق، وبما أنه القادر على التأخير فهو بالتالي يملك القدرة على تقديم ما يشاء من الأمور، فهو القادر على قيام الساعة وقتما يشاء، والقادر أيضاً على تأخيرها وتقديمها، وهو الذي يملك القدرة أيضاً على الإماتة والإحياء، وتأخير هذا الأمر عن ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^{١٦٧}.

وخليفة الله بالإضافة عليه أن يكون قادراً على تأخير حب الدنيا وتأخير شهوات نفسه عن حب المولى عز وجل، وأن يكون مؤخراً لكل مفسدة أو ضلال على قدر استطاعته، سواء كان بقوته

^{١٦٦} هود ١٠٢ . ١٠٨ .

^{١٦٧} الأحقاف ٣٣ .

أو بعقله أو بقلمه، فالمفاسد والشرور كثيرة مبعثرة في الكون، لذلك كان لزاماً على خلفاء الله بالإضافة أن لا يكونوا مؤخرين لإصلاحهم حسب قدراتهم التي وهبها الله تعالى لهم، قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} ^{١٦٨}.

فإذا كان الخليفة بالإضافة قادراً على إفادة الآخرين من علمه فلا يتأخر بذلك العلم عن أحد، فالعلم إذا لم يُستفاد منه يبقى كالمياه الراكدة، ولكن إذا عمت الفائدة كل من حوله تحركت هذه المياه وشرب منها الجميع واستفاد، وبذلك سيستشعر الخليفة بالسعادة، لأن السعادة شعور منعكس من الآخرين علينا.

المؤخر هو الحليم:

الله هو الحليم المطلق الذي لا يمكن أن يصل أحد من المخلوقات إلى درجة حلمه، لأنه مع حلمه عز وجل يملك القدرة المطلقة للتصرف ويملك القوة المطلقة للانتقام والعقاب ويملك الإرادة المطلقة للتغيير والتبديل، وحلمه المطلق عز وجل لا ينحصر في عباده المتقين بل إنه يشمل جميع الخلق، فهو لا يمنع فضله ورحمته ورزقه عن جميع عباده بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، بل إنه يعطي العاصي كما يعطي المطيع، ويمنع عن الجاحد المرض والأضرار كما مع المحسن، لكنّ الفرق بين العبدین أن العاصي والجاحد يتأخر في فهم هذا الحلم وهذا الصبر، فيبقى غافلاً لا يذكر فضل الحليم ونعمه عليه، على عكس العبد المطيع والمحسن الذي لا يتأخر عن شكره عز وجل وحمده وطاعته.

والحليم المطلق لا يمكن أن يستفزه الغضب ولا جهل الجاهلين، فهو الحليم المتأنى ذو الصبح مع امتلاكه للقوة الكافية للرد والانتقام، لكنّ حلمه يؤخر عقابه وعذابه رحمة وحكمة منه بعباده أجمعين، فنحن نشاهد بأعيننا الدليل على ذلك إذ أنه بالرغم من عصيان وجحود الكفرة إلا أنه لا يمنع عنهم نعمه من رزقٍ وصحة ونعم كثيرة يتقلبون فيها دون صحوة منهم يلتفتون فيها إلى

مصدر وسبب ذلك كله، لكن صبر الكريم وحلمه يجعله يؤخر عقابه لهم فور صدور ذنوبهم ممهلاً إياهم، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} ^{١٦٩}.

وعلى خليفة الله بالإضافة أن يكون متصفاً بصفات الحليم المطلق، فلا يأخذه الغضب بعيداً عن الحلم والصبر والتأني، وأن يكون مؤخراً لعقابه ورده إذا أمكن ذلك حتى ولو كان يمتلك السلطة والقوة للقيام بذلك، وإذا كان لا بد من تنفيذ عقوبة ما فإنه من الحلم عدم تجاوز الحد، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} ^{١٧٠}، فما أروع الصبر على الأذى على ألا يكون ذلك لضعفٍ أو خوف بل مع امتلاك القوة للرد والانتقام.

والخليفة بالإضافة هو الصابر على أذى من حوله راجياً أن يكون بحلمه رادعاً لهم عن ذلك، معطياً لهم درساً في روعة الصبر ونبيل الحلم عند الإنسان ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفضل قدوة وأروع مثل، فقد كان لا يأخذه الغضب عند شدائد الأمور ولا يتهور في الرد على من عاداه، بل كان متأنياً صبوراً في حكمه فكان حكيم الرأي صائب النظرة بعيد النظر، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} ^{١٧١}، فمن شأن الحلم أن يزرع في القلب الرحمة والمودة واللين، وأن يؤخر عنه القسوة وحب الانتقام، وهذا بدوره ينشر بين الناس الغفو عند المقدرة، والرحمة، والتسامح.

^{١٦٩} فاطر ٤٥.

^{١٧٠} الشورى ٣٩ . ٤٣.

^{١٧١} آل عمران ١٥٩.

المؤخر هو الرحيم:

المؤخر صفة من صفات الرحمة بالخليفة فما آخره الله جل جلاله إلا لإعطائه الفرصة للتوبة من ذنوبه والرجوع عن أخطائه وهذا التأخير إنما هو خير للعباد، لأن الله يريد بهم الصلاح لهم في الدنيا والآخرة ولا يريد أن تضيع أعمالهم بالوقوع في المعاصي والأخطاء، فيؤخر عنهم العقاب على ما اقترفوه من ذنوب ومعاصي فلا يعاجلهم به حتى يتيح لهم الفرص لمراجعة ومحاسبة أنفسهم قبل أن يأتي الحساب الكبير فيكون لهم ذلك زيادة في الرحمة والخير، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾^{١٧٢}، فالعقوبة على المعاصي مقررة أصلاً على العصاة ولكن المؤخر عز وجل يمسكها عنهم، لسببٍ عظيم وهو أن المؤخر رحيم وحليم بعباده حتى العصاة منهم، لأن الله تعالى خلق العباد ليرحمهم لا ليعذبهم، فجاء تأخير العقاب ليستغفروا من ذنوبهم ويتوبوا إلى خالقهم العظيم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^{١٧٣}، فرحمة الله تسبق عقابه وانتقامه وتنفيذ عقوبته على من يستحقها.

وهذا التأخير يكون في حق كل البشر المؤمن منهم وغير المؤمن وهو لكلٍ خير ورحمة، ورحمته واضحة جلية في اسم المؤخر، ففي التأخير رحمة لكل الناس بكافة أحوالهم:

للمؤمن التقى بمنحه المزيد من الوقت لنيل الحسنات التي ترفع درجته عند خالقه، بالزيادة في عمل الطاعات وما أمر الله به، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^{١٧٤}، ومثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

^{١٧٢} طه ١٢٩.

^{١٧٣} الأنفال ٣٣.

^{١٧٤} البقرة ٢٦١، ٢٦٢.

أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ^{١٧٥} ، فيصل بذلك إلى استحقاقه لخلافة الله تعالى في الأرض، وبهذه الخلافة يكون قد فاز الفوز العظيم.

فيكون تأخيرهُ للمؤمن المطيع هو من باب المحبة والرحمة.

* للمذنب الفرصة للعودة عما كان فيه والتوبة الصادقة التي قد يقبلها المؤخر ويغفر له، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ^{١٧٦} فإذا أخذ الله كل إنسان بذنبه في حين وقوعه لما بقي على الأرض من أحد، فالإنسان بطبعه كثير الزلات والأخطاء، وهو مخلوق على القوة من جهة إذا ما قورن بغيره من الخلائق، ومخلوق على الضعيف إذا ما وضع نفسه في غير محلها في مقارنة مع الخالق جل جلاله، وهنا يقع فريسة للشيطان فيوقعه في المفسد والذنوب، لكن المؤخر عز وجل عليم بما ينفع الإنسان ورحيم به، فأمهله الوقت لتصليح ما اقترب والاستغفار عن ذنوبه، فالحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان يصعب عبورها دون الوقوع في إحدى مفترق طرقها أو منحياتها، قال تعالى: {زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ^{١٧٧} ، فطوبى لمن أفاق من غيبوبة الدنيا قبل أن يغشاه عذاب يومٍ عظيم لا ينفع فيه تحسر ولا ندم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ^{١٧٨} ، وقال تعالى أيضاً: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ^{١٧٩} .

^{١٧٥} التوبة ٢٠ . ٢٢ .

^{١٧٦} آل عمران ١٥٥ .

^{١٧٧} آل عمران ١٣ .

^{١٧٨} البقرة ٢٢٢ .

^{١٧٩} الشورى ٢٥ .

إذن فالمؤخر عز وجل لم يعاقب العصاة من المسلمين على معاصيهم ذلك لأنه رحيمٌ بهم ودود يتودد إلى عباده مع غناه عنهم وعن عبادتهم وتعذيبهم، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^{١٨٠}، فالعباد هم الفقراء إلى حلمه وعفوه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾^{١٨١} فالمؤخر هو من خلق الفرص للخلق ومنحها لهم مبيناً لهم فائدتها، وآخر عقابه حتى يرجعوا عن عصيانهم، ويصححوا مسلكهم ويكون التصحيح عن طريق تعديل وتصليح المعلومات الخاطئة التي تتعمق داخل عقل الإنسان منذ بداية نشأته فتبع ذلك وقوعه في الخطأ، لذلك فقد فتح المؤخر بتأخيره أبواباً من الفرص لإعمال الإنسان عقله في تدبر ما حوله وتحليل ما يحصل معه وحوله فيرجع عن الخطأ، وبذلك ينجو هذا المذنب من دائرة عقاب القوي القادر برحمته عز وجل في تأخيره، فالمؤخر لا يظلم أحداً، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^{١٨٢}، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^{١٨٣}، فيدخل بذلك دائرة من هداهم الله ورضي عنهم، قال عز وجل: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^{١٨٤}.

* للعاصي العودة للحق وترك الضلال الذي كان يتخبط فيه، ونحن نلاحظ في أيامنا هذه تزايد أعداد الذين يعتنقون الدين الإسلامي تاركين ما كانوا عليه من ضلال وجهل، فكان في تأخيرهم لهذا الوقت خير لهم ومنفعة، ومنهم من يتمادى في كفره وجحوده بالله تعالى فلا يلتفت إلى ما فاته في الدنيا إلا حينما يقف بين يدي المولى عز وجل، فقد كان موالياً لغير الخالق مشغولاً عن

^{١٨٠} النساء ١٤٧.

^{١٨١} فاطر ١٥ . ١٧.

^{١٨٢} فصلت ٤٦.

^{١٨٣} الحج ١٠.

^{١٨٤} البينة ٨.

التفكير بالحق متأخراً في الوصول إلى النور، قال تعالى: {وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهَا بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} ١٨٥.

ومن مظاهر رحمته بالعباد ما يأتي:

أ- تأخير غضبه وعقابه للعباد إلى ما بعد إرسال الرسل مبشرين ومنذرين وموضحين وهادين بأمر من المؤخر المطلق، بتبليغ أوامر الله ونواهيه كي لا يكون للناس حجة على الله، فلا يعذب الله ولا يعاقب قوماً إلا بعد إقامة الحجة والدليل بإرسال الرسل والأنبياء، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ١٨٦، وقال تعالى أيضاً: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ١٨٧، حتى أن رحمة المؤخر تشمل من كان مذنباً بجهل، فيؤخر عقابه إلى أن يصله العلم الكامل بما فعله، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ١٨٨، وقال تعالى أيضاً: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ١٨٩.

ب- ادخار الرحمة لعباده ليوم الحساب العظيم، فكل ما في الأرض من رحمة ما هي إلا جزء واحد من رحمة الله تعالى وادخر مؤخراً لعباده يوم القيامة جزءاً ليغفر بها إساءة المسيئين ويعفو

١٨٥ الأحقاف ٣٢ . ٣٤ .

١٨٦ النساء ١٦٥ .

١٨٧ الأنعام ٤٨ .

١٨٨ النحل ١١٩ .

١٨٩ الأنعام ٥٤ .

عمن يشاء من المذنبين ويقبل شفاعة الأنبياء والصالحين والشهداء، والله تعالى يغفر جميع الذنوب إلا الشرك بالله، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} ١٩٠، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} ١٩١.

ج - قبول شفاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتأخيرها إلى يوم الحساب الكبير، وبذلك يخرج كل من شفع فيهم رسول الله عليه الصلاة والسلام من عذاب النار إلى جنة النعيم. وخليفة الله بالإضافة هو من يستغل وقته فيما يرضي الله تعالى، فيسارع في الخيرات ويؤخر مشاغل الدنيا عن ذلك، فلا يكون همه إلا كسب رضا الخالق وحبه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} ١٩٢، فمن شأن اسم المؤخر أن يجعله مسارعاً في الخيرات داعياً لها لا أن يجعله مهملاً مضيعاً لعمره سدى لا فائدة تُرجى منه.

د- للمؤخر الحمد والشكر لتأخيره التكاليف الشرعية وإلزام الناس بها، ومجازاتهم عليها عقاباً أو حتى ثواباً إلى ما بعد أن يبلغ الإنسان سن البلوغ والرشد، فيكون في ذلك الوقت قد أصبح العقل قادراً على التمييز بين الصواب والخطأ ليصل بذلك إلى التمييز بين الحلال والحرام وإدراك الحكمة من ما هو مفروض علينا تنفيذه تجاه الخالق عز وجل، لأن العقل البشري في تلك السن يكون قد بدأ القدرة على التحليل والتدقيق والربط والاستنتاج ليخرج بذلك بقرارات لما عليه فعله والمنهج الذي سيسلكه سواء كان في دائرة الإيجاب أو في دائرة السلب، وبذلك يكون متحملاً المسئولية على قيامه بما قام به من أفعال وأقوال، فتزول بذلك حجته على الله تعالى بأنه مسير

١٩٠ النساء ٤٨.

١٩١ النساء ١١٦.

١٩٢ المؤمنون ٥٧ . ٦١.

في ذلك، وأنه قام بها دون وعي أو إدراك لعواقبها نتيجة عدم وجود ما يدلله على الخير والصواب.

فكانت رحمة المؤخر بنا أنه لم يعاقب من كان دون سن الرشد، أو من وصل إليها ولكنه فقد عقله بمرضٍ، فمن هنا كان خطاب المؤخر للعقل البشري متكرراً ومتعددًا لأنه هو الذي يقود صاحبه إلى الفوز أو الخسارة بإتباع المولى أو بإتباع الشيطان، فالعقل هبة من الله تعالى لقدرته على استخراج مكامن المفاهيم، قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ^{١٩٣}، فمن كان عقله مشغولاً بالتدبر والتأمل والتحليل بالتأكيد سيصل إلى النور وسيبصر الحق المائل أمامه، وسيدرك الخالق العظيم الذي خاطبه وأرشده إلى الهدى، أم من كان عقله متأخرًا في تدبره وتأمله تأخر في الوصول إلى الحق أو إنه لن يصل إليه، فمثل تلك العقول تكون سهلة الوقوع تحت سيطرة الشيطان الرجيم فيقودها إلى الظلام فيفقد العقل البشري إمكانياته وقدراته التي تصاب بالشلل والعمى فتكون الخسارة هي نصيبه في الآخرة، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا أَتِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} ^{١٩٤}.

وفي تأخير الله تعالى لسن البلوغ إلى مرحلة النضج واكتمال العقل تأخير لأمرين هما:

* تأخير بعض الحاجات التي تنشأ في نفس الإنسان بعد وصوله إلى سن البلوغ، مثل الحاجة إلى الزواج والرغبة في النساء وهذه من الشهوات التي فطرنا المولى عز وجل على حبها والتعلق

^{١٩٣} الرعد ١٦.

^{١٩٤} الإسراء ٩٧ . ٩٩.

بها، ولكنه برحمة التأخير لها فينا يتأخر تأجج هذه الشهوة إلى سن النضج واكتمال العقل الذي يعمل على الموازنة والتعقل، فتكون بذلك هذه الشهوة تحت سيطرة العقل وإرادته الكاملة، فيتمكن هذا البالغ من تسييرها كما يشاء، والتحكم فيها بكتبها عند الحاجة، فيتم بذلك توجيه هذه الرغبة في الاتجاه الصحيح الذي أراده الخالق لها عز وجل والمؤخر لها، بذلك فإن الإنسان واعياً مسيراً لها فلا يقع في فاحشة الزنا التي هي من الكبائر التي نهانا الله عنها وحذرننا من الوقوع فيها مبيناً عاقبة الوقوع فيها، قال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} ^{١٩٥}، قال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} ^{١٩٦}.

فلو أن سن البلوغ يتقدم سن اكتمال نضج العقل ووعيه الكامل بما حوله، واتساع دائرة فهمه وتحليله، لتأججت في الإنسان الشهوات وتحكمت فيه، فتقوده وتسيّره كما تريد إلى أن تصل به إلى الهلاك والضياع دون وعي منه أو إدراك ذلك لقصور عقله عن الوصول إلى مدى عاقبة هذه الفاحشة.

* وأيضاً بتأخير الله تعالى للإنسان البلوغ إلى سن التعقل والرشاد آخر المؤخر بالإطلاق نظرة الآخرين من حوله إليه، فالطفل عندما يكون صغيراً يحتاج لمن يخدمه ويرعاه ويهتم بنظافة جسده وطعامه ومشربه وغيرها من الحاجات الاعتيادية للطفل، ذلك لأنه لا يمكن أن يعتمد على نفسه في تنفيذ هذه المتطلبات لقصور ملكاته العقلية وقدراته الجسدية، فكان تأخير الله تعالى للبلوغ حتى يتعدى الإنسان سن الطفولة نعمة ورحمة به وبمن حوله، فلو كان هذا الطفل باعتماده على من حوله بالغاً لتحركت فيه الغرائز الجنسية وكذلك تتحرك فيهم مما يجعلها قد تكون على حسابه، ولكن عملية الاهتمام الخارجي ممن حوله تسير بشكلٍ طبيعي لأنه ما يزال

^{١٩٥} الإسراء ٣٢.

^{١٩٦} النور ٢، ٣.

طفل لا يمكن أن تتحرك فيه هذه الغرائز تجاه من يعتني به من أم أو أخت أو عمّة أو خالة، وتبقى نظرتهم له نظرة خالية من أي حذر أو شك.

أما إذا تعدى هذه السن لسن الرشد واكتمال العقل فيه يكون قد وصل إلى سن يمكنه الاعتماد على نفسه في تلبية احتياجاته الجسدية على الأقل، بالإضافة إلى أن الله قد خلق في الإنسان الحياء، فلا يستطيع مع هذا الحياء أن يكشف الإنسان عن عورته أمام أحد، حتى يتم للإنسان نفسه مع تقدم السن به وتكوين خبراته في الحياة وعن طريق العلم والمعرفة أن يدرك المعاني الحقيقية للأمور ويستطيع أن يضع موازيين لحياته بالشكل الذي يراه.

إذن تأخير الله عز وجل لا يكون إلا لحق وخير، ويكون دائماً سائراً وفق مصلحة المخلوق.

المؤخر هو العليم:

فهو المؤخر للأمور بعلمه المطلق والمسبق بما يصلح للعباد، وإذا تأملنا حولنا قليلاً لأدركنا أن الخلق جميعاً متفاوت في كثير من الأمور تقدماً وتأخيراً عن بعضهم البعض منها:

١ . الأرزاق:

فقد يرزق الإنسان في صغره بالرزق الوفير وأحياناً لا يكون له ذلك إلا بعد تخطيه سناً متقدمة وأحياناً أخرى لا يكون له اتساع في الرزق، وكل ذلك التقديم والتأخير بين الناس هو من تقدير الله المسبق الذي يعلم ويدرك بقدرته أين الخير والشر لكل إنسان، كما وأن في تأخير الرزق وتقديمه ابتلاء للإنسان فمن شكر وحمد كان من الفائزين، قال تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} ^{١٩٧}، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا

بَصِيرًا^{١٩٨}، قال تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{١٩٩}}

والرزق ليس مقصوراً على المال فقط، بل حتى الأبناء رزق من الله مع اختلاف الوقت لهذا الرزق، فمن الممكن أن يتزوج مثلاً أكثر من مائة إنسان في ليلة واحدة ولكن نجد أن هناك من يتأخر رزقه بالذرية في حين أننا نجد من يرزق فوراً بهم، وهناك من لا يرزق بهم أبداً ذلك كله بتقدير العليم لأمر عباده، قال تعالى: {اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِئَا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِئَا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ^{٢٠٠}.

٢ - الفرج بعد الضيق:

الله هو المفرج للكرب إذا أخلص الإنسان الدعاء لله وتوجه إليه بقلب صادق منكسر، قال تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^{٢٠١}، وقال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^{٢٠٢}، فما من إنسان في هذه الدنيا إلا قد أصابه هم أو كدر وعند حلول الهموم والمشاكل نبحث عن الفرج مستعجلين قدومه لتفريج تلك الأزمة، وقد يؤخر الله لحكمة ما مجيء الفرج وقد يستعجل فيه، مختبراً بذلك صبر الإنسان وإيمانه، وفي ذلك قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^{٢٠٣}.

١٩٨ الإسراء ٣٠.

١٩٩ العنكبوت ٦٢.

٢٠٠ الشورى ٤٩ . ٥٠.

٢٠١ الأنبياء ٧٦.

٢٠٢ الصافات ١١٤، ١١٥.

٢٠٣ البقرة ٢١٦.

وخليفة الله هو من ثبت عند حلول المصيبة وكان الله عوناً على تجاوزها أو تحملها وهو بطبعه لا يلتجئ إلا إليه، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^{٢٠٤}، فالخليفة هو الذي يثبت ويزداد إيماناً عند الشدائد مهما تأخر الفرج فيبقى أمله بقومه من أمله بحب الخالق وثقته برحمته.

المؤخر هو المقدم:

بما أن الله تعالى هو المؤخر فهو بالضرورة المقدم لما يريد، فقدم الخير في النفس البشرية على الشر، فكان خلقه للجن والإنس للخير بهدف عبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾^{٢٠٥}، فلم يخلق الله تعالى الخلق للنزاع والقتل، وقدم الحب عن الكره، فقد خلق الله تعالى الإنسان محباً بطبعه والدليل على ذلك من يعلم الوليد الذي لا يعي أي شيء في الدنيا حبه وارتباطه بأمه وأبيه، فنجد دائماً التعلق بهما لحبه وحاجته لهما؟ وكذلك هذا الحب الذي يتولد لدى الوالدين تجاه وليدهما الذي أتى للعالم منذ فترة وجيزة.

وقدم الحجة والبرهان مؤخراً العقاب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^{٢٠٦}، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَانقُضُوا اللَّهُ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

^{٢٠٤} البقرة ١٥٥ . ١٥٧ .

^{٢٠٥} الذاريات ٥٦ ، ٥٧ .

^{٢٠٦} الشعراء ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا^{٢٠٧}، فيؤخر المؤخر بالإطلاق عقابه وحسابه إلى ما بعد وضوح الحجة والدليل الواضح للهداية والضلال، فيكون عقابه لأي قوم عبرة لمن يأتي بعدهم وذكرى لمن نسي وانشغل عن الحق.

فلم يكن الله معاقباً لقوم دون أن يبعث فيهم رسولاً لإنذارهم وتحذيرهم وهدايتهم، وبعد الحجة والبرهان يأتي الجزاء والحساب، فبذلك يتأخر العقاب عن الحجة لأن الله تعالى عادل لا يظلم أحداً، قال تعالى: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا^{٢٠٨}، فشهادته هي الحق التي لا ظلم ولا جور فيها يوم تقوم الساعة، فعلم الإنسان بالشيء ينفي أي تبرير له بالخطيئة.

المؤخر هو الآخر:

كيف يكون مؤخراً إذا لم يكن آخراً؟.

فهو الآخر بلا انتهاء وهو الآخر بعد كل شيء، وهو الآخر الذي ترجع إليه الأمور جميعاً، فعنده تبدأ وتنتهي جميع الأمور، وهو المحيط بجميع الأوائل والأواخر، فما من آخر إلا والله بعده، لذلك فأمر التأخير بيده وحده عز وجل ما دام هو الآخر المتحكم في البدايات والنهايات جميعاً، إنه المقدم بخلقه والمؤخر بفنائه لما خلق، ومقدم بإحيائه ومؤخر ببعثه، فهو الذي يؤخر ما يشاء ويُقدِّم ما يشاء فكل تأخير له نهاية يتحكم بها المؤخر المطلق، فالمؤخر هو الباقي وكل أخير زائل ما عدا الله جل جلاله، فالآخر هو الذي يستحق العبادة والطاعة فلا نؤخرهما لانشغالنا بأمور الدنيا، فكيف ننشغل عن الآخر الباقي الذي خلقنا وأنعم علينا بنعم كثيرة، قال

^{٢٠٧} الطلاق ٨ . ١٢ .

^{٢٠٨} النساء ١٦٥ ، ١٦٦ .

تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ٢٠٩.

وعلى خليفة الله أن يدرك أن له بداية ونهاية ثابتتان وهما بأمر الخالق عز وجل، لا يتدخل أحد في تقديم أو تأخير شيء لا يريد الله تعالى، بل أن كل شيء له بداية ونهاية حتى اللحظة والدمعة والبسمة إلا الآخر المطلق في بقائه فلا يتعلق الخليفة بسواه لأن التعلق بغيره هو تعلق بالعدم والفناء، أما التعلق بالآخر الباقي فهو التعلق بالحي الذي لا ينتهي ولا يزول، قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ٢١٠، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من القناعة فإنه سيوكل أمره الله ويرضى بقدره ونصيبه، قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} ٢١١، ففي الآية الكريمة السابقة تأخير لصفة من صفات الله تعالى عن الفعل الذي يجب أن يقوم به الإنسان، فقد وصف الخالق نفسه بالحياة الأزلية التي لا تنتهي ولا تزول مقدماً على ذلك ضرورة توكل الإنسان عليه، وآخر التسبيح عن التوكل لأن من توكل على الله فعلاً أخلص في عبادته والتسبيح نوع من العبادة.

لذا يجب على الخليفة أن لا يكون مؤخراً للآتي:

أ. لقول الحق:

كلمة الحق حين تقال في وقتها دون تأخير تكون أثمن من كنوز الأرض جميعاً، فهي لا تقدر بثمن لما فيها من حفظ للحقوق البشرية التي قد تضيع بتقشي مرض موت الضمائر البشرية بسبب المصالح الدنيوية، فالمصلحة الشخصية هي الصخرة التي تتحطم عليها المبادئ والقيم الأخلاقية، وبذلك يتجرد الإنسان من آدميته فيزور شهادة الحق إذا تطلب الأمر ذلك، متناسياً جريرة هذه الشهادة وما تعود به من ضرر جسيم وهذا ما جعل الرسول الكريم - صلى الله عليه

٢٠٩ الحديد ١ . ٣.

٢١٠ الرحمن ٢٦ . ٢٧.

٢١١ الفرقان ٥٨

وسلم- يبين لنا خطورة وعقوبة هذه الشهادة بوصفها من الكبائر، "حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ
الْحَمِيدِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ
مَالِكٍ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْكِبَائِرَ أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ فَقَالَ الشَّرْكَ
بِاللَّهِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَالَ أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ قَالَ قَوْلُ الزُّورِ أَوْ قَالَ شَهَادَةُ
الزُّورِ"^{٢١٢}، فيصبح الإنسان ظالماً متجبراً دون رادع له بغياب الضمير، لأنه بموت الضمير
تموت صلته بالله سبحانه وتعالى فتراه يكذب ولا يتردد في تزوير الحقائق التي تؤدي لتدمير
الحقوق ونزع الثقة.

ولكن على من يسعى لأن يكون خليفة الله في الأرض، أن يكون من الذين قال الله تعالى عنهم:
{وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}^{٢١٣}، فلا ينطقون إلا بالحق ولا يكتمون
شهادتهم لخوف من زوال منصب أو ضياع ترقية أو تهديد ممن هو أرفع شأناً منه أو مقابل
مال، قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}^{٢١٤}.
إن فتأخير شهادة الحق والنطق بها من شأنه أن يقضي على الحقوق التي يجب حفظها لتبقى
الحياة تسير وفقاً لما أَرادها الله تعالى أن تسير.

ب . لفعل الخير:

لا يجب أن يتأخر الإنسان عن فعل الخير لأي سبب كان، فالخير لا بد أن يكون متقدماً على
كل شيء في نفسه ليتم إحقاق الحق وانتشار الفضائل بين الخلق، فتتأخر بذلك الشرور والمفاسد
بين الناس، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ
يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}^{٢١٥}، والخير كلمة جامعة لمعاني عديدة إذا اجتمعت عم

^{٢١٢} صحيح مسلم ج ١ ، ص ٢٤٣ .

^{٢١٣} الفرقان ٧٢ .

^{٢١٤} البقرة ٢٨٣ .

^{٢١٥} المؤمنون ٦٠ ، ٦١ .

الخير والصلاح في الأرض وكان البشر خلفاء الله في الأرض يؤدون رسالته التي خلّقوا من أجلها، فيعمّروا ويصلحوا وينشروا الخير الذي يتضمن مما يتضمن الآتي:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف مطلوب أن يكون بين الناس ليقوا على علاقة وثيقة ومودة مع بعضهم البعض، فلا يتتأخرون على متاع الدنيا ولا يتنازعون فيما بينهم، فلا تضيع الحقوق ولا تُسلب، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^{٢١٦}، فقد أقر الله طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن طاعته لأن طاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله، فلا يتقدم طاعة الله شيء بل يتأخر عنها كل العبادات لأن طاعته عز وجل أصل كل العبادات وأساس قيام أنبل علاقة بين الخالق وعبده فلا يجد الإنسان في نفسه ضيق من عبادة الله ولا يؤخرها من أجل شأن من شؤون الدنيا، بل كل متاع الدنيا يتأخر عن رضا الله تعالى، بذلك يكون الفوز في الدنيا والآخرة.

وعليه فالأمر بالمعروف حق على الخليفة مستوجب الإلتباع والممارسة. والنهي عن المنكر واجب التنفيذ على الخليفة مع حُسن الأداء. وفي الآيات السابقة قدم الله المقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقامة الصلاة وإتاء الزكاة وطاعة الله والرسول، وذلك لأن الدين معاملة، والمعاملة الحسنة لا يمكن أن تتم إلا بإيمان أي أن الإيمان هو الذي من ورائها، أي لولاه (لولا الإيمان) ما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذا يكون إثبات الإيمان وتقدمه على كل عمل صالح ونافع، ولكن مع الناس كما سبق أن قلنا الدين معاملة حسنة، فمن عمل عملاً صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، ولهذا يجازى العباد بالأعمال ويعاقبون عليها، فبالأعمال يتم دخول الجنة أو دخول النار، ولهذا قدم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما من

^{٢١٦} التوبة ٧١.

الأعمال التي بها يتم الفوز بالجنة. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{٢١٧}.

والإنفاق في وجوه البر والإحسان:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^{٢١٨}، من وجوه الخير الإنفاق في سبيل الله بدون تأخير لذلك، وقد وضحت الآية الكريمة السابقة جزاء الإنفاق في سبيل الله مؤخرًا الشرط لقبولها قبولاً تاماً وهذا الشرط هو عدم المن والأذى الذي قد يتبع الصدقة عند بعض الناس، ف جاء الشرط متأخراً عن الجزاء العظيم لها لبيان أهمية الإنفاق بين المسلمين، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^{٢١٩}.

وخلفاء الله كانوا منفقين على قدر استطاعتهم مؤخرين بقدر الإمكان الفقر في المجتمع الإسلامي ومقدمين حاجة المسلمين عن متاع الدنيا، وأول من يستحق هذا الإنفاق هم صلة الأرحام من أقارب، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^{٢٢٠}.

وبر الوالدين والإحسان إليهما:

^{٢١٧} البقرة ٢٨١.

^{٢١٨} البقرة ٢٦١، ٢٦٢.

^{٢١٩} البقرة ٢٧٢، ٢٧٤.

^{٢٢٠} البقرة ٢١٥.

قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} ^{٢٢١}، كان في تأخير الأمر بالإحسان إلى الوالدين عن الأمر بتوحيد الله تعالى توضيحاً لتعلق الأمرين ببعضهما البعض مع أسبقية التوحيد عن الإحسان للوالدين، فالخير بأنواعه مرتبط ببعضه البعض لا نستطيع فصله إذ أن كل نوع منع يؤدي بالضرورة إلى باقي الأنواع، فطاعة الله ترتبط بطاعة الوالدين ورحمتها في كبرهما.

وليس من خلفاء الله بالإضافة من كان عاقاً لوالديه جاحداً لهما، بل خليفة الله بالإضافة هو من سكنت الرحمة قلبه وامتلات نفسه بالمحبة لكل من حوله وأولهما الوالدين اللذين أوصانا الله بهما وأمرنا برعايتهما في كبرهما والإنفاق عليهما والدعاء لهما وصلة رحمهما.

والأمر بالعدل وإحقاق الحق والنهي عن الظلم:

من المستحيل أن يسود العدل بين الناس في وجود الظلمة والجباية، فإذا وُجد الظلم تأخر ظهور العدل لحين القضاء على جميع أنواع الظلم، فالحقوق تبقى ضائعة في وجود الظالمين، والجور يكون عنواناً للتعامل بين القوي والضعيف، ولكن الله تعالى جعل من أساس المجتمع الإسلامي الصحيح قيامه على العدل والسعي إليه ليصل كل فرد مسلم لحقه بلا زيادة أو نقصان، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} ^{٢٢٢}، وقد تأخر النهي عن الظلم عن الأمر بالعدل لأنه إذا ساد العدل انتهى بالضرورة الظلم فلا يجتمع كل منهما مع الآخر، فيخلق بتلك المبادئ النبيلة مجتمعاً سويلاً لا أمراض اجتماعية فيه كالظن والغيبة وأكل مال الآخرين وغيرها فنستحق بذلك

^{٢٢١} الإسراء ٢٣، ٢٤.

^{٢٢٢} النحل ٩٠، ٩١.

خلافة هذه الأرض كما أراد الله، فخلافتها لا تأتي إلا بسيادة العدل وانتهاء الظلم من على وجهها.

وعلى خليفة الله بالإضافة مهما كان مركزه بسيطاً أو رفيعاً أن يلتزم هذا المبدأ وهو العدل، فالقاضي العادل هو كل ما يحتاجه المظلومون، والأستاذ يجب أن يكون عادلاً بين طلبته لا يفضل قريباً له أو ثرياً بغرض الاستفادة بل يعطي لكل طالب حقه، وحتى الأب عليه أن يكون عادلاً بين أبنائه فلا يحرم من حنانه ابن ويعطي للآخر ولا يفضل الذكر عن الأنثى كما نجد في بعض العائلات إلى حد الآن.

ج . لمحاسبة نفسه:

بما أن النفس البشرية كثيرة الخطأ والزلل كان لابد لها من قاضٍ لها يحاكمها ويردعها وهذا القاضي هو الضمير الذي أوجده الله فينا رادعاً لنا عند الخطأ، وبغياب هذا القاضي تسود الفوضى النفس البشرية وتضيع في دروب الضلال والفساد، قال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} ٢٢٣، ولا يكون عاقبة ترك النفس تعمل ما بدا لها إلا الندم والتحسر لأن في ذلك وقوعاً في الذنوب والمعاصي التي لا بد أن يستغفر الإنسان ويتوب عنها لعل الله تعالى يقبل توبته، قال تعالى: {وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} ٢٢٤.

الخليفة بالإضافة هو من صادق ضميره فصدقه، وهو من كان على موعد في كل لحظة ودقيقة مع نفسه فلا تخرج عن طوعه لأمر الدنيا، لأن في زينة الحياة الدنيا مفسدة ومضيعة للنفس البشرية، والخليفة بالإضافة هي من قالت له نفسه عندما عرضت الدنيا متاعها له: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} ٢٢٥، بذلك تكون النجاة من النار وبئس

٢٢٣ القيامة ١، ٢.

٢٢٤ يوسف ٥٣.

٢٢٥ الأنعام ٣٢.

المصير، وقد وضع الله القوانين والشرائع العادلة التي تسهل على الإنسان السير عليها في الحياة الدنيا، ومن خالف هذه الشرائع فقد زل ومال عن الحق، ويكون هذا الزلل والميل لضعاف النفس الذين يستمعون إلى وسوسات الشيطان الرجيم الذي توعد بإغواء من يستطيع من البشر لجرهم إلى عذاب الجحيم، انتقاماً منه وبغضاً له لتفضيل الله تعالى للإنسان، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنْتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ} ٢٢٦.

د . لحلمه:

الحلم من الصفات التي تصل بالإنسان إلى أطيّب النتائج، ولنا في الرسل والأنبياء الأسوة الحسنة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ قَلَمًا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} ٢٢٧، فلا يجب أن يؤخر الإنسان حلمه عن غضبه فإذا سبق غضبه حلمه لا فائدة تُرجى منه بعد ذلك، فالحلم من الله والتسرع من الشيطان.

من شأن حلم الإنسان أن يريه الصواب من الخطأ في أمور حياته فيكون بذلك حكيم الرأي صائب النظرة، على عكس من كان سريع الغضب فإنه يكون دائم الندم ذو نظرة ضيقة ولا يكون حكمه على الناس حكماً صحيحاً.

والخليفة بالإضافة يجب أن يتصف بالحلم البعيد عن الطيش، مؤخراً عقابه ورده على من أغضبه، راجياً بذلك أن يراجع ذلك المخطئ نفسه فيرجع عما فعله، ويكون حلماً على من

٢٢٦ ص ٧١ . ٨٣.

٢٢٧ التوبة ١١٤.

خالف أمره دون سبب لذلك فيتعامل معه بالحلم والأناة حتى يتخطى فورة غضبه الذي يقود الإنسان إلى الانتقام السريع والمبالغ فيه، بل أن خليفة الله بالإضافة عليه أن يتعود الصبح حتى يصبح من طباعه، فكما أن الإنسان يحتاج أن يحلم عنه من هو مسؤول عنه فهو بالتالي عليه أن يحلم عمن هو مسؤول عنهم، لأنك في الأصل تعبد وتوحد الحليم المطلق، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} ^{٢٢٨}، وقد كان لنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفضل قدوة وأروع مثال للصبر وتحمل مصاعب الأمور وتخطيها بالحلم، فلم يأخذ الغضب فعاقب بما يتعدى الحدود بل كان كثير الصبح دائم الصبر حليماً متأنياً في أموره وأمور من حوله.

لذلك فخليفة الله بالإضافة لا يجب أن يؤخر حلمه عن غضبه، ولا تعجله عن صبره، فبذلك يصل إلى معالي الأمور، وتكون علاقته بمن حوله من علاقته بالحليم المطلق، الذي يصفح ويعفو مع قدرته عز وجل.

هـ . لعلمه:

العلم النافع يجب أن يكون مشاعاً لكل الناس، لا يحتكره أحد لنفسه، فالفائدة من علم نافع هي فائدة يجب أن تكون جماعية وليست فردية وإلا لما كانت فائدة من الأساس، لذلك نجد أن العليم المطلق أكد على وجوب تحصيل العلم النافع الذي يصل بالإنسان إلى أعلى درجات الرقي في التفكير، فأول ما دعا إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو العلم ولو بإشارة له، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ^{٢٢٩}، فالقراءة أصل المعرفة ولكن ليست أي قراءة فكثيراً ما نجد أعداداً هائلة

^{٢٢٨} الشورى ٤٠ . ٤٣ .

^{٢٢٩} العلق ١ . ٥ .

من الكتب داخل المكتبات حالياً ليست لها علاقة بالعلم النافع الذي يوصي به الله تعالى خلفاءه، فالعلم الصحيح هو الذي إذا ساد في مجتمع ما آخر الجهل بل أنهاءه، فالجهل نقيض العلم ولا يمكن أن يسير أحدهما في طريق الآخر دون أن يتصادما، وعلم لا يقود إلى الهداية ضلالة، ولذا فالعلم هو المؤخر للجهل والمرض والذل والظلم وللغش والتزوير والخيانة.

ومن شأن العلم أن يؤخر الغفلة التي قد تسود النفس البشرية في غياب المعرفة التي من شأنها أن تنير هذه النفس، فتبدع وتملك القدرة على خلافة الأرض.

وعلى خليفة الله بالإضافة أن لا يجعل من علمه عاملاً مؤخراً له، فلا يؤخره عن أحد ولا يمنع غيره من الاستفادة منه، فتكون دعوته البحث والفحص عن محاسن الأخلاق ومفاتها بعيداً عن الغرور والتكبر به، فيؤدي به ذلك إلى الخوف من العليم المطلق في الأقوال والأفعال، فعلم كهذا إذا ساد وانتشر ولم يتأخر عن أحد اتجه الناس للعلم بصفات الله تعالى وأحكامه وما هو حلال وحرام في حدود الإقدام على ما يجب والابتعاد والاجتناب عما لا يجب الإقدام عليه، قال تعالى: {أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَانقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَانقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} ^{٢٣٠}، فالعليم المطلق يخاطب من يبحثون عن العلم لأن فيهم فلاح وصلاح الأرض،

وبهم يتأخر الجهل والضلال بين الناس ويتأخر الجهل تعلو درجات الإيمان الحاصل عن الوعي بما أرادنا الله تعالى أن نكتشفه بعقولنا وقلوبنا.

ولهذا يجب على الخليفة أن يكون مؤخراً للآتي:

أ . لغضبه:

الغضب من أسوأ نتائج الانتقام السريع الذي يدمر الإنسان نفسه ومن حوله ويوقعه في دوامة الندم والحسرة، فعندما يؤخر الإنسان الحلم في نفسه فبالضرورة أن يكون الغضب متقدماً في نفسه على الصبر والتأني، وليس معنى ذلك أن لا تتحرك مشاعر الغضب لدى الإنسان أو أن تتجمد عواطفه، بل المقصود أن لا يكون الغضب والانفعال السريع رائداً في نفس الإنسان، فيقوده غضبه إلى التماذي في الرد وهذا التماذي لا يكون عاقبته إلا سيئة وخطيرة، وكثيراً ما نلاحظ أنه في جرائم القتل والضرب يكون دافعها فورة غضب عارمة تلم بالإنسان يدعمها الشيطان لتتم الخطيئة والمعصية.

وعلى خليفة الله بالإضافة أن يكون مؤخراً لغضبه بقدر الإمكان ليؤخر بذلك أخطاءاً ومعاصي جملة تتعلق بسرعة غضبه، وعليه أن يتخذ من علاقته بالله تعالى دليلاً له للتعامل مع نفسه ومع من حوله، فأصل العلاقة الصحيحة بين الله وعبده هي علاقة رحمة وحلم مطلقين من الحليم المطلق عز وجل.

ب . لحكمه على الناس:

الحكم الصحيح على الناس يتطلب الوقت الكافي للمعرفة والحكمة والتأني في تكوين هذا الحكم، حتى لا يقع الإنسان في الخطأ، فلا بد أن يؤخر الإنسان حكمه على الغير إلى ما بعد التجربة والدليل، فلا يتسرع في حكمه على أحد فيظلمه دون علم أو دليل، لأن في تكوين الحكم السريع على الناس مخاطر جملة منها فقد الثقة ببعضهم، وعدم الفهم الصحيح للتصرفات الخارجية للغير فتقل المحبة وتتأخر في المجتمع البشري، فيتعامل الإنسان مع غيره على أساس رأيه هو ونظرته في ذلك الإنسان وكأن حكمه لا يمكن أن يكون خطأ .

والحال مع خليفة الله بالإضافة يكون مختلفاً لأنه لا بد أن يكون متأنياً في تكوين رأيه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ بِبَنِيٍّ فَتَبَيَّنُّوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^{٢٣١}.

ج . مؤخراً لحاجته عن حاجة من حوله:

الإيثار من الصفات النبيلة التي قد لا تتواجد بكثرة في النفوس البشرية، فنلاحظ أن من الناس من يؤخر حاجة غيره عن حاجته، فلا يلتفت إلى غيره إلا بعد استكمال تلبية حاجاته الشخصية، ولكن هذا لا ينفي وجود هذه الصفة الكريمة في صدور بعض الناس الذين أفلحوا في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^{٢٣٢}.

ونلاحظ أن صفة تأخير الحاجات الشخصية عن حاجات الغير متواجدة في شخصيتين متميزتين في حياتنا وهما الوالدان، فالأب والأم يؤثران حاجات الأبناء عن حاجاتهما الذاتية، فنجد الأب يسعى في الدنيا جاهداً لتوفير احتياجات أبنائه مؤخراً حاجاته الدنيوية عن ذلك، وكذلك الأم فيكون كل هدفها تحقيق رغبات أبنائها وطلباتهم، متناسية حاجاتها وطلباتها الشخصية. وعليه يكون الخليفة مؤخراً للآتي:

١ . للشر بتقديم الخير:

الكون مليء بالشرور والخيرات، وكل منها ينمو بالرعاية والمحافظة، فالشر سريع الانتشار حينما يجد الأرض الملائمة في داخل النفس البشرية التي يسيطر عليها الشيطان الرجيم، فيسكن فيها ويبث شروره وحقده التي يسير الإنسان بها في الأرض مفسداً ومدمراً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ

^{٢٣١} الحجرات ٦.

^{٢٣٢} الحشر ٩.

يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} ^{٢٣٣}، ولا يكون القضاء عليه إلا بزرع الخير بدلاً منه والخير بالتالي لا يأتي إلا بحب الله الذي من شأنه أن يجعل الخير طاعياً على جميع مناحي النفس البشرية، وبذلك يستحق الإنسان خلافة الله في الأرض بدعائه للخير وتأخيره ما استطاع لكل دعوات الشر في الكون، فيكون سلاحه الخير سلاحاً فعّالاً يرتوي من نبع محبة الخالق الذي أمرنا بنشر الخيرات والفضائل وهما الوسيلة التي نواجه بها كل شرور المفسدين، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ^{٢٣٤}.

١ . لليأس بتقديم الأمل:

لا يجتمع اليأس مع الأمل في نفس بشرية واحدة، إذ أنه لا بد أن يميت أحدهما الآخر، فاليأس حين يتمكن من القلب تتطفئ كل شموع الأمل فيه، ولا يمكن أن يتكمن اليأس من القلب الممتلئ بذكر الله تعالى وخشيته، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} ^{٢٣٥}، والمعادلة هنا واضحة فلا وجود للأمان والطمأنينة إلا بوجود الأمل والأمل بدوره لا يمكن أن يولد ويكبر إلا في الأرض المناسبة وهذه الأرض هي روح الخليفة وقلبه، وبالتالي لا يمكن أن يكون اليأس أحد طرفي هذه المعادلة، فالخوف ينتفي مع الأمان واليأس ينتفي مع الأمل، والآية الكريمة السابقة قد أقرت مبدأً رائعاً لو سار عليه البشر لما خسروا دنياهم وآخرتهم، وهذا المبدأ هو إذا بحثت عن الطمأنينة فعليك أولاً بالبحث عن مكانة الله فيك، فكلما زاد حبك لله وقربك منه أهداك الله أماناً يبحث عنه أغلب البشر ولا يجدونه في عملٍ رابح، أو ابنٍ ناجح، أو زواجٍ مميز، فحب الله للعبد لا يمكن أن يساويه محبة العبد للعبد، "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا

^{٢٣٣} الشعراء ١٥٢.

^{٢٣٤} آل عمران ١٠٤.

^{٢٣٥} الرعد ٢٨.

ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَا ذَكَرْتُهُ فِي مَلَا خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرِ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً^{٢٣٦}.

وخليفة الله من كان الخير متقدماً في نفسه، يدعو إليه ما استطاع لعلمه أن الدعاء للخير تأخير للشر في الدنيا، وفيه غلبة الإنسان على الشيطان وما يوسوس به لبني الإنسان من ضلال وفساد.

٣ . الباطل بتقديم الحق:

قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}^{٢٣٧}، فالباطل في أصله ضعيف وزائل والحق قوي وباقي لأن الله حق والله باقي، ولا يمكن للباطل أن يتقدم على الحق إلا لأجل يعلمه الله ليأتي الحق دامغاً للباطل ومزيلاً له، قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}^{٢٣٨} حتى ولو تأخر الحق قليلاً إلا أنه يبقى متقدماً عن الباطل في قلوب خلفاء الله في الأرض، قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}^{٢٣٩}.

وقد كان لنا في الأقوام السابقة أكبر عبرة، فقد زال كل ما كانوا يدعون من دون الله لأنه كل ما كانوا يدعون من دون الله هو باطل وبقي الحق وأظهره الله بأمره بالتوحيد والعبادة له وحده، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}^{٢٤٠}.

^{٢٣٦} صحيح البخاري، ج ٢٢، ص ٤٠٩.

^{٢٣٧} الإسراء ٨١.

^{٢٣٨} الأنبياء ١٨.

^{٢٣٩} سبأ ٤٩.

^{٢٤٠} الحج ٦٢.

وخليفة الله من دعا للحق دائما وأرسي دعائم هذا الحق في زوايا نفسه، فلا يترك للباطل مدخلاً يلج منه لروحه، وبدعوته للحق فإنه يؤخر تقاوم الدعوة للباطل التي تكون سريعة الانتشار في النفوس بالعديد من الوسائل منها:

* التودد لأعداء الله:

فالقرب وتملق أعداء الله لهدف ذاتي أو لغرض بشري من شأنه أن يجعل الباطل يسود مناحي نفسه ويسيطر على ذاته فيدعو غيره لذلك وعمل على نشر الباطل الذي أمرنا الله بالقضاء عليه، قال تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} ^{٢٤١}، فعاقبة هذا الود هو سوء المصير وفساد الحال، في حين أن الحق يدعو إلى صلاح الحال والنجاح الأكيد في الدنيا والآخرة.

* اللجوء لغير الله:

اللجوء لغير الله مذلة، والعمل الصالح خير مقرب لله تعالى، فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره ومن عمل مثقال ذرة شرا يره ولا يظلم ربنا أحداً، ولهذا فالمشركون هم الذين يتخذون مع الله إلهاً آخر، والله واحد احد لا إله إلا هو عز وجل، وهكذا الذين اتخذوا أولياء ليقربوهم إلى الله زلفى قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} ^{٢٤٢} وهكذا بعض الناس يخافون البعض الآخر منهم، وكان ما يصيبهم بسبب ما يملكه هؤلاء

^{٢٤١} آل عمران ٢٨.

^{٢٤٢} الزمر ٢ - ٥.

الأولياء من إرادة متناهية وسلطة غير محدودة، فإذا تحقق صدفةً ما يطلبه أحدهم دعا غيره إلى اللجوء لهذا الباطل وبهذه الدعوة تنتسح دائرة الباطل وتنتشر هذه الدعوة الفاسدة، وترسخ في العقول تلك الفكرة الباطلة التي تسير باتباعها إلى الهاوية وسوء المصير. وخليفة الله أن يكون درعاً محافظاً على الحق، وسهماً مصوباً في اتجاه الباطل ليردعه ويخفي معالمه في صدور وعقول الناس، فيؤخر بذلك ازدياد وتفاقم الباطل بين الناس.

٤ . للجهل بتقديم العلم:

من أوائل ما دعا إليه ديننا الإسلامي القيم هو العلم، فبه يصل الإنسان إلى أعلى درجات التقوى وحب الله، فلا حب ولا خشية تسكن القلوب دون علمٍ نافع ومعرفة تدلنا على قدرة الخالق، هذا العلم الذي به نستطيع أن نسحق الجهل الذي يؤدي بصاحبه إلى الضياع والهلاك، والعلم الذي يدعو إليه الله تعالى هو المتصل بالتوصل لمعرفة الخالق، فكلما زادت درجة علم الإنسان زادت درجة معرفته لله، لأنه الظاهر في كل شيء بقدرته وعظمته، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ^{٢٤٣}، فقد جمع الله تعالى في هذه الآيات الكريمة ما بين العلم والإيمان، فكل هذه الدلائل في الأرض هي هدية من الله سبحانه وتعالى إلى من أراد بعلمه أن يصل لخالقه معرفة وتقوى دون أن يلجأ لشيء آخر، فبالعلم الصحيح النافع يصل الإنسان إلى أعلى درجات الإيمان بهذا الخالق العظيم.

وبالتالي فالجهل أساس التكبر والجحود حتى لو كان الإنسان عالماً في مجال الطب أو الهندسة أو أي نوع من العلوم الأخرى، فالجاهل حقاً هو من لا يسمع للحق ولا يُلقى له بالاً وهو من لا يرى الإبداع والعظمة في الإعجاز، فلا ينطق لسانه إلا بالباطل فيظل في الدنيا جاهلاً، لأن العلم الذي يرقى بالإنسان هو العلم الذي يقود الإنسان لإماتة الغرور والتكبر في النفس، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ} ٢٤٤، فالجهل هو أقرب طريق لجنهم وبئس المصير والعلم النافع هو أقرب طريق لجنات النعيم، لذلك أمرنا الله أن نتوصل لحبه ومعرفته بالعلم والتأمل كما كان شأن أغلب الرسل والصالحين وخلفاء الله في الأرض.

لذلك فخليفة الله تعالى لا يمكن أن يكون جاهلاً ضالاً الطريق، فالجهل من شأنه أن يؤخر منفعة الإنسان من الحياة واستفادته من الوقت المحدد له في الحياة، فلكل إنسان عمرٌ محدد لا يمكن أن يزيد أو ينقص ساعةً واحدةً، إذن العلم النافع والصحيح هو أحد مكونات خليفة الله، الذي يجب أن لا يتأخر به ولا يبخل به عن أحد طلبه بل لا بد للخليفة أن يسير في الأرض ناشراً ما لديه من علمٍ ومعرفة فيقدم بذلك الوعي والصحة الإيمانية لدى الناس عن الغفوة والضلال الذي قد يقع فيه البشر بسبب سوء الفهم والوعي لديهم، لذلك فقد فضلّ العليم المطلق العلماء عن بقية خلقه لما لهم من دور إيجابي في التعرف على الخالق بالشكل السليم وبما يجب أن يكون لهم من تأثير إيجابي بين الناس بدعوتهم وتذكيرهم بالحق إذا ضاع منهم، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} ٢٤٥، فكما جاء في الآية الكريمة لا تسكن خشية الله في قلب الإنسان إلا بما توصل إليه هذا الإنسان من معرفة بما يستحقه هذا الخالق العظيم، فالقرب الذي يولده هذا العلم بين الإنسان والمولى عز وجل من شأنه أن يصحح خطى هذا

٢٤٤ الأعراف ١٧٩.

٢٤٥ فاطر ٢٨.

الإنسان ويجعله مدركاً لما عليه ربه من عظمة وما يستحقه من أجلال، بذلك يؤخر هذا العلم الذي ترسخ بالشكل الصحيح في عقل وقلب الخليفة إذا سار به بين الناس آخر الجهل الذي يقودهم إلى الخطيئة والمفاسد، فيتجهون إلى العقل للاستفسار ويتجهون بالقلب للاستفتاء فيجدون بذلك الله في عقولهم وقلوبهم وإذا وجدوا الله تعالى فقد وصلوا إلى أفضل حياة ونالوا أفضل مصير.

فالعليم المطلق قد رفع قدر العالم وآخر الجاهل، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ^{٢٤٦}.

٥ . للمرض بتقديم العلاج:

والمرض هنا نوعان المرض الجسدي والمرض النفسي، والمرض النفسي أكثر صعوبة وتعقيداً من المرض الجسدي، وكل منهما يصل بالإنسان إذا تأخر العلاج أو أهمل إلى أسوأ النتائج، فالمرض الجسدي يجب أن يُعالج بالدواء وبالأمل من شأن العلاج الأول أن يحد من المرض أو أن يقضي عليه نهائياً فبذلك يؤخر استفحال وانتشار المرض بهذا الدواء، ومن شأن العلاج الثاني أن يعمل على القضاء على المرض وعدم الاستسلام له فيذكر الله في مرضه وصحته وبذكر الله يتجدد الأمل بشفاؤه وتخطيه لكل مرض، لأن ذلك من عند الخالق وهو القادر على تخليصه من كل داء إذا شاء، والنوع الآخر من المرض هو المرض النفسي الذي قد يصيب بعض الناس بسبب عوامل عدة منها التي تتكون داخل نفس الإنسان ومنها من تأتي له من البيئة المحيطة به، فيتزلزل كيان هذا الإنسان ويصبح متأخراً بعطائه وبقدرته على التكيف وسط الناس، ويؤدي بهذا الإنسان إلى أسوأ مصير كالانتحار أو الانطواء المميت الذي يفقده الانتفاع من نعمة الحياة، ولكي نتقاضي هذه الأمراض النفسية يجب أن نتقدم نشر الوعي الإيماني لدى الناس بخطورة تفشي هذه الأمراض المدمرة التي من شأنها أن تهدم البنية التحتية لأي مجتمع تكثر فيه، وهذا الوعي يأتي على مراحل منها:

* الاختيار الصحيح للزوج:

فكل من الزوجين عاملٌ مهمٌ وأساسي في بناء شخص سليم نفسياً قادراً على العطاء، إذ أن العلاقة السوية بين الزوجين تنتج عنها بالتأكيد أشخاص صحيحين نفسياً لا تشكل الأزمات التي نمر بها في الحياة أي خطورة في مسيرة حياتهم، بل نجدهم أشخاص باحثين عن الأفضل في الدنيا، على عكس من يجد نفسه وسط بيئة هي خليط من التناقض الذي يولد الأزمات بين الزوجين التي من شأنها أن تستقر في نفس هذا الابن مخلفة فيها أسوأ أثر، فلا يستطيع هذا الإنسان أن يعيش فرداً سوياً معطاءً وسط مجتمعه، بذلك فإن المرض النفسي يؤخر تطور المجتمع من كل النواحي والمجالات وبهذا التأخير لن يصل أفراد هذا المجتمع إلى درجة الوعي والتطور المنشود في الحياة ولذا خلق الله الإنسان ليطور الحياة ويسمو بها فوق كل شيء آخر كنعمة من المولى عز وجل وهبها للإنسان طالباً منه المحافظة عليها باستخلافه فيها وتأمينه عليها، وهذه الخلافة يؤخرها عن تحقيق الهدف من كان ذو نفسية مريضة أو من كان عاجزاً بشكل جزئي أو كلي عن تحمل ما هو أقل مسؤولية عن خلافة الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} ٢٤٧.

* الثقافة الدينية السليمة:

لا يمكن إهمال هذا الجانب المهم في حياة أبنائنا، وليس المقصود هنا فقط تعليمهم أصول الصلاة وأركان الإسلام فقط، بل تهيئتهم دينياً لمواجهة أي زلزال قد يصيب النفس البشرية إثر فشل في موضوع ما أو توالي الأزمات على الإنسان، أو التأثير ببعض الشخصيات التي لها

تأثير سلبي، فمن شأن الثقافة الدينية أن تتأى بالنفس البشرية عن كل ما هو مدمر وفساد، فنكون بذلك مؤخرين للتخلف الديني الذي يصل بنا إلى التخلف الحضاري، والثقافي، والديني، بذلك فقط نستطيع أن نكون مجتمعاً صالحاً قوياً يواجه أي أزمات من أي نوع كانت وفقاً لدائرة الممكن.

ولا يجب على خليفة الله الاتكال على الوقت للإصلاح أو إهدار العمر فيما لا ينفع بحجة وفرة الوقت للتوبة لأن المؤخر هو المقدم والمفاجئ والمباغت على غفلة من الزمن لا يدري الإنسان متى تكون، عندما لا ينفع ندم ولا عتاب على ما فرط في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أُوذَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^{٢٤٨}، فالمؤخر حين يخاطب العقل البشري فذلك كي يدمغه بالحجة والبرهان ولكي يوضّح له طرق الخير والهداية فيستفيد من تأخير عقابه بالرجوع إلى الله الحق، وتعديل ما يمكن تعديله.

ومن حكمة المؤخر ورحمته بعباده أنه:

آخر الحاجات الدنيوية عن مشبعاتها:

فقد خلق الله مشبعات الحاجة عن الحاجة نفسها، فنلاحظ أنه قد هيا وجّه حاجات الإنسان على الأرض حتى قبل خلقه، مؤخراً بذلك حاجته عن مشبعاتها، فخلق الهواء والماء والسماء والأرض والجبال وغيرها من مكونات الحياة ومتطلبات الإنسان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ

وَيُنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ^{٢٤٩}، وقال تعالى: {الَّذِينَ نَجَّيْنَا مِنَ الْأَرْضِ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} ^{٢٥٠}، فجاء الإنسان بحاجته إلى الأرض فوجد ما يسده عليها من حاجات مادية ونفسية، فأخر قدوم الأبناء إلى ما بعد خلق مشبعتهم المادية والنفسية، فنجد أنه قبل خروج الجنين من رحم أمه يوجد الله تعالى مشبعات حاجته للطعام، بأن يخلق الحليب في ثدي الأم فيشبع حاجته للطعام وتكون متوفرة فيأتي الوليد بعد مجيء طعامه، وكذلك يهيئ الله تعالى ويوفر ما يحتاجه من متطلبات نفسية كالحاجة للشعور بالحنان والأمان والرعاية والدلال قبل أن يأتي للدنيا بوجود الوالدين اللذان يمثلان كل تلك المشاعر، وخليفة الله بالإضافة عليه أن لا يؤخر هذه المشاعر عنهما في كبرهما وحاجتهما، فلا يتأخر بحنانه ولا بحبه عنهما ولا ينتظر أن يسألانه عنهما، قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} ^{٢٥١}.

آخر مراحل العمر مع النضج:

فقد آخر الشباب عن الطفولة وآخر الشبيبة عن الشباب، فيأتي الإنسان إلى الدنيا طفلاً يتعلم من والديه وممن حوله ما يبني به أساس شخصيته فيكون بحاجة إلى من حوله لكي يشب ويشق طريقه معتمداً على نفسه قوياً ثم يرجع بعد القوة ضعيفاً وذلك ليعلم الناس أن الله هو الخالق المبدع الحكيم الذي بيده أمرنا من أوله لآخره، فبتقديم الشباب عن الشيخوخة تتقدم القوة على الضعف، والقوة حين توجد تجعل الإنسان مغروراً وأحياناً متكبراً فتأخرت الشيخوخة لمحاسبة فورة

^{٢٤٩} الأنعام ٩٩.

^{٢٥٠} النبأ ٦ . ١٦.

^{٢٥١} الإسراء ٢٣، ٢٤.

الشباب كالهدهوء بعد العاصفة، ففي هذه المرحلة يتفقد الإنسان الأضرار التي قد تصيب الروح والنفس في المرحلة السابقة لها، فكان لهذا التأخير أثر إيجابي في تعديل السلوك ومحاسبة النفس.

والله هو المؤخر المطلق فلا يكون تأخيره إلا لصالح البشر وخيرهم، فيؤخر أمور عباده إذا أراد لغاية لا يدركها الإنسان بعلمه المحدود البسيط، فهو يؤخر مثلاً الأشياء غير المدركة عن فهم واستيعاب الإنسان كي يسعى ويجتهد عقله في التفكير والتدبير ليصل إلى الحق والهداية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ^{٢٥٢}، لذلك فإننا نلاحظ أن الكثير من الآيات القرآنية التي تدعو إلى إعمال العقل لا إلى إطفاء نوره، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ^{٢٥٣}، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ^{٢٥٤}.

وهناك نوعان من التأخير عند البشر منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم:
النوع المحمود:

^{٢٥٢} الأنعام ٧٦ . ٧٩.

^{٢٥٣} البقرة ١٦٤.

^{٢٥٤} الذاريات ٢٠، ٢١.

هو ما كان في سبيل الإصلاح وما فيه الخير والنجاح، فلا يكون لهذا التأخير أية آثار سلبية تعود على الشخص ذاته أو على من حوله، فلا يؤخر الإنسان أعمال الغير ومتطلباتهم بدون وجه حق، لأن بتأخير أعمال الناس يتأخر قضاء المصالح فتتأخر الفائدة المنتظرة من ذلك. النوع المذموم:

مثل تأخير الإنسان لأعمال العباد وتأخير قضاء مصالحهم، فتعم الفوضى والشكوى وتتأخر النتائج المرجوة من تلك الأعمال، ومثل تأخير العبادات لما بعد انشغاله بتوافه الأمور، فلا يقوم للصلاة إلا بعد فراغه من السهر والحديث مثلاً، فيتأخر بذلك الخير.

وتأخير الله سبحانه وتعالى يكون في دائرة المطلق فهو يؤخر ما يشاء إلى وقتما يشاء وكذلك يقدم ما يشاء ولا يمكن لأي مخلوق أن يتدخل في هذا التوقيت المنظم، فهو المؤخر الذي يملك أسباب التقديم والتأخير بالإطلاق، ولا يملك غيره هذه الأسباب، أما المؤخر بالإضافة فتأخيره لا يكون إلا في دائرة النسبية، فهو يستطيع أن يؤخر ويقدم فيما يملك بما ملكه الله فيه، ويكون تأخيره بحدود لا يمكن للإنسان أن يتعداها أو أن يتجاوزها بتأخيره في ملك غيره من البشر، فما بالك في ملك الله اللامحدود؟.

فالحمد لله على أنه هو المؤخر المطلق، فلو لم يكن مؤخراً كما هو ما سار هذا الكون على هذا النسق البديع والمحكم، لكانت الفوضى سائدة فيه، وما كنا استشعرنا الأمان والرحمة فيه وما كان الأمل في مغفرته وعفوه حياً في نفوسنا.

وقد تطلبت حكمة الخالق عز وجل ومشيبته أن يختلف الناس من حيث الأشكال والألوان والأعمال، فكانت هناك درجات وفروق بين الناس، قال تعالى: {أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} ^{٢٥٥}، ومع اختلاف هذه الأشكال والصفات في البشر إلا أن الإنسان بصفة عامة إذا أدرك ووثق بقدره وحكمة الله تعالى المطلقين لما اعترض على ما لديه وطلب المزيد، لأن الإنسان كثير المتطلبات والأحلام التي ينشغل بالسعي لتحقيقها في الدنيا

متناسياً أنه لا يستطيع تغيير مجرى أمور كثير تُخْلَق من أجله، كموعد ميلاده وهوية والديه وغيرها من الأمور التي تتعلق بمشيئة الله وحده، ولكنّ الإنسان له حرية اختيار الدرب الذي سيسير عليه في الحياة الدنيا، فإذا اختار الصدق والتزم الأمانة والدعوة للخير فقد رفع مكانته عند الله تعالى، وإذا انتهج نهجاً دنيوياً خالصاً لا يلتفت لله في أي عمل يقوم به فقد انخفضت درجته عند الله، إذن هناك من يسعى للرفعة عند الخالق عز وجل وهناك من يسعى للرفعة في الحياة الدنيا، ومن هنا جاء الاختلاف الحقيقي بين البشر وجاء تقديم وتأخير العباد عن بعضهم البعض، قال تعالى: {إِنِّي أَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} ^{٢٥٦}، فالتكريم للعبد من الله أساسه عمل الإنسان وسعيه في الدنيا بالحق والخير وتأخير سعيه للدنيا وتقديم سعيه لله عز وجل.

وبما أن الإنسان بصفة عامة يقع تحت اختيارات كثيرة ومتنوعة في الحياة، فلا بد أن يملك الحكمة والعلم الكافيين لتقديم وتأخير الأشياء بعضها عن بعض ومن هنا يظهر ويتميز خلفاء الله، فنجدهم يؤخرون إرضاء البشر عن رضا الله، ويقدمون ما ينفعهم في الآخرة عن ما ينفعهم في الدنيا، فيكونوا مؤخرين لشهوات النفس وطلباتها الدنيوية، فلا يسعى لتوافه الأمور ويؤخر حق الخالق عليه، وسوف يعلم الإنسان يوم يقف بين يدي الله تعالى ما قدّم وما آخر، قال تعالى: {إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ} ^{٢٥٧}.

بذلك يكون من صفات خلفاء الله تعالى أنهم متأخرون في طلب الدنيا ومتاعها الزائل، لكنهم المسارعون في طلب الآخرة والسعي إليها، لعلمهم أن ما عند الله تعالى أبقى لهم، نزولاً عند قوله تعالى: {وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا

^{٢٥٦} يس ٢٥ . ٢٧ .

^{٢٥٧} القيامة ١٢ . ١٥ .

تَعْقِلُونَ^{٢٥٨}، وكذلك قوله تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^{٢٥٩}، فكانوا سمّاعين لكلام الله زاهدين في الحياة الدنيا بما فيها، عيونهم وقلوبهم ممتدة شوقاً للقاء الخالق الكريم، يرجون حلمه وعفوه ورحمته، يطمعون في صحبة رسولهم الكريم عليه الصلاة والسلام في جنة الخلد، تملئ قلوبهم الرحمة والحب، فيؤخرون حب الدنيا عن حب الآخرة، فالدنيا ما هي إلا هبة من الكريم ونعمة أهدانا إياها طالباً منا الحفاظ عليه، لذلك فخلفاء الله بالإضافة لابد أن يكونوا على يقين أن من يتأخر عن الله يؤخره الله فلا فوز له في الآخرة بما شغله عنها في الدنيا من متاع زائل، يوقعه في الندم على ما فرط في الدنيا من وقت وعمل، قال تعالى: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^{٢٦٠}، فالتأخير سيكون مطلب الإنسان الخاسر يوم القيامة، أملاً منه بالنجاة مما يراه، ولكن المؤخر المطلق لن يؤخر الأجل الذي قدره هو عز وجل، قال تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^{٢٦١}.

واعلم أيها الخليفة الذي أرادته الله على الأرض إنك إذا وصلت متأخراً إلى الحقيقة قد خسرت خسراناً كبيراً، كما خسر فرعون عندما أنزل الله تعالى عقابه عليه، عندها فقط أدرك متأخراً جداً أن الله حق وأنه لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، فلم يحصد إلا الندم والعذاب بتأخير هذا الاعتراف الذي هو أصل كل النجاح والسعادة.

فشعورك بالاستسلام لله وخضوعك للرحيم المطلق الذي يمنحك راحة لن تجدها في مال أو ولد أو زوجة أو أي شيء آخر، لن تجده إلا بين يدي الله تعالى، وهذا ما يخسره الكافر، قال تعالى:

^{٢٥٨} القصص ٦٠.

^{٢٥٩} الأعلى ١٧.

^{٢٦٠} المنافقون ٩ . ١١.

^{٢٦١} نوح ٤.

لَوْجَاوَرْنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ أَمَنْتُ
 أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
 الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنجِيكَ بِبَدْنِكَ لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَعَافُونَ} ٢٦٢،
 فلا تؤخر أيها الخليفة شعورك بالسعادة، وهذا الشعور لا يأتي إلا بحبك لله، الذي يحب أن
 يرحمك فكيف لا يؤخرك رحمةً بك؟.

وعليه فالمؤخر يؤخر لأجل أن يُقدم، يؤخر الظلم ليقدم العدل، ويؤخر الغضب ليقدم الرضا،
 ويؤخر الجهل (الظلام) ليقدم العلم (النور)، ويؤخر الاقتتال ليقدم الجهاد، ويؤخر الكره ليقدم
 المحبة، ويؤخر الحسد ليقدم المودة، ويؤخر العذاب ليقدم المغفرة، ويؤخر الكفر ليقدم الإيمان به
 واحداً أحداً لا شريك له ولم يكن له كفواً أحد، ويؤخر الفقر ليقدم الزكاة والصدقة والغنى، ويؤخر
 الركوع والسجود لغيره ويقدم الركوع والسجود له، ويؤخر الطلاق ويقدم الزواج، ويحق الحق
 ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

اللهم يا المؤخر لا تؤخر عنا المغفرة والفلاح، واجعلنا من الغانمين الفائزين، اللهم آخر عنا
 العناء والتعب والألم والجهل والمرض والفقر وقدم يا المقدم لنا الخير في الدارين.
 اللهم يا المؤخر إنك تؤخر العقاب ليوم الحساب فلا تجعل لنا من الأقوال والأفعال والأعمال ما
 يؤدي إلى ذلك، اللهم يا المؤخر برحمتك تؤخر الحساب على الخطايا والذنوب لأجل نيل الرحمة
 والمغفرة قبل الموت فاجعلنا برحمتك ومغفرتك من الفائزين، اللهم يا المؤخر اجعل لنا الفوز
 بالجنة هو الفوز المؤخر بعد الممات، ولا تجعلنا من المعذبين بالنار، اللهم يا المؤخر اجعل لنا
 في ميزانك الحسنات ولا تجعل لنا فيه شيئاً من السيئات، إننا نسألك الرضا بعد القضاء، وبرد
 العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقاءك من غير ضراء مضرة ولا
 فتنة مضلة، ونعوذ بك من الظلم والظالمين والحسد والحاسدين والنفاق والمنافقين والشرك
 والمشركين والكفر والكافرين والفساد والمفسدين واجعلنا من عبادك المصلحين المعمرين

والمفلحين في الأرض، اللهم يا المؤخر نسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، ونسألك قلبا خاشعا
سليما وخالقا مستقيما، ولسانا صادقا وعملا متقبلا، ونسألك من خير ما تعلم، ونعوذ بك من شر
ما تعلم، ونستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ما لا نعلم وأنت علام الغيوب، اللهم اغفر لنا ما قدمنا
وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا، وما أنت أعلم به، فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل
شيء قدير وعلى كل غيب شهيد، فاجعل اللهم خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك.

الأول

الأول هو السابق على كل سابق، والقادر على كل قادر والمهيمن على كل مهيمن، والماكر بكل ماكر والكائد بكل كائد، والخالق لكل مخلوق، وهو المحيي والمميت والباعث من جديد، وهو المحاسب والمعذب والمجازي بالجنة والمعاقب بالنار وهو الرحمن الرحيم.

الأول: "العرب لا تستعمله إلا إلى الله، أو إلى ضميره"^{٢٦٣}.

الأول من أسماء الله الحسنى "يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن"^{٢٦٤}.

الأول من النهاية، مهما فكرت عقلا ومهما تأملت عقلا فستصل في النهاية الواعية بأنه الأول بلا أول، ومهما تذكرت عقلا لن تبلغ لغيره أول، ولهذا فهو الآخر من البداية، وعليه فالقاعدة تقول: (إنه الأول من النهاية والآخر من البداية).

الأول اسم من أسماء الله الحسنى، فهو أول لم يسبقه أول فَحَقَّتْ له بذلك الألوهية وعلا به على كل شيء، فدائما يكون للأول في كل الأشياء فضل على بقيتها فالأول في الفصل الدراسي له الفضل على بقية التلاميذ، فهو الذي يتحصل على المكافأة تقديرا له على جهده وينال بأوليته هذه احترام المعلمين والزملاء في مدرسته .

فمن يبادر بفعل الخير على آخر فيقدم له معروفا ما فيكون هو الأفضل مهما فعل ذلك الآخر من أفعال ليرد جميل ذلك الأول؛ ذلك لأن الأول فعل الخير للآخر دون أي سبب ولم يكن مُلْزَمًا بفعل ذلك، ولكنه تفضل وتكرم، وبادر بفعل هذا الخير بدافع المحبة، أما الآخر فدافعه لفعل الخير للأول هو شكر الأول على فعله السابق ورد جميله عليه، ألا ترى أن الوالد يقدم لولده

^{٢٦٣} مفردات ألفاظ القرآن الكريم - ج ١ ، ص ٤٤٦ .

^{٢٦٤} شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة - ج ١ ، ص ٤٠ .

الحب والرعاية، والإنفاق والاهتمام، وليس للولد يد على الوالد تجبره على فعل ذلك ولكنه يفعله بدافع الحب لهذا الولد، بينما الولد عند فعله الخير للوالد في حال كبره إن فعل ذلك، يكون دافعه هو الشكر على ما قدمه له في صغره كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾^{٢٦٥}، ومهما يقدم له لا يمكن أن يرد له جميله أو يتساوى معه فيه؛ لأن الوالد هو الأول في تقديم الخير، ولذلك جاءت توصية الله تعالى للإنسان بوالديه ولم تكن هناك ضرورة لتوصيته بولده لأن الإنسان يفعل ذلك بدافع فطري فطره الله عليه قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^{٢٦٦} وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^{٢٦٧} وقال أيضا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^{٢٦٨}.

هذا الأمر بالنسبة للخليفة فما بالك بالأول المطلق الذي بدأنا بالكثير من النعم أفلا يستحق منا أن نكون شكورين له على نعمه.

وَتَقَدَّمَ الأول المطلق على كل ما سواه في الأزمان، تقدم لا يحده أي حد، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ

^{٢٦٥} الإسراء ٢٤ . ٢٥ .

^{٢٦٦} العنكبوت ٨ .

^{٢٦٧} لقمان ١٤ .

^{٢٦٨} الأحقاف ١٥ .

كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{٢٦٩}، وهو الأول بملكه لكل شيء بل بتقدمه بالملك والخلق وبذلك هو أصل ومصدر الأشياء جميعاً.

والخالق هو الأول في فعل ما يريد، لا راد لمشيئته ولا مانع لفعله، قال تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}^{٢٧٠}، فالبدائية تتضمن الخلق والخلق يتطلب القدرة المطلقة، والإله الواحد الذي لا يتعدد، لأنه إن كان هناك أكثر من إله لما كان هذا الكون المنظم الذي يسير وفق قوانين ثابتة لا تتغير فالواضع لها واحد لا يتغير وهي ثابتة لثباته ووحدانيته، قال تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}^{٢٧١}، فمثلاً إذا تكونت شركة من مجموعة من أصحاب رؤوس الأموال وكبرت تفرعت فإنه لا بد أن يأتي يوم ويختلف فيه هؤلاء الشركاء على نظام العمل أو الوارد والصادر أو غيرها عندها يصر كل فرد منهم أن يفرض رأيه وينتج عن هذا الخلاف تفكيك الشركة، والكون كذلك لو كان هناك أكثر من إله واحد يخلق وينظم ويقدر لما كان بهذا الإبداع وهذه المتانة في الخلق والتصوير، ولكن الخالق واحد وهو الأول لم يسبقه شيء ولن يعقبه شيء فهو الأول وهو الآخر ليس قبله ولا بعده شيء، وهذا من رحمة الله بنا وكرمه، إذ أنه واحد وإلا لكانت الحياة متناقضة وغير مستقرة بنا بسبب اختلاف الآلهة وتعددتها.

والله سبحانه وتعالى هو الأول الذي يُعَد ولا يتعدد، فيمكن أن يُعَد بقولنا الله واحد أحد الفرد الصمد، وقد وصف الله تعالى نفسه بالأحدية على لسان رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - حينما سُئِلَ عن الله فقال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}^{٢٧٢}، وبالمقابل لا يمكن أن يتعدد فلو كان هناك العديد من الآلهة أو كان هناك حتى إليها آخراً فما كان هو الأول كما هو، ولتضاربت

^{٢٦٩} الحديد ١ . ٣ .

^{٢٧٠} البروج ١٣ . ١٦ .

^{٢٧١} المؤمنون ٩١ .

^{٢٧٢} الإخلاص ١ ، ٢ .

الأمزجة والقدرات ففسد الكون واختل نظامه وذهب كل إله بما أراد، قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} ^{٢٧٣}، وهو الأول والأوحد الذي تعددت صفاته وأفعاله فهو القادر على فعل كل شيء في آن واحد فلا يقف الزمان ولا المكان عائقاً أمام إرادته وقدرته عز وجل، قال تعالى: {فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ} ^{٢٧٤}.

وبما أن الله فردٌ صمد لا يتعدد فمن البديهي أن يكون أولاً فليس هناك من يسبقه أو من يليه، فحكمه لا يتوارث بل هو ملكٌ أزلي لا ينازعه فيه أحد، وليس هناك من يشبهه ولا يُقارن به ومن كان على ذلك فهو الأول بلا منافس له ولا منازع.

والأول هو الذي لا تأتي الأعداد قبله ولا يتأثر بالإضافة والنقص، فالواحد هو الأول الذي يؤثر فيما سواه ولا يتأثر بما سواه، فالعدد واحد عندما نضيفه إلى نفسه أو نكرره مرتين يتكون العدد اثنين وبزيادة واحد إلى الاثنين يتكون العدد ثلاثة وبذلك تكون النتيجة أن العدد واحد هو المركَّب والمُكَوَّن لكل الأعداد التي بعده وهي تتأثر به زيادة فيكون عدداً جديداً أو نقصاً فيكون عدداً سابقاً، فمثلاً العدد ثلاثة عندما ننقص منه واحد ينتج العدد اثنين وفي حال زيادة واحد على العدد ثلاثة يتكون العدد الجديد أربعة، وبهذا يكون الواحد هو الجزء الأول وبأولويته يكون مؤثراً في تركيب الأعداد، في حين أنه لا يتأثر بها لأنه غير مركب، ولو كان العدد واحد مركباً لتغير وتبدل من حال لحال آخر بدخول المؤثرات عليه سلباً وإيجاباً.

وبهذا فإن الله هو الأول الذي لا يتغير ولا يتبدل بل هو ثابت أزلي، ولو لم يكن ثابتاً كما هو لما ثبت نظام خلقه كما أراده فلا يمكن لأي مخلوق أن يتدخل في هذا النظام أو يدعي أنه يستطيع أن يفعل مثله أو يغير شيء منه، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أَوْ

^{٢٧٣} الأنبياء ٢٢.

^{٢٧٤} البروج ١٦.

كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{٢٧٥}، وقال تعالى أيضا مبينا عجز المخلوق عن فعل أفعال الخالق: لَيَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ^{٢٧٦}.

ومن الملاحظ أن كل ما كان مركباً من أجزاء متداخلة فإنه لا بد أن يتفكك ويعود إلى أصله الأول وهي أجزائه الأولية التي تكوّن منها أساساً إما بقوة فاعلة خارجة عنه أو أن يصيبه الضعف نتيجة تقدم السن، أو العطل نتيجة كثرة العمل، فمثلاً الماكنة الكبيرة والرئيسية في المصانع والمعامل تتركب من عدة أجزاء وأجهزة متداخلة ومتكاملة ومن مجموعها تتكون هذه الآلة الكبيرة، وبسلامة كل جزء من هذه الأجزاء يمكن لهذه الآلة أن تقوم بوظيفتها التي صُنعت من أجل القيام به قياماً تاماً وإنجازها على الوجه المطلوب، ومن البديهي أن قوة وجود هذه الآلة تتأثر في حال تلف إحدى الأجزاء المكونة لها، والصانع لهذه الماكنة يمكنه إصلاحها تفكيكها وإتلافها إذا أراد ذلك، بدون أي إرادة للماكنة أو تدخل منها في ذلك. لأن الإنسان الصانع للماكنة بالنسبة لها هو الثابت وهي المتغيرة، وبذلك فإن الثابت يمكنه أن يتصرف فيما هو أقل منه في دائرة النسبية أما المتغير فيفتقد لذلك لأنه لا يستطيع أن يؤثر فيما هو أعلى منه في هذه الدائرة.

فصاحب الشركة بالنسبة للموظف فيها هو ثابت والموظف متغير فالثابت يمكنه أن ينهي عقد المتغير فيها ولا يمكن للمتغير أن يفعل نفس الشيء معه، والله المثل الأعلى.

^{٢٧٥} البقرة ٢٥٧، ٢٥٩.

^{٢٧٦} الحج ٧٣.

فما بالك بالثابت المطلق وهو الأول المطلق الذي لم يسبقه أول الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد الصمد الباقي الذي لم ولن يتغير فالواحد كما عرفنا لا يتغير ولا يتبدل بحال من الأحوال، وهو الصمد الباقي على حاله، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ} ^{٢٧٧} فالله هو واحد لا إله سواه، وقد زاد الله تأكيداً على هذا المعنى وهو معنى البقاء والثبات والأولية والأحدية بقوله: (لم يلد) أي أنه لم يتغير من حالة العزوبة إلى حالة الزواج أو من حالة اللا أبوة إلى حالة الأبوة ومن حالة الفردية إلى حالة الثنائية، فالابن عادةً يحمل من جينات والده الوراثية فيكون بذلك شبيهاً له في شكله وأفعاله، والله تعالى منزّه عن الشبه والمثيل فمن ذا الذي يشبه الأول أو يدعيه!

وبقوله (لم يولد) تأكيد قوي على أن الله تعالى واحد لا يتركب من أجزاء ولا يتجزأ إليها، فالولادة عملية تحتاج إلى أبوين موجودين من قبل وجود المولود، أو على الأقل إلى أم لتحمله ومن ثم تلده كما كان من معجزة مولد نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، لذلك فالمولود لا يمكن أن يكون أولاً لأنه دائماً مسبوق بالوالدين وهما السبب القريب لولادته على اعتبار أن السبب البعيد للولادة هو الله وإرادته بإتمام وتكليل عملية التزاوج هذه بإنجاب الولد، فكم من عملية تزاوج لم يكن نتاجها الإنجاب لعدم إرادة الخالق لذلك، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِائًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِائًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} ^{٢٧٨}.

وكذلك فالولادة تقتضي أن يكون المولود مركباً من خليتين أساسيتين هما الخلية الحيوانية المذكورة والخلية الحيوانية المؤنثة وبتحاد كل منهما يتم تشكيل الخلية الملقحة الأساس الأول للمولود، فإذا بقيت كل من الخلية الحيوانية المذكورة أو المؤنثة مفردة فإنه لا يمكنها أن تكون جنيناً دون أن تتحد مع الخلية الثانية، وعلى ذلك فالله تعالى بقوله: (لم يولد) فإنه ينفي عن ذاته العلية

^{٢٧٧} الإخلاص ٤ . ١ .

^{٢٧٨} الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

التركيب والتجزئ وبنزها عنهما فيكون ذلك دليلاً على أوليته وثباته وبقائه وصمديته على اعتبار أن المركب يتحلل ويتلاشى وهذه سنة كل المخلوقات من دون الخالق عز وجل أما غير المركب فهو الباقي الأبدى ولا يكون ذلك إلا الأول المطلق الواحد الذي لا يتركب وهو الله جل جلاله وفي ذلك قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ٢٧٩.

ولا يمكن أن يكون هناك أول آخر في دائرة المطلق فالأول المطلق هو الله عز وجل ولا مثيل له ولا شبيهه أو نظير في الأولية أو غيرها من صفاته وأفعاله الإلهية، وبذلك قال تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، والكفاء هو المساوي وبذلك لا يوجد من يساوي الله في أي شيء أو حتى يدانيه فيها.

أما الأول في دائرة النسبية فيمكن أن يتكرر ويتعدد، فالأول في فعل ما، قد لا يكون أولاً في فعل آخر وقد يكون معه أول آخر في نفس الفعل وهذا يكثر في نطاق الأول بالإضافة، وهو الأول الذي يستمد أوليته من طاعته وعبوديته للأول المطلق الذي أوجده على وجه هذه الأرض من أجل رسالة عظيمة وهدف سامٍ هو إعمار الأرض، واستخلفنا في هذه الأرض قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ٢٨٠ وقال أيضاً: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ٢٨١ وسيدنا داوود عليه الصلاة والسلام خليفة لله حيث اصطفاه الله هو وجميع الأنبياء والرسل وختمهم بسيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وترك للباقي من العباد حرية اختيار أن يكون خليفة له بإتباعه الأوامر واجتناب النواهي ، أو عدم اختيار ذلك بارتكابه للمعاصي والشرور.

٢٧٩ الرحمن ٢٦، ٢٧.

٢٨٠ البقرة ٣٠.

٢٨١ ص ٢٦.

والاستخلاف لم يكن لكل من خلق الله ويخلقه، فالخلافة لا يكون فيها من لا يتصف بصفات الله عز وجل قولاً وفعلاً وأن يكون هذا المستخلف ربانياً فلا يمكن أن يكون الكافر والظالم والكاذب والخائن خليفة للحق العادل المجيد الودود.

وعليه فالخليفة لا بد أن يكون أولاً في طاعته لأوامر الله تعالى وأن يكون مجال التسابق والأولية بينهم هو هذه الطاعة والانصياع التام للأول المطلق، وأن لا يكون مجال تسابقهم وأوليتهم في مسابقة غناء أو رقص أو قتل وإسراف في الرذائل والشرور مما يتسابق فيه الناس الآن فلا يحصلون من وراء هذه المسابقات التي لا يراد بها وجه الله تعالى إلا على مضيعة للنفس والوقت وغضب الخالق عز وجل.

ولكن ما الحكمة من معرفتنا بأن الله هو الأول. الحكمة في ذلك أنه في معرفتنا بهذا الاسم وإيماننا به توضيح من الخالق لهذا المخلوق بأنه مهما علا وتقدم واخترع وأبدع في الدنيا فإن هناك من هو قبله والأول عليه في كل شيء، ويؤكد الأولوية للخالق في كل ما شيء ويبقى الإنسان مسبوق بهذا الإله في كل ما يقوم أو يفكر به، وهذا من شأنه أن يصل بالإنسان إلى التواضع، والمراقبة، والضعف، وفي ذلك توضيح:

أولاً: التواضع:

مهما ارتفع شأن الإنسان في الدنيا فإن اسم الأول في حق الله يرجعه إلى ميدان التدبير ودائرة التواضع، فبماذا ارتفع شأنه أو اسمه. هل حصل له ذلك لقوة أو لعلم أو لجاه وسلطة. فإن كان قويا فهو ضعيف لقوة الله لأنه الأول في القوة والأسبق، فالإنسان الذي تميز بقوته البدنية على الكثير يصبح مغتراً بها ونراه متفاخراً بقوته، يرمق غيره أحياناً بنظرات التغطرس والغرور، ولكن إذا التقى صدفة مع من هو أقوى منه من البشر تراه قد انكمش على نفسه وخفف من تغطرسه لعلمه بأن هذا الذي أمامه يفوقه قوة، فما بالك بالقوي الأول الذي يفوق كل شيء إذا التفت قليلاً إلى التمعن في اسم الأول في حق الله تعالى لأدرك أنه الأول حتى في القوة، فهو الذي يفوق كل شيء قوة، بل وأنه قادر على سلب هذه القوة من غيره لأنه هو مالکها ومعطيها

لمن شاء، فمن الممكن أن يتعرض هذا المغتر بقوته لحادث فتزول عنه هذه القوة ببتير أحد أعضائه مثلاً أو إصابته بشلل جزئي أو كامل، أو حتى عند تقدمه بالسن وترهل عضلاته ماذا سيتبقى من قوته العضلية. فالقوة التي كان يملكها من الخالق لها وله القوي الجبار الذي لا حد لقوته ولا نهاية لها، فقوته ليست كقوة الإنسان إنما هي قوة مطلقة تعاقب وتحاسب وتخلق وتراقب، قال تعالى: {كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ٢٨٢. وقد أمرنا الله بالتواضع وعدم الاختيال والتكبر على الآخرين في أكثر من آية قال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} ٢٨٣ فيأمرك الله هنا أيها الخليفة بأن لا تعرض بوجهك عن تكلمه تكبرا واستحقارا له، وأن تتواضع مع كل الناس في كل ما تفعل.

وإن كان تفاخر الإنسان بعلمه فأين علمه من علم الخالق السابق بعلمه كل علم، هو العليم الذي لا حدود لعلمه المطلق فالخالق هو المعلم الأول لكل أمورنا، فلا علم لنا إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لَنَا. وإن تفاخر بالجاه والسلطة يكفي أن يفكر من الذي وهب له هذا . أو أن يقارن بين ما يملك هو وما يملك الملك الحق. فسيخرج بنتيجة واحدة وهي أن ما يملكه لا يصل حتى لنقطة في بحر ملك الخالق المطلق، وهذا لأنه الأول فهو المعطي مما لديه وهو الوهاب لمن يريد بما يريد، فالملك الأول لكل شيء هو للأول الخالق المالك، والملك الذي يأتي بعد ذلك في الدنيا لأشخاص محددين هو ملك زائل ومحدود، ومن الممكن أن يزول عنهم بمجرد أن يشاء المالك الأول، قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ

٢٨٢ الأنفال ٥٢.

٢٨٣ لقمان ١٨ . ١٩.

تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{٢٨٤}، فالأولوية لله تعالى في كل شيء تمنحه القدرة والحق المطلق في التصرف والإرادة فلا مجبر له عز وجل ولا رقيب عليه. وإن كان سبب تفاخره لشكلٍ جميلٍ وخَلْقَةٍ حسنة فلا تلبث أن تزول بتوالي السنين وتقدم العمر، أو أنها تزول بحادث عارض إذا شاء الخالق، ويبقى الإنسان على الحال التي أرادها الأول لها أن تكون عليه إما عقاباً وإما ابتلاءً وفي كلا الحالتين ليس على الإنسان فعل أي شيء أمام قدرة الخالق عز وجل.

والخليفة بالإضافة هو من كان التواضع لبنة أساسية في أساس تركيب شخصيته، فهو صفة لا يمكن أن لا تظهر في تصرفاته أو أن تقبع داخله دون إحساس الآخرين بها، وقد اتصف به كل الأنبياء والرسل والصالحين، لأنه من المستحيل أن يجتمع حب الله وحب العباد مع التكبر والغرور في قلب واحد.

والأول في الخلق مدركٌ لما سيكون عليه الناس من تضارب في النفوس والشخصيات لذلك فقد خلق في الأرض والسماء دلائل ماثلة أمام أعين كل الناس من شأنها أن تُشعر الإنسان بضعفه وضآلته فلا ينظر لنفسه ولغيره نظرة رضا وتواضع، قال تعالى: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا^{٢٨٥}، فلا يحتاج الإنسان إلى أكثر من نظرة يوجهها إلى الجبال الشاهقة التي هي من خلق الخالق ليتراجع عن ما يستشعره من غرور وتكبر في الدنيا، هذا الشعور الذي لا يمكن أن يتمكن من نفس خليفة الله بالإضافة، الذي يكون لديه من الإيمان ما يردعه عن الكبرياء والغرور، فهو دائم التفكير في خلقه وتكوينه وهو على درجة من العلم تكفيه هذا الشر، فعلم الخليفة وإدراكه لكل ما حوله من شأنه أن يرقى به عن هذا الشعور المريض الذي يؤدي بصاحبه إلى التعاسة والخسران.

^{٢٨٤} آل عمران ٢٦.

^{٢٨٥} الإسراء ٣٧.

فإذا وجدتَ شخصاً يمسك بيد عاجز بكل حب وتواضع ليعينه على السير في الطريق، أو إذا وجدتَ شخصاً يجالس يتيماً أو ضعيفاً يسمع شكواه وينشغل بهمه، أو وجدته رغم مركزه المرموق إلا أنه ذو نفس شفافة تتوق لحب الناس جميعاً ومساعدتهم هنا تكمن بعض ملامح الحليفة بالإضافة.

وإذا عمرت الأرض فبالأيدي المترابطة ولا ترتبط الأيدي البشرية إلا إذا تواضع الغني والمسؤول والسلطان والملك لكي لا يتكون حاجز بين النفوس بسبب تكبر بعضهم وغرورهم. وأساس إدراك التواضع هو إرجاع كل نعمة تحل بنا من مال أو أولاد أو علم أو جاه أو قوة أو جمال أو غيرها إلى المعطي الأول وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا المفهوم الذي عاش به الأنبياء والرسل أجمعين، كقول سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في الآية الكريمة: {فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} ^{٢٨٦}، حين يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من التيقن من فقرنا إلى الله نكون قد وقفنا على أرض ثابتة لن نزل بنا في بئر التكبر والغرور، بل شعورنا بالتواضع يعري حقيقة احتياجنا لخالق عز وجل.

ثانياً: المراقبة:

من المعروف أنه عندما يشعر المرء أنه مراقب ممن هو أعلى شأن ومكانة منه فإنه يحافظ على التزامه إما خشية وإما احترام وإما الاتنين معاً، إذن فوجود الرقيب ينتج عنه انضباط الشخص الذي يعود عليه وعلى من حوله بالفائدة، فكيف إذا أدرك المرء أن الرقيب الأول هو الخالق! ومن فضل العلم على الإنسان أنه يفتح مداركه لوجوب مراقبة النفس وإلزامها أحياناً بما تستصعبه وتعويدها على وجود رقيب ومحاسب، وأن كل المساحات في الدنيا ليست ملعباً لكي تلهو فيها وتتمرد، إذ أن المعرفة بالشيء تُبطل الجهل بالنتائج، والإنسان يدرك أنه إذا ترك نفسه دون أي رقابة فإنها ستذهب إلى ما تهوى دون رادع أو محاسب لها في الدنيا، فتتحكم فيه الشهوات وتذله المغريات لعدم وجود ما يردعها أو يمنعها من الخوض في تلك الأمور.

ومن شأن اسم الأول أن يمدنا بالسبب الكافي لضرورة مراقبة الذات والتحكم فيها، فهو المراقب الأول للنفوس في هداها وفي ضلالها، فلا أحد من الممكن أن يفلت من هذه المراقبة، وبالتالي لا يمكن أن يفلت أحد من نتيجة هذه المراقبة التي يتولاها خالق النفوس والعالم بها، قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}**^{٢٨٧}، فالآية السابقة توضح لنا عدة أمور هامة منها:

- ١- أن الخالق ربط ما بين عملية الخلق والعلم بما يخالج النفس وذلك للتأكيد على أنه خالق النفوس، ومراقبها بعلمه ودقته وقيوميته على ذلك، فهو الأول في علمه بما في الأنفس والضمائر فلا تخفى عليه خافية، وكيف ذلك وهو العليم بما في الصدور من خير أو شر.
- ٢- رصد الخالق لما في النفوس البشرية يؤكدها قربه من صاحب النفس عينه، والقرب تأكيد أيضاً على الحرص على مراقبة كل صغيرة وكبيرة.
- ٣- السائق والشهيد هما إثباتان على عمل الإنسان في الحياة الدنيا سواء كان خيراً فله من يدونه وإن كان شراً فله من يدونه، وهذا تأكيد ثالث على حرص مراقبة الخالق لخلقه وتسجيل أعمالهم وذلك لغرض الحساب، فمعنى الحساب مفهوم من قدوم السائق والشهيد يوم الحساب لكشف الأعمال.

والمراقبة لا تأتي ولا تصح إلا من القائم على الأمر، فمثلاً القائد يراقب جنوده، والأب يراقب أبناءه، والمدير يراقب موظفيه، والأستاذ يراقب طلابه، والخالق يراقب كل أولئك العباد مهما كانت مكانته لأنهم مولاهم والمحاسب لهم يوم يقوم الحساب، ولا يصح حساب بلا مراقبة تبدأ مع الإنسان وتنتهي مع نهاية حياته، والمراقب بالتالي لا بد أن يكون متقدماًً الجميع في القدرة والعلم والحكمة، وأن تكون مراقبة لا تنتهي بنهاية الخلق أو عند حد معين أو زمن معين، بل لا بد أن

يكون قائماً حياً أزلياً، قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^{٢٨٨}.
 فيما أن الخالق له أولوية المراقبة فوجب بذلك علينا أن نتسابق بمراقبة أنفسنا أمام الله تعالى المحاسب لنا ولكل ما نقوم به من أقوال وأفعال، والخليفة بالإضافة من كان سباقاً في مراقبة ذاته، والأول في الحكم على ما يصدر منه من أقوال وأفعال، مما يساعده على أن يكون الأول في وزن حياته والوصول إلى حياة كريمة يرضاها الله وترضاها نفسه، وأن يكون على يقين أنه لم يُخلق سدى بل أن هناك امتحاناً سيجريه وحساباً سيلاقيه وأنه إذا طلب الفوز والنجاح داوم على مراقبة ذاته وحثها على المكرمات ونهاها عن المنكر والرذائل من القول والفعل ونأى بها عن كل ما هو دافع للخسارة والهلاك، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّؤُوسَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^{٢٨٩}.

ثالثاً: الضعف:

هذا الضعف المحمود الذي لا بد أن يستشعره كل إنسان أمام المولى عز وجل، وبالمقابل يستشعر أيضاً سلطة الخالق عليه كونه جل وعلا الأول في علمه وحكمته وقوته وقدرته وحسابه، فمن شأن ذلك أن يعيش هذا الضعف الأدمي تجاه القوة الإلهية العظيمة التي بدأت خلقه.

والمؤمن الحقيقي هو من يردعه هذا الضعف عن استغلال سلطته وقوته عن التحكم واستغلال من هم أدنى منه مرتبة، بل يكون حاضراً في ذهنه أنه ليس الأول ولو كان كذلك في مركزه في

^{٢٨٨} المائدة ١١٧.

^{٢٨٩} القيامة ٣٦ . ٤٠.

الحياة الدنيا وأن هناك من هو الملك والمهيمن عليه، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ٢٩٠.

والضعف له نوعان:

أولاً: ضعف محمود وهو الضعف المتصف به خلفاء الله، وهو ضعف يلزم الخليفة تجاه الخالق، فلا يتكبر ولا يتجبر في الأرض بما أعطاه ومنحه الخالق عز وجل، هو ضعف جميل من شأنه أن يشعر الخليفة بمدى قوة المولى وسلطته عليه. وعليه كلما استشعرت بالضعف أمام خالق العباد ازددت قوة أمام العباد.

ثانياً: ضعف مذموم وهو الضعف الذي يصيب الإنسان تجاه عدة أمور منها: الضعف أمام مغريات الدنيا وزينتها فلا يملك نفسه أمامه بل تملكه نفسه وتتحكم فيه، فتتهوي به إلى مستنقع الرذائل والفساد، أو الضعف أمام إنسان آخر يملك سلطة أو قوة تفوقه فلا يستطيع النطق بالحق بل يشعر بالخوف أمامه أكثر من شعوره بالخوف من الخالق العظيم.

فخليفة الله من ينمي خوف الله في قلبه لردع أي مفسدة قد تجره لها الحياة الدنيا، فهذا الخوف من الله تعالى من شأنه أن يزرع في قلبه قوة وشجاعة يستطيع أن يكون فيها الأول والمتقدم في فعل وقول الحق، والأمر بالعدل والخير والنهي عن المنكر.

والأول في حق الله يتضمن صفات وأفعال أخرى في حقه مثل:

هو الأول في علمه:

هناك فرق كبير بين علم محدود مقيد له حد معين يقف عنده وبين علم مطلق لا حدود له، والعلم في حق الله تعالى هو علم لا حدود له وفوق كل علم آخر، قال سبحانه وتعالى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} ٢٩١، فلا يرتفع علم عن علم الله لأنه الأول في علمه فاستحق الكمال، والأول استوجب أن يشمل علمه بالماضي والحاضر والمستقبل، وأكبر دليل على أنه الأول في علمه أنه

٢٩٠ الحشر ٢٣.

٢٩١ يوسف ٧٦.

يعلم بالأشياء قبل حدوثها فكيف لا يعرف وهو الخالق والمدبر لكل شيء. وهذا هو علم التقدير والغيب في حق المولى عز وجل، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ٢٩٢، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} ٢٩٣، فأين علم الإنسان الذي يمكن أن يصل لهذه الدرجة من العلم والإدراك ولو كان عالم العلماء جميعاً. والناظر في سير هذا الكون والنظام الذي خُلق عليه لأدرك أن الخالق هو الأول لعلمه، فهناك فرق بين الشريعة التي أنزلها الله تعالى والتي من المفترض أن يسير عليها الكون وبين القوانين التي وضعها الإنسان، فالأولى تحفظ الحقوق ولا تتغير بتغير الأشخاص أو الأزمان أو الأمصار والثانية لا تلبث أن تتبدل حسب توافقها مع المصالح والأهواء.

والإنسان يجب أن يكون عالماً بأنه محاسب على جهله إذا كان نتيجة تكبره أو إعراضه أو تلاهيه، أما من كان الجهل خارجاً عن إرادته فهو غير محاسب، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ} ٢٩٤، أي أن العلم بالشيء شرط لاستحقاق الإنسان العقاب، فالعلم أولاً وقبل أي شيء والجزاء ثانياً لرفع الحجة.

والدليل الثاني على أن الله هو الأول في علمه أنه يستطيع أن يوقف علمنا عند حد معين قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} ٢٩٥، فالله قد أوقف مداركنا عند بداية المخلوقات عند العرش والماء، أما ما قبل ذلك فهو

٢٩٢ لقمان ٣٤.

٢٩٣ النمل ٦٥.

٢٩٤ القصص ٥٩.

٢٩٥ هود ٧.

في علم العليم المطلق لأن ذلك من لوازم اتصافه بصفة الكمال، فلن تفيدنا أي شيء معرفتنا بما قبل ذلك، وهذا يدل على محدودية علم المخلوق في هذا الكون الذي خلقه الله بعلم حكمة مطلقين، فالأول في الملك والخلق هو الأول في العلم والحكمة، وهما بلغ علم الإنسان ومداركه فإنه يبقى مداره الذي يتجول فيه خياله محدود بإرادة الأول سبحانه وتعالى، وهذا ينطبق على جميع ما خلق الخالق، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} ^{٢٩٦}، فبالرغم من أن الملائكة مخلوقات قريبة من الله تنفذ جميع أوامره وتسبح له وتطيعه إلا أن الله تعالى لم يجعلها ذات علم مطلق بل أنه حدد لها ما يجب أن تكون على علم به وحجب عنها ما أراد.

وقد خص الخالق العلم بالأولوية، إذ أن أول ما أنزل من القرآن الكريم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلمة (اقرأ) والقراءة هي سبيل المعرفة والفهم وهي أول طرق الهداية والصلاح، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ^{٢٩٧}، إذن المعلم الأول هو العليم عز وجل للبشرية بما فيهم الرسل والأنبياء، لأنه المدرك الأول لكل ما نعلمه وما لا لم نصل إليه بحواسنا، وهذا طبيعي في حق العليم الذي لا يعزب ولا يغيب عنه أي شيء، فلا يعجز عن إدراك أي شيء سراً كان أو علناً فهو الأول في الإدراك والعلم بقدرته سبحانه وتعالى، ولذلك فإن كل علوم الخلق التي تم اكتشافها والوصول إليها وما لم يتم الوصول إليها بعد هو المحيط به قبلهم لأنه المقدر للمستقبل والخبير فقد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسر والعلن والممكن والمستحيل وبكل الأزمان والأماكن فلا يخفى

^{٢٩٦} البقرة ٣١، ٣٢.

^{٢٩٧} العلق ١ . ٥.

عن علمه وإدراكه أي صغيرة أو كبيرة، قال تعالى: {قُلْ إِنْ تُحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ٢٩٨.

يجب أن يكون الخليفة من السابقين للعلم والمعرفة، العلم الذي يحث عليه العليم لما فيه خير هذا المتعلم، هذا العلم الذي يسير بالخليفة إلى الاستقامة كأن يكون من الأوائل في معرفة صفات الخالق وما حرّم وحلّ وما يقرب العبد من ربه وما يبعده عنه، وأن يقوده هذا العلم للبحث عن مفاتيح حسن الخلق الذي من شأنها أن تبعده عن الغرور والتجبر والظلم، وأن يكون من أوائل أتباع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في قوله: "بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ" ٢٩٩، وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام يوضح أمراً هاماً، إذ أنه يبين أن الأخلاق أولاً من خلق الله تعالى يضعها فينا ويأتي الرسول عليه الصلاة والسلام ليكمل ويهذب ما بدأ الله به، وذلك مدعاة لنا بالإيمان بأن الله هو الأول في خلق كل شيء.

الأول هو الحي المطلق:

والمقصود بالحياة في حق الله هي الحياة الأزلية والبقاء الأبدي، وهي بالطبع غير الحياة على الأرض التي لها أول تبدأ بها ولها آخر تنتهي إليه، فالخالق هو الأول الأزلي الباقي لا نهاية له، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ٣٠٠، فارتباط الحياة بدوام القيام دليل على تكامل الحياة لديه عز وجل، وعظمة وجلال الخالق الأول عز وجل، وكذلك قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} ٣٠١، وفي هذه الآية دلائل بيّنة على أزلية حياته وهي:

٢٩٨ آل عمران ٢٩.

٢٩٩ موطأ مالك ج ٥، ص ٣٨٦.

٣٠٠ آل عمران ٢.

٣٠١ الفرقان ٥٨، ٥٩.

أ- طلب من العبد أن يتوكل عليه، وبالطبع لا يمكن أن نتوكل على من لا حياة له أو من كانت محدودة حياته، لأن التوكل هو اعتماد تام على الأول جل جلاله حيث لا أول غيره يمكن التوكل عليه، وبالتوكل الصادق على الله تعالى تكون الإجابة المحققة لأفعال الخير الحسان.

ب- نفي الموت عن جلاله تأكيد على دوام الحياة فلا يمكن أن يجتمع الفناء والحياة معاً، لأن كل منهما مقابل للثاني، وفي انتقاء الموت عنه إثبات صريح لحياة المولى الأزلية.

ج - خبرته بذنوب عباده تدل على مراقبته الدائمة، وقيامه على أمور الخلق جميعاً والمراقبة تتطلب الحياة التي تصل ما بين الخالق والمخلوق، إذ أن المخلوق يعمل ويقدم والخالق يراقب لكي يحاسب، هذه المعادلة المتوازنة هي في الحقيقة تتضمن أولوية الخالق في الحساب والجزاء.

د- عملية الخلق لا تتم إلا ممن كان قائماً وحيّاً من قبل القيام بهذه العملية أصلاً، وهذه العملية بالذات تؤكد اسم الأول في حق الله تعالى، إذ أنه لا يمكن أن يكون المخلوق سابقاً للخالق، والمتأمل في هذا الكون يصل إلى حقيقة أزلية وألوية وجود الله تعالى قبل أي شيء آخر، قال تعالى: {أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} ٣٠٢.

ولا يكون خليفة الخالق إذا لم يكن قلبه حياً بذكر الله، وأن لا يكون الأول في إحياء كل أشكال الخير والمعروف في نفسه أولاً وفيمن حوله ثانياً، فحياة الخليفة تكمن بدرجة إيمانه وحبه للمولى عز وجل، قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولِيْنَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَكَبِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ} ٣٠٣، فخلفاء الله كانوا وما يزالوا يتسابقون إلى مرضاة المولى وبذل كل ما لديهم من أجل أن يسارعوا إلى حب ولقاء الله عز

٣٠٢ الإسراء ٥١.

٣٠٣ الواقعة ١٠ . ١٦.

وجل، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} ٣٠٤.

الأول هو القيوم:

نلاحظ دائماً أن رب الأسرة هو القائم على أمور عائلته، ينظر إلى احتياجاتهم ويراقب زلاتهم ويحثهم على المنفعة والفائدة، لأنه المسؤول الأول عنهم في الدنيا، وكذلك نجد أن رب العمل يشعر بمسئوليته الأولى تجاه موظفيه، فيهتم بشؤونهم وينظر إلى أمورهم نظرة اهتمام ورعاية مما يجعله دائم الإطلاع على أمورهم، فكيف بالذي هو الأول على كل أول وفوق كل العباد.

فمسئولية الخلق تتطلب رياً يكون هو الأول في مسئوليته عنهم هذه المسئولية التي لا يمكن القيام بها إلا من كان عظيماً وسابقاً لكل شيء لا ينشغل بشيء عن شيء، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} ٣٠٥، فقد ربط الله قيامه على أمور عباده بالحياة الأزلية التي لا نوم ولا كسل ولا خمول فيها، مما يجعله عالماً بأدق التفاصيل راعياً لكل الخلق في آن واحد، فاستحق بذلك أن يكون رياً عظيماً واحداً لا يتعدد.

ولأنه كان الأول استحق رعاية الخلق والقيام على أمورهم وكان له إحيائهم وإماتتهم وقتما يشاء وكيفما يشاء، فمن له الحق في التدخل في أمور الغيب وتقدير الأشياء سواء عز وجل.

وعلى خليفة الله أن يكون حاملاً لمسئوليات عدة، تبدأ من نفسه، ويعلمه أن كل جوارحه سيكون مسؤولاً عنها، وتنتهي في حمله لمسئولية هذا الكون بأكمله الذي حمل أمانته، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} ٣٠٦، فهو المسؤول الأول عن هذه الأمانة، لذلك لا بد أن يُثبت كفاءته في

٣٠٤ المؤمنون ٦٠، ٦١.

٣٠٥ البقرة ٢٥٥.

٣٠٦ الأحزاب ٧٢.

تحمل هذه المسؤولية بالاستقامة وبالإصلاح والتعمير وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يفرط في هذه الأمانة أو يهمل فهو الخاسر الأول في الدنيا والآخرة عند الخالق سبحانه وتعالى.

هو الأول في الرحمة:

ورحمته واسعة عظيمة أزلية لا تتغير حسب الزمن والمكان، وبما أنها أولية وأزلية فقد وسعت كل شيء وعمت الخلق جميعاً، فرحمته مطلقة لا يتدخل فيها أي أحد من خلقه، قال تعالى: {وَإِذْ كُنْتُمْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} ٣٠٧، فرحمته أعم وأشمل للمتقين الذين يسعون لنيل رضاه وحبه والقرب منه، فهناك رحمة عامة للبشر أجمعين تتمثل في حسن خلقهم التي خلقهم الله بها وبنعمه التي لا تعد ولا تحصى، وبرزقهم، أما المؤمنين فقد خصهم الأول برحمة لا يستحقها إلا من كان تقياً صالحاً، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} ٣٠٨.

فقد بدأ الخلق جميعاً برحمته، بالرغم من غناه عن كل ما خلق في الدنيا، وهو البادئ برحمة الناس عامة والمسلمين خاصة، فبداية الرحمة من عنده هي إرسال الرسل للهداية، وهو رحيم بقبول توبة التائب ورجوع العاصي.

والرحمة تستوجب أن يكون المرحوم ضعيفاً، والرحيم قوياً لأنه البادئ بهذه الرحمة والمالك لها بالمطلق.

٣٠٧ الأعراف ١٥٦.

٣٠٨ الأحزاب ٤١ . ٤٣.

فعلى الخليفة أن يرحم نفسه أولاً بإبعادها عن الضلال فينجيها من النار ويفوز بالنعيم، ويرحم من حوله ثانياً بحفظهم من لسانه ويده وينصح الضال منهم، وأن يكون رحيماً بجميع ما خلق الخالق من كائنات حية ومن أرض حية تنمو تثمر من أجله ورحمةً به من الخالق عز وجل. هو الأول في القدرة:

بما أنه الأول خالق الخلق فتطلب ذلك أن يكون قادراً على كل أمر، وأن يستسهل كل صعب، فكل ما نجده نحن البشر أمراً مستحيل الحدوث يتحول إلى ممكن بأمر من الأول. قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} ^{٣٠٩}، وكل إرادة للخالق تُنفذ بلمح البصر إذ أنه الأول في الإرادة والمشية، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^{٣١٠}، وهذا أعظم دليل على أن الله تعالى هو الأول، لأنه إن لم يكن كذلك لاحتاج إلى جهد ووقت ومعونة لتنفيذ ما يريد، لكنه عز وجل تجلى بعظمته عن كل ذلك.

ولكننا نجد أن بعض الناس تتناسى هذه القدرة بتجاهلها فضل الأول فيما وصلت إليه من ابتكارات أو اختراعات أو اكتشافات، وكأن هذا الشخص له الفضل الأول في الوصول والقدرة على ذلك! فهل تفوق قدرة المخلوق على قدرة الخالق. ما لهم كيف يفسرون الأحداث ويفهمون ما قد وهبهم الأول لهم من قدرات بسيطة بالنسبة لما عنده تعالى.

وهو الأول في خلق المخلوقات جميعاً فكانت له القدرة المطلقة عليهم ولا يمكن لأي أحد مهما علا شأنه في الدنيا أن يخرج من هذه دائرة قدرة الأول عليه، ومن ثم وهب الله تعالى بعض القدرات الثانوية للإنسان لكي يبدع بها في الحياة، وأول هذه القدرات هي:

^{٣٠٩} الفرقان ٤٥ . ٤٩ .

^{٣١٠} النحل ٤٠ .

التحكم في النفس:

فالخليفة هو من يروض نفسه أولاً على محاربة ما تشتهييه، بذلك يستطيع أن يصل إلى تصالح بينه وبينها فترضى وتتأى عن الفساد وتحسن فن الإنصات للخالق الذي كرمها وإذا أنصتت النفس للخالق صلحت وطاعت وفازت، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} ^{٣١١}، والفوز لها هي الجنة تنعم فيها.

أما إذا عرضت النفس عن الخالق ضاعت في ظلمات الشرور والمهالك، فكان لها سوء العقاب وخسارة المآب، قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ^{٣١٢}

القدرة على تحصيل العلم:

وجني الفائدة منه لتعود عليه وعلى من حوله، فلا بد أن يكون على معرفة بأن البشر هم عبارة عن فرع ولا بد أن يرجع إلى الأصل إلى الأول عز وجل ليتم الجزاء، قال تعالى: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} ^{٣١٣}، فالرجوع لا يتم إلا من التابع إلى المتبوع ومن الفرع إلى الأصل.

هو الأول في الغنى:

^{٣١١} النازعات ٤٠، ٤١.

^{٣١٢} الأنعام ٢٤ . ٢٧.

^{٣١٣} يونس ٤.

بما أنه الأول فهو المعطي لكل شيء وبعطائه هذا هو غني عن أي شيء، قال سبحانه تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} ^{٣١٤}، وقال تعالى أيضاً: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} ^{٣١٥}، الآية السابقة منه نفهم أن الله تعالى:

أ- غني عن كل شيء، والغنى يأتي دائماً من انعدام الحاجة للغير ولا يأتي ذلك إلا إذا كان المدبر الأول لكل الأمور، فلن يضر الله تعالى كفر كافر قال تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ^{٣١٦}، فانعدام الحاجة تثبت أولوية الخالق في كل أمر.

ب- كل ما خلق الخالق فقير إليه تعالى، فالغني من الناس هو بفضل ما عند الله والفقير منهم هو بسبب منع الخالق عنه، فالله تعالى يغني الإنسان بالمال والحكمة والقوة والرحمة لأنه تعالى فوق كل الخلق.

وخليفة الله إذا وصل إلى هذه الدرجة من العلم فإنه بالتأكيد استغنى عن كل من يُعتقد أنهم متحكمون بأموره، وبهذا الغنى يكون الخوف منهم وخشيتهم قد فارقا قلب الخليفة لمن هو مستحق لهذا الخوف وهذه الخشية، فحاجتك إلى الله تنتفي معها أي حاجة أخرى لأي شيء آخر، قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} ^{٣١٧}، والعيش بهذا الغنى يُسعد المرء فلا يتذلل لأي كان من البشر مهما وصلت مكانته لكي ينال ما يريد، فتغلب كرامته وعزة نفسه كل العقبات والصعوبات.

هو الأول في خبرته:

^{٣١٤} طه ٥٠.

^{٣١٥} الأنعام ١٣٣.

^{٣١٦} الزمر ٧.

^{٣١٧} آل عمران ١٠٩.

لا يملك الخبرة إلا من كان أولاً في كل أمر، فالخالق هو الأول في الخلق لذلك تبع ذلك أن يكون خبيراً بصيراً بمن خلق، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} ^{٣١٨}، ففي الآية السابقة توضيح وتوثيق لخبرة الخالق الدقيقة في عبادته، إذ أنه لم يجعل رزقهم واحد لسبب وهو أنه بما أن الله هو الأول في خلق البشر فهو الخبير بنقاط ضعفهم، قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ^{٣١٩}، فهو إذن على علم تام ومطلق بأن نقص المال تعذيب لمن أحبه وملكه، ولكن هذا الإنسان إذا كان ممن يحسنون فهم المصائب لما تعسرت حياته، لأن في فهم المصيبة فهم لرسالة الخالق له بالاستقامة والثبات وهذا بحد ذاته أكبر مكافأة له من الله عز وجل.

ولا أحد يستطيع أن يعلم بخبرته البشرية أي الأمور التي يملكها أو التي يفتقدها فيها خير له أم شر، لذلك على المرء أن يترك أمره أوله وآخره للأول المطلق يتصرف كيفما يشاء به فهو الخبير بما ينفعنا وإن بدا لنا غير ذلك، قال تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} ^{٣٢٠}.

فكما أن خبرته مطلقة فمعناه أن كماله مطلق كما ذاته، فالخالق لم يكتسب شيئاً ناقصاً بل الكمال لديه في كل أمر وكل صفة وهذا لا يكون إلا لمن كان أولاً في المقدمة دائماً لا يسبقه أحد أبداً.

وخليفة الله لا بد أن تكون لديه عين خبيرة وقلب خبير بما هو نافع وبما هو ضار، فالصلاح للإنسان لا يأتي هدية من أحد بل هو نعمة من الله تعالى علينا إذا سعينا إليه والسعي لا بد أن يكون على دراية لا عن تبعية عمياء دون معرفة، قال تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} ^{٣٢١}، وقال تعالى أيضاً: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ

^{٣١٨} الإسراء ٣٠.

^{٣١٩} الكهف ٤٦.

^{٣٢٠} الفتح ١١.

^{٣٢١} الأعراف ٧٠.

أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} ٣٢٢، هذه التبعية التي تُلغي العقل وتُسقط الروح في بئر الجهل والضلال.

هو الأول في العظمة:

وعظمته هذه لا تتجزأ ولا تنتهي بزمن أو بموطن، بل باقية أزلية كما الله تعالى، يرينا إياها في كل ما حولنا، قال تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أجاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} ٣٢٣، فالأول تعالى هو من بدأ الخلق بإبداع، فكان عظيماً في خلقه، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ٣٢٤، كذلك قوله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} ٣٢٥.

٣٢٢ إبراهيم ١٠.

٣٢٣ الواقعة ٥٧ . ٧٤.

٣٢٤ البقرة ١٦٤.

٣٢٥ السجدة ٧.

وعظيماً في رحمته، هذه الرحمة التي بدأت بخلقه للكون برحمته وللإنسان أيضاً الذي هداه السبيل للفوز بالنعيم، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ٣٢٦ ، وبما أنه الأول في فتح أبواب رحمته فهي رحمة مطلقة لمن استحقها وهي رحمة تزرع الأمل في قلب كل إنسان أراد أن يستند إلى المولى ويلتجأ إليه عز وجل، لذلك فهو المتحكم بها يوزعها كيفما يشاء بعلمه المطلق وعدله الكبير ولا أحد يستطيع أن يتدخل فيها، قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ٣٢٧ .

وعظيماً في عقابه، هذا العقاب الذي لا يمكن أن يعاقب به أي إنسان مهما امتلك من سيادة أو سلطان، لأن الخالق هو أول من خلق العقاب لمن استحقه بذلك كيف يكون للمخلوق أن يصل إلى أن يكون له هذا العقاب في الأرض، وقد جعل الله العقاب الحقيقي والخالد يوم الحساب لأن الدنيا ليست دار بقاء ولا يستحق أن تكون كذلك، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ خُدُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} ٣٢٨ .

وعظيماً في مكافأته للمتقين، ورحمته فمهما قدّم الإنسان من خير وحب لله لا يمكن أن يرقى إلى مكافأة الخالق له، لأنه الأول في كرمه ورحمته، ولذا فالأول دائماً سابقاً لغيره ببدئه للشيء، قال سبحانه وتعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ٣٢٩ ، وكذلك

٣٢٦ الصافات ٧٦.

٣٢٧ فاطر ٣.

٣٢٨ الحاقة ٢٥ . ٣٣.

٣٢٩ الحديد ١٢.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^{٣٣٠}.

ولابد للخليفة أن يستحق أن يكون عبداً لهذا الرب العظيم الذي بدأ الكون بعظمته وسينهيه بعظمته عز وجل.

هو الأول في سمعه وبصره:

فبصره وسمعه مطلقان لا حد زمني أو مكاني لهما، وهو الأول في سماع كل ما في الظاهر والباطن فلا تخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الأول في إدراك كل شيء ببصره اللا محدود، وإحاطة كل شيء بسمعه المطلق، فكان له بذلك العلم المطلق بكل شيء بالسر والعلن وبما في الصدور وما تنطق الألسن، لا يخفى عليه شيء، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^{٣٣١}، وقوله تعالى كذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا أَلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^{٣٣٢}، وسمعه وبصره يشمل المسلم والكافر والمذنب والتائب بل يشمل كل ما خلق سبحانه وتعالى ولا يقتصر على البشر، بل إنه تعالى الأول في إحاطة الخلق بسمعه وبصره، وبالتالي علمه يشمل كل شيء، فلا يختلط ولا تختلف عليه الأصوات ولا تتشابهه، ولا ينشغل سمع عن سمع فهو الأول المطلق في سمعه.

^{٣٣٠} التوبة ٧٢.

^{٣٣١} المجادلة ١.

^{٣٣٢} المجادلة ٧، ٨.

والخليفة من كان سمعه لله وفي الله وكذلك بصره، لا يجعلهما يقودانه للضلال والمعصية، فينتهي بسمعه عن كل ما هو مؤذٍ ومُفسِد، ويغض بصره عن ما حرم الله ونهى، فيكون بذلك بصره لله وسمعه لله، وطاعته لله رب العالمين، والسمع مرسال الإيمان إلى العقل والقلب فبه يدرك كل منهما الحق، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} ٣٣٣، فالسمع من الدعائم الأساسية للعلم الذي يصيب العقل فينبيره وينأى عنه التخبط في ظلمات الضلال، فيكون سماعاً لكتاب الله وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} ٣٣٤، وإذا أدرك الخليفة أن الله هو الأول في بصره تمسك بمراقبة نفسه ومحاسبتها قبل أن يحاسب من الآخرين في الدار الدنيا أو أن يحاسبه الله يوم يقوم الحساب، ولهذا يمضي الخليفة في الدنيا خائفاً من أن يراه الأول في ما لا يجب أن يكون عليه، وإذا وصل الخليفة إلى أن يعيش متيقناً بأنه على مرأى من الخالق عز وجل فلا يستهين بذلك بل يداوم على مراقبة نفسه والزامها بما أمر الله سبحانه وتعالى، وأن يكون نظره موجهاً إلى ما في ملكوت الله من إبداع وعظمة وقدرة، قال تعالى: {قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} ٣٣٥، وقال سبحانه تعالى أيضاً: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ٣٣٦.

الأول هو إجابته:

إجابته للدعوات تسبق حتى رجاء الإنسان بذلك أحياناً، وتأتي رحمة له ومنجاة من أي كرب، قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أِنَّهُ مَعَ اللَّهِ

٣٣٣ الحج ٤٦.

٣٣٤ الأعراف ٢٠٤.

٣٣٥ يونس ١٠١.

٣٣٦ الذاريات ٢٠، ٢١.

قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} ^{٣٣٧}، والخالق هو الأول في حبه لإجابة عباده الصالحين ودليل ذلك قربه منهم وسماع دعواتهم في أي حال وأي وقت، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} ^{٣٣٨}، فمطلوب من العبد الدعاء بقلبٍ ملؤه الرجاء والضعف والحاجة للخالق عز وجل، فيهديه هذا الخالق المجيب الذي لا يرد من لجأ إليه الإجابة، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} ^{٣٣٩}.

وهو الأول في زرع الأمل في قلوب اليائسين واخضرار القلب بمغفرة الخالق للذنوب، فهو المجيب لكل عائد عن ذنبه مستغفرٌ خائف من بطشه عز وجل، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ^{٣٤٠}.

وخليفة الله من كان مجيباً لدعوة الخير أينما كانت، فلا يبخل بما عنده من معرفة وعلم على من طلبه بل يجيبه بما أراد، وأن يكون من دعاة الأمر بالمعروف استجابة لقول الله تعالى في كتابه الكريم: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} ^{٣٤١}، وألا يكون مجيباً لدعوة الضلال والفساد يلهث وراء دعوة الملذات ومغريات الدنيا التي تفسد عليه آخرته.

يجب على الخليفة توحيد الخالق والإيمان بأن بدايته ومرجه إلى الأول الذي لا سابق له، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ

^{٣٣٧} النمل ٦٢.

^{٣٣٨} غافر ٦٠.

^{٣٣٩} البقرة ١٦٨.

^{٣٤٠} البقرة ١٦٠.

^{٣٤١} آل عمران ١١٠.

شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ^{٣٤٢}، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^{٣٤٣} .

وبما أن الله هو الأول الذي لا ثاني ولا حتى لاحق له عز وجل فاستحق بذلك التعظيم والإجلال، فمن حق الخالق علينا أن يكون نعظمه ونقدسه، لكننا نجد في بعض الأشخاص ابتعاداً وتلاهي عن ذلك، ومن العجيب أننا نجدهم متوجهين بذلك الشعور لجهات أخرى لا تستطيع له شيئاً إذا أراد الله بهم أمراً، فنجدهم يستشعرون بالرهبة الممزوج بالضعف والحاجة تجاه من يعلوهم مكانة في العمل أو في أي مجال آخر، بالرغم أنه يجب أن يتذكروا أنهم ليسوا بأوائل في أي شيء بل الله هو الأول بعبأئه لهم هذه المراكز، فهو بذلك المستحق الأول لهذا الاحترام وهذه الرهبة والطاعة بالوحدانية والعبادة والقيام بأفعال الخير الحسان.

ومن آثار اسم الأول في حياة الخليفة ما يلي:

١- أن يكون الأول في الخير:

فلا يرضى الخليفة أن يكون من أواخر الداعين والساعين إلى الخير، أو المانعين له، أو الغافلين عنه بالفساد والشور التي تملأ قلوب الكثير من البشر المبتعدين عن حب ورضا الخالق، فتراه في مجال عمله محوراً للمعروف وأساساً له لا يجتمع مع دعاة الفساد والرزائل إلا كي يدعوهم للخير والتوبة لعلهم يستجيبون، زارعاً في كل أرض يحط بها أملاً للفلاح وبذوراً للخير والرضا والصلاح، ولا يتأتى ذلك إلا بالتالي:

. أن يسعى للصلح في أي خصام فيكون بذلك الأول في السلام، كما حدثنا رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يَجِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا

^{٣٤٢} يونس ٣، ٤ .

^{٣٤٣} الروم ٢٧ .

وَحَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ^{٣٤٤}، فالسلام لا يعني كلمة تخرج من الفم فقط بل هي ملامسة القلوب بالإحساس بحلاوة الرجوع للحب والصفاء، والمصافحة تعني ارتقاء الإنسانية فوق كل شيء آخر، وفيها دعوة لنشر الأمن والسلام بين كافة المسلمين ولو علم المسلمون معناه الحقيقي لما بخل مسلم بالسلام على آخر ولما خطر ببال أحدهم خاطر معيب في حق أخيه البادئ بالسلام، والخالق يحب أن يعم السلام بكل معانيه بين الخلق أجمعين.

وأن ينطق بالحق لأن الحق موطن الخير، فلا يصمت حينما يجب أن يتكلم بالحق فتضيع بذلك الحقوق وتعم الفوضى ويسير الناس في ظلمات جهل الحقوق والواجبات.

وعلينا أن نفرق بين السلام الذي يؤسس على المحبة والإرادة والحق والعدل، وبين الاستسلام الذي يؤسس على تنازلات تحت الضغوط غير المتوازنة.

وطوبى لمن كان سباقاً للخير داعياً له، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}^{٣٤٥}، ولما كانت هذه مكافأة الداعي للخير ذلك مدعاة لأن ندرك مدى عمق أثره في المجتمع بصفة عامة وفي نفس الإنسان بصفة خاصة، فلا يمكن لداعي الخير إلا أن يبدأ بإصلاح وتهذيب نفسه فأسوأ شيء أن تدعو لمكرمة أو فضيلة أنت تفتقد إليها.

ومن شروط رضا الأول علينا واستجابة دعواتنا أن نكون من المسارعين في الخير، لا أن نكون ممن يتباطئون في فعل الخير أو يغفلون عن أدائه.

٢- أن يكون الأول في الالتزام والحرص على رضا الله تعالى وأن لا يكون من أواخر من يسعون إلى الله بكل ود وحب، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

^{٣٤٤} صحيح البخاري ج ١٩، ص ٢٢.

^{٣٤٥} التوبة ٧١، ٧٢.

رَاجِعُونَ أَوْلِيَّكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ^{٣٤٦}، وكذلك قال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ^{٣٤٧}، فاستجابة دعوة المسلم مرهونة بإسراع العبد لفعل الخير والعمل عليه.

٣- أن يكون أول الصابرين عند حلول المصائب، التي يكون بحلولها فيصلاً لمن كان مؤمناً حقاً ومن كان ضعيف الإيمان، فعند بداية نزول المصيبة نجد هناك من يحتسب أمره للخالق ويصبر، ونجد من لا يحتمل ذلك فيغيب عنه الصبر والتحمل فيسعى لطلب العون من غيره، كالجوء لبعض الشيوخ والأولياء.

لكنّ الخليفة هو من وكل أمره الله في أول الأمر وآخره، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أَوْلِيَّكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ^{٣٤٨}، فبما أن الدنيا كانت دار امتحان وبلاء للإنسان فهو معرضٌ فيها لحلول مصيبة عليه في أي وقت أو حتى أن تتوالى المصائب وتتكاثر الهموم فوقه، ولكن في فهم حكمة المصيبة يكمن قوة الإيمان وصبر الإنسان، وهي بمثابة مرسال من المولى عز وجل لهذا الإنسان، وبالمقابل فالإنسان يختار الرد الذي يناسبه للرد على هذا المرسال، والفائز منهما هو من كان رده على هذا المرسال كما جاء في الآية القرآنية السابقة، فكانت للمصيبة الأثر الإيجابي الفعّال في حياة المؤمن الصادق.

٤- أن يكون أول المضحين بالنفس والمال في سبيل الله:

إذا تيقن الإنسان أنه وما يملكه الله فلن يرضن بشيء في سبيل الله تعالى، بل سيرخص عليه كل ما ملك في الحياة الدنيا ونفسه معها، قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ

^{٣٤٦} المؤمنون ٦٠ ، ٦١ .

^{٣٤٧} الأنبياء ٩٠ .

^{٣٤٨} البقرة ١٥٥ ، ١٥٧ .

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ^{٣٤٩} ، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} ^{٣٥٠} ، فالإسراع بالجهاد بالنفس والمال يأتي بالبشرى والخير على المسلم، لأنه يستحق ذلك بمسارعته وراء رضا المولى وحبه.

٥- الإسراع في الاستغفار:

تحاصرنا الزلات والأخطاء أينما اتجهنا، فالإنسان بطبعه كثير الخطأ والزلات سواء كان في حق ربنا الكريم أو في حق أنفسنا أو في حق الآخرين، وعندها نكون بحاجة لمن يشد على أيدينا ويدلنا على طريق الصلاح، ولا أعظم ولا أفضل ولا أسبق من الله تعالى في ذلك، لكن علينا أن نسرع إليه أولاً بقلبٍ يحبه ويتمنى رضاه ومغفرته، بقلبٍ خاشع خائف من خالقه عز وجل، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{٣٥١} ، فعمر الإنسان محدود والذنب مفعور إن شاء الله إذا أسرع العبد في الاستغاثة بالله والاستغفار من ذنبه والرجاء بقبول توبته.

٦- أن يكون أول المستعدين للقاء الأول:

أكثر الناس يعيشون اللحظة الراهنة فقط مستمتعين بها تأخذهم النشوى بعيداً عن الواقع الذي يجب أن لا يتناسوه، فيتوه عن بالهم رحيلهم عنها في أية لحظة شاء رب العالمين ذلك، والخليفة هو من كان يعيش الحاضر بتعقل مع دمجته بالمستقبل الذي سيرحل فيه بالتأكيد عن الدنيا فيُعد

^{٣٤٩} الحديد ١٠.

^{٣٥٠} الصف ١٠، ١٣.

^{٣٥١} المائدة ٣٩.

لهذه اللحظة كل ما يحتاجه من انضباط مع الخالق وحب له ومسارة في مرضاته، لأنك العبد إذا أحب الله تعالى أعطاه الله الأمان بذلك من عذابه، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} ^{٣٥٢}، فقد استحق الأمان بإيمانه الصحيح، هذا الإيمان الذي ثبت في قلبه محبة المولى عز وجل ومحبة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَعَدَدْتَ لَهَا قَالَ: حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ" ^{٣٥٣}.

فبذلك كله يكون خليفة الله على خلق طيب وهذا ما سعى إليه خالقنا العظيم من بعث رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذي أوضح الصورة التي يجب أن يكون عليها المؤمنون حين قال: {وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} ^{٣٥٤}، بما أن رسولنا الكريم قدوة لنا فلا بد أن نكون من أوائل المتصفين بحسن الخلق.

والأخلاق قابلة للتغيير والتحسين فهي مرآة النفس البشرية، فلا يقوم الإصلاح المرجو في أرجاء الأرض إلا بتهديب هذه النفس وتقويمها وردعها، قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} ^{٣٥٥}، فأما الإصلاح لها وبها وإما الفساد لها وبها، فالنفوس البشرية متباينة حسب استيعاب استيعاب كل إنسان لرسالة خلقه في هذه الأرض، فمنهم من أحب حمل الأمانة بوعي كامل وفهم عميق لهذه المسؤولية، ومنهم من أتلف هذه الأمانة وأضاعها في أحضان الدنيا فضاع بضياح هذه الأمانة العظيمة.

وفي معنى اسم الأول رسالة لكل متجبر وظالم بأن هناك الأول في القوة والجبروت فهو الأعلى والأجل والأعظم، وهو المعيد لهم لحسابهم وعقابهم فيقفون بين يديه يوم الحساب ضعافاً وجليين، ولنا في القرآن الكريم عبر وقصص تثبت ضعف الإنسان أمام قوة الله، فكم كانت قوة فرعون

^{٣٥٢} الأنعام ٨٢.

^{٣٥٣} صحيح مسلم ج ١٣، ص ٩١.

^{٣٥٤} القلم ٤.

^{٣٥٥} الشمس ٧، ٨.

وتجبره إذ أنه جعل نفسه إلهاً بما وصل إليه من غرور وجبروت على الناس، قال تعالى: {أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} ^{٣٥٦}، وكأنه ملك الأرض والخلق بقوته، أو كأنه الأول في قدرته وعظمته! لكن الله تعالى رد عليه جحوده وكفره وأظهر له ولمن حوله مدى ضعف الإنسان أمام عظمة الأول، ليكون عبرة للبشرية جمعاء، قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} ^{٣٥٧}، فقد خلق الإنسان ضعيفاً أمام الخالق عز وجل محتاجاً لمن هو أقوى منه، يستند إليه دائماً ليشد أزره، ولو أنه خلق قوياً لاستغنى بقوته وشقي ولكن الله تعالى خلقنا ضعفاء ليرحمنا من انتقامه، ويا سبحان الله حتى ضعف الإنسان نعمة من نعم الله تعالى لأنها تجعلنا نفنقر ونعود إلى الأول وهنا تكمن السعادة الحقيقية. والإنسان قوة إذا آمن بالقوي المطلق واستند على قوته في الكلمة والفعل والأمر والنهي، وفي الإدراك والتدبر وفي التفكير والتذكر حتى يتعظ بكل معطيات القوة. والخليفة هو من أوائل من وصلوا إلى الخالق مطمئنين به راضين بحكمه، وهو من كان شاغلاً نفسه بالحق فلم تشغله نفسه بالباطل، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} ^{٣٥٨}، فما أكثر ما نجد أنفسنا تائهين في الحياة الدنيا لاهئين خلفها لا ندرك مدى الخسارة التي تنزل بنا.

^{٣٥٦} النازعات ١٦ . ٢٦.

^{٣٥٧} يونس ٩٠ . ٩٢.

^{٣٥٨} الأنعام ٨٢.

وكأن اسم الأول في حق الله تعالى يحمل في معناه رسائل للعباد جميعاً ويخاطب الإنسان قائلاً:
إليك يا عبدي فتدبر هذه الرسائل:

الرسالة الأولى:

إن مرحلة الطفولة رسالة لمرحلة الشباب، والشباب رسالة لمرحلة الكبر والعجز، إذ أن أول القوة ضعف وبداية الضعف قوة، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} ^{٣٥٩}، والله حكمة في ذلك ليعيش الإنسان جميع المراحل والأعمار بمختلف الشعور والأحاسيس التي من شأنها أن تتدرب ذاته على التواضع عند امتلاك القوة والصبر عند الضعف، ويعلمه المطلق عز وجل أدرك أن الإنسان يحتاج إلى رسالة تلفت نظره إلى أن الحياة لا تدوم، فالشباب حيوية ونشاط وحب للحياة فإذا دام للإنسان وصل به إلى التكبر والغرور وتناسى آخرته بحماس شبابه، وفورة القوة وتأججها في نفس الشباب سنلهي البعض عن عجزهم عن فهم رسالة الشباب تلك فلا يقرؤون إلا العنوان دون النظر في محتوى الرسالة الإلهية الموجهة لهم، لأن الخالق أراد منا أن نكون قوة للحق والعدل والمحبة وأن نتوجه إلى الخالق شاكرين وحامدين هذه النعمة التي أنعمها علينا، فلا تذهب قوانا سدى في الشرور والمفاسد، بل يجب أن نطوعها من أجل الخير وإعمار الأرض التي هي أمانة لدينا تحملناها منذ بدء الخليقة إلى يوم الحساب فلا مفر من المحاسبة على التفريط فيها وإهمالها بالفساد، وفي الشباب قوة تدعم هذه الأمانة وتعين على حملها والمحافظة عليها بالدعوة للحق والعدل والمحبة والسلام، فالدنيا لا تقوم ولا تصلح إلا بهذه الهمم الجبارة التي لا تخشى إلا خالقها عز وجل وباستقامة الشباب تستقيم الحياة وتصلح، وإذا تم ذلك تحققت رسالة الشباب على الأرض وكانت عوناً للحق لا عوناً على الحق كما يحدث في بعض الحالات، إذ يكون موعد الإنسان مع الشباب هو موعد للتكبر واللهو والفسوق، فتضيع معه الرسالة ويضيع بضياعها هو، وهناك حالات أخرى يكون الموعد بدخول سن الشباب دعة

للاستقامة وهؤلاء هم من يحسنون قراءة الرسائل ويدركون المعنى الجوهرى لها، لا من يتفاخر بفتل العضلات وتوزيع الشرور بقوته وغروره الفاسد الذي يجلب الدمار والهلاك لنفسه ولمن حوله، لذلك فالشيخوخة تأتي ختماً نهائياً للشباب وذروة الحماس، فيكون الهدوء بعد العاصفة والتأمل بعد الضجيج فيسكن الإنسان لذاته ويرجع إليها محاسباً أحياناً ومعاتباً أخرى، حينها يكون قد وعى جزءاً من الرسالة وبدأ بالندم على ما فات إذا كان ممن يتأججون بنار الطيش والرغبة في الاستمتاع بالحياة بالشكل الخاطىء.

الرسالة الثانية:

العقاب رسالة لكل ضعيف النفس أمام الشهوات ومغريات الدنيا، فبداية الذنب قد يكون خطأ صغيراً ثم يبدأ الإنسان تصاعدياً تجاه الأكبر من الذنوب، ورسالة الخالق عز وجل لكل مذنب هي العقوبة كي يرتدع ويتوب ويقطع عما كان فيه من أذى لنفسه ولمن حوله وهي في جوهرها رسالة رحمة، إذ أن إحلال العقوبة من شأنها أن تحد من اندفاع الإنسان اللاعقلاني نحو الجريمة والمعصية وفي هذا الحد رحمة للإنسان، قال تعالى: **لَوْلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**^{٣٦٠}، فالبشر بطبيعتهم يميلون نحو السلام وحب الحياة والعقوبة إذا تم تطبيقها حقاً فإنها تكفل لهم الحياة الكريمة التي يتمنوها، لكن في بعض الأحوال يتغلب الشيطان بوسواسه على طبيعة الإنسان التي خلقه الله تعالى عليها وهي ميله للسلام والحق، فيتغلب الشر بذلك على الخير في نفسه، ويصبح عبداً للشر والضلال اللذان يقودانه لخسارة نفسه ورضا ربه عليه، وبذلك يخسر الدنيا والآخرة، فتأتي العقوبة كرادع له ورسالة تحمل عقاباً قد يكون أحياناً روحياً قبل أن يكون عقاباً جسدياً، وإذا طبقت العقوبة بالشكل الصحيح وصلت الرسالة في الوقت الصحيح وبالشكل الصحيح، فهذه الرسالة تتطوي على مضمون حب الخالق للسلام والعدل، ومن كان محباً لهما فقد أحبه الله لذلك، ولا بد أن يكون أول طريق الإصلاح هو عدم التسبب

^{٣٦٠} البقرة ١٧٩.

والتراخي في العقوبات، بل بتنفيذها بالشكل المحدد لا زيادة ولا نقصان في حدود تقوى الله تعالى.

الرسالة الثالثة:

يكفي أن يتأمل الإنسان في كيفية حياة نبتة صغيرة قد نمت بين الجبال الشاهقة والجو القاسي الذي قد لا يحتمله العديد من الأشجار الضخمة ليستوعب رسالة الخالق له بالدعوة بالتعايش فيما بيننا باختلاف ألواننا وأجناسنا ومراكزنا، فلا يمتنع غني في التعامل مع من هو أقل منه غنى ولا يرفض صاحب سلطة أو مركز مرموق أن يناسب إنسان عادي المركز أو متواضع المكانة لأن الفيصل الوحيد بين البشر في القانون الإلهي هو تقوى واستقامة الإنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو شكله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^{٣٦١}، إذ أن الإنسان من الممكن أن يقرأ الدعوة للتعرف والمحبة من هذه النبتة البسيطة التي قد تنمو وتكبر وتذبل دون أن تشير لأي معنى إذا لم ينصت الإنسان لرسائل الطبيعة التي ترسلها لنا بأمر من الخالق عز وجل.

وأروع ما يكون إذا خاضت البشرية هذه التجربة التي لا خسران فيها، إذ لا خسارة في تجربة الحب الجماعي والأخوة والصدقة أن تكون بديلاً للنزاع والضغينة بين البشر.

فأول هذه الرسالة هي الدعوة للمحبة وآخرها حب التعايش جنباً لجنب مع بعضنا البعض فيسعد الصحيح العليل بزيارته والغني الفقير بمساعدته والشاب الشيخ بمساندته وغيرها من صور التعايش التي تدعو لها هذه الرسالة الإلهية.

الرسالة الرابعة:

الموت رسالة للحياة، والحياة رسالة للموت، فكل منهما بداية للآخر فلا تبدأ كل منها إلا بالآخر، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ

^{٣٦١} الحجرات ١٣.

تُرْجَعُونَ} ^{٣٦٢}، فرسالة الحياة تبدأ بإحياء الإنسان من شيء ميت، وبقدرة الخالق عز وجل تُبْتث فيه الروح وتدب فيه الحياة، ويولد هذا الإنسان وينمو ويكبر متناسباً أصل حياته وبداية خلقه لاهياً في الدنيا لاهتاً خلف أيامها، ثم يأتي الموت لتبدأ حياة جديدة مختلفة عما كان فيها، حياته هذه تبدأ للحساب، قال تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ^{٣٦٣}، وقال تعالى أيضاً: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} ^{٣٦٤}، وهذه الرسالة هي أصل كل الرسائل الأخرى، فالله هو الأول في الإحياء والإماتة والحساب، وهو بذلك يرسل للإنسان بأن يكون أولاً في محاسبة نفسه في الحياة، بل بمحاسبة نفسه كل ليلة على ما قدم في نهاره من خير أو شر، وأن يكون ميزاناً لأفعاله وأقواله، فأول الناس في الحكم على نفسه هو الإنسان نفسه لأنه غير قادر على خداع ذاته وغشها الأمر الذي قد يستعمله مع من حوله.

وأول كلمات هذه الرسالة الاستقامة في الحياة طريق النجاح، وأول درجة يعتليها الإنسان للصعود إلى الآدمية هي تحقيق رسالة الخالق لنا في الأرض على الشكل الصحيح، فالحياة لا تدوم لكنك تختار فيها أي المكانين ستقيم إقامة أبدية إما الجنة وإما النار، كل إنسان حسب ما سبق أن قدم في حياته، حتى الرسل والأنبياء لا يمكن أن تكون حياتهم أبدية على الأرض بل كل منهم وله أجل قد أتاه لأن الخلد لأول المطلق والآخر المطلق، قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} ^{٣٦٥}.

الرسالة الخامسة:

أول الشرور هو العصيان والغرور، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ

^{٣٦٢} البقرة ٢٨.

^{٣٦٣} الروم ١١.

^{٣٦٤} الجاثية ١٥.

^{٣٦٥} الأنبياء ٣٤، ٣٥.

اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^{٣٦٦} ، فما من مفسدة أو ضلال إلا وكان الشيطان وراءها، فأول وأصل الشرور والضلال هو العصيان والتكبر على أوامر الخالق عز وجل، فما من عاصي ولا متكبر إلا وكان خاسراً لأنه بخسران رضا وحب الله يكون قد خسر كل شيء آخر، ومن عصيان وتكبر الشيطان وحقده تولدت الوسوسات التي تؤدي بالناس إلى طريق الضلال والهلاك، وتنتشر في الأرض الشرور والمفاسد، التي نهانا الله عز وجل عنها، والتي تبيح للإنسان أن يكون تابعاً للشيطان، الذي يأمر التابع له بالفحشاء والمنكر فيضله عن طريق الحق الذي أراده الله أن يكون عليه: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ^{٣٦٧} ، فبذلك كان الشيطان أول ساعٍ للشر والضلال بعصيانه لأوامر الله تعالى، وتكبره عن السجود للإنسان بالتالي تولدت الشرور الأخرى كالطمع والبخل والكذب والنفاق وغيرها من وسوساته للإنسان بغرض تضليل بني آدم عن طريق الحق والخير، فبداية بذرة الشر أنبتت العديد من أصناف الشرور التي استولت على بعض النفوس البشرية الضعيفة، بالرغم أن الأول بالإطلاق كان سباقاً بتبنيه بني آدم لهذا الشر وتحذيره له من الابتعاد عنه، قال تعالى: {الْمَ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} ^{٣٦٨} ، وكذلك قال تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

^{٣٦٦} ص ٧٣ . ٨١ .

^{٣٦٧} النور ٢١ .

^{٣٦٨} يس ٦٠ . ٦٢ .

فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْنَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ^{٣٦٩}، فالله كان أولاً في توضيح الخير من الشر للإنسان، فكان أولاً بهدأيته له ورحمته به بتعليمه التمييز بين الحق والباطل وأولاً بإهدائه العقل للتمييز قبل كل شيء آخر، فكان خيره وكرمه وحكمته سابقة لنزعة الشر التي دعا إليه الشيطان للانتقام من البشر بإغوائهم، لذلك فقد انقسم البشر إلى قسمين، أولهما:

تابعٌ للأول المطلق ومطيعٌ له في أوامره وهذا هو الناجي والفائز بسباقه لحب الأول وتغلبه على وسوسات الشيطان، فيكون بذلك الخليفة الذي أراد الخالق عز وجل في الأرض حافظاً لها راعياً حقها.

وثانيهما:

تابعٌ للشيطان يُملي عليه ما يؤدي به للهلاك والخسران، مبعداً عن حب المولى عز وجل لاهتاً وراء ملذات ومفاسد هي سبب هلاكه، قال تعالى: {فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ} ^{٣٧٠}.

فالفائز من الفريقين هو الخليفة الذي وجد سعادته بالقرب من الأول المطلق، بعد أن بحث عنها وسعى إليها، فكان الله الأول في رحمته به وهدأيته له وحفظه من كل الشرور، ومكافأته بجنة الخلد التي وعد بها خلفائه الذين سعوا في الأرض بالخير والصلاح، منفذين إرادة الخالق عز وجل، فكان الخالق عند وعده لهم، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ

^{٣٦٩} الأعراف ١٩ . ٢٢ .

^{٣٧٠} الأعراف ٣٠ .

فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ^{٣٧١}، وأيضاً قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَتِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ^{٣٧٢} .

فجميع رسائل الأول عز وجل يدركها خلفائه الذين رضا الله عنهم ورضوا عنه، فأتم الله عليهم نعمته، فأدركوا الحياة كما أرادهم المولى ولم تدركهم الحياة، فكان سمعهم من سمع الأول، وبصرهم ورحمتهم كذلك، وما يزال خلفاء الأول يتسابقون على الفوز بحب الله ونيل رضاه وما يزالون يتوافدون لرحاب الله يختارون لذلك أقصر الطرق وهي حبه وحب رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - فهذا الحب هو سبيل الاستقامة، والاستقامة سبيل النجاح، والنجاح هو الفوز بشرف خلافة الأرض كما أرادنا الأول عز وجل.

والخليفة الحق من كان أولاً في فتح أبواب الخير وأول في إغلاق أبواب الشر بما استطاع، فيقذف الأول المطلق في قلبه نور البصيرة الذي به يدرك الخليفة حب الخالق وأمانه.

الأول هو الآخر وهو البداية والنهاية، ولأنه البداية والنهاية فهو الذي لم يكن من بعده آخر، وهو الباقي الدائم الذي يوحد ولا يتعدد، ولأنه الباقي فكل شيء هالك إلا وجهه، ولأن الحياة منتهية إثباتاً، فإن ذلك يعنى أن كل مخلوقات منتهية، وبما أن كل مخلوقات منتهية، والمخلوقات كم عددي، إذن كل كم في الدنيا مُنتهٍ حتى حبات الرمل، وقطرات الماء ورذاذه.

إن الحياة الدنيا التي نود التعرف عليها والتطور فيها لن تكون باقية إلى ما لانهاية، بل إنها منتهية. ولأننا نعرف إثباتاً أن للحياة نهاية فلا نتفق مع الذين يقولون غير ذلك. فلا تحليل إلا لوجود، ولا تحليل إلا بوجود، ولكل شيء بداية ونهاية، وهكذا يستمر الوجود، والتفكير، والتغيير، والتحليل إلى النهاية، وأن الذين

^{٣٧١} الأنعام ١٦٥.

^{٣٧٢} النمل ٦٢.

يعتقدون في وجود اللامتناهي رياضيا، هم كمن يلهث وراء السراب من أجل أن يروى ظمأه. ولهذا يحدث الاختلاف مع البعض الذين يحللون القضايا والمسائل الرياضية، وهم معتقدون في وجود ألامتناهي، ومن أجل ذلك أطرِح السؤال الآتي:

هل ألامتناهي موجود.

قد تكون إجابتهم بنعم، وقد تكون بلا، فإذا كانت الإجابة بنعم. فإنهم فتحوا لنا المجال بأن نطالبهم بإثباته، وإذا أثبتوه، أثبتوا أن له بداية ونهاية، وإذا كانت له بداية ونهاية، فإنه أصبح موجود (المتناهي)، ولم يكن ألامتناهي، أما إذا كانت الإجابة بلا، إذن نفوا وجود اللامتناهي. وبما أنه أصبح غير موجود، إذن لا حجة لهم علينا، ولنا عليهم حجة.

والمنطق العلمي وخاصة الرياضي منه، لا يعترف بمسلمات إلا بعد إثبات. وعليه إذا اعتبروا إن اللامتناهي مسلمات، فإنهم اعترفوا بأنه مثبت، وإذا كان مثبتا كان موجودا، وبما أنه موجود، إذن له بداية ونهاية، وإذا كانت له بداية ونهاية، فإنه لم يكن ألامتناهي. يقول الله تعالى في سورة الحديد: {هو الأول والآخر} سبحانه وتعالى انه البداية التي لم يكن من قبلها شيء، والآخر بلا نهاية الذي جعل للنهار بداية ونهاية، وللليل بداية ونهاية، وللعمر بداية ونهاية، وللتفكير بداية ونهاية، ولكل الوجود بداية ونهاية. وعليه إذا كان لكل شيء بداية ونهاية، والأعداد شيء، إذن للأعداد بداية ونهاية. وإذا سلمنا بأن لكل بداية ونهاية، وان للأعداد بداية، إذن لابد وان تكون لها نهاية، ولكن هل تستطيع قدراتنا العقلية المحدودة (التي لها بداية ونهاية) أن تكتشف هذه النهاية، أو لا تكتشفها. هذه مسألة تتعلق بمدى استخدامنا لقدراتنا العقلية، التي تتطور وتتغير عبر الزمن إلى النهاية، فما نعتبره استحالة اليوم، قد لا يكون كذلك غدا. ولذلك لا مكانة في العلم للأحكام المطلقة مسبقا.

اللامتناهي رياضيا لا وجود له إلا افتراضا، وبما أنه افتراض، إذن لم يكن مثبتا بعد، فالافتراضات العلمية التي تصاغ بهدف دراسة المواضيع ليست يقينية. بل أنها احتمالية شكية، قد تثبتها الدراسة وقد تبطلها. وإذا كان لكل كم نتيجة محددة ودقيقة، على سبيل المثال: إذا كان أي كم هو نتيجة حاصل الجمع، أو الطرح، أو القسمة، أو الضرب، وسواء في التربيع أو التكعيب، أو غيرها من المسائل الحسابية، وبما أنه بالإمكان الحصول على هذه النتيجة كحاصل للعمليات الحسابية السابقة، إذن لا مكان بينها إلى اللامتناهي إلا افتراضا. وبما أنه كذلك، إذن لا مصادق لوجوده. وإلا هل هناك كم حسابي يقبل القسمة والجمع والطرح، ولم تكن له نتيجة (نهاية). لا وجود لذلك. ولهذا اللامتناهي على قيد الوجود لا وجود له إلا افتراضا.

إن افتراض وجود اللامتناهي، مثل الافتراض الذي يقول (يظل المستقيم مستقيما مهما أمتد). هذا الافتراض لا مصادق له، لان المستقيم إذا أمتد إلى مهما، لا يمكن أن يكون مستقيما، بل يكون دائرة وهكذا حال أي مستقيم يبتدئ بنقطة وينتهي بنقطة.

يقول أرسطو يجب التمييز بين اللامتناهي بالقوة. وبين اللامتناهي بالفعل، وهو يقر بوجود الأول، وينكر وجود الثاني. وهذا يعني عدم اعترافه بوجود اللامتناهي إلا نظريا، أما واقعا فلا وجود له. وهذا حال الفكر اليوناني عامة الذي ينظر إلى العالم على أنه متناه. وعليه أتساءل: كيف يؤمن أرسطو بوجود اللامتناهي بالقوة، ولا يؤمن بوجود اللامتناهي بالفعل. إذا كان المتناهي موجودا بالقوة يكون بالضرورة موجودا بالفعل. وإذا لم يكن موجودا بالفعل، فلا وجود له بالقوة. وإلا هل يحق لنا أن نقول أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهي في حقيقتها من الناحية الفعلية لا تنهى عن الفحشاء والمنكر. إذا كانت كذلك فإنها لم تكن

الصلاة. الصلاة هي التي تنهى عن ذلك بالقوة والفعل. وإذا وجدنا مسلماً يصلي ولم ينته عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، فالعيب هنا لم يكن في الصلاة، بل العيب في المصلي الذي لم يدخل الإيمان قلبه بعد. ولمَّا يدخل الإيمان قلبه سينتهي عن ارتكاب كل ذلك، وتكون الصلاة في هذه الحالة حقيقة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

وفق المنطق العلمي لكل بداية نهاية، والذي لا بداية له ولا نهاية لا يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح بنتائج دقيقة ومحددة، وليس له منتصف أو مركز يحدد نزوعه وتشتته مما يجعله معدوم التعامل الحسابي.

ونورد القضايا المنطقية الآتية عن المتناهي واللامتناهي:

القضية الأولى:

كل ما له بداية له نهاية .

للمتناهي بداية .

إذن للمتناهي نهاية .

هذه القضية منطقية وفقاً للمسلمات الحسابية التي تم التعرف عليها والبرهنة بها.

القضية الثانية:

كل ما له نهاية له بداية .

اللامتناهي ليست له نهاية .

إذن اللامتناهي ليست له بداية .

هذه قضية منطقية صادقة. وذلك لفقدان اللامتناهي معطيات الإثبات، وهي البداية

والنهاية.

القضية الثالثة:

كل ما له بداية ونهاية يقبل التعامل الحسابي .

المتناهي له بداية ونهاية .

إذن المتناهي يقبل التعامل الحسابي .

القضية الرابعة :

كل ما له بداية ونهاية يقبل التعامل الحسابي

اللامتناهي ليست له بداية ونهاية

إذن اللامتناهي لا يقبل التعامل الحسابي .

هذه قضية صادقة إثباتا .

وبناء على هذه القواعد هل للزمان بداية ونهاية . نعم، للزمان بداية ونهاية، حتى وأن لم نعرف تاريخ بدايته ونهايته. لأننا نعرف من الزمان ما هو ماض، وما هو حاضر، وما هو مستقبل. وهذا يدل على قبول الزمان للقسمة والجمع والطرح . يقول الله تعالى في سورة يونس عليه الصلاة والسلام: {ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار}. وبما أن النهار جزء من اليوم، والساعة جزء من النهار، ألا يكون النهار واليوم جزءان من الزمان. ولأن الإجابة بنعم فتكون البرهنة أيضا بنعم، إن للزمان بداية ونهاية، ونحن الذين لم نتمكن من معرفتهما. لأننا لم نؤت من العلم إلا قليلا. وفي هذا الأمر أقول كل متعدد متناهي وكل ما ينتج عن القابل للعدد متناهي إلا الواحد الذي لا يتعدد باعتباره هو الأول والآخر.

وعليه يكون الزمان متناه مصداقا لقوله تعالى في سورة الأعراف: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّهَا عَلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّهَا عَلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ^{٣٧٣}. ربي، الأول والآخر. وهو الواحد الذي لا يتعدد، وبالتالي لا يقع في شك الفلاسفة والرياضيين المتجادلين

على النهاية واللانهاية. ولهذا قدرات الله لا تحصى ولا تعد بالقدرات البشرية المخلوقة، ولا هي موضع مقارنة، ولا يمكن أن تدخل في حساباتنا المتناهية بقصورها أمام قدرته. وهكذا دائما المخلوق أقل قدرة من خالقه .

وبناء على ذلك هل للأعداد بداية ونهاية. الأعداد مهما كبرت فإنها تبتدئ بواحد وتنتهي بواحد، إذن الواحد هو البداية، والنهاية، وإذا لم نصل بقدراتنا العقلية إلى معرفة وجود النهاية العددية، فإن ذلك لا يعنى إثبات عدم وجودها، بل انه دليل على قصور قدراتنا العقلية، والفكرية، التي لم يستخدم منها إلا القليل جدا من سعتها الإدراكية، والاستيعابية، وهذا يتطلب منا عدم اليأس، ويدفعنا إلى البحث الجاد، والتقصي الدقيق، من أجل التعرف على نهاية الأعداد، كما تعرّفنا على بدايتها، ولذلك لا نئس مثل الذين لَبَّيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَدُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ {٣٧٤} .

والآخرة هي التي تكتمل بها البداية، وتنتهي ، كما تبتدئ الأعداد (أي أعداد) بواحد، وتنتهي به، مما يجعل الواحد ككل، أو كجزء هو البداية والنهاية.

وما لانهاية، هو الذي لا يشاهد، ولا يحس به، وهو احتمال، لم يخضع للإثبات، وإذا عرفناه أصبح نهاية، والأعداد سواء بالسلب، أو بالإيجاب تستمر في تضاعف إلى النهاية (نهاية الشيء المعدود، أو نهاية الذي يقوم بفعل العد) ولا يبقى إلا الأول الواحد الأحد.

ومثالا على ذلك: إذا اتجه أحد المتخصصين في دراسة الرياضيات من نقطة معينة على الأرض في اتجاهها مستقيم، فإنه بالضرورة يصل إلى النهاية، لأن لكل بداية نهاية، ولكنه لو انحرف قليلا، أو كثيرا عن خط سيره، فإنه يجد نفسه مستمرا في اتجاهه، دون أن يمر بنقطة النهاية، وكأن الأرض ليست دائرية، وهكذا في كل

دورة على الأرض إذا لم يصل إلى نقطة البداية التي وضعها أو أنطلق منها، وفي هذه الحالة قد يحكم على الأرض بما لانهاية، وهو يعرف مسبقا أنها منتهية. وعليه أتساءل: هل في دراستنا للأشياء والمواضيع في دائرتها، أو فلنكها المنتهى، تكون غير منتهية. نحن نعرف أن كل شيء ندرسه، أو خاضعا للدراسة، لا يخرج عن حيز من الزمان، والمكان، وهو أيضا لا يخرج عن حيز تفكيرنا وقدراتنا العقلية. إذن كل ما ندرسه ونبحث فيه، هو في إطار محدود، مع فارق حدوده مع غيره، إذا قورن به، وبما أن ما ندرسه في إطار محدود، ألا يكون لِمَ ندرسه حدود ونهايات. إذا قمنا بإحصاء عدد سكان الصين على سبيل المثال، فمهما كان عددهم فإن له نهاية، لأن المكان الذي استهدفناه محدد، إذن مسبقا نعرف أن لعدد سكان الصين نهاية، مع أننا لا نعرف عددهم بعد. وإذا قمنا بتعداد سكان العالم، وحيواناته، وطيوره، وأسماكه، ونباتاته، وحتى حبات رمله، ألا نصل إلى النهاية. بالتأكيد سنصل، لأن كل هذه الكائنات في رقعة جغرافية محددة بالكرة الأرضية المتناهية، إذن لا بد وأن تكون لها بداية ونهاية، مع العلم أن بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهوا قبل أن يعرفوا النهاية، وإذا خرجنا بقدراتنا العقلية إلى التعرف على ما هو خارج الأرض، فإننا سنعرف بقدر ما تستوعبه عقولنا وتفكر فيه، ولا نستوعب ولا نتعرف على ما هو خارج عنها. وبما أن لكل شيء بداية. إذن لا بد وأن تكون له نهاية. وبما أن التطور شيء (سواء كان ماديا أو مجردا) إذن لا بد وأن تكون له بداية ونهاية. وعليه لا وجود في الحياة الدنيا إلى ملا نهاية، بل الوجود إلى النهاية، وهذا يستوجب التعرف على شيئين:

الأول المتعرف عليه بالمتعرف به:

عندما يكون الموضوع معرفة سابقة سواء كانت هذه المعرفة مادية أو فكرية، فيكون هو المتعرف عليه، ويكون هذا الموضوع هو المعرفة التي يتم استيعابها

بالعقل وهو المتعرف به. فالمتعرف عليه لو لم يكن له بداية ونهاية ما عرفناه معرفة علمية، ولهذا عندما تتوفر المعلومات عن الموضوع، يمكن التعرف عليه بالعقل باعتباره المتعرف به.

الثاني: غير المتعرف عليه بالمتعرف به:

عندما يتمكن العقل من البحث والتقصي العلمي يمكن أن يتعرف على الجديد بالمتعرف به (بالعقل)، في حدود القدرات والاستعدادات كبدائية ونهاية أدراكية. وغير المتعرف عليه هو الذي لم يُكتشف بعد حتى يعتبر معرفة علمية ولهذا يُعتبر بالنسبة للمدركات العقلية مجهولاً، والعقل معروف كوسيلة للتعرف به، وعندما يتعرف العقل (المتعرف به) على الجديد يصبح غير المتعرف عليه معروفاً.

إن المعرفة الممكنة هي المعرفة المتاحة، أما المعرفة غير الممكنة هي المعرفة غير المتاحة. مثل معرفة اليوم الآخر في الحياة الدنيا، هي معرفة نظرية فقط، ولا يدركه إلا المؤمن الذي يدرك الله (الأول والآخر). وفي الوقت ذاته لا يعرفه عملياً لأنه غير قابل للمشاهدة والملاحظة، وهذه معرفة غير متاحة. وهذه التي أطلقنا عليها (غير المتعرف عليه بالمتعرف به). وكل معلومة لم يتم التعرف عليها بعد وهي في الإمكان تندرج تحت (المتعرف عليه بالمتعرف به) إلى النهاية. وكل معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت (غير المتعرف عليه بالمتعرف به)، وذلك لقصور العقل (المتعرف به) عن إدراكها، وهذه نهاية للفكر الإنساني وذلك لمحدودية قدراته ومدركاته. كل شيء عرفناه يكون هو المتعرف عليه. وكل شيء هو موجود ولم نتمكن من التعرف عليه سواء في الأرض أو في السماوات أو ما بينها، يكون غير المتعرف عليه.

عندما يتأمل المفكر في المجرد يمكن أن يتعرف على الجديد. القوانين الفيزيائية التي أصبحت بين أيدينا في المعامل والمختبرات هذه نُقله من مجرد إلى مجرب

(خاضع للتجريب) في مثل هذه الحالة أنتقل العقل من غير المتعرف عليه إلى المعرفة. أما إذا انتقل العقل من المتعرف عليه إلى معرفة أخرى جديدة مثل النظر إلى الإبل والجبال والأرض كمتعرف عليها، وانتقل منها إلى معرفة الكيفية التي بها خلقت تكون المعرفة الجديدة معرفة مجردة تمت معرفتها بالمعرفة المجربة التي تشاهد وتلاحظ.

إذن المشكلة هي عدم التعرف، وإذا عرفنا، عرفنا النهاية كما عرفنا الله الأول والآخر، وإذا لم نعرف، ليس معنى ذلك أن للأشياء مالا نهاية، بل إن للأشياء نهايات ولكن لم نعرفها بعد، وإذا لم نتمكن من معرفتها، فإن ذلك لا يعنى مالا نهاية، بل يعنى قصور قدراتنا عن معرفته إلا الله ندركه بآياته دون أن يكون مشاهدا.

وإذا كانت للأرض بداية ونهاية إثباتا من خلال معرفة مساحتها، وحجمها، ألا يكون لما عليها، بداية ونهاية. وبما أن لانطلاق الرصاصة من فوهة البندقية، إلى الهدف الذي يمكن أن تصل إليه، بداية ونهاية، ألا يكون لما بينهما أيضا بداية ونهاية. وإلا كيف نقبل بأن لها بداية ونهاية في الحالة الأولى، ولا نقبل أن يكون لها في الحالة الثانية (الحالة المحصورة بين نقطة الانطلاق، ونقطة إصابة الهدف) وهكذا يعتقد البعض بقولهم عندما تتجزأ المسافة المقطوعة إلى أجزاء، تتجزأ هي الأخرى إلى مالا نهاية. إنها مسألة خيالية لا يمكن أن تتفق مع الواقع المشاهد، والمقاس، أو أنها أضحوكة خيالية، وإلا كيف تكون لانطلاق الرصاصة، بداية ونهاية، وتكون المسافة بينهما (بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول إلى الهدف) غير منتهية.، وهكذا لكل الأشكال الهندسية، بداية ونهاية من خلال تحديد مساحتها ومحيطاتها وأحجامها المحددة لها، فكيف هي الأخرى تكون محددة

ومعروفة بدقة ثابتة، بداية بوحدة القياس، ونهاية بوحدة القياس، ويكون لما بينهما مالا نهاية.

هل المسافة العددية المحصورة بين ١، ٢، التي تتجزأ إلى أجزاء هي الأخرى تتجزأ إلى درجة أطلق عليها مالا نهاية، هل هذه المسافة تساوى المسافة بين ٢، ٣، وتساوى المسافة بين ٣، ٤، وهكذا بقية المسافات بين الأعداد إلى النهاية. بالتأكيد أن العدد ١، هو البداية لما يأتي من بعده من أعداد، ويكون العدد ٢ نهاية للأعداد الجزئية التي أتت بعد العدد ١، وهكذا إلى النهاية، إلا الأول والآخر هو واحد احد يعد ولا يتعدد، ولأن المسافات المحصورة بين الأعداد متساوية، باعتبارها محددة، وبدقة واحدة، إذن لابد وأن يكون لها بداية ونهاية. وإلا هل يمكن أن يكون للشيء الواحد بداية ونهاية، ويكون للمحصور بينه مالا نهاية.، وإذا لم تكن للأعداد المتجزئة (المحصورة بين الأعداد الصحيحة، بين ١، ٢، ٣، الخ) نهايات لا يمكن أن نصل لأي عدد صحيح.

الكون بما فيه من يابس وماء وهواء وخلاء، أثبت العلماء أن له بداية، والتي عرفوها بالانفجار العظيم، ومنهم من اعتبرها النقطة الصفرية التي بدأ منها الامتداد، وعرفوا حديثاً أن للامتداد العظيم أيضاً نهاية يقف عندها، ويعود منها إلى نقطة البداية الأولى بالانكماش، ومع أن العلماء الروس هم الذين اثبتوا ذلك حديثاً، إلا أن الله عز وجل قد قال في الكتاب الحكيم في سورة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِيدًا عَلَيْنَا إِنَّمَا كُنَّا فَيَاعِلِينَ﴾^{٣٧٥} السماء التي بسطت كانبساط أوراق الكتب وسجلاتها أثناء لحظة الانفجار العظيم، والتي امتدت إلى ما عرفناه، وما لم نعرفه بعد، ستطوى بقدرة الخالق الأول كما تطوى أوراق الكتب وسجلاتها، إلى أن تنتهي إلى الحجم الذي

^{٣٧٥} الأنبياء ١٠٤.

بدأت منه، وكأنها ذرة، ثم تنتهي إلى ما يراد إليها أن تكون عليه بقدره الخالق العظيم الذي قال في سورة العنكبوت: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ^{٣٧٦} فإذا عرف الإنسان الكيفية التي عليها نشأ الخلق (الذي تكوّن أو تأسس أو بدأ عليها)، يعرف بالضرورة أن لهذا الخلق لابد من نهاية، لأن معطيات تكوين الخلق محددة بعمر زمني لابد وأن تنتهي إليه، وهكذا تنتهي أعمار المخلوقات بمختلف أنواعها، وأجناسها وفصائلها، وخصائصه وقوانينها. وهذا ذكرني لحديث جرى بين أحد أساتذة الفلسفة من السودان الشقيق وبينني حينما سألته أين مكان الإقامة. فقال: مؤقتا في طرابلس. فسألته: ودائما أين. فقال في الخرطوم. فقلت له ألا تعتقد إن وجودك مؤقت أينما كنت. فقال نعم لكل بداية نهاية.

إن التفكير الإنساني في حالة تطور ونضج، وتغير بالسلب والإيجاب حسب الموقف والظرف، ولهذا لا ينبغي أن يوضع على التفكير الإنساني سقف ليحد منه، بل ينبغي أن يُحفز على التفكير الحر، ليكون مبدعا ومنتجا ومتطورا. وعليه نقول إن التفكير الإبداعي المتطور لا حدود ثابتة له، ولكن له نهاية.

الأول هو الواحد البداية والنهاية:

تبتدئ الأعداد بواحد فيكون الصدارة، وتختتم به ويكون النهاية، وجميع الأعداد هي مواليد الواحد خلقا، فلولا الواحد الأول ما عرفنا الاثنين اللذين يتكونان من ١ + ١ ، والواحد دائما مستقل عن كل واحد من حيث أنه واحد، ومن تكرار الواحد القابل للتكرار والمثيل تتكون الأعداد والأرقام مما خلق الأول المطلق، تكرار ١ ، ١ ، ١ بالجمع تساوى ثلاث، وثلاث بطرح واحد تساوى اثنين، وهكذا، إذن أي عدد لا يمكن أن يكون هو المقصود إذا سحب منه الواحد، أو أضيف إليه، على سبيل

^{٣٧٦}العنكبوت ٢٠.

المثال إذا كان العدد المقصود هو ٤ أو ٥، أو ٩، فإنه لا يمكن أن تتكون هذه الأعداد إلا بالواحد، وإذا سحب من كل منها تصبح، ٣، ٤، ٨، وهكذا تنتهي هذه الأعداد وغيرها ويبقى الواحد الدائن جل جلاله، وإذا انتهى الواحد كعدد انتهى الوجود أو الموجود، وكانت النهاية، ولم تكن ما لانهاية.

إذن بالواحد تكون البداية، وبه تكون النهاية، وأي عدد لا يمكن أن تكون له بداية ولا نهاية إلا بالواحد، فالرقم ٨ بدايته واحد، ويستمر الواحد في تضاعف إلى أن يصل إلى الرقم أو العدد ٧ وإذا إضافة واحد إلى ٧ يجعلها ٨ ويكون نهاية لها، إذن الواحد هو البداية والنهاية بالنسبة إلى العدد ٨ والى أي عدد.

وعلىنا أن نفرق بين الواحد الذي يتعدد والأول الذي لا يتعدد، فالذي يتعدد يتعدد بالمقارنة والمثيل والشبيه، والذي لا يتعدد ليس له بمقارن ولا مثيل ولا شبيه، إنه الأول المطلق جل جلاله.

وعرف الرياضيون الأعداد الصحيحة المتكون جميعها من الواحد، وهي ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩. وهكذا تتكرر الأعداد وتتكاثر في حركة دائرية، من العدد ١ إلى العدد ٩، مما جعلها تنتهي عند ٩ وتستأنف الدورة العددية بالواحد. إذن لهذه الأعداد بداية ونهاية. وبعد التعرف على الصفر كنقطة بداية افتراضية، تكونت دائرة عددية أخرى تبتدئ بالعدد ١٠ الذي يتكون من تزواج الصفر مع الواحد، والذي عرف بالعدد الموالي للعدد ٩، وبداية دائرة عددية جديدة تنتهي عند العدد ١٩، وتبتدئ دائرة أخرى بالعدد ٢٠ وتنتهي عند العدد ٢٩ وهكذا تبتدئ الأعداد وتنتهي في دوائر عشرية، إلى أن تتضاعف وتصل إلى الدائرة المئوية، التي تنتهي بدائرة الألف، وتبتدئ بعدها دوائر العشرة آلاف وتنتهي، والمائة ألف، والمليون وتنتهي، وهكذا تتضاعف الأعداد وتتكاثر، وتستمر الدوائر بداية ونهاية، ولا يمكن أن تبتدئ دائرة إلا وأن تنتهي، ومن يعارض ذلك نقول له لو أعددت طول حياتك

لن تجد دائرة عددية تبتدئ ولم تنتهي. وكل دائرة لا يمكن أن تبتدئ إلا بواحد ، ولا تنتهي إلا به، وإلا هل يمكن أن تنتهي دائرة العشرات، أو المئات، أو غيرها بدون الواحد. العدد ٩٩ مئوي، لا يمكن أن يكون إلا بالواحد، ولا تقفل دائرته (تنتهي) إلا بزيادة واحد، والعدد ٩٩٩ ألفي، هو الآخر لا يمكن أن يكون إلا بالواحد ولا ينتهي إلا به. على سبيل المثال: إذا شاهدنا سباق جرى على مضمار ملعب كرة القدم الذي مساحته تساوى طوله \times عرضه، فتكون مساحته محدودة (منتهية) وطوله بالأمتار له بداية ونهاية ولا تتجاوز ٤٠٠ متر تقريبا، فإذا بدأ السباق من نقطة الصفر الافتراضي وقطع المتسابقون مساحة ٥٠٠٠ متر طولي، فهل يعنى ذلك أن طول مضمار كرة القدم تمطط إلى أن أصبح يساوى ٥٠٠٠ متر. وإلا كيف قطع المتسابقون هذه المسافة الطولية. بدون شك أنهم قطعوها نتيجة تكرار عدد الدورات على المضمار، الذي يساوى طول المضمار ضرب عدد الدورات عليه، والتكرار لا يزيد طول المضمار ولا ينقصه، لأن طوله محدد، وله بداية ونهاية. وكل من له بداية ونهاية له منتصف، ويتجزأ إلى نقاط، لأنه متكونا منها (من نقاط)، فالمستقيم على سبيل المثال مهما امتدّ بدايته نقطة ونهايته نقطة، وتقترب نقاط البداية والنهاية في حالتين:

الأولى: الحالة الموجبة:

كلما زاد طول المستقيم، أو الخط الرياضي والهندسي المتشكل (المرتسم) في الاتجاه الموجب، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها، والتي سيتصل بها عندما يستمر في اتجاهه إلى النهاية ويرسم دائرة، وكلما نقص، نقص عن الاتجاه الموجب، وزاد ابتعادا ولم يرسم دائرة.

الثانية: الحالة السالبة:

كلما نقص طول المستقيم، أو الخط الرياضي والهندسي المرسوم في الاتجاه السالب، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها، والتي سيتصل بها عندما يصل إلى النهاية (في حالة العودة)، وكلما زاد، زاد عن الاتجاه السالب، وزاد ابتعادا.

لا عدد إلا لكم، ولكل كم نهاية، فإذا كان الكم بشر، فإن للبشر بداية ونهاية، وإذا كان الكم حيوان، أو نبات، أو سمك، أو طير، أو أي جماد، فإن لكل ما ذكر بداية ونهاية. وعليه إذا كان كل ما يعد له بداية ونهاية، ألا يكون للعدد نهاية. ومن يخالف أن للأعداد نهاية، أطالبه إثبات ذلك (إثبات مالا نهاية).

وعليه كل الأعداد تزيد وتنقص وتتكرر بالواحد، وبما أنها كذلك إذن تبتدئ وتنتهي به، وإذا أصر البعض على أن للأعداد مالا نهاية، اطرح عليهم السؤال الآتي: ألا يكون بين كل الأعداد ما تسمونه بما لانهاية. إذا كانت الإجابة بنعم، إذن لا يمكن أن يحصل الانتقال من عدد لآخر على الإطلاق، فالمسافة بين الصفر الافتراضي، والواحد تساوى ما تسمونه مالا نهاية، والمسافة بين الواحد والاثنين كذلك وهكذا. ومع ذلك أن التوليد العددي يزداد نتيجة التكرار من الواحد ككل والواحد كجزء، والواحد كمتجزئ، ١، ٠.١، ٠.٠١، ٠.٠٠١، ٠.٠٠٠١، ٠.٠٠٠٠١، ٠.٠٠٠٠٠١، ويستمر التوليد العددي إلى النهاية، وإلا لا يمكن أن نصل إلى العدد صفر ولا العدد ٢. وإذا كانت الإجابة بلا. إذن اعترفوا أن للأعداد نهاية، وهى الواحد ككل، وكجزء، وكمتجزئ، والذي جعل الرياضيين يؤسسون نسب التقريب عليه، وجعلهم يطوون المسافة في تنقلهم من عدد إلى الذي يليه، ولهذا كل الأعداد تتولد من الواحد وتعود إليه، إذن الواحد هو البداية والنهاية وهو الأول والآخر. وان الله تعالى يعلم بكل كم وعدد كما جاء في سورة مريم سلام الله عليها: {إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ

عِدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا^{٣٧٧} كل ما خلق في السماوات والأرض معلوم عدده عند الله، وبما أن كل الأعداد تم إحصائها من عنده، إذن كل الأعداد لها نهاية، وكل الأعداد يتم التعامل معها فرادى (واحدًا واحدًا)، ولهذا كل الأعداد تعود إلى الواحد الأول. ونحن نعرف أن لكل شيء نهاية، ولكن لم نعرف متى تكون نهايته، ولا كيف تكون، ولكن للرحمن كل شيء معلوم، مصداقا لقوله تعالى في سورة الجن: {ليعلم أن قد ابلاغوا رسالات ربهم أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا}. إن الله سبحانه وتعالى أحصى كل شيء تعدادا أي كل ما خلق معروف له كما وعددا. وكل من يحمل في معناه واحد تكون له صورة وشكل كالإنسان، والغزالة، الطير، الشجرة، البحر، الجبل، السمك، إلا الواحد الذي خلق الواحد، لا يمكن أن تكون له صورة ولا شكل، إنه الأول والآخر جل جلاله. وكل مخلوق لا يمكن أن يشاهد خالقه، أو صانعه، فالإنسان الذي صنع القلم، أو المقعد، أو الحاسوب، أو السيارة، أو الطائرة، يمكنه مشاهدتها بنظره السليم، وهي لا يمكن أن تشاهده، ويمكنه استخدامها أو التخلص منها في أي وقت يشاء، وهكذا المخلوقات بالنسبة لخالقها الذي يشاهدها ولا تشاهده ويحييها ويميتها متى يشاء وفي أي مكان كيفما شاء.

وعليه الواحد هو الحقيقة التي لا تتمركز الجموع إلا به، ولا تتشتت إلا به، ولا تبتدئ أو تنتهي إلا به، لأن الجموع هي تكرار الآحاد، أو التقائها على قيم، أو في مضامين. والقيم هي المضمون الذي تكونه الجموع، ويحتويه الواحد، وكلما زاد الواحد في الاتجاه الموجب كلما كان للتطور شأن ومعنى، وكلما زاد الواحد في الاتجاه السالب كلما حدث الانكماش والتخلف. وكلما نقص الواحد في دائرة النسبية من الاتجاه السالب كلما ازداد الأمل. وكلما نقص الواحد من الاتجاه الموجب كلما

حبط العمل. ولهذا تصف المجتمعات كل من التطور العمراني والتطور الثقافي والتطور العلمي بالتطور الموجب، وعند زيادة أي وحدة أو مفردة على ذلك تعد على سلم التطور الموجب، وأي نقص من ذلك يعد على سلم التأخر. وتصف المجتمعات في ذات الوقت كل من التطور في الانحراف والجريمة، والتطور الاستهلاكي بالتطور السالب وعند زيادة أي وحدة أو مفردة على ذلك تعد على سلم التأخر، وأي نقص من ذلك يعد على سلم التطور الموجب.

وعليه قد يتساءل البعض: ما هو الفرق بين العدد، والمعدود، والعداد (الذي يقوم بفعل العد). وهل هذه متناهية. العدد هو المقدار وجمعه أعداد، وهو المجرد من التمييز، فعندما أكتب على سبيل المثال: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، أكتب أعداداً، وهذه الأعداد عندما تكتب على كميات أو كائنات تميز وتصبح هذه الكميات أو الكائنات هي المعدودة، ويكون الذي أحصاها بهذه الأعداد هو العاد، فإذا قلت أنا ألعاد نكون أنا المعدود من الآخر، وبما أنني معدود من الآخر فيكون الآخر متناهيًا وتكون لي نهاية. إذن ألعاد والمعدود شيء واحد ولا فرق بينهما إلا أنا وأنت، أما العدد فهو فكرة ذهنية مجردة إذا لم يوحد مع معدود، وعندما نفرق بين ألعاد والمعدود من جهة والعدد من جهة أخرى نكون قد فرقنا بين الفكرة المفترضة والواقع المثبت، وبما أن ألعاد والمعدود متناهيان، فكذلك العدد، وذلك لأنه يقع في دائرة الممكن، ولا يقع في غيرها، ولأنه يقع في دائرة الممكن إذن هو متناه. ولأن الزمان والحركة متناهيان ولا شيء من الموجودات يقع خارجهما، فإذن كل ما يقع فيهما متناهٍ وفقا للقضية الآتية:

الزمان والحركة متناهيان

والعدد يقع فيهما

إذن العدد متناهٍ

الآخر

الآخر هو الذي لم يكن بعده آخر، وهو الذي لا يثنى ولا يجمع لأنه الآخر الذي لم يسبقه آخر ولن يلحقه آخر، فهو الأول هو كما هو، واحد احد لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، ولم تكن له صاحبة. ولهذا لا يكون له المثل والشبيه، بيده البداية والنهاية إنه الله جل جلاله.

الآخر في أسماء الله تعالى: هو الباقي بعد فناء خلقه كله ناطقه وصامته^{٣٧٩}.

^{٣٧٩} لسان العرب - ج ٤ ، ص ١١

الآخر هو الذي لا يزول "أنت الأول في أزليتك وعلى ذلك أنت دائم لا تزول وأنت الآخر"^{٣٨٠} لله الحمد أنه آخر الوجود أبداً، كما أنه أوله أزلاً، فقد وصف نفسه تقدست اسمائه وجلت صفاته بأنه الآخر حيث قال: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ^{٣٨١}، أي أنه (هو هو) فلا آخر سواه، ولا مدرك لمنتهاه، إذ أنه الآخر بلا نهاية، كما هو الأول بلا بداية، ونحن عندما نتكلم في توضيح وفهم صفاته جل شأنه، فإنما نتكلم على قدر عقولنا، ونقيس آياته بمشاهداتنا، ونحكم على تلك المشاهدات بما نقف عليه من الأدلة لإثبات الصفات حيث تتجلى صفة الآخر عز وجل في كونه أنه الأول حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعلين} ^{٣٨٢}، وهنا نقف على التلازم الدقيق الواجب بين الصفتين الأول والآخر وآثار كل منهما في ذكر البدء والإعادة، فالآخر يستلزم من وجه عودة كل شيء إليه، وهو معنى الميراث لله تعالى، لا بمفهوم الملكية، إذ أنه هو مالك الملك، لذلك فإن صفة الآخر لا تدرك من بداية الأشياء التي هو آخرها من حيث العدد حتى يكون هو آخر الأعداد، وهذا مخالف لصفة الواحد الأحد، وعلى هذا فهو آخر خارج الحساب المتضمن للأعداد، فلا يمكن أن يكون آخرها من هذا الباب. فعندما نقول جاء فلأن آخر المتسابقين، فهذا يعني أن هناك عدداً من المتسابقين الذين انطبقت عليهم شروط السباق لاتصافهم بصفات وإمكانات وأشكال وأبعاد وصور ميزتهم عن غيرهم من الناس بحيث امتلكوا ما لا يمتلكه الآخرون فكانوا أهلاً لهذا السباق، والذي جاء آخراً فقد اشترك معهم في الجهد والسعي والجد من أجل تحقيق الغاية ولكنه جاء آخراً، فهذا الآخر هو آخر الأعداد الذي حمل مواصفات النقص فجاء آخراً، ومن هنا تخرج الذات الألوهية من العدد كونها آخراً لأنها تتصف بصفات الكمال، فلا يصح أن يكون آخراً من اتصف بصفات النقص، وإدراك كونه آخراً من هذه

^{٣٨٠} نهاية الإقدام في علم الكلام، ج ١، ص ١٧٦.

^{٣٨١} - الحديد ٣

^{٣٨٢} - الأنبياء ١٠٤

الجهة محال، لأنه يعلم بصريح العقل أنه مخالف للمعقول من جهة التصديق، ونقصد بالمعقول هنا إدراكات ما وراء الحس التي تأتي أدلتها من طريق الاستنتاج عن كونه آخرا وإن عجز البعض عن إدراك ذلك، وما يعجز عن فهمه البعض يدخل في باب المحيرّات، أي ما حارت به العقول فعجزت عن فهمه واستيعابه، والذي نعجز عن فهمه فبالضرورة نعجز عن إدراكه، وما لا ندركه لا يمكن الحكم عليه باستحالته، ذلك أن القضايا العقلية تعطي أدلة يقينية على غير المعقولات إذ أنه لا يتوقف وجودها هي على علمنا بها من عدمه، ولا يتوقف وجودنا نحن على علمنا بها، كونها موجودة بذاتها، ومن المعلوم أن بعض الناس يعلم بفكره ما لا يعلمه غيره، فإن كان غيره لا يعلمه فهذا لا يعني انتفاؤه، وعدم انتقائه يعني إمكان وجوده، وهنا نقول أنه سبحانه وتعالى هو الآخر من هذه الجهة خارج العدد وخارج الحساب. وكونه الآخر جل شأنه فبالضرورة لما كان خارج الحساب والعدد، فهذا يعني أنه خارج المادة مطلقا، ذلك أن العدد والحساب يجري على صنفين:

أولهما: الأيام والشهور والسنين ونؤجل الكلام في هذا الصنف عندما نتناول الزمان. وثانيهما: الأشياء المادية ذات الجواهر والأحجام والأبعاد التي تشكل هذا الوجود الكوني. فكل موجود هو محدث، وكل محدث له حادث، والحادث هو الصانع المبدع الذي أبدع هذه الموجودات من ماهيتها الأولى، ولا نقول وجود بالقوة ووجود بالفعل لأن ذلك مما يشترك فيه كثير من الموجودات من الناحية الفلسفية التي نقول فيها على سبيل المثال إن غابته ما من الأشجار موجودة وجودا فعليا، ولكن ضمن هذه الأشجار ومن مادة الخشب نفسها موجود أشياء كثيرة وجود قوة، فالأسرة والكراسي والأبواب التي تصنع من مادة الخشب موجودة في الغابة وجود قوة، أي إمكانية وجوده، فيمكن أن تصبح أي شيء مما ذكرنا طالما أن هناك خشب وصمغ ومنشار، فوجود هذه الأشياء تؤهلها لأن تكون في الممكن، والممكن هو باعتبار ما سيكون كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَضِلُّوا

عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا^{٣٨٣}، وما كان ممكنا فهو شيء، وما هو شيء يتبدل، وما يتبدل لا يصح أن يكتسب صفة الآخر الذي ليس له مثيل وشبيه وهو الدائم الذي لا يتبدل، ومن ناحية أخرى فإن الأشياء المادية ذات أبعاد وأشكال وصور، وأي شيء اتصف بهذه الصفات أو اكتسب واحدة منها، فله أول مبدوء وآخر معلوم فهو مدرك من مبدئه إلى منتهاه بالحواس مثل طوله وعرضه وقصره وشكله والحيز الذي يشغله ومرتبته علواً أو انخفاضاً، وتعددده كالنجوم والكواكب، أو إفراده وتخصيصه كالأرض والشمس والقمر، وكذلك لونه وحرارته وبرودته ورطوبته وما فيه من الصلابة والشدّة أو اللين والضعف، ومن الخشونة أو نعومة الملمس، فكل هذه الأشياء مدركة عن طريق الحواس، حتى وإن قلنا أن أورانوس أو نبتون هما آخر المجموعة الشمسية فهذا الآخر ينتهي بانتهاء حجمه من الطرف المقابل لأوله، مع العلم أن هناك كواكب أخرى تلي آخره، فهو إذاً ليس آخرها، خاصة إذا علمنا أن في هذا النظام الكوني العجيب إدراكات لا تخضع للحس، لذلك تخرج عن طبيعة التجارب في محاولة إخضاع هذه الظواهر لقوانين علم الفيزياء، وعلى هذا فإن جميع هذه الموجودات شغلت حيزاً بصرف النظر عن المساحة الكبيرة كانت أم صغيرة، وما شغل الحيز فهو مكاني، وما كان مكاناً فهو محاط، وما كان محاطاً فهو محدث طارئ، والمادة حدوث طارئ، ولذا فإن السماوات والأرض وما بينهما محدث طارئ، وأن هذا العالم مخلوق محدث خلقه الله وأحدثه من المادة وهي الشيء المخلوق منه المخلوق، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ تُمْ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ^{٣٨٤} فقد أخبر الله تعالى عن مبتدأ السماوات والأرض وعن أصل مبدئهما، وما علم مبدؤه لا يُجهل منتهاه وإن طال، وعلى ذلك فلا يمكن للمكان أن يكون الآخر من جهة، ولا يمكن أن يكون الآخر يشغل

٣٨٣ - نوح ٢٦ - ٢٧

٣٨٤ - فصلت ٩ - ١١

المكان، وإذا كان العدد والحساب والمكان سينتهي ويتلاشى، فمعنى ذلك أن كل ما تضم هذه المسميات وما يجري فيها وما ينتج عنها فإنه لا شك سينتهي بانتهائها، وإذا كان الزمان لا يقوم إلا بوجود العدد الذي يحصي هذا الزمان، والمكان القائم على الحركة هو الوعاء الزمني حقيقة، وإن كنا نحصيه ذهنياً، فلولا وجود المكان والحركة والعدد، لم نعرف ما هي حقيقة الزمان، إذ أن المكان والعدد هما اللذان نعرف من خلالهما مسميات الأشياء وأعدادها ومن خلال هذه الأشياء نستنتج الزمان، وهذه الأشياء تجعلنا نقف على أسماء الأماكن (المادة) وعلى أسماء المعاني من الصورة والتخيل، وهنا يكون مدار قولنا في توضيح الأمر ينصب على أربعة أسماء، اثنان منها أسماء لفظية (مادة) والآخران من الأسماء المعنوية (صورة) وهي الشمس والقمر، والليل والنهار، وهذه المسميات تشير إلى المكان والعدد والزمان بحيث لها ترتيب مترابط دقيق يوضح العلاقة والأثر والنتائج القائمة على الحركة التي تبدأ بالمكان مروراً بالعدد وانتهاءً بالزمان حيث نقف على ذلك في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} ^{٣٨٥} فالشمس والقمر وحركتهما بعد خلقهما هو الحيز، والزمان المقدر بحركتهما هو الليل والنهار التابع لهذه الحركة، وهذه الحركة إنما حدثت قبل خلق السماوات والأرض وما فيهما، وقد أخبر الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فهذه الأيام الستة هي مدة زمان مقدر بحركة غير حركة الشمس والقمر، لأن خلق الشمس والقمر داخل ضمناً في الأيام الستة، وذكر العدد هنا ليس دليلاً على وقت استغراق الخلق وعاء زمنيًا لمقدار كمية الإنتاج في وقت معلوم، ذلك أن الله قال: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^{٣٨٦} وإنما هو دليل من جهة وأمر من جهة أخرى، هو دليل على كيفية تعلم عدد السنين والحساب، وأمر بتعلم هذه الصنعة.

^{٣٨٥} - يونس ٥

^{٣٨٦} - يس ٨٢

ومما ذكرنا نتبيّن أن الزمان له ابتداء، وكان ابتداءه بالحركة التي تقوم عليها تلك الأجرام التي عبرنا عنها بالمكان، وكل ما له بداية فله نهاية وما كان معروف الأول فهو بالضرورة مُدرك الآخر، وهكذا لكل بداية نهاية ولن يبقى إلا الآخر جل جلاله، فإذا كانت المادة وأعدادها التي نتبيّن منها الزمان ليست آخرا، فبالضرورة أن الزمان ليس الآخر كونها جميعا مخلوقة وقد قال الله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} ^{٣٨٧} فهي إذا متلاشية ومنتهية، وبما أن المادة والعدد والحركة التي تشغل الحيز المكاني وتتلازم معه وجودا حيث لا حركة إلا والزمان معها ولا زمان لو لم تكن الحركة قال تعالى: {كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ^{٣٨٨}، ولهذا فبالضرورة ما انعدم أصله، انعدم نفسه وبالمحصلة فإن الزمان ليس الآخر. ولأن الزمان والحركة شيان فهما المخلوقان بداية ونهاية، ولذا فهما يشكلان دائرة التوأم فالمستقيم عبارة عن مجموعة نقاط متصلة بداية ونهاية، وتعد كل نقطة بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها، وهكذا يستمر المستقيم في اتجاهه إلى أن تتصل آخر نقاطه بأولها فيكون المستقيم دائرة، ولكن لا يمكن أن تقفل هذه الدائرة ولا أي دائرة إذا لم تكن هناك حركة. وعندما تقفل الدائرة بآخر نقطة تكون هذه النقطة في منظومة تكوين الدائرة، وتصبح بعد ذلك بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها. وعندما يكون وقتها الآن تكون الآن في حالة حركة، وتصبح كل النقاط السابقة لوقتها هي في الماضي، وبعد قفل دائرة الزمان بآخر نقطة فلا يكون لغيرها من النقاط مستقبل في تكوين هذه الدائرة التي أقفلت بها، ولذلك عندما تقفل دائرة الزمان والحركة فلا يكون في هذه الدائرة مستقبل، ولهذا فمن أراد المستقبل فليعمل عليه قبل قفل دائرة التوأم التي لم يعد فيها مكان للمستقبل بعد النهاية، وأصبح اليوم الآخر. واليوم الآخر هو يوم الوقت المعلوم قال تعالى: {قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم} ^{٣٨٩}، ويوم الوقت المعلوم هو الذي نعلمه، ونعلم أننا لا نعلم يوم حدوثه،

^{٣٨٧} - الأنبياء ١٠٤

^{٣٨٨} الأنبياء ٣٣.

^{٣٨٩} الحجر، ٣٧، ٣٨.

ولأن اليوم هو الوقت وليس الزمان، فقال الله تعالى: {إلى يوم الوقت المعلوم} ولم يقل اليوم المعلوم. إذاً اليوم هو الوقت، والليل والنهار والشروق والغروب هي أوقات، والوقت يرتبط بالمواقيت وهي العلامات الدالة على الحركة والزمان ليسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس^{٣٩٠}، بمعنى أن الأهلة علامات دالة على وجود الحركة والزمان. ومن خلال حركة الأهلة وفق المنظومة الفلكية نتعرف على اليوم وغد وأمس كمواقيت زمنية تلاحظ ولا تشاهد يحس بها ذهنياً ولا تلمس مادياً، وبما أنها لا تشاهد فكيف إذا تعد؟ تعد لأن مكوناتها تشاهد وتلاحظ، فمكونات اليوم هي الليل والنهار والشروق والغروب، وهذه جميعها تشاهد وتلاحظ، ولذلك تعد الأيام بمواقيتها الحركية (الأهلة) ومواقيتها الزمنية (الليل والنهار). ولذلك تكون (الآن، وقبل، وبعد) مؤشرات لمواقيت حركية وزمنية، أما (أسرع، وأبطأ، ومتساوٍ) فهي مؤشرات لمتحرك. وعليه أتساءل: هل الزمان يعد؟.

الإجابة: لا، الزمان لا يعد، وذلك لأنه لم يقع تحت سيطرة حواسنا، فهو لا يلمس ولا يشم ولا يذاق ولا يشاهد ولا يسمع، ولكنه يدرك ويعقل مجرداً، وبما أن الزمان لا يعد، فما هو الذي يعد ونعتقد بأنه الزمان؟.

الذي يعد، ويعد به هو اليوم والشهر والعام والدهر، وهذه مواقيت لها بداية ونهاية معلومة ترتبط بحركة الفلك المكونة لليل والنهار والشروق والغروب والأهلة. ولذلك نعرف كم عدد الأيام والشهور والسنين وبم تحسب أعمارنا (كم قضينا من العمر) وتؤرخ أعمالنا وتسجل ولكن هل اليوم الذي به تؤرخ أعمالنا هو اليوم المساوي لأي يوم في حركة الكواكب والنجوم؟ من المسلمات لا. فاليوم الذي نعيشه على الأرض لم يكن هو اليوم على الكوكب عطارد، فعدد أيام السنة على الأرض ٣٦٥ يوماً تقريباً، في حين عدد أيام السنة على الكوكب عطارد يساوي ٨٨ يوماً تقريباً، وهذا يعني أن اليوم على الكوكب عطارد أطول بكثير من اليوم على الأرض. والسنة على الكوكب الزهرة تساوي ٢٢٤ يوماً تقريباً، وهذا يعني أن اليوم على الزهرة أطول من اليوم

على الأرض وأقصر من اليوم على عطارذ. واليوم الذي يعد به الله تعالى يساوي ألف يوم ممّا نعد على الأرض وذلك لأنها أيام شدائد، وأيام الشدائد بالضرورة تكون طويلة بالنسبة إلى من خفّت موازينه وهو في الهاوية وكذلك قد يكون المعنى بأن خيرات ربك والتي لا تحصى سيكون اليوم فيها كألف سنة مما تعد على الأرض، وذلك جزاء لمن ثقلت موازينه وهي العيشة الراضية، وطبيعياً قد تختلف الحركة وذلك من حيث مجال امتدادها، أو من حيث سرعتها، ولهذا بالضرورة تختلف الأيام في الدنيا عن الأيام في الآخرة، ولا ينبغي أن ننسى أن الأيام التي يعد بها الله هي أيام الحركة الكلية للكون، وليس أيام الحركة الجزئية للأرض حول نفسها، {وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون} ^{٣٩١}.

الزمان والحركة هما توأم الوجود الحي، وهذا الوجود بشكله المطلق مادي ولا مادي، ولهذا لا يكون المادي لو لم تكن هناك حركة وزمان مصاحبان له، ولا غير المادي يكون لو لم يكن هناك حركة وزمان مصاحبان له، وفي هذه الحالة لا يكون أحدهما سابقاً على الآخر {ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ^{٣٩٢} فلا الحركة سابقة على الزمان ولا الزمان سابق على الحركة، وكل في فلك يسبحون.

ومن خلال دراستنا للزمان والحركة نلاحظ ما يخالف القول بنسبيتهما، فالزمان مطلق بسبب عدم تحكمنا فيه وسيطرتنا عليه، وهكذا تكون الحركة هي الأخرى مطلقة. ولتوضيح ذلك أعرض المثال الآتي على مطلق الزمان ونسبية السرعة: إذا انطلق متسابقان من النقطة • صفر في وقت واحد وليكن • الصفر الافتراضي، ووصل الأول نقطة • صفر النهاية بعد أن قطع مسافة ١٠٠ متر، في زمن ١٠ ثوان، ووصل المتسابق الثاني نقطة • صفر النهاية بعد أن قطع المسافة السابقة نفسها في زمن ٢٠ ثانية، فماذا يعني هذا الاختلاف مع أن زمن البداية واحد والمسافة المستهدف قطعها واحدة؟

^{٣٩١} الحج، ٤٧.

^{٣٩٢} الذاريات، ٤٩.

هذا يعني أن في الزمن الواحد قد تختلف السرعة بين المتحركات مما يؤدي إلى اختلاف المسافة المقطوعة في الزمن الواحد. فعندما قطع المتسابق الأول المسافة في (١٠ ث)، قطع الثاني نصف المسافة تقريباً في الزمن نفسه الذي وصل فيه المتسابق الأول إلى نقطة النهاية (١٠ ث)، وعندما سُلمت راية النصر للمتسابق الأول (الفائز) في الزمن (١٥ ث) بعد الزمن الصفر (زمن البداية) لازال المتسابق الثاني يجري في المضمار لعدم وصوله نقطة النهاية. وعليه فالزمن لم يتباطأ مع سرعة الثاني ولم يسرع مع سرعة الأول، فالزمن هو الزمن تراكمي متصل ولم يختلف واختلفت، السرعة بين المتسابقين وذلك باختلاف قوة الامتداد لكل منهما، ممّا جعل متوسط سرعة الأول تساوي ١٠ متر في الثانية، ومتوسط سرعة الثاني تساوي ٥ متر في الثانية، ولهذا قلنا الزمان مطلق وثابت، والسرعة نسبية ومتغيرة.

والفرق يكون أيضاً بين الحركة والامتداد، فالحركة مطلقة لأنها خارج سيطرتنا وتحكم أدواتنا، والامتداد نسبي حيث أنه متوافق مع قوة الجسم الممتدة، فحركة الكون متصلة طبيعياً ومنظمة، وحركة الأرض حول نفسها حركة مطلقة، وهي جزء من الحركة العامة، وهي المقدره باليوم المتكون من الليل والنهار، وحركتها حول الشمس هي الأخرى حركة جزئية مطلقة (خارج قدرة تحكمنا) وهي المقدره بالنسبة المتكونة من فواصل الأهلة الشهرية. ولهذا يتصل الزمان بالحركة كاتصال التوأم بحبل المشيمة في رحم الأم، مما يجعل بينهما ثباتاً واتصالاً، فثبات الزمان بثبات الحركة، وثبات الحركة بثبات الزمان، ولهذا كل منهما مطلق. أما الامتداد، فنسبي، فامتداد الأرض حول نفسها نسبي بالنسبة إلى امتدادها حول الشمس، ولذلك يكون زمن امتدادها (دورانها) حول نفسها وامتدادها حول الشمس يساوي ٣٦٥ يوماً تقريباً، وقد يختلف طول اليوم عن أمس وغد، وذلك نتيجة اختلاف مجال الامتداد مما يجعله (الامتداد) هو الآخر مختلفاً باختلاف مجاله، ولهذا لا يختلف طول اليوم نتيجة اختلاف الحركة، فالحركة ثابتة ومطلقة، بل الذي يختلف هو مجال الامتداد، وعليه تكون الحركة ثابتة والامتداد متغير.

وقد يتساءل البعض: بما أننا لا نشاهد الحركة فما هو الذي نشاهده عندما يكون الجسم في حالة حركة ذاتية أو مدفوعة وهو منطلق من النقطة (أ) إلى النقطة (ب)؟ الذي نشاهده في هذه الحالة هو أولاً: المتحرك وثانياً: الامتداد، فالمتحرك هو الجسم، والامتداد هو اندفاع الجسم بين صفر البداية وصفر النهاية، فامتداد الرجل وفق خطأها يُشاهد، وامتداد الفراشة من زهرة إلى زهرة يُشاهد، وامتداد الكرة من الهدف إلى الهدف يشاهد، وهكذا امتداد المستقيم أو المنحرف وكل ممتد بقوة دفع ذاتية أو معتمدة على قوة. وعليه فالقاعدة هي: (الامتداد مادي وكل مادي يشاهد).

مجال الامتداد:

لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن، ولذلك يكون الممكن هو مجال الامتداد، ومجال الحركة والزمان، ولأنه ممكن فهو متوقع الحدوث وبعد حدوثه قد يكون مساوياً لما هو متوقع وقد يكون أكثر أو أقل وعليه فالممكن ضروري الحدوث، ولكن نسبة حدوثه احتمالية مما جعلنا نفترض لها ثلاثة احتمالات وهي:

الاحتمال الأول: يكون الممكن مساوياً للمتوقع.

الاحتمال الثاني: يكون الممكن أقل من المتوقع.

الاحتمال الثالث: يكون الممكن أكثر من المتوقع.

وعليه لا يكون الامتداد للآخر إلا من مجال الممكن، ولا ممكن إلا في دائرة الزمان، فما نشاهده أو نلحظه ونحس به أو نتذوقه أو نشمه أو نسمعه فهو الواقع في حدود الممكن، ولذلك يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة إلى مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا، فمما من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا وهذا يعني أن البعض ممّا قدرة تمييزه أقل، والبعض الآخر يساويها.

وعندما نتحدث عن الممكن فلا ينبغي إغفال عن غير الممكن حيث لا وجود لغير الممكن بالنسبة إلى الله تعالى: {وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون} ^{٣٩٣}. أما بالنسبة إلى البشر فهناك الممكن، وهناك غير الممكن، الممكن في نضج القدرة، وغير الممكن في قصورها، ولهذا قد يتوقع المفكر ما هو ممكن، ولكنه قد لا يستطيع تحقيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته.

يقع الممكن في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، ولا يقع في الزمان الماضي، وذلك لأن الممكن هو افتراض قابل للتحقق وليس افتراضاً محققاً، فالمحقق هو الكائن أو الكائنة، أما الممكن فهو الذي لم يكن بعد ولكنه سيتحقق في الآن أو في المستقبل، ولهذا يكون الفرق واضحاً بين المحقق ككائن، وبين الممكن الذي سيتحقق. وعليه يمكننا الآن الحوار مع السؤال الذي طرح منذ زمن بعيد في الفكر الفلسفي وهو: ما هو الأسبق في الوجود: الممكن أم الواقعي؟ وأجاب أرسطو على ذلك بأن الواقعي أسبق في الوجود من الممكن معللاً ذلك بقوله: "إن الممكن يحتاج كي يوجد إلى واقعي يسبقه" ^{٣٩٤}. من هذه الناحية نعم لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود أول، ولكن من ناحية أخرى فالأمر السابق غير مطلق مما يجعلنا نقول: لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة. فالله سابق الوجود على الممكن، وكل ما تحقق من بعده وما سيتحقق هو الممكن بالنسبة إليه، والبشر كمحقق من هذا الممكن عندما يسعون إلى تحقيق ما هو ممكن من ناحية عقلية، يكون الممكن في هذه الحالة سابقاً على المحقق ذهنياً أو إدراكياً. وهكذا يكون حال الممكن الإلهي الذي لم يحقق بعد للمشاهدة والإدراك العقلي {وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون} ^{٣٩٥} بمعنى عندما يصدر الله أمراً وهو الممكن لابد وأن يتحقق في الوقت المحدد له، وفي هذه الحالة يكون الممكن سابقاً على المحقق. وعليه يكون الممكن قراراً

^{٣٩٣} البقرة، ١١٧.

^{٣٩٤} عبدا لرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، بيروت، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،

١٩٤٨، ص ٤٤٨.

^{٣٩٥} البقرة ١١٧.

معطيته مثبتة للتحقق، والتحقق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة، والبشر لا يحققون إلا الممكن، أما الله فيحقق الممكن والمستحيل، فسبحان الله العظيم.

وعلى هذا يجب أن نعلم أن العالم بما يضم من مكان وعدد وحركة وزمان، كله محدث مخلوق وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه تغييره من حال إلى حال بقوة الأول والآخِر جل جلاله، ومن صفة إلى صفة، وكذلك تجزئته واختلاف هذه الأجزاء وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثاً، وكذلك فقد بين صلى الله عليه وسلم هذا العالم بما يتضمن من جميع الموجودات سوى الله هي محدثة مخلوقة، لما قال: "كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء"^{٣٩٦} ثم خلق الله الأشياء فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق، وكذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة لأنه لما رأى النجم والشمس والقمر وتبدل أحوالها فأنكر أن يكون أيها ربا، فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مخلوقة، وأن لها خالقا، فقال عند ذلك وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، فدل ذلك على أن لها بداية وتحول وتبدل وهو سوف ينتهي كما بدأ. ومن هنا نعلم أن الخالق جلت قدرته أبداع الأشياء بأوليته الأزلية فهو واحد أحد، ولما كان مآلها إليه وهو الوارث لا بمعنى الملك، إذا فهو الآخر لا بمعنى العدد، وهو دليل أيضا على أنه ليس معه إله سواه، ولا من يستحق العبادة إلا إياه، وهو المرتجى وإليه المرجع والمآب، ومن كان المآب إليه فهو الآخر ولا نقصد بذلك انه آخر من جهة العدد، لأنه هو آخر مثل قولنا أحد وفرد وصمد، فهو نفي لصفات المماثلة والمراد منها نفي الشبيه والنظير والمثيل، حيث أن المراد ليس معه من يستحق الألوهية سواه، فقد قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} ^{٣٩٧}، وهو دليل على أنه الآخر سبحانه من حيث أنه الأول ثبت أنه

^{٣٩٦} - صحيح ابن حبان، ج ٢٥، ص ٣٢٧

^{٣٩٧} - الأنبياء ٢٢

موجود بصفة الوجوب أي أنه واجب وجوده تعالى ثبت أنه واحد، بدليل ما جاء به الشرع في باب الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته واليوم الآخر وما يتبع ذلك، من أنه الأول القديم، وبما أن الدليل اليقيني قطع بقدمه وأوليته، فهو الصانع الذي أحدث المحدثات، ومن هذا فإن الدليل العقلي الظني يستوجب ملك الصانع لما صنع، بمعنى أنه يؤول كل ما صنعه إليه، فإذا آلت إليه فهو الوارث الآخر، وما كان غير ذلك فلا يجوز أن يكون إليها مبدعا قديما، ولا يكون الوارث الآخر، وهنا دليل الأول الواحد الفرد الذي بدأ الخلق ونفى الشريك وأحسن الصنع وتفرد بالأمر، فلو لم يكن كذلك لما كان هو الآخر إذ أن تعدد الآلهة لا يخلو إما أن تكون كلها متساوية في القوة والألوهية والمشية والإرادة وكمال القدرة، ولو كان الأمر كذلك لكان كما قال تعالى: ﴿لَمَّا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^{٣٩٨} وإنما يذهب كل إله بما خلق لأجل طلب الاستعلاء بالعلو والقدرة، وذلك منشأ المخالفة والمنافسة والتغالب والمغلوب لا يكون إليها، ومعناه أن الآلهة تطلب المنازعة والمخالفة في المراد فحينئذ يقع الفساد إذ يريد أحدهما حياة شخص والآخر يريد موته، أو إبعاده والآخر يريد إشقاءه، ولوجدنا أكوانا متصارعة متناحرة كما يفعل ملوك الأرض، وإما أن يكون بعضها كامل الصفات وبعضها ناقص وفي هذه الحال سوف يخضع بعضهم لبعض، فالخاضع لا يصلح أن يكون إليها أصلا، والمخضوع له لو كان إليها حقا ويمتلك صفات الكمال لنفى الآلهة الشركاء وهذا محال لأن ذلك من صفة الخلق، إذ أننا نقف على تعدد الآلهة وتخصصها عند البشر وخاصة في الملاحم القديمة في الإلياذة عند الإغريق والإنياداة عند الرومان وملحمة جلجامش عند السومريين، وجميعها تتكلم عن إله للحب وآخر للحرب وثالث للخصب ورابع للجمال وخامس للفن وهكذا ثم يدور الصراع فيما بينها وينتهي بالمأساة، وإما أن تكون كلها ناقصة الكمال. غير أن السنة الكونية تقتضي من أصلح أولها يؤول إليه آخرها، وعلى هذا فالمسلم به أن الأول هو الآخر، والذي بدأ الخلق يعيده، أي كامل من كل وجه، وهو

واحد أحد مستغن عما سواه وهو الله الأول والآخر الغني عما سواه، وما سواه إن هو إلا خلق محتاج إليه، فوجود إله آخر سوف يؤدي لأن يستبد كل إله بالذي خلقه ويستقل به ويتصرف به ليمتاز ملكه عن ملك الآخر ولوقع الخصام والحرب بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك ومن هنا فهو باطل لما يلزم من ذلك نفي ألوهية الجميع أو ألوهيتهم ما عدا واحداً منهم وهو خلاف المفروض أو لما أنه يلزم أن لا يكون بيده تعالى وحده ملكوت كل شيء، وهو باطل في نفسه لما برهن عليه في الكلام في الآية، لأنه يقول باختصاص ملكوت كل شيء، وهذا مفهوم من سياق الآية بأنه إشارة إلى دليل إقناعي في التوحيد، والذي نريد أن نقوله ما هو مفهوم مما تقدم من الكلام أن كل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن، وأن الله وحده هو قديم أول أزلي، وعلى هذا فهو آخر أبدي، ليس معه أول سابق عليه، إنه الأول بالمطلق وهو الآخر بالمطلق وهذا الأمر يعني: أنه (هو هو) ، ولا يبقى معه أبدي آخر غيره، وذلك لانعدام وجوده، فكل ما سواه كائن بعد أن لم يكن، فهو المختص بالأزلية والأبدية، كما اختص بالخلق والإبداع والربوبية، والذي أحاط الأزل والأبد، فقد أحاط بهما علما فهو إذا عالم مرید قادر في الأزل والأبد، فالله سبحانه وتعالى هو الآخر علما، فأين علم الأولين والآخريين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية وإن كان ليس له بداية فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم من الإنس والجن والملائكة فقال عز وجل: ﴿وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^{٣٩٩} وهو شيء قليل في جانب علم الله تعالى، بل لو اجتمع أهل الأرض والسماوات على أن يحيط بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة أو أكبر من ذلك أو أصغر لكانوا عن ذلك عاجزين فهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بمقدار ما شاء الله تعالى أن يحيطوا به، والقدر اليسير الذي علمه للخلائق كلهم بمشيئته وإرادته علموه كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^{٤٠٠} لأن أصل النعم على الإنسان هي خلقه، والخلق للإنسان أعظم

^{٣٩٩} - الإسراء ٨٥

^{٤٠٠} - الرحمن ٣-٤

النعم التي حباه الله بها، وهذه النعمة تشير إلى الغاية من خلق الإنسان وهو كماله في قوة العلم، والغاية متقدمة على صاحب الغاية، والمراد بالإنسان الجنس وبخلقه إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة، ثم أتبع عز وجل ذلك بنعمة تعليم البيان لأن البيان هو الذي به يتمكن عادة من تعلم القرآن وتعليمه وتعلم علوم أخرى وتعليمها، إذ المراد به المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير والعقل، ومهما أوتي العلماء من العلم، فعلومهم جهل إذا ما قورنت بعلم الله تعالى، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك العلم الأعم، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم تتطلبه حياته وأمور معيشتة. والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم، لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد، وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها، ومعلومات الخلق متناهية فهو الآخر علما، فقله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} ^{٤٠١} إنما هو سؤال عن العلم الآخر وهو بمعنى آخر ما يعلم إن كان يعلم، وهو كذلك من علوم الآخرة الذي لا يعلمه إلا الآخر تبارك وتعالى، وعلم الروح هو روح البدن الإنساني ومبدأ حياته وهو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقل البشر، لأنها من الإبداعات الكائنة من غير مادة وجدت في البدن، ونقيضها وجود مادة من غير روح، وهو متعلق أيضا بإيجاد الخلق بصرف النظر عن حجمه وطبيعته ومكانه وزمانه، فكل ما تعلق به الإيجاد ودخل تحت الوجود فإما أن يكون حصوله ووجوده لا من مادة ولا في مدة فهي المبدعات كالمجردات والروح من هذا القبيل فهي موجودة من كل وجه بالفعل وليس لها حالة منتظرة الوجود، وكذلك الحركة وهي مظهر من مظاهر الأسماء التي بها يقدر الزمان، وإما من مادة وفي مدة فهي المسميات بالمحدثات وهي العناصر والمركبات منها وهي كثيرة معروفة، وعلى هذا فما أوتي البشر من العلم إلا القليل

ويأتي إدراكه وفائدته من طرق الحواس، لأن اكتساب العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئاً من أحوال المعرفة لذاته وهو إشارة إلى أن علم الروح مما لا يمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يتلبس به لذلك استأثر به الله تعالى، ومهما وصلنا إلى آخر العلم والمعرفة سيبقى النقص قائماً، ذلك أن الله هو الآخر ويعلم ما لا يعلمه الآخرون، لأن العلم صفة الآخر وهي من متمات قدرة الخلود فهي أيضاً كمال، والعجز في هذا المجال نقص، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإن فيه نوع من الخلود والبقاء بقدر معين قياساً إلى المخلوق وهو محبوب وإدراكه لذيد، حتى أننا عندما نسمع عن شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلوبنا نوع من الاهتزاز والفرح والارتياح لمجرد لذة السماع فضلاً عن تلك المشاهد التي تورث نوعاً من الخلود في نفس الإنسان أو المتلقي وشعوراً في القلب ضرورياً للمتصف به، بأنه نوع من كمال الخلود والبقاء، فكيف إذا قيست صفات الخلق إلى صفات الخالق تعالى، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقواهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره و منتهى قدرته وبقائه وخلوده وديمومته، إنما هي ممنوحة له بمشيئة وإرادة الآخر المطلق، ومبلغ غايته على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور ممن دخل في طاعته لا يملك لهم ولا لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا بعثاً ولا نشوراً، بل لا يقدر على أن يصون نفسه من المرض، أو يحفظ عينه من العمى، أو لسانه من الخرس، أو أذنه من الصمم، ولا نحتاج إلى كثير من الجهد والتفكير في أن نثبت عجزه في نفسه وفي غيره مما هو على الجملة متعلق بقدرته على أن يكون آخر من يرى أو آخر من يتكلم أو آخر من يسمع، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته وأثره على المحيط الخارجي من ملكوت السماوات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها، فهو لا يملك حيالها قدرة ولا قوة ولا إرادة ولا مشيئة، وما هو قادر

عليه من نفسه في الحركة والسكون والإرادة، فليست قدرته في نفسه من نفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك، وهذا يعني أن المخلوق مهما أوتي من أسباب البقاء والديمومة فلن يكون الآخر بالمطلق، ولو سلط الله بعوضاً على أعظم ملوك الأرض وأقواها لأهلكه، فليس للعبد قدرة التمكين إلى أجل مسمى إلا بتمكين الله له فيما أراد كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} ٤٠٢ فلم يكن جميع ملكه وسلطانه وقوته إلا بمشيئة الله و بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض، ومهما بلغ عبد من قوة وملك وسلطان فسوف يرثه الآخر جل شأنه، فقد حاول بعض الخلق أن يكون آخر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ليدلل لنا على أنه هو الآخر واليه المصير والمرجع والمآب حيث قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ الْأَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} ٤٠٣ ولا تصاف فرعون بالتكبر والتجبر قال يا هامان ابن لي صرحاً أي بناء مكشوفاً عالياً لعلني أبلغ أسباب وطرق السماوات لما كان يرى في نفسه من الجبروت والطغيان وأنه باقٍ ما شاء أن يبقى، لذلك كانت فكرة التحنيط والاحتفاظ بأجساد الفراعنة فكرة قائمة على الخلود، وكان الاحتفاظ بأجساد الفراعنة فيه نوع من الأمل في انتظار عودة الروح فأراد أن يبني له رصداً في موضع عال ليرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه أو أن يرى فساد قول موسى عليه الصلاة والسلام، وذلك لقوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ

٤٠٢ - الكهف ٨٤

٤٠٣ - غافر ٣٦ - ٣٧

مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ^{٤٠٤} وذلك ظنه أن إله السماء يتوقف على اطلاعه عليه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه إنسان.

ومهما جمع الإنسان من الملك والقوة والقدرة وأسباب البقاء التي يحظى بها، فهي لا تشكل من الأرض ذرة من الملكوت الأعظم، ثم أن تلك الذرة هي أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه، فيستحيل أن يملك عبد من عباد الله تعالى بقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء، ويعطيه لمن يختاره على علم، لذلك كان الخليفة هو المقصود باختيار الله تعالى له بعلمه المسبق بما أودع الله فيه من صفات الآخر النسبية التي أهلته أن يتبوأ هذه المكانة، حيث أنه آخر المتقين والورعين والعلماء، وليس المقصود هو الآخر من جهة العدد، وإنما من جهة الجمع والشمول بأنه يحمل ويجمع تقى هؤلاء وورعهم وعلمهم فهو الآخر من هذه الجهة لذلك قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ^{٤٠٥} فكانت مكافأتهم عظيمة بقدر ما حملوا من أعباء التكليف في الأولى والآخرة، فهؤلاء الخلفاء هم ورثة الأرض سواء في الدنيا أو الآخرة والمراد به المكان الذي استقروا فيه فإن كانت أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضاً حقيقة فذاك، وإلا فإطلاقهم الأرض على ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً لها بأرض الدنيا، وإيراثها وتمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه بناء على أنه لا ملك في الآخرة لغيره عز وجل وإنما هو إباحة التصرف والتمكين مما هو ملكه جل شأنه، وهم أيضاً يرثون من أهل النار ما كان مكتوباً لهم من الجنة بشرط الإيمان، فينبوأ كل منهم في أي مكان أراد من جنته الواسعة لا أن كلاً منهم يتبوأ في أي مكان من مطلق الجنة أو من جنات غيره المعينة، وعلى أية حال فقد كسب الخليفة رضوان الله تعالى وعنايته القدسية مما لا عين رأت ولا أذن

٤٠٤ - القصص ٣٨

٤٠٥ - الزمر ٧٣-٧٤

سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا ما ادخره الله لعباده الصالحين في اليوم الآخر وهو دليل على أنه الآخر تبارك وتعالى. لذلك كان الاعتقاد باليوم الآخر متعلق بأنواع التوحيد جميعها وهي الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، فيجب على المسلمين عموماً الاعتناء بمعرفة الله تعالى، وبأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وآثار ذلك في الأنفس والآفاق، ووحدانيته جل وعلا في ربوبيته وأسمائه وألوهيته، وحقه على عباده، وما أخبر به من النبوة والكتب، وما سيكون في اليوم الآخر من الأحوال والأهوال؛ فيحقق أركان الإيمان الستة وهي:

١ . الإيمان بالله.

٢ . الإيمان بملائكته.

٣ . الإيمان بكتبه.

٤ . الإيمان برسله.

٥ . الإيمان باليوم الآخر.

٦ . وبالقدر خيره وشره. وحلوه ومره حتى يصل إلى درجة البر حيث قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ^{٤٠٦} إن البر المعول عليه الذي ينبغي أن يهتم بشأنه ويجد في تحصيله من آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراك لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله وتقديم الإيمان بالله في الذكر لأنه أصل لجميع الكمالات العلمية والعملية واليوم الآخر أي بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال على أنه كائن لا محالة وعلى ما هو عليه لا كما يزعمون من أنهم لا تمسهم النار إلا أياماً معدودة وان آباءهم الأنبياء ويشفعون لهم فالبر هو التوجه إلى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب في الحقيقة، ولما كان الإيمان باليوم

الآخر متفرعا على الإيمان بالله، لأننا ما لم نعلم باستحقاقه الألوهية وقدرته على جميع الممكنات لا يمكننا أن نعلم صحة الحشر والنشر وكان الإيمان به محركا وداعيا إلى الانقياد بالله في جميع ما أمر به ونهى عنه خوفا وطمعا، وذكر الإيمان به عقب الإيمان بالله، وكذلك الإيمان بالملائكة كلهم بأنهم عباد الله ليسوا بذكور ولا إناث ولا بشر ولا أولاد مكرمون عنده متوسطون بينه وبين أنبيائه بإلقاء الوحي وإنزال الكتب، والإيمان بالأنبياء جميعا بأنهم المبعوثون إلى خلقه والقائمون بحقه والصادقون عنه في أمره ونهيه ووعدته ووعيده وإخباره من غير تفرقة بين أحد منهم، فالإيمان بهذه الأمور الخمسة المذكورة هو الإيمان بأصول الدين وقواعد العقائد، فهذه أصول الدين التي يجب العلم بها واعتقادها والعمل بمقتضاها، وهي أساس الأحكام العملية؛ فإنها تتوقف عليها ولا تصح إلا بها، وعندما يقفون عليها فإنما يقفون على النور والعلم والهدى، الذي جمعهم الأول والآخر تبارك وتعالى، فالله سبحانه وتعالى هو ذو الصفات الكاملة العليا والأسماء الفاضلة الحسنى خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى لا إله إلا هو وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وتدبيره ولا نظير له في صفاته ولا راد لتقديره، فهو العلى الأعلى الكامل في أسمائه الحسنى وصفاته، ولذلك وجب معرفة الأسماء والصفات فإن معرفة ذلك زيادة في الإيمان وبصيرة في دين الله وعرقان به، فهو المنتزه عن العيوب والنقائص والآفات، خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولو شاء لخلقها في لحظة، فهو رب السموات ورب الأرض ورب الآخرة والأولى، فتحقيق هذه الأسماء والصفات والاتصاف بها نسبيا لمن اختاره الله ليكون خليفته في الأرض، إنما هي من أوليات هذه الخلافة، لذلك فإن معرفة ما تدل عليه من المعاني الجليلة العظيمة، هي من كمال وصفات الخليفة المكلف بأمر الله تعالى في إعمار أرضه، ولذلك كتب الله الإيمان في قلوب الأنبياء والأولياء والخلفاء حتى شاهدوا بعين البصيرة ونور العلم ما كان غائبا عن العيون وبهذا أوتوا من العلم الآخر ما خفي على الناس، فالله تعالى العليم الكامل في علمه، التقدير الكامل في قدرته، الذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فما شاء الله كان، بأن أطلع هؤلاء على منابع العلم ومنائر الهدى، فأتى الخليفة من التقوى والشكر والعلم والهدى والصلاح ما حجبته عن غيره،

وذلك لعلمه جل جلاله بأن معظم الخلق لا يدرك بعقله إلا ما يحكم به الحس، وإن آمن بالغيبيات تسليماً، إلا أنهم لا يدركون ما يدركه الخليفة مما خفي على كثير من الخلق وخاصة ما أخبر به الله تعالى في كتابه وعن طريق الوحي للرسول بغيبيات اليوم الآخر ومواقف يوم القيامة والأمر بالإيمان بها، وما جاء في القرآن الكريم من أحوال اليوم الآخر، وذكر الشفاعة والحوض والميزان والصراط، وصحائف الأعمال، وما ذكر من صفات الجنة والنار، وصفات أهلها، كل ذلك حق لا ريب فيه، وكله داخل في الإيمان باليوم الآخر، وكانت معظم شروط الإيمان متعلقة بالغيبيات وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، إيماناً مجملاً شاملاً، وقد قرر القرآن الكريم ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله، وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً فقد قال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} ^{٤٠٧} فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر على الوجه الذي نطق به الشرع ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان، والمسارة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر السرعة على التراخي والمبادرة مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة من الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها لأنهم من الصالحين فصلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه وثنائه بإيمانهم باليوم الآخر وكان جزاء إيمانهم في ذلك اليوم عظيماً.

لقد بين الله عز وجل الأدلة والبراهين في ذلك الإيمان وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وقرر الشرائع الكلية التي بعث بها الرسل كلهم، ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرين في أصول الدين والعلوم الألوهية وأمور المعاد، والنبوات، والأخلاق والسياسات والعبادات، وسائر ما فيه من كمال النفوس وصلاحتها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات، ومن أهل الرأي والفلسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن، فالإيمان باليوم الآخر هو الحدُّ الفاصل

بين الجنة والنار إذ لا شيء يمكن أن يرتقي بالنفس أعلى درجة من درجة الإيمان، لأنه هو الذي يوفر الحوافظ التي تحفظ النفس من الانفلات، والهبوط مع ثقل الشهوات، ثم يحجب إليها الارتفاع في مدارج السالكين إلى أعلى الدرجات، وعلى قدر ما يعيش الإنسان مع الله، ويحبه ويخشاه، ويذكره في سره وجهره، ويبتغي رضاه، وعلى قدر ما يعيش على ذكر من اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، وجنة ونار، تكون قدرته على ضبط شهواته، وقدرته على تمثيل القيم العليا، وقدرته على إعداد نفسه للجهاد في سبيل الله وأعلى درجات الجهاد هي جهاد النفس، وهي ميزة أمتاز بها الخليفة عن غيره من الخلق، ورغبته كذلك في التطوع النبيل ابتغاء مرضاة الله في تنفيذ أوامره بإعمار الأرض وإصلاح الرعية، ثم الربط بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر هي من متممات الإيمان، والأمر بها واجب على الخليفة مندوب لغيره، حتى يصبح أحدهما منكرًا بالآخر تلقائياً ومؤدياً إليه لأن تذكير الإنسان بالله هو تذكير باليوم الآخر، وبنعيمه وعذابه، وإن التذكير باليوم الآخر هو تذكير بالله سبحانه وتعالى، أنه مالك الدنيا والآخرة، ومالك كل شيء في الوجود، ولهذا أمتاز الخليفة أيضاً بعلو الهمة وشدة الصبر وبعد النظر والتبصر في الأمور إضافة إلى الحكمة والروية والأناة والحلم والصفح والعمو لأنه مقتدر، وأما أصحاب النفوس الضعيفة، و الهمة الفاترة التي لا تتصف بالحماس المتقدم والمتطلع نحو الأفضل، فإنما يكون هذا من الآفات، غير أن الإسلام عالج هذه الظواهر علاجاً رائعاً من جميع الجوانب ونبه هؤلاء على التطلع إلى أبعاد من الدنيا، فمن جهة وجّه أنظارهم وأفتنتهم إلى هدف يتجاوز الحياة الدنيا كلها، والأرض كلها، والزمن كله، ويصل إلى بعد لا يدانيه بعد، وهو اليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، وجنة ونار، فوصل العاجلة بالآجلة، وجعل العمل في العاجلة هو وسيلة الوصول الآمن إلى الآجلة، وليس وراء ذلك بعد من عمل تعمل من أجله النفوس، ولا مدى تتطلع إليه، وتثابر على القيام بمتطلباته، لأن أي فتور في الطريق قد يقطع عليهم الطريق، والإنسان في حلبة الصراع قد يستوحش، حين يتكاثر عليه الأعداء، ويجد نفسه وحده، أو يجد من حوله مستضعفين مثله لا يملكون نصره، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تؤنسه بذكر الله فلا يستوحش، وتذكره بالثمرة الجنية

في اليوم الآخر فيجد في السعي ويجتهد في العمل، والإنسان في حلبة الصراع قد يفقد المتاع الحسي، والأهل والأصحاب، والفرش الوثير، والطعام الوفير، فتحن نفسه لذلك كله، أو لشيء منه، فيثقل إلى الأرض، وهنا تبرز الطاقة الروحية أيضا توازن في حسه ثقل الأرض، وتعوضه عن حرمانه بما أعد الله في الآخرة من رضوان لأهل طاعته في دار الخلود وهي الدار الآخرة، والإنسان المتكامل المترابط المتوازن هو الإنسان الراشد، الذي يقوم بعمارة الأرض على هدى وبصيرة، ويتطلع في الوقت ذاته إلى اليوم الآخر، الذي تكتمل فيه الحياة.

إن الآخر علما عز وجل يقدر المقادير ويسير الأمور وفق مشيئته بما هو أعلم، لذلك كان اختيار الخفاء من خلقه بحسب المشيئة وما يريد له خيره خلقه فما كان اختيار أول الخفاء لأوليته ولا آخرهم لآخريته وإنما الثاني الذي يلي الأول إلى ما بعده فهو المسمى بالآخر لأن له حكم التلاحق والمتابعة وهكذا كان تلاحق الخفاء الكرام رضي الله عنهم، فما منهم واحد إلا وهو مترشح للتقدم والخلافة مؤهل لها، فقدم في علمه الذي لا نعلمه الأسباب لكل منهم ليكون تواليهم كما كان والله أعلم، إلا أنه من كون الآجال المعلومة لله تعالى ولا بد للخلافة أن يليها في علم الله أحد خلفائه، فلا بد من تقدم من تقدم أجله قبل صاحبه وكذلك تقدم عمر بن الخطاب وعثمان وعلى فما تقدم من تقدم منهم لكونه أحق بها من هؤلاء الباقين ولا تأخر من تأخر منهم عنها لعدم الأهلية وما علم الناس ذلك إلا بعد أن بين الله ذلك بأجالهم وموتهم واحد بعد آخر في خلافته، لذلك فإن التقدم إنما وقع بالآجال أو بأمر آخر في علم الله لم نقف عليه وحفظ الله المرتبة عليهم رضي الله عنهم أجمعين، فهذا من حكم التأخر والتقدم والله الأولية لأنه موجد كل شيء والله الآخرة فإنه قال: **لَوْلِيهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** {٤٠٨} والله وحده علم كل غيب في السماوات والأرض، فيعلم ما سيحل بالخلق، وما يكون لهم، وإليه وحده يرجع تصريف كل أمر من الأمور، فلا يعلم غيب العواقب، ووقت وقوع المواعيد إلا هو، ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وهنا نعلم أنه لا حظ لمخلوق في معرفة علم الغيب حيث قال الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^{٤٠٩}. إن الأمور كلها تعود إلى الله خلقا وملكا وتصرفا، وقد أضاف الروح إلى أمره تعالى لتفخيم شأن الوحي وتقدير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه واتباعه لأنه هذا صراط الله وطريقه الذي له ملك الملكوت، فإن كون جميع ما فيه من الموجودات له تعالى أولا وآخرا ومآلا ومرجعا مما يوجب اتباع صراطه أتم إيجاب، وفي هذا من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالين ما لا يخفى في الآخرة حيث إلى الله تصير أمور الخلائق كلها في الدنيا والآخرة فلا يدبرها إلا هو حيث لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه وتقديره، فقد قضى الله سبحانه وتعالى قضاءه عندما خلق الخلق أو قبل ذلك، فهو الأول من هذا الوجه، واليه يرجع الأمر كله، فهو الآخر من هذا الوجه، فهو الآخر كما هو الأول وما بين الأول والآخر تظهر مراتب الأسماء الألوهية فلا حكم للآخر إلا بالرجوع إليه في كل أمر فإذا كان الله الأول، فالإنسان الكامل هو الآخر لأنه في الرتبة الثانية بالنسبة للإنسان وهو الخليفة، وهو أيضا الآخر بخلقه الطبيعي فإنه آخر المولدات لأن الله لما أراد به الخلافة والأمانة بدأ بإيجاد العالم وهياً وسواه وعدله ورتبه مملكة قائمة بذاتها فلما استعد للقبول أن يكون مأموناً أنشأ الله جسم الإنسان الطبيعي ونفخ فيه من الروح الإلهي فخلقه على صورته لأجل الاستخلاف فظهر بجسمه فكان المسمى آدم فجعله في الأرض له خليفة وكان من أمره وحاله مع الملائكة ما ذكر الله في كتابه العزيز إذ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^{٤١٠} فهو سبحانه بعلمه الذي خلق الإنسان ومكن له في الأرض، وأودع فيه من علم الأشياء وذكره به، وأسبغ عليه نعمه، ومن أعظم تلك النعم على

٤٠٩ - الشورى ٥٢ - ٥٣

٤١٠ - البقرة ٣٠

الإنسان، وهى أنه قال لملائكته إنى جاعل فى الأرض من أمكَّنه منها وأجعله صاحب سلطان فيها، وأستخلفه هو وذريته فى عمارة الأرض.

ثم جعل الله الخلافة لإعمار الأرض فى آدم عليه الصلاة والسلام ومن صلح من ذريته، وجعل الأمانة فى نبيه عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة فهو الآخر بالنسبة إلى الصورة الألوهية والآخر أيضاً بالنسبة إلى الصورة الكونية الطبيعية فهو آخر نفساً وجسماً وهو الآخر برجوع أمر الدنيا إليه فهو المقصود به عمارة الدنيا وإصلاحها وإذا رحل عنها زالت الدنيا ومارت السماء وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال وعطلت العشار وسجرت البحار وذهبت الدار الدنيا بأسرها: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ وَإِذَا الْمُوءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَبَلُ انْحَرَّتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} ^{٤١١} فالمراد هنا زمان واحد هو الزمان الآخر وهو ممتد يسع الأمور المذكورة مبدؤه قبيل النفخة الأولى، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، وهو الوقت الآخر قبل الخلود إما فى الجنة وإما فى النار بما أحضرت من أعمالها من الخير أو الشر وبحضور الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهريّة مناسبة لها، وبموازين الأعمال انتقلت العمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان فعمرت الجنة والنار وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار فالاسم الأول للأولى وهى الدار الدنيا والاسم الآخر للآخرى وهى الآخرة ولقد قال الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام: {وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى} ^{٤١٢} لأن الآخرة هى المطلب والمبتغى وهى الغاية فمن حصل على هذه الدرجة فإنه لا ينتقل لأن له الثبات والبقاء والدوام والأول ليس كذلك، فإنه ينتقل فى المراتب حتى ينتهي إلى الآخر وهو الغاية فيقف عندها، فلهذا قال له وللآخرة خير لك

^{٤١١} - التكويد - ١ - ١٤

^{٤١٢} - الضحى ٤

من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى فأعطاه صفة البقاء والدوام والنعيم الدائم الذي لا انتقال عنه ولا زوال له فهو البقاء الآخر.

فالله سبحانه وتعالى وإن خاطب نبيّه عليه الصلاة والسلام، بأن الآخرة خير لك من الأولى، فإنما هو من باب تخصيص العموم، ومعنى ذلك أن هذا الأمر لك خاصة ولمن تبعك وسار على نهجك الذي أوحيناه إليك عامة، وإن هذا الأمر سوف يمضي لما أَرَادَهُ اللهُ تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإن كان عليه الصلاة والسلام هو آخر الأنبياء والرسل، وحمل آخر الرسالات، وبلغ ما أنزل إليه من ربه، إلا أن دعوته عليه الصلاة والسلام سوف يمضي بها خلق مكلفون من غير الأنبياء، ألا وهم العلماء، فالعلماء ورثة الأنبياء، ورأس العلماء هم الخلفاء الذين أنعم الله عليهم بخلافته في الأرض ومكّن لهم من الأسباب والصفات بما يكونون أهلاً للخلافة على الوجه الأكمل الذي شرعه الله للخلق جميعاً.

فالله سبحانه وتعالى لما شاء أن يجعل في أرضه خلفاء شاء لهم أن يمشوا في الأرض وهي ذلولا لهم ليعمروها ويصلحوها ليكونوا هم الوارثون، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} ^{٤١٣} فهي غير صعبة يسهل عليكم السلوك فيها للسعي والعمل من أجل مصالحكم وما تخرسون فيها من أسباب الرزق وأسباب الأجر وما تدخرون لليوم الآخر، فإن المرجع بعد البعث إلى الله لا إلى غيره عز وجل فبالغوا في شكر نعمه التي منها تذليل الأرض وتمكينكم منها وبث الرزق فيها منافع لكم ولأنعامكم ثم تعودون إليها بموتكم ومنها سيكون نشوركم ورجوعكم فتخرجون إلى اليوم الموعود من أجل الحساب وذلك في اليوم الآخر. لذلك قدم الإنسان ورشحه لهذه الخلافة دون غيره من جنس الخلق وجعل بينه وبينهم سفيرا وهو الروح الأمين وسخر لهم ما في السماوات من ملك وكوكب سابح في فلك وما في الأرض وما بينهما من الخلق جميعاً منه وأباح لهم جميع ما في الأرض أن يتصرفوا فيه وأيد هؤلاء الخلفاء بالآيات البينات ليعلم المرسلون إليهم أن هؤلاء خلفاء الله عليهم ومكنهم من الحكم في رعيته بالصفات الألوهية التي

يتصفون بها استمدادا منه جل جلاله، وشرع لهم الشرائع وحد لهم الحدود ورسم لهم المراسم يقفون عندها حيث قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} ^{٤٤} فقد شرع الله سبحانه وتعالى هذه العقائد والتشريعات للخلق ما عهد به إلى نوح، والذي أوحاه لمحمد عليه الصلاة والسلام، وما عهد به إلى إبراهيم وموسى وعيسى، أن تثبتوا دعائم الدين بامثال ما جاء به ولا تختلفوا في شأنه وهذا دليل على أن رسالة التوحيد واحدة من أول الأنبياء إلى محمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين حيث قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} ^{٤٥} فالدين الحق المرضي عند الله هو الإسلام، فهو التوحيد والخضوع لله في إخلاص، وقد اختلف كل من اليهود والنصارى في هذا الدين فحرفوا وبدلوا ولم يكن اختلافهم عن شبهة أو جهل إذ جاءهم العلم، بل كان للتحاسد والتطاول، وهنا يبرز دور الخليفة في إقامة الشرع الذي شرعه لخلقه في السير على خطى النبوة وصولا إلى العاقبة الحسنى في الدار الآخرة، وفي هذا تكليف ومشقة لما يواجهه الخليفة من عناد البعض بما يدعوهم إليه من إقامة دعائم الدين، ولكن الله يصطفى لرسالته من يشاء، فهو يختار خليفته بما أودع به من علم وصبر وهمة جعلته أن يكون الآخر من حيث هذه الصفات، وبذلك يوفق للإيمان وإقامة الدين وإعمار الأرض وإصلاح الخلق. وهنا يقع الوجوب على الخلق باتباع الخليفة ولا يجوز لأحد من رعاياهم أن يتخذ لنفسه شرائع ولا يقتدي بغير ما أمر به الله تعالى وكلف به الخليفة، لأن الله تعالى نصب لهم شرائعا وسنن لهم سننا يعملون على هداها، والخليفة هو المكلف بالقيام بهذا الأمر، وكتب لهم كتب بذلك ونزلت عليهم ليسمعوها وليعلموا حدود ما أنزل الله الذي استخلفهم في الأرض فيقفوا عندها ويعملوا بها سرا وجهرا، حيث نزل الروح الأمين عليهم بالكتاب المبين من اللوح المحفوظ،

٤٤ - الشورى ١٣

٤٥ - آل عمران ١٩

وأعلمهم قدر ما يقع به التصريف في الدنيا إلى يوم القيامة ويتضمن ما في العالم من حركة وسكون واجتماع وافتراق ورزق وأجل وعمل ثم أنزل ذلك كله في كتاب مكنون إلى السماء الدنيا وجعله بأيدي سفرة كرام بررة مطهرين أرواح قدس صحفاً مكرّمة مرفوعة مطهرة بما وعد الله المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاءت به رسله من اليوم الآخر والبعث الآخر وما يكون في ذلك اليوم من حكم الله في خلقه وتوليّ الله ذلك كله بنفسه على صورة الحق الذي بعث به رسله ليصدقهم عند عبيده فعلا بحكمه ذلك كما صدقهم في حال احتجابه بما أيدهم به من الآيات فأمن من آمن وكفر من كفر فتوقف الأمر على ظهوره لعباده فيتولى الفصل بينهم بحكمه بنفسه وهو العزيز العليم فإذا فصل وحكم وعدل وأفضل جعلهم في الفصل فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^{٤١٦} فهذا هو اليوم الذي يوول فيه كل شيء إلى الرحمن، وكان الخلق فيه على قسمين في ذلك اليوم الآخر الدائم وقضى في علمه بما كان من أعمال الخلق على القسم الأول بقوله تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}^{٤١٧} يحصرهم فيها، وأما القسم الثاني فهم السعداء بما عملوا من طاعة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه، فهم في دار كرامته، ودار رضوانه فإنها الدار الآخرة التي

٤١٦ - ق ٢٠ - ٣٥

٤١٧ - الإسراء ٨

قال تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} ^{٤١٨} في ذلك اليوم وهو اليوم الآخر تأتي غشية الموت بالحق الذي لا مرية فيه، ذلك الأمر الحق الذي كانت تخشاه الناس حيث ينفخ في الصور نفخة البعث ووقوع الحساب الذي يحمل الثواب والعقاب الذي وعد الله به وأوعد، وما من نفس سواء كانت بارة أم فاجرة إلا و معها من يسوقها إلى المحشر ومن يشهد بعملها من أول عمل إلى آخر عمل، حيث كان البعض في الدنيا في غفلة تامة من هذا الذي يقاسونه في الآخرة، فينزع الله عن بصيرتهم الحجاب الذي كان يُغشى أمور الآخرة فيصبح البصر في اليوم الآخر نافذ قوي حتى يشهد الإنسان على نفسه بما كان يعمل، فيقال للملكين ألقيا في جهنم كل مبالغ في الكفر، مبالغ في العناد، وتارك الانقياد للحق، مبالغ في المنع لكل خير، ظالم متجاوز للحدود، وكان يشك في الله تعالى وفيما أنزله، حيث اتخذ مع الله إلهًا آخر يعبده فألقياه في العذاب البالغ غاية الشدة، وعندما يرون عذاب اليوم الآخر يبدأ الخصام بين الكافرين وبين قرنائهم من الشياطين الذين كانوا أغوهم في الحياة الدنيا، فيقول الله تعالى لا تختصموا عندي في موقف الحساب والجزاء، وقد قدّمت إليكم في الدنيا وعيداً على الكفر في رسالاتي إليكم، فلم تؤمنوا، وكونه اليوم الآخر الذي لا تقبل بعده توبة ولا عمل، فالله سبحانه وتعالى قضى بأنه لا يُغيّر القول الذي عندي ووعيدي بإدخال الكافرين النار، ولست بظلام للعبيد فلا أعاقب عبداً بغير ذنب، وفي هذا اليوم الآخر يتبدل كل شيء حتى أن جهنم تصبح ناطقة متكلمة، فيقول الحق لجهنم تقرّيعاً للكافرين: هل امتلأت من هؤلاء، فتقول جهنم غضبا عليهم وانتقاما منهم، هل من زيادة أستزيد بها من هؤلاء الظالمين. هذا حال الكافرين في اليوم الآخر، وأما المتقين، فيومهم الآخر يختلف كل الاختلاف عن أولئك، حيث أدنيت الجنة مزينة للذين اتقوا ربهم، بامثال أمره واجتتاب نهيه، مكانا غير بعيد منهم، وهو ثوابا لهم بما وعدهم الله، حيث حفظوا شريعته، وكانوا من المصلحين في الأرض، فأقاموا حدوده خوفا من عقابه وطمعا في رحمته، وهو محجوب عنهم لم يروه فجاءوا إلى الآخرة بقلب راجع منيب إليه سبحانه و تعالى عما يصفون، فيقال تكريما لهم:

ادخلوا الجنة آمنين فزع ذلك اليوم، وإدخالهم فيه الجنة هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له وهو اليوم الآخر لهؤلاء المتقين فلم كل ما يشاءون في الجنة، وعند الله مزيد من النعيم مما لا يخطر على قلب بشر، فذلك يوم الخلود.

إن الآخر بوجه عام له من الفضائل والصفات ما لبقيّة صفات الله تعالى من الأسماء الحسنی التي يتمثلها العبد نسبيًا بما أنعم الله عليه من نعمة اتصافه بتلك الصفات، وكون محمد عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء والمرسلين، الذي أنزل عليه آخر الكتب، فإن ما جاء به محمد من صفات الله وأسمائه وذكر اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الأنبياء ومنه ما تختلف الشرائع والمناهج كالقبلة والنسك ومقادير العبادات وأوقاتها وصفاتها والسنن والأحكام وغير ذلك، فمسمى الإيمان والدين في أول الإسلام ليس هو مسماه في آخر زمان النبوة، بل مسماه في الآخر أكمل من مسماه في أول البعثة وأوسطها، كما قال تعالى في آخر الأمر: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{٤١٩}، ولهذا كانت أركان الدين في أول النبوة غير مكتملة، وبدأت تتم شيئًا فشيئًا وذلك للتدرج في التشريع، ومن هذا الباب وجدنا أن الخمر لم يحرم تحريمًا قطعيًا إلا في المرحلة الأخيرة، حيث لم يأت في أول الكلام عن الخمر أكثر من التنبيه على أن فيه إثم ومنافع فقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} ^{٤٢٠} فبدأت عملية التفكير والمناقشة العقلية لدى المسلمين بين الإثم والمنفعة والرابط بينهما، فكانت مرحلة استعداد نفسي لتقبل خطوة جديدة في هذا الاتجاه وخاصة أن الخمر كانت متمكنة من المجتمع فبدأ يتهيأ للجديد في هذا المجال، ولما أصبح لديهم الاستعداد النفسي والعقلي لتقبل ما هو أشد من تلك الخطوة في المرحلة الثانية قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} ^{٤٢١}،

٤١٩ - المائدة ٣

٤٢٠ - البقرة ٢١٩

٤٢١ - النساء ٤٣

فكان الاستعداد للابتعاد الجزئي والمرحلي عن هذه الآفة وتقبلها المجتمع وأصبح لديه طاقة للسير حثيثا في الاتجاه الصحيح في المرحلة الأخيرة التي تحمل خير الآخرة، فلما علم الله تعالى . وهو أعلم . أن الإيمان تمكن من نفوسهم وفي قلوبهم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^{٤٢٢} فكان آخر الأمر خيره لأنه يحمل خير اليوم الآخر، وعلى هذا نستطيع أن نقول أن الإيمان في أول الإسلام ناقص فجعل يتم شيئا فشيئا، وهكذا مسمى الإيمان والدين قد يتنوع بحسب الأشخاص، وبحسب أمر الله في تدرج الإيمان من الأول إلى الآخر، وبحسب ما يفعله الإنسان مما أمر به، وبحسب إقباله وحضوره وإخلاصه، فإن المؤمنين من الأولين والآخرين مشتركون في الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ولكن بينهم تفاوت ما في القلوب إذا ذكر الله وما في اليوم الآخر ما يتفاوت به الإيمان أيضا، فعند ذكر الجنة والنجاة من النار ودم من ترك بعضه ونحو ذلك، يزداد الإيمان الواجب لدى الآخر الذي يكون آخر الصائمين وآخر القائمين، بمعنى الكثرة من الطاعة في العبادات والفرائض، فهو آخر من يشار إليه في عمله هذا فهو من الأوائل والأواخر بمعنى السابقين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^{٤٢٣} وعلى هذا فمن ترك بعض الإيمان الواجب في الجملة لعجزه عنه إما لعدم تمكنه من العلم أو لعدم تمكنه من العمل لم يكن مأمورا بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل، بمنزلة صلاة المريض والخائف وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أمروا، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أفضل وأكمل، بمعنى أنه يكمل صلاته وعبادته على الوجه الأمثل حتى آخرها وحتى يكون أحب إلى الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ"

٤٢٢ - المائدة ٩٠

٤٢٣ - الواقعة ٩ - ١٤

وَأَسْتَعِنُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزُ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ^{٤٢٤}. قال فإن الله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن بالسيئات، وأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وإن مصائب الدنيا تكفر الذنوب، وأنه يقبل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر، وأنه يغفر الذنوب جميعاً، ويغفر ما دون الشرك، وأن الصدقة يبطلها المن والأذى، وأن الرياء يبطل العمل، ونحو ذلك، فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها، كما قد جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها، لكن لا شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة ذلك أنها آخر ما يلجأ إليه العبد بعد الإسراف في المعاصي، كما أنه لا شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة وهي آخر ما يُخرج المسلم من الملة، وبهذا يتبين أنا نشهد بأن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً على الإطلاق والعموم، ولا نشهد لمعين أنه في النار لأننا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه، لأن لحوق الوعيد بالمعِين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه وإنما يعلمها الآخر جل جلاله، وفائدة هذا الوعيد أن هذا الذنب سبب مقتضٍ لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه بآخر أعمال العبد. فإن كانت آخر أعمال العبد صالحة ختمت له آخرته بالحسنى، والذي علم الله منه خيراً يقبل منه التوبة التي يلجأ إليها العبد بعد الإسراف في الذنوب والخطايا، فيكون آخر ما يقدم به على ربه هي التوبة، فيتوب الله عليه ثم يغفر له، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^{٤٢٥}﴾ إن الله سبحانه وتعالى يتوب على التائبين فهو يتوب على المذنبين ليتوبوا فهو يرجع إليهم كونه الآخر ليرجعوا عما بدر منهم وأسرفوا في أعمالهم ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

^{٤٢٤} - صحيح مسلم ١، ج ٣، ص ١٤٢

^{٤٢٥} - الأنعام ٥٤

جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ^{٤٢٦} جاء بفضلُه بالرحمة والمغفرة ليتوب على العباد فكانت التوبة علة الرحمة والمغفرة، فالرجوع عن المعاصي هو نفسه رجوع إلى الحق، فإن رجع العبد رجوع الله إليه، وكونه آخرًا فإنه كلما رجع عبد رجوع الله إليه، فالرجعة الأولى من الله على العبد هي التي يعطيها الله فيها الإنابة إليه فإذا رجع العبد إليه بالتوبة رجوع الله إليه غير الرجوع الأول وهو الرجوع بالقبول، فإن الله لا يقبل معاصي عباده ويقبل التوبة والطاعات وهذا من رحمته بعباده، فلا يشهد الله من عباده إلا ما قبله، وإن كان يحصي كل شيء عددا من الأعمال الحسنة والسيئة، ولكنه يؤخرها لليوم الآخر الذي يحتاج فيه الخلق إلى المغفرة والرحمة وحتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد جاء في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ^{٤٢٧}} فقد طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى، وهنا التفاتة لطيفة في ترتيب الكلام وتقديم الأولى على الأول وهذا من علم النبوة لنوح عليه الصلاة والسلام، حيث طلب المغفرة أولا ثم بعد ذلك أتبعها بطلب الرحمة، وذلك لسبب بسيط لا ينتبه إليه كثيرون، وهو أن الرحمة أوسع وأشمل وأعم من المغفرة، ذلك أن الرحمة لعموم العموم، بينما المغفرة لعموم الخصوص، فالرحمة يدخل فيها جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وعاصيهم وتدخل فيها البهائم وجميع المخلوقات، فالكافرون يتراحمون فيما بينهم برحمة الله والبهائم تتراحم فيما بينها بنواميس الطبيعة التي شاءها الله جل جلاله، ولا يصح وصف ذلك بالمغفرة، فإذا طرد أحد من رحمة الله فلا مطمع له في شيء بعد ذلك، فإبليس طرد من رحمة الله بمعصيته لربه وإصراره على المعصية فقال تعالى: {قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ^{٤٢٨}} فالمغفرة تأتي بعد الرحمة، وهي رحمة خاصة بالمؤمن، فالرحمة تأتي أولا ثم المغفرة، ومن غفر له كان مرحوما، وليس كل مرحوم مغفورا له، فالخلق كلهم في رحمة الله، ولكن ليس كل الخلق ينال المغفرة، وعلى هذا فالمغفرة تأتي

٤٢٦ - الزمر ٥٣

٤٢٧ - هود ٤٧

٤٢٨ - الأعراف ١٨

آخرا من الآخر جل شأنه، وانظر إلى قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} ^{٤٢٩} فهؤلاء الذين مُنَعُوا المغفرة هم مشمولون بالرحمة، فيرحمهم الله في أنه يرزقهم ومرحومون في أموالهم، ومرحومون في أبنائهم، ومرحومون في آجالهم التي أجلها الله لهم ولم ينتقم منهم ولكنهم مُنَعُوا المغفرة التي آخر ما يمنحه الله لمن يشاء من عباده.

إن الله سبحانه وتعالى كونه يتصف بصفة الآخر، فقد دخل ضمن هذه الصفة إحاطته بكل مخلوقاته منذ بداية الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو الأول الأزلي قبل الكون والمكان، من غير أول ولا بداية، والآخر الأبدي بعد فناء المكنونات والأزمان بغير آخر ولا غاية، الظاهر في علوه بقهره عن غير بعد، والباطن في دنوه بقربه من دون مسّ، الذي أحسن بلطفه كل شيء بدأه وأتقن صنع كل شيء أنشأه، ودبرت الأحكام حكمته وصرفت الحكومات مشيئته، فأظهر في الغيب والشهادة لطيف قدرته وعمّ في العاجل والأجل خلقه بنعمته، ونشر على من أحبّ منهم فضله، وبسط لجميعهم عدله، وأنعم عليهم بتعريفهم إياه، سبحانه وتعالى، وأحسن إليهم باجتماعه إياهم إليه، وأفضل عليهم بتيسير كلامه لهم، وجعل لهم خلفاء يسوسونهم ويقيمون لهم أمور الدنيا والآخرة، ويخلفهم في أهلهم وأموالهم وأولادهم إذا دعته الحاجة إلى الانتقال لغير مكان إقامتهم فقد جاء في الحديث "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبير ثلاثا ثم قال: "اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده اللهم أنت صاحب في السفر والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل وإذا رجع قالهن وزاد فيهن آييون تائبون عابدون لربنا حامدون" ^{٤٣٠}

٤٢٩ - التوبة ٨٠

٤٣٠ - صحيح مسلم، ج ٧، ص ٥٦

والخليفة في الأهل هو المسؤول على رعايتهم عندما يكونون في حاجة للرعاية، الذي أوكله الله في الأسرة والعائلة والأهل وكل من يتحمل مسؤولية في مرضاة الله طاعة وإصلاحاً لا كفراً وإفساداً، ولأن الله تعالى جعل في الأرض خلفاء، فهو سبحانه لم يتخلَّ عنهم وعن رعايته وعنايته لهم ولرعايتهم، فإن كان الخليفة الذي استخلفه الله على عباده غادر سلطانه ومكان إقامته لأمر من أمور الدنيا أو الآخرة، فإنه يكون قد استخلف الله في ملكه وسلطانه ورعايته فيهم ليقوم عليهم بما كان يقوم به من ممارسة للحقوق وأداء للواجبات وحملًا للمسؤوليات، لذلك جعل الله الخلفاء في الأرض ليصلحوا ولا يفسدوا فيها ولا يسفكوا الدماء بغير حق، ويتقوا الله في كل كبيرة وصغيرة، ومهما كان الخليفة مقدماً للرعاية فهوّ وما يقدمه من رعاية في حاجة لرعاية الأول والآخر جل جلاله، ولذا فبعنايته ورعايته يتفضل على خلفائه بالأنعام من الوهب والكرم والجود وغير ذلك من الفضائل التي لا يعد ولا تحصى، لذلك وجب التزام الأوامر واجتتاب المناهي، فمن خرج عن ذلك فقد انتهك الحرمة من عدم حفظ الرعية وصيانتهم والغيرة عليهم فمن خلف غائباً بسوء في أهله فقد أتى باباً من أبواب الكبائر، فإنه انتهك حرمة الخليفة في الرعية وجره حلم الله تعالى وإمهاله وما علم سر الله في ذلك من استخلاف من يشاء من عباده إلا وله فيه خير، قال موسى عليه الصلاة والسلام كما جاء في قوله تعالى: **لَوْلَمَا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَفْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**^{٤٣١} وهذا خطاب خارج عن استخلفه في قومه وهو هارون عليه الصلاة والسلام وهو هنا نائب الخليفة وليس خليفة ثانياً، وكذلك قومه فسماهم خلفاء ولكنه ما استخلفهم، لكنه تركهم خلفه، أي أصبحوا خلفه وسار إلى ميقات ربه، فعصوا أمر الخليفة حيث قال تعالى: **لَوَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**^{٤٣٢} وبهذا خرجوا من

٤٣١ - الأعراف ١٥٠

٤٣٢ - الأعراف ١٤٨

الملة ودخلوا في الكفر لأنهم لم يلتزموا ما أمرهم به موسى عليه الصلاة والسلام وهو خليفة الله في الأرض وخليفة لقومه اصطفاء من الأول والآخر عز وجل.

إن صفة الآخر لله سبحانه وتعالى واضحة جلية إضافة إلى ما تقدم مما تكلمنا به، حيث نقف على ذلك في نصوص قطعية الدلالة من القرآن الكريم بدلالة معنى المعنى، لا بذكر النص الصريح في إيراد الصفة نفسها بلفظ الآخر، وإنما ما يفهم من السياق في أمر الفناء والبقاء الذي يتضح من خلاله القديم والمحدث، والخالق والمخلوق، والمالك والمملوك، فهذه الأمور التي تؤشر التلازم والترابط بوجود أولٍ صانع أحدث المحدثات كونه قديماً فبالضرورة أن يكون هو نفسه آخراً يؤول إليه ما كان بدأه حيث قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿لَوْلِيهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^{٤٣٣}. بطبيعة الحال إذا طرح سؤال: من الذي سيرت السماوات والأرض؟.

تكون الإجابة لا وارث لهما إلا خالقهما بداية ونهاية، ولا وارث لهما بداية ونهاية إلا هو جل جلاله وهو الأول والآخر. ومع ذلك قد يتساءل البعض: هل للزمان بداية ونهاية؟.

تكون الإجابة، نعم، للزمان بداية ونهاية، حتى وأن لم نعرف تاريخ بدايته ونهايته، وذلك لأننا نعلم أن الأول سابق على كل أول، والآخر هو الأول الذي ليس من بعده آخر، ولأننا نعرف من الزمان ما هو ماضٍ، وما هو حاضر، وما هو مستقبل، فإن ذلك يدل على قبول الزمان للقسمة والجمع والطرح. يقول الله تعالى في سورة يونس عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾^{٤٣٤}. وبما أن النهار جزء من اليوم، والساعة جزء من النهار، ألا يكون النهار واليوم جزءان من الزمان؟. ولأن الإجابة بنعم فتكون البرهنة أيضاً بنعم، إن للزمان بداية ونهاية، ونحن الذين لم نتمكن من معرفتهما. لأننا لم نؤت من

^{٤٣٣} - آل عمران ١٨٠

^{٤٣٤} يونس ٤٥، ٤٦.

العلم إلا قليلا. وفي هذا الأمر أقول كل متعدد متناهي وكل ما ينتج عن القابل للتعدد متناهي إلا الواحد الذي لا يتعدد باعتباره هو الأول والآخر.

وعليه يكون الزمان متناهيا مصداقا لقوله تعالى في سورة الأعراف: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ كَافٍ فِي عَمَّا قُلْتَ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}٤٣٥. ربي، الأول والآخر. وهو الواحد الذي لا يتعدد، وبالتالي لا يقع في شك الفلاسفة والرياضيين المتجادلين على النهاية واللانهاية. ولهذا قدرات الله لا تحصى ولا تعد بالقدرات البشرية المخلوقة، ولا هي موضع مقارنة، ولا يمكن أن تدخل في حساباتنا المتناهية بقصورها أمام قدرته. وهكذا دائما المخلوق أقل قدرة من خالقه.

وبناء على ذلك هل للأعداد بداية ونهاية؟ الأعداد مهما كبرت فإنها تبتدئ بواحد وتنتهي بواحد، إذن الواحد هو البداية والنهاية، وإذا لم نصل بقدراتنا العقلية إلى معرفة وجود النهاية العددية، فإن ذلك لا يعنى إثبات عدم وجودها، بل انه دليل على قصور قدراتنا العقلية والفكرية، التي لم يستخدم منها إلا القليل جدا من سعتها الإدراكية، والاستيعابية، وهذا يتطلب منا عدم اليأس، ويدفعنا إلى البحث الجاد، والتقصي الدقيق، من أجل التعرف على نهاية الأعداد، كما تعرّفنا على بدايتها، ولذلك لا نياس مثل الذين {يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور}٤٣٦. والآخرة هي التي تكتمل بها البداية، وتنتهي، كما تبتدئ الأعداد (أي أعداد) بواحد، وتنتهي به، مما يجعل الواحد هو البداية والنهاية.

وما لانهاية، هو الذي لا يشاهد، ولا يحس به، وهو احتمال، لم يخضع للإثبات، وإذا عرفناه أصبح نهاية، والأعداد سواء بالسلب، أو بالإيجاب تستمر في تضاعف إلى النهاية (نهاية الشيء المعدود، أو نهاية الذي يقوم بفعل العد) ولا يبقى إلا الأول الواحد الأحد أولا وآخرا.

٤٣٥ الأعراف ١٨٧.

٤٣٦ الممتحنة ١٣.

ومثال على ذلك: إذا اتجه أحد المتخصصين في دراسة الرياضيات من نقطة معينة على الأرض في اتجاهها مستقيم، فإنه بالضرورة يصل إلى النهاية، لأن لكل بداية نهاية، ولكنه لو انحرف قليلاً، أو كثيراً عن خط سيره، فإنه يجد نفسه مستمراً في اتجاهه، دون أن يمر بنقطة النهاية، وكأن الأرض ليست دائرية، وهكذا في كل دورة على الأرض إذا لم يصل إلى نقطة البداية التي وضعها أو أنطلق منها، وفي هذه الحالة قد يحكم على الأرض بما لانهاية، وهو يعرف مسبقاً أنها منتهية. ولذا بما أن لكل شيء أول وآخر سابق عليه إذن لا بد وان تكون له بداية ونهاية.

وعليه أتساءل: هل في دراستنا للأشياء والمواضيع في دائرتها، أو فلكها المنتهى، تكون غير منتهية؟ نحن نعرف أن كل شيء ندرسه، أو خاضعاً للدراسة، لا يخرج عن حيز من الزمان، والمكان، وهو أيضاً لا يخرج عن حيز تفكيرنا وقدراتنا العقلية. إذن كل ما ندرسه ونبحث فيه، هو في إطار محدود، مع فارق حدوده مع غيره، إذا قورن به، وبما أن ما ندرسه في إطار محدود، ألا يكون لِمَ ندرسه حدود ونهايات؟ إذا قمنا بإحصاء عدد سكان الصين على سبيل المثال، فمهما كان عددهم فإن له نهاية، لأن المكان الذي استهدفناه محدد، إذن مسبقاً نعرف أن لعدد سكان الصين نهاية، مع أننا لا نعرف عددهم بعد. وإذا قمنا بتعداد سكان العالم، وحيواناته، وطيوره، وأسماكه، ونباتاته، وحتى حبات رمل، ألا نصل إلى النهاية؟ بالتأكيد سنصل، لأن كل هذه الكائنات في رقعة جغرافية محددة بالكرة الأرضية المتناهية، المخلوقة من الأول الذي لم يكن قبله أول ولا بعده آخر، إنه الله الواحد الأحد الأول والآخر سبحانه وتعالى هو كما هو لم يكن من بعده آخر.

إذن لكل شكل وصورة وكائن ومخلوق بداية ونهاية، إلا الخالق هو الأول وهو الآخر جل جلاله، وعود على بدء بما أن كل شيء منتهٍ فإن تعداد ما يكون داخل المنتاهي ممكناً مع العلم أن بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهوا قبل أن يعرفوا النهاية، وإذا خرجنا بقدراتنا العقلية إلى التعرف على ما هو خارج الأرض، فإننا سنعرف بقدر ما تستوعبه عقولنا وتفكر فيه، ولا نستوعب ولا نتعرف على ما هو خارج عنها. وبما أن لكل شيء بداية. إذن لا بد وأن تكون له نهاية. وعليه لا وجود في الحياة الدنيا إلى ما لا نهاية، بل الوجود إلى النهاية، وهذا يستوجب التعرف على شيئين:

الأول المتعرف عليه بالمتعرف به:

عندما يكون الموضوع معرفة سابقة سواء كانت هذه المعرفة مادية أو فكرية، فيكون هو المتعرف عليه، ويكون هذا الموضوع هو المعرفة التي يتم استيعابها بالعقل وهو المتعرف به. فالمتعرف عليه لو لم يكن له بداية ونهاية ما عرفناه معرفة علمية، ولهذا عندما تتوفر المعلومات عن الموضوع، يمكن التعرف عليه بالعقل باعتباره المتعرف به.

الثاني: غير المتعرف عليه بالمتعرف به:

عندما يتمكن العقل من البحث والتقصي العلمي يمكن أن يتعرف على الجديد بالمتعرف به (بالعقل)، في حدود القدرات والاستعدادات كبدائية ونهاية إدراكية. وغير المتعرف عليه هو الذي لم يُكتشف بعد حتى يعتبر معرفة علمية، ولهذا يُعتبر بالنسبة للمدركات العقلية مجهولا، والعقل معروف كوسيلة للتعرف به، وعندما يتعرف العقل (المتعرف به) على الجديد يصبح غير المتعرف عليه معروفا.

إن المعرفة الممكنة هي المعرفة المتاحة، أما المعرفة غير الممكنة هي المعرفة غير المتاحة. مثل معرفة اليوم الآخر في الحياة الدنيا، هي معرفة نظرية فقط، ولا يدركه إلا المؤمن الذي يدرك الله (الأول والآخر). وفي الوقت ذاته لا يعرفه عمليا لأنه غير قابل للمشاهدة والملاحظة، وهذه معرفة غير متاحة. وهذه التي أطلقنا عليها (غير المتعرف عليه بالمتعرف به). وكل معلومة لم يتم التعرف عليها بعد وهي في الإمكان تندرج تحت (المتعرف عليه بالمتعرف به) إلى النهاية. وكل معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت (غير المتعرف عليه بالمتعرف به)، وذلك لقصور العقل (المتعرف به) عن إدراكها، وهذه نهاية للفكر الإنساني وذلك لمحدودية قدراته ومدركاته. كل شيء عرفناه يكون هو المتعرف عليه. وكل شيء هو موجود ولم نتمكن من التعرف عليه سواء في الأرض أو في السماوات أو ما بينها، يكون غير المتعرف عليه.

عندما يتأمل المفكر في المجرد يمكن أن يتعرف على الجديد. القوانين الفيزيائية التي أصبحت بين أيدينا في المعامل والمختبرات هذه نُقلت من مجرد إلى مجرب (خاضع للتجريب) في مثل هذه الحالة

أنتقل العقل من غير المتعرف عليه إلى المعرفة. أما إذا انتقل العقل من المتعرف عليه إلى معرفة أخرى جديدة مثل النظر إلى الإبل والجبال والأرض كمتعرف عليها، وانتقل منها إلى معرفة الكيفية التي بها خلقت تكون المعرفة الجديدة معرفة مجردة تمت معرفتها بالمعرفة المجربة التي تشاهد وتلحظ.

إن المشكلة هي عدم التعرف، وإذا عرفنا، عرفنا النهاية كما عرفنا الله الأول والآخر، وإذا لم نعرف، ليس معنى ذلك أن للأشياء ما لا نهاية، بل إن للأشياء نهايات ولكن لم نعرفها بعد، وإذا لم نتمكن من معرفتها، فإن ذلك لا يعنى ما لا نهاية، بل يعنى قصور قدراتنا عن معرفته إلا الله ندركه بآياته دون أن يكون مشاهداً.

وإذا كانت للأرض بداية ونهاية إثباتاً من خلال معرفة مساحتها، وحجمها، ألا يكون لها عليها، بداية ونهاية؟. وبما أن لانطلاق الرصاصة من فوهة البندقية، إلى الهدف الذي يمكن أن تصل إليه، بداية ونهاية، ألا يكون لما بينهما أيضاً بداية ونهاية؟ وإلا كيف نقبل بأن لها بداية ونهاية في الحالة الأولى، ولا نقبل أن يكون لها في الحالة الثانية (الحالة المحصورة بين نقطة الانطلاق، ونقطة إصابة الهدف) وهكذا يعتقد البعض بقولهم عندما تتجزأ المسافة المقطوعة إلى أجزاء، تتجزأ هي الأخرى إلى ما لا نهاية؟. إنها مسألة خيالية لا يمكن أن تتفق مع الواقع المشاهد، والمقاس، أو أنها أضحوكة خيالية، وإلا كيف تكون لانطلاق الرصاصة، بداية ونهاية، وتكون المسافة بينهما (بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول إلى الهدف) غير منتهية؟، وهكذا لكل الأشكال الهندسية، بداية ونهاية من خلال تحديد مساحتها ومحيطاتها وأحجامها المحددة لها، فكيف هي الأخرى تكون محددة ومعروفة بدقة ثابتة، بداية بوحددة القياس، ونهاية بوحددة القياس، ويكون لما بينهما ما لا نهاية؟.

هل المسافة العددية المحصورة بين ١، ٢، التي تتجزأ إلى أجزاء هي الأخرى تتجزأ إلى درجة أطلق عليها ما لا نهاية، هل هذه المسافة تساوى المسافة بين ٢، ٣، وتساوى المسافة بين ٣، ٤، وهكذا بقية المسافات بين الأعداد إلى النهاية؟. بالتأكيد أن العدد ١، هو البداية لما يأتي من بعده من

أعداد، ويكون العدد ٢ نهاية للأعداد الجزئية التي أتت بعد العدد ١، وهكذا إلى النهاية، إلا الأول والآخر هو واحد أحد يعد ولا يتعدد، ولأن المسافات المحصورة بين الأعداد متساوية، باعتبارها محددة، وبدقة واحدة، إذن لابد وأن يكون لها بداية ونهاية. وإلا هل يمكن أن يكون للشيء الواحد بداية ونهاية، ويكون للمحصور بينه ما لا نهاية؟، وإذا لم تكن للأعداد المتجزئة (المحصورة بين الأعداد الصحيحة، بين ١، ٢، ٣، الخ) نهايات لا يمكن أن نصل لأي عدد صحيح.

الكون بما فيه من يابس وماء وهواء وخلاء، أثبت العلماء أن له بداية، والتي عرفوها بالانفجار العظيم، ومنهم من اعتبرها النقطة الصفرية التي بدأ منها الامتداد، وعرفوا حديثاً أن للامتداد العظيم أيضاً نهاية يقف عندها، ويعود منها إلى نقطة البداية الأولى بالانكماش، ومع أن العلماء الروس هم الذين اثبتوا ذلك حديثاً، إلا أن الله عز وجل قد قال في الكتاب الحكيم في سورة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعلين﴾^{٤٣٧} السماء التي بسطت كانبساط أوراق الكتب وسجلاتها أثناء لحظة الانفجار العظيم، والتي امتدت إلى ما عرفناه، وما لم نعرفه بعد، ستطوى بقدره الخالق الأول والآخر كما تطوى أوراق الكتب وسجلاتها، إلى أن تنتهي إلى الحجم الذي بدأت منه، وكأنها ذرة، ثم تنتهي إلى ما يراد إليها أن تكون عليه بقدره الخالق العظيم الذي قال في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^{٤٣٨} فإذا عرف الإنسان الكيفية التي عليها نشأ الخلق (الذي تكوّن أو تأسس أو بدأ عليها)، يعرف بالضرورة أن لهذا الخلق لابد من نهاية، لأن معطيات تكوين الخلق محددة بعمر زمني لابد وأن تنتهي إليه، وهكذا تنتهي أعمار المخلوقات بمختلف أنواعها، وأجناسها وفصائلها، وخصائصه وقوانينها. وهذا ذكرني بحديث جرى

^{٤٣٧} الأنبياء ١٠٤.

^{٤٣٨} العنكبوت ١٩ - ٢٢.

بين أحد أساتذة الفلسفة من السودان الشقيق وبينى حينما سألته أين مكان الإقامة؟ فقال: مؤقت في طرابلس. فسألته: ودائما أين؟ فقال في الخرطوم. فقلت له ألا تعتقد أن وجودك مؤقتا أينما كنت. فقال نعم لكل بداية نهاية.

إن التفكير الإنساني في حالة تطوُّر ونضج، وتغير بالسلب والإيجاب حسب الموقف والظرف، ولهذا لا ينبغي أن يوضع على التفكير الإنساني سقف ليحد منه، بل ينبغي أن يُحفَّز على التفكير الحر، ليكون مبدعا ومنتجا ومتطورا. وعليه نقول إن التفكير الإبداعي المتطور لا حدود ثابتة له، ولكن له نهاية.

الواحد البداية والنهاية هو الأول والآخر:

تبتدئ الأعداد بواحد فيكون الصدارة، وتختتم به ويكون النهاية، وجميع الأعداد هي مواليد الواحد خلقا، فلولا الواحد الأول ما عرفنا الاثنين اللذين يتكونان من (١ + ١)، والواحد دائما مستقل عن كل واحد من حيث أنه واحد، ومن تكرر الواحد القابل للتكرار والمثيل تتكون الأعداد والأرقام مما خلق الأول المطلق (الآخر بالمطلق)، تكرر (١ ، ١ ، ١) بالجمع تساوى ثلاث، وثلاث بطرح واحد تساوى اثنين، وهكذا، إذن أي عدد لا يمكن أن يكون هو المقصود إذا سحب منه الواحد، أو أضيف إليه، على سبيل المثال إذا كان العدد المقصود هو (٤ أو ٥، أو ٩)، فإنه لا يمكن أن تتكون هذه الأعداد إلا بالواحد، وإذا سحب من كل منها تصبح، (٣، ٤، ٨)، وهكذا تنتهي هذه الأعداد وغيرها ويبقى الواحد الدائم الأول والآخر جل جلاله، وإذا انتهى الواحد كعدد انتهى الوجود أو الموجود، وكانت النهاية، ولم تكن ما لانهاية.

إذن بالواحد تكون البداية، وبه تكون النهاية، وأي عدد لا يمكن أن تكون له بداية ولا نهاية إلا بالواحد، فالرقم ٨ بدايته واحد، ويستمر الواحد في تضاعف إلى أن يصل إلى الرقم أو العدد ٧ وإذا إضافة واحد إلى ٧ يجعلها ٨ ويكون نهاية لها، إذن الواحد هو البداية والنهاية بالنسبة إلى العدد ٨ وإلى أي عدد.

وعلينا أن نفرق بين الواحد الذي يتعدد والأول الذي لا يتعدد، فالذي يتعدد يتعدد بالمقارنة والمثل والشبيه، والذي لا يتعدد ليس له بمقارن ولا مثل ولا شبيه، إنه الأول والآخر المطلق جل جلاله.

وعرف الرياضيون الأعداد الصحيحة المتكون جميعها من الواحد، وهي (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩) . وهكذا تتكرر الأعداد وتتكاثر في حركة دائرية، من العدد (١ إلى العدد ٩)، مما جعلها تنتهي عند (٩) وتستأنف الدورة العددية بالواحد. إذن لهذه الأعداد بداية ونهاية. وبعد التعرف على الصفر كنقطة بداية افتراضية، تكونت دائرة عددية أخرى تبتدئ بالعدد (١٠) الذي يتكون من تزواج الصفر مع الواحد، والذي عرف بالعدد الموالي للعدد (٩)، وبداية دائرة عددية جديدة تنتهي عند العدد (١٩) ، وتبتدئ دائرة أخرى بالعدد (٢٠) وتنتهي عند العدد (٢٩) وهكذا تبتدئ الأعداد وتنتهي في دوائر عشرية، إلى أن تتضاعف وتصل إلى الدائرة المئوية، التي تنتهي بدائرة الألف، وتبتدئ بعدها دوائر العشرة آلاف وتنتهي، والمائة ألف، والمليون وتنتهي، وهكذا تتضاعف الأعداد وتتكاثر، وتستمر الدوائر بداية ونهاية، ولا يمكن أن تبتدئ دائرة إلا وأن تنتهي، ومن يعارض ذلك نقول له لو أعددت طول حياتك لن تجد دائرة عددية تبتدئ ولم تنتهي. وكل دائرة لا يمكن أن تبتدئ إلا بواحد، ولا تنتهي إلا به، وإلا هل يمكن أن تنتهي دائرة العشرات، أو المئات، أو غيرها بدون الواحد؟. العدد (٩٩) مئوي، لا يمكن أن يكون إلا بالواحد، ولا تقفل دائرته (تنتهي) إلا بزيادة واحد، والعدد (٩٩٩) آلفي، هو الآخر لا يمكن أن يكون إلا بالواحد ولا ينتهي إلا به. على سبيل المثال: إذا شاهدنا سباق جرى على مضمار ملعب كرة القدم الذي مساحته تساوى (طوله × عرضه)، فتكون مساحته محدودة (منتهية) وطوله بالأمتار له بداية ونهاية ولا تتجاوز (٤٠٠) متر تقريبا، فإذا بدأ السباق من نقطة الصفر الافتراضي وقطع المتسابقون مساحة (٥٠٠٠) متر طولي، فهل يعنى ذلك أن طول مضمار كرة القدم تمطط إلى أن أصبح يساوى (٥٠٠٠) متر؟ وإلا كيف قطع المتسابقون هذه المسافة الطولية؟. بدون شك أنهم قطعوها نتيجة تكرار عدد الدورات على المضمار، الذي يساوى طول المضمار ضرب عدد الدورات عليه، والتكرار لا يزيد طول المضمار ولا ينقصه، لأن طوله محدد، وله بداية ونهاية. وكل من له بداية ونهاية له منتصف، ويتجزأ إلى

نقاط، لأنه متكونا منها (من نقاط)، فالمستقيم على سبيل المثال مهما امتدّ بدايته نقطة ونهايته نقطة، وتقرب نقاط البداية والنهاية في حالتين:

الأولى: الحالة الموجبة:

كلما زاد طول المستقيم، أو الخط الرياضي والهندسي المتشكل (المرتمس) في الاتجاه الموجب، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها، والتي سيتصل بها عندما يستمر في اتجاهه إلى النهاية ويرسم دائرة، وكلما نقص، نقص عن الاتجاه الموجب، وزاد ابتعادا ولم يرسم دائرة.

الثانية: الحالة السالبة:

كلما نقص طول المستقيم، أو الخط الرياضي والهندسي المرسم في الاتجاه السالب، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها، والتي سيتصل بها عندما يصل إلى النهاية (في حالة العودة)، وكلما زاد، زاد عن الاتجاه السالب، وزاد ابتعادا.

لا عدد إلا لكم، ولكل كم نهاية، فإذا كان الكم بشراً، فإن للبشر بداية ونهاية، وإذا كان الكم حيواناً، أو نباتاً، أو سمكاً، أو طيراً، أو أي جماد، فإن لكل ما ذكر بداية ونهاية. وعليه إذا كان كل ما يعد له بداية ونهاية، ألا يكون للعدد نهاية؟. ومن يخالف أن للأعداد نهاية، أطلبه إثبات ذلك (إثبات ما لا نهاية).

وعليه كل الأعداد تزيد وتنقص وتتكرر بالواحد، وبما أنها كذلك إذن تبتدئ وتنتهي به، وإذا أصر البعض على أن للأعداد ما لا نهاية، أ طرح عليهم السؤال الآتي: ألا يكون بين كل الأعداد ما تسمونه بما لانهاية؟. إذا كانت الإجابة بنعم، إذن لا يمكن أن يحصل الانتقال من عدد لآخر على الإطلاق، فالمسافة بين الصفر الافتراضي، والواحد تساوى ما تسمونه ما لا نهاية، والمسافة بين الواحد والاثنين كذلك وهكذا. ومع ذلك أن التوليد العددي يزداد نتيجة التكرار من الواحد ككل والواحد كجزء، والواحد كمتجزئ، (١، ٠.١، ٠.٠١، ٠.٠٠١، ٠.٠٠٠١، ٠.٠٠٠٠١، ٠.٠٠٠٠٠١، ٠.٠٠٠٠٠٠١)، ويستمر التوليد العددي إلى النهاية، وإلا لا يمكن أن نصل إلى العدد صفر ولا العدد ٢. وإذا كانت الإجابة بلا. إذن اعترفوا أن للأعداد نهاية، وهى الواحد ككل، وكجزء، وكمتجزئ، والذي جعل

الرياضيين يؤسسون نسب التقريب عليه، وجعلهم يطوون المسافة في تتقلهم من عدد إلى الذي يليه، ولهذا كل الأعداد تتولد من الواحد وتعود إليه، إذن الواحد هو البداية والنهاية وهو الأول والآخر. وإن الله تعالى يعلم بكل كم وعدد كما جاء في سورة مريم سلام الله عليها: {إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدّاً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً} ^{٤٣٩} كل ما خلق في السماوات والأرض معلوم عدده عند الله، وبما أن كل الأعداد تم إحصائها من عنده، إذن كل الأعداد لها نهاية، وكل الأعداد يتم التعامل معها فرادى (واحداً واحداً)، ولهذا كل الأعداد تعود إلى الواحد الأول الآخر. ونحن نعرف أن لكل شيء نهاية، ولكن لم نعرف متى تكون نهايته، ولا كيف تكون، ولكن للرحمن كل شيء معلوم، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الجن: {ليعلم أن قد ابغوا رسالات ربهم أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً} ^{٤٤٠}. إن الله سبحانه وتعالى أحصى كل شيء تعداداً أي كل ما خلق معروف له كما وعدداً. وكل من يحمل في معناه واحد تكون له صورة وشكل كالإنسان، والغزالة، الطير، الشجرة، البحر، الجبل، السمك، إلا الواحد الذي خلق الواحد، لا يمكن أن تكون له صورة ولا شكل، إنه الأول والآخر جل جلاله. وكل مخلوق لا يمكن أن يشاهد خالقه، أو صانعه، فالإنسان الذي صنع القلم، أو المقعد، أو الحاسوب، أو السيارة، أو الطائرة، يمكنه مشاهدتها بنظره السليم، وهي لا يمكن أن تشاهده، ويمكنه استخدامها أو التخلص منها في أي وقت يشاء، وهكذا المخلوقات بالنسبة لخالقها الذي يشاهدها ولا تشاهده ويحييها ويميتها متى يشاء وفي أي مكان كيفما شاء، إنه الأول والآخر جل جلاله.

وعليه الواحد هو الحقيقة التي لا تتمركز الجموع إلا به، ولا تنتشت إلا به، ولا تبدئ أو تنتهي إلا به، لأن الجموع هي تكرار الآحاد، أو التقائها على قيم، أو في مضامين. والقيم هي المضمون الذي تكونه الجموع، ويحتويه الواحد، وكلما زاد الواحد في الاتجاه الموجب كلما كان للتطور شأن ومعنى وازدادت الأعمال الحسان، وكلما زاد الواحد في الاتجاه المنقوص كلما حدث الاتكماش والتخلف

^{٤٣٩} مريم ٩٣.

^{٤٤٠} الجن ٢٨.

ونقص عمل الإنسان الذي يراد له أن يكون خليفة. وكلما نقص الواحد في دائرة النسبية من الاتجاه السالب كلما ازداد الأمل. وكلما نقص الواحد من الاتجاه الموجب كلما حبط العمل. ولهذا تصف المجتمعات كل من التطور العمراني والتطور الثقافي والتطور العلمي بالتطور الموجب، وعند زيادة أي وحدة أو مفردة على ذلك تعد على سلم التطور الموجب، وأي نقص من ذلك يعد على سلم التأخر. وتصف المجتمعات في ذات الوقت كل من التطور في الانحراف والجريمة، والتطور الاستهلاكي بالتطور السالب وعند زيادة أي وحدة أو مفردة على ذلك تعد على سلم التأخر، وأي نقص من ذلك يعد على سلم التطور الموجب.

وعليه قد يتساءل البعض: ما هو الفرق بين العدد، والمعدود، والعداد (الذي يقوم بفعل العد)؟ وهل هذه متناهية؟. العدد هو المقدار وجمعه أعداد، وهو المجرد من التمييز، فعندما أكتب على سبيل المثال: (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦)، أكتب أعداداً، وهذه الأعداد عندما تكتب على كميات أو كائنات تميز وتصبح هذه الكميات أو الكائنات هي المعدودة، ويكون الذي أحصاها بهذه الأعداد هو العاد، فإذا قلت أنا العاد نكون أنا المعدود من الآخر، وبما أنني معدود من الآخر فيكون الآخر متناهياً وتكون لي نهاية عندما يكون مخلوقاً في دائرة النسبية، ويكون الواحد باقياً بالمطلق عندما يكون هو الخالق وهو الأول والآخر. إذن ألعاد والمعدود شيئاً واحداً ولا فرق بينهما إلا أنا وأنت، أما العدد فهو فكرة ذهنية مجردة إذا لم يوحد مع معدود، وعندما نفرق بين ألعاد والمعدود من جهة والعدد من جهة أخرى نكون قد فرقنا بين الفكرة المفترضة والواقع المثبت، وبما أن ألعاد والمعدود متناهيان، فكذلك العدد، وذلك لأنه يقع في دائرة الممكن، ولا يقع في غيرها، ولأنه يقع في دائرة الممكن إذن هو متناه. ولأن الزمان والحركة متناهيان ولا شيء من الموجودات يقع خارجهما، فإذن كل ما يقع فيهما متناهٍ وفقاً للقضية الآتية:

الزمان والحركة متناهيان

والعدد يقع فيهما

إذن العدد متناهٍ.

وبما أن كل الأعداد تبتدئ بواحد وتنتهي به ، إذن من أين أتى غير المتناهي؟ فالأعداد ١ ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ، وغيرها من الأعداد التي تُكتب أو تُعد، كلها متناهية، وإن لم تكن متناهية فلا تُكتب، وإذا كانت كذلك فمن أين أتى افتراض غير المتناهي؟، وبما أن العدد متناهٍ والعداد والمعدود في دائرة النسبية كذلك، فهل يؤدي المتناهي إلى مالا نهاية؟. إذا كان المتناهي كما بالجمع أو الضرب أو التربيع والتكعيب فلا بد وأن يؤدي إلى كم، وكذلك إذا كان بالطرح أو التقسيم فلا بد وأن يؤدي هو الآخر إلى كم، والكم متناهٍ، إذن المتناهي لا يؤدي إلا إلى متناهٍ، ولن يبقى إلا وجه ريك الأول والآخر نو الجلال والإكرام.

وعليه فالأول هو الآخر، أي لا وجود لاثنتين، والقصد بالأول هو الله عز وجل، والقصد بالآخر هو الله عز وجل، وذلك لأن الله واحد أحد لا يتعدد وصفاته تتعدد ولا تحصى، ولذا كل الصفات الحسان المحصورة في التسعة وتسعين صفة أو اسما لم تكن هذه النهاية، ولكن اجتهاد البحاثة المحترمين ومعظم اتفاقاتهم على مجموع المسبحة التي يسبح بها المسبحون من الخلائف اسم الله تعالى توحيدا فإنما يدل على أن الصفات مهما تعددت فالله واحد ويسبح له من في السماوات والأرض جميعا جل جلاله.

ويكفي أن نقول صفة واحدة ولتكن صفة (القادر) فهذه الصفة الحسنی جاءت مطلقة أي لا حدود ولا نهاية لها، ومن يمتلك صفة القدرة المطلقة يمتلك كل شيء ولا ينقصه شيء بالمطلق، أي بما أنه القادر بالمطلق فهو لم يكن في حاجة لأحد بالمطلق، وهذا يعني أنه غني بالمطلق وقوي بالمطلق، والقصد من هذا الاستشهاد بصفة القادر إثبات وجود الكمال فيها من كل شيء أي من كل صفة من الصفات المعروفة وغير المعروفة التي نسلّم بها بالمطلق لأنه القادر .

ومهما عدّنا لمعطيات الكمال لن تنتهي فتبارك الله على حُسن صفاته العظام، ولهذا فإن صفات الله لا تحصى ولا تعد ولم يتم التمكن بالمطلق على اكتشاف أسرارها. ولأن الله سميع مجيب الدعاء

لكل من آمن وأسلم وجهه إليه فالدعاء بصفاته إخلاصاً وتوبة تكون الإجابة بالصفة المدعو بها وفقاً للطلب الحميد فهو القادر المجيب جل جلاله.

وحظ الخليفة من الاسم الآخر أن يكون آخر شيء له في الحياة الدنيا التوبة المطلقة والإيمان التام بالله واحداً أحداً لا شريك له، وأن يكون مصلحاً في الأرض غير مفسد فيها ولا سافك للدماء بغير حق، قوله الحق، وفعله الحق، وعمله مخلصاً لله وحده.

وأن يكون مؤمناً بأن الآخر جل جلاله هو الله ولا آخر من بعده، ولا أول من قبله، يخلق ولا يُخلق، ولذا فالخليفة لا ظن في نفسه في الذي وحده واحداً أحداً لا شريك له في شيء، إنه الآخر الذي لن يأتي بعده آخر ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو أيضاً كان الآخر الذي لن يكون من بعده رسول آخر، ولهذا سنته عليه الصلاة والسلام تتبع وجوباً. قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^{٤٤١}، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^{٤٤٢}، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^{٤٤٣}، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^{٤٤٤}.

^{٤٤١} الحشر ٧.

^{٤٤٢} آل عمران ٣١، ٣٢.

^{٤٤٣} البقرة ١٤٣ - ١٤٥.

^{٤٤٤} النساء ٤٢.

وأخيرا وخير ما نختتم به هذا المبحث في اسمه الآخر جل جلاله لا صوت آخر للخليفة إلا قوله تعالى: {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} ^{٤٤٥}.

اللهم إنك الآخر الذي منه البداية واليه النهاية، فاجعل بدايتنا طاعة وتوبة وآخرتنا مغفرة ورحمة، اللهم أنت الآخر الذي لا أول له ولا آخر بعده فأنت قبل القبل وبعد البعد سبحانه لا إله إلا أنت، فيا آخر اجعل خير أعمالنا آخرها وخير أيامنا يوم لقاك، ولا تلهنا بما في الدنيا عن خير باق آخرته لنا في الآخرة، ولا تجعلنا ممن قلت فيهم {إن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما} ^{٤٤٦} فاملاً قلوبنا إيماناً بك يا آخر ونجنا من كل كرب ومن كل عذاب، واجعلنا ممن يقومون الليل الساجدين الذين يحذرون الآخرة ويرجون رحمتك الذين علموا أنك الآخر فعملوا للقاءك وعلموا بأنك الآخر الذي لا ينسى ما قدمنا في الأولى.

اللهم إنك الآخر الذي آما به الأول، فلا أول نؤمن به غيرك يا الآخر، اللهم إننا نشهد في اليوم الأول بأنك الآخر الذي له الملك فاجعلنا من الشاهدين بملكك في اليوم الآخر يوم تطرح سؤالك: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟} (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).

^{٤٤٥} آل عمران ٥٣.

^{٤٤٦} الاسراء: ١٠.

الظاهر

الظَّاهِرُ "يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْعَالِي فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ ، فَلَا شَيْءَ مِنْهَا فَوْقَهُ، وَاسْمُهُ الظَّاهِرُ: دَالٌّ عَلَى عُلُوِّهِ وَعَظَمَتِهِ"^{٤٤٧}.

قَالَ الْحَلِيمِيُّ، فِي مَعْنَى الظَّاهِرِ: "إِنَّهُ الْبَادِي فِي أَعْمَالِهِ وَهُوَ جَلٌّ تَنَازُهُ بِهِذِهِ الصِّفَةِ ، فَلَا يُمَكِّنُ مَعَهَا أَنْ يُجْحَدَ وُجُودُهُ وَيُنْكَرَ ثُبُوتُهُ وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ : هُوَ الظَّاهِرُ بِحُجَجِهِ الْبَاهِرَةِ وَبِرَاهِينِهِ النَّيِّرَةِ وَشَوَاهِدِ أَعْلَامِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ثُبُوتِ رُبُوبِيَّتِهِ وَصِحَّةِ وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَيَكُونُ الظَّاهِرُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ الظُّهُورُ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى الْعَلْبَةِ"^{٤٤٨}.

الظاهر "الذي ليس فوقه شيء، لأنه العلي الأعلى"^{٤٤٩}.

^{٤٤٧} شرح العقيدة الواسطية، ج ١، ص ٧٧.

^{٤٤٨} الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ٤٧.

^{٤٤٩} الوجيز في أسماء الله، ج ١، ص ١٩.

الحمد لله الظاهر الباطن والأول الآخر، الواحد العلي، الواجد الغني، الظاهر عن كل عيب، الظاهر له كل غيب، الذي صفت بدائع آلائه، وضفت سوابغ نعمائه، حمداً يوافي نعمه العظام التي لا تحصى كثرتها عدداً، ويكافئ مننه الجسام التي لا تتفذ ولو كان البحر لها مداداً، ولن نحصي لها عدداً، فتبارك الله وتباركت أسماؤه {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ^{٤٥} وقد أمرنا الله تعالى بالدعاء بهذه الأسماء حسب المراتب، وأعلاها الدعاء بلسان الفعل وهو التحلي بمعانيها بقدر ما يتصور في حق العبد وذلك حظ المقربين منها، وإن حظوظ هؤلاء المقربين من معاني أسمائه تعالى ثلاثة:

الأول: معرفتها على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى تتضح لنا حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ وينكشف اتصاف الله تعالى بها انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهره فقط، ونقصد بهذا، أن الآية والعلامة والدلالة على الشيء وجودها وثبوتها مستلزم لثبوت المدلول الذي هو آية له ودلالة عليه، فإذا وجدت تلك الآية فإنها دلت على الصانع والواجد لذلك الموجود.

الثاني: استعظامنا لما يكشف لنا من صفات الجلال والكمال على وجه ينبعث منه شوقنا إلى الاتصاف بما يمكننا من تلك الصفات لننتقرب بها من الحق قرباً بالصفة لا بالمكان فنأخذ من الاتصاف بها شبهاً بالملائكة المقربين عند الله تعالى، والخلو من هذا الشوق لا يكون إلا لأحد أمرين إما لضعف المعرفة، وإما لكون القلب ممثلئاً بشوق آخر مستغرقاً به ولذلك يجب أن يكون حب الله في قلب المؤمن أعظم من حب أي شيء مع انعدام المقارنة بين حب الله وغيره.

الثالث: السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها، وبذلك يصير العبد ربانياً رقيقاً للملأ الأعلى من الملائكة شبيهاً بهم، وحينئذ لا يؤثر القرب والبعد في إدراكه بل لا يقتصر إدراكه على ما يتصور فيه ذلك ويكون مقدساً عن الشهوة والغضب فلا تكون أفعاله بمقتضاها بل الداعي إليها حينئذ طلب التقرب إلى الله تعالى ولا يلزم من هذا إثبات المماثلة

بين الله سبحانه وتعالى وبين العبد، فالله سبحانه وتعالى ظاهر في آياته وقدرته، والعبد ظاهر بشخصه ومادته وأبعاده وفرق شاسع بين ظهور الخالق وظهور المخلوق.

والظاهر لغة بمعنى ظهور الشيء الخفي، وبمعنى الغالب والمنتصر، والله الظاهر بكثرة البراهين الظاهرة والدلائل على وجود ألوهيته وثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته على عكس الباطن المحتجب عن عيون خلقه، وأن كنه حقيقته غير معلوم للخلق، فهو الظاهر بنعمته الباطن برحمته، والظاهر بقدرته على كل شيء، والباطن العالم بحقيقة كل شيء، وهو الظاهر الذي لا يقهر، والله ظاهر باطن في كونه الأول أظهر من كل شيء، لأن العقول تشهد بأن المحدثات لها موجد مقدم على وجودها فالله ظاهر قديم فهو في ظهوره وقربه لا يبلغ أدنى ما استأثر به من جلاله وعزته أقصى نعت الناعتين وقد قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين وعجزت عن نعته أوهام الواصفين فهو ظاهر لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون ولا يصفه الواصفون بل هو كما وصف به نفسه و كما أثنى على نفسه ضلت فيه الصفات وتقسمت دونه النعوت وحاترت في كبريائه لطائف الأوهام والعقول فهو الأول في أزليته وعلى ذلك فهو دائم لا يزول وهو الآخر في أبديته وهو قائم لا يحول وهو الظاهر فما احتجب عن شيء وهو الباطن فما اختفى في شيء ولا تغيره الدهور ولا تبليه الأمور ولا يعتره الزمان ولا يحويه المكان ولا يشغله شأن عن شأن كذلك فهو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى والكلمة العليا أنزل الكتب بالحق وأرسل الرسل بالصدق وختمهم بآخرهم عصراً وأولهم مائراً وذكر محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم. فهو ظاهر في آياته، ظاهر في أنبيائه ظاهر في خلقه، ورب قائل يقول: إن الظاهر هو الواضح في كل شيء، ولكن هذا لا ينطبق على الذات الإلهية مثل ما ينسحب على الخلق بهذا المعنى، ولكنه ظاهر بقربه جل شأنه حيث يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^{٤٥١} ففي هذه الآية الكريمة نجد ظهور الله تعالى بقربه من عباده وهي دلالة لاستجابة الدعاء حيث تولى هذا الأمر بنفسه سبحانه وتعالى والسؤال

كان لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فذلك السؤال إما أنه كان سؤالاً عن ذات الله تعالى، أو عن صفاته، أو عن أفعاله، أما السؤال عن الذات فهو أن يكون السائل ممن يجوز التشبيه، فيسأل عن القرب والبعد بحسب الذات، وأما السؤال عن الصفات فهو أن يكون السائل سألماً عن أنه تعالى هل يسمع دعاءنا فيكون السؤال واقعاً على كونه تعالى سميعاً، أو يكون المقصود من السؤال أنه تعالى كيف أذن في الدعاء، وهل أذن في الدعاء، وهل أذن في أن ندعوه بجميع الأسماء، أو ما أذن إلا بأن ندعوه بأسماء معينة، وهل أذن لنا أن ندعوه كيف شئنا، أو ما أذن إلا بأن ندعوه على وجه معين، وأما السؤال عن الأفعال فهو أن يكون السائل سألماً عن الله تعالى أنه إذا سمع دعاءنا فهل يجيبنا إلى مطلوبنا، وهل يفعل ما نسأله عنه فقله سبحانه : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي) يحتتمل كل هذه الوجوه، إلا أن حملة على السؤال عن الذات أولى لوجهين:

الأول: أن ظاهر قوله: {عَنِّي} يدل على أن السؤال وقع عن ذاته لا عن فعله الثاني: السؤال متى كان مبهماً والجواب مفصلاً، دل الجواب على أن المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعين، فلما قال في الجواب: {فَأَنِّي قَرِيبٌ} علمنا أن السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات، ولقائل أيضاً أن يقول بل السؤال كان على الفعل، وهو أنه تعالى هل يجيب دعاءهم، وهل يحصل مقصود، بدليل أنه لما قال: (فَأَنِّي قَرِيبٌ) قال: (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) وهذا يدل على ظهوره ووضوحه وقربه، أما قوله تعالى: (فَأَنِّي قَرِيبٌ) إنه ليس المراد من هذا القرب بالجهة والمكان والظهور العياني المباشر، بل المراد منه القرب بالعلم والحفظ، فيحتاج ههنا إلى بيان مطلبين:

الأول: في بيان أن هذا القرب ليس قريباً بحسب المكان، ويدل عليه أنه لو كان في المكان مشاراً إليه بالحس لكان منقسماً وهذا محال على الله تعالى فهو الفرد الصمد والواحد الأحد، إذ يمتنع أن يكون في الصغر والحجم مثل الجوهر الفرد الذي يشغل حيزاً مكانياً. ولو كان منقسماً لكانت ماهيته مفتقرة في تحققها إلى تحقق كل واحد من أجزائها المفروضة وجزء الشيء غيره بمعنى أنه لا يطابقه ولا يماثله، فلو كان في مكان لكان مفتقراً إلى غيره ليجعله في المكان، والمفتقر إلى

غيره ممكن لذاته ومحدث ومفتقر إلى الخالق، وذلك في حق الخالق القديم محال، فثبت أنه تعالى يمتنع أن يكون في المكان فلا يكون قربه بالمكان، فقد وسع كرسيه السماوات والأرض فهو أعظم من المكان وأكبر من الحيز لذلك امتنع لأنه هو خالق المكان.

الثاني: أنه لو كان في المكان لكان إما أن يكون غير متناه عن جميع الجهات، أو غير متناه عن جهة دون جهة، أو كان متناهياً من كل الجوانب وهذه إحاطة وحدود وهذا يمتنع على الله لأنه هو المحيط بكل شيء. والأول: محال لأن البراهين القاطعة دلت على أن فرض غير متناه في المكان محال والثاني: محال أيضاً لهذا الوجه، ولأنه لو كان أحد الجانبين متناهياً والآخر غير متناه لكانت حقيقة هذا الجانب المتناهي مخالفة في الماهية لحقيقة ذلك الجانب الذي هو غير متناه وهذا لا يقبله عاقل، فيلزم منه كونه تعالى مركباً من أجزاء مختلفة الطبائع وهذه صفة المخلوقين وليست صفة الخالق، ودليل أنه ظاهر في قربه بنفي الزمان والمكان ولا هو ظاهر في الكم ولا هو ظاهر في الكيف، بدليل أن الأسئلة الأربعة عشر التي وردت في القرآن الكريم كان الجواب فيها (قل) حيث قال تعالى: **لَيْسَ أَلْوَنَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** {٤٥٢} فهذه الآية ومثيلاتها التي أجاب القرآن الكريم عنها ليست بموضع قضاء الحاجة للعباد في الدعاء وإنما هي أسئلة واستفسارات إما من المسلمين عن أمور دينهم وإما من غير المسلمين لأجل الجدل الذي كان يصدر من اليهود والمشركين لتشكيك المسلمين في دينهم وعقيدتهم عندما سألوا عن الله تعالى وعن الروح وعن الساعة فكان الله تعالى يتنزل بالوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيات التي تأمره بالإجابة (أي يا محمد قل) وذلك كثير في محكم التنزيل كقوله تعالى: **لَيْسَ أَلْوَنَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا**

إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^{٤٥٣}.

فالله سبحانه ظاهر في قربه قريب في ظهوره، ظهور قوة وظهور قرب وظهور علو، فالله سبحانه فوق سماواته على عرشه، وإن علوه سبحانه على سماواته من لوزام ذاته، فلا يكون قط إلا عاليا ولا يكون فوقه شيء البتة وهو ظهور قوة وسلطان فهو الظاهر ليس فوقه شيء، وهو سبحانه قريب في علوه، عالٍ في قربه كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ"^{٤٥٤} فأخبر صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الخلق به أنه أقرب إلى المرء من حبل الوريد، وهو فوق سماواته على عرشه، مطلع على خلقه، يرى أعمالهم ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذا حق لا يناقض أحدهما الآخر والذي يسهل علينا ويقرب فهمنا معرفة عظمة الله وإحاطته بخلقه أن السماوات السبع وما أظلت والأرض وما أقلت كخردلة في يد العبد، وأنه سبحانه يقبض السماوات والأرض بيده لا تشبيها ولا تمثيلا وإنما بقوة وقدرة الظاهر القاهر، فكيف يستحيل في حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه، ويقرب من خلقه كيف شاء، وهو على العرش سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وهو الظاهر على كل شيء.

فهو سبحانه وتعالى ظاهر في آيات ملكه وفي تكوين خلقه والظاهر هو الذي يظهر ما يشاء وإظهار الأشياء أو حدوث العالم لهو دليل على ظهور الظاهر، ونفي الجسمية والمادية لا يستلزم نفي الصفات، فالصفات الإلهية لا تقوم على الحيز والمكان والجهة إذ ليس هناك تلازم بين إثبات

^{٤٥٣} - الأعراف ١٨٧

^{٤٥٤} - صحيح البخاري، ج ١٠، ص ١٦٩

الصفة والقول بالحيز والمكان ومن يقول بهذا فقد جعل صفات الخالق كصفات المخلوق وهذا لا يقول به عاقل ولا يستقيم له والذي يجب على العبد اعتقاده ويلزمه في ظاهره وباطنه اعتماده ما دلّ عليه كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^{٤٥٥} فما من شك لأولي الألباب بأن الله ظاهر لا كظهور الأجسام باطن لا كخفائها وعلى العاقل أن يعتقد ويقرّ ويعترف بقلبه ولسانه أنّ الله واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، لا إله سواه، ولا معبود إلا إياه، ولا شريك له، ولا نظير له، ولا وزير له، ولا ظهير له، ولا سمي له، ولا صاحبة له، ولا ولد له. قديم أبدي أزلي، أول من غير بداية، وآخر من غير نهاية، موصوف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والبقاء والبهاء والجمال والعظمة والجلال والمنّ والإفضال، لا يعجزه شيء، ولا يشبهه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين، منزّه عن كل نقص وآفة، مقدّس عن كل عيب وعاهة، الخالق الرازق، المحي المميت، الباعث الوارث، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الطالب الغالب، المثيب المعاقب، الغفور الشكور، قدّر كلّ شيء وقضاه، وأبرمه وأمضاه، من خير وشر، ونفع وضر، وطاعة وعصيان. وعمد ونسيان، وعطاء وحرمان، لا يجري في ملكه ما لا يريد، عدل في قضائه غير ظالم لبريته، لا راد لأمره ولا معقّب لحكمه، ربّ العالمين، إله الأولين والآخرين، مالك يوم الدين، وإليه يرجع الأمر كله دقيقه وجليله، وله عنت الوجوه تباركت أسماؤه وجلت صفاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^{٤٥٦} نصفه بما وصف به نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الكريم، لا تجاوز ذلك ولا تزيد، بل نقف عنده وننتهي إليه، ولا ندخل فيه برأي ولا قياس، لبعده عن الأشكال

٤٥٥ - الأعراف ١٤٣

٤٥٦ - الشورى ١١

والأجناس، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، وأنه سبحانه مستو على عرشه وفوق جميع خلقه كما أخبر في كتابه وعلى السنة رسله عليهم الصلاة والسلام من غير تشبيه ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تأويل، وكذلك كل ما جاء من الصفات نقره ونمضيه كما جاء من غير مزيد عليه، ونؤمن بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، أنه من الله عز وجل لا معقب لما حكم، ولا ناقض لما أبرم، وأن أعمال العباد حسننها وسيئها خلق الله عز وجل، ومقدورة منه عليهم لا خالق لها سواه، ولا مقدر لها إلا إياه، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وأنه عدل في ذلك غير جائر، لا يظلمهم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً، وقد جاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: "اللهم رب السماوات السبع ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر"^{٤٥٧} ومن مراتب الاعتقاد بالظاهر هو الإحسان، والإحسان نهاية الإخلاص. والإخلاص هو إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن بحيث يكون قائماً به في الباطن والظاهر على أكمل الوجوه، وهذا هو الإحسان، ولذا يفسر بالإخلاص، واشتقاقه من الحسن نهاية الإخلاص الناشئ عن حقيقة الاستحضار، ومن حيث الظاهر كمال المتابعة. وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، فإنه من اتصف بذلك فإنه أكمل العمل في الظاهر والباطن. فالإحسان أعلى المراتب وأعمها من جهة نفسها وأخصها من جهة أصحابها، كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه، فالاعتقاد بصفات الله تعالى شرط الإيمان فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ

بِالْبُعْتِ الْآخِرِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأَحَدُّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَادَّتِ الْمَرْأَةُ رِبَّتَهَا فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رُعُوسَ النَّاسِ فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي حَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ^{٤٥٨} وقد أوردنا هذا الحديث للدلالة على أن الاعتقاد بصفات الله وأسمائه الحسنی هي شرط من شروط الإيمان وإن لم تذكر صراحة، غير أن الإيمان بالله يستوجب الإيمان بجميع صفاته، فإن أنكرها منكر أو جردها جاحد جملة أو تفصيلا، وجزئية أو كلية فقد شاب إيمانه الشوائب، ذلك أن آيات الخلق تدل على صفات الخالق، ولهذا فكل ما يشهده العاقل من الحوادث آيات دالة بنفسها على الفاعل المحدث لها، فكل محدث له محدث وهو دالة على الخالق من حيث يعلم أنه لا يحدثها إلا هو، وكما أن المحدثات لا بد لها من محدث قادر عليم مريد حكيم ظاهر قاهر، فالفعل يستلزم القدرة، والإحكام يستلزم العلم والإرادة، وحسن العاقبة يستلزم الحكمة، والمطاوعة تستلزم الظهور والقهر، قال تعالى: {قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ^{٤٥٩}

قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{٤٦٠} الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الأسماء الأربعة بقوله: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء"^{٤٦١}.

^{٤٥٨} - صحيح البخاري، ج ١٤، ص ٤٥٣

^{٤٥٩} - فصلت ٩-١١

^{٤٦٠} - الحديد ٣

^{٤٦١} - صحيح مسلم، ج ١٣، ص ٢٣٩

والظاهر والباطن بيان لإحاطته المكانية كما أن اسمه الظاهر يدل على أنه العالي فوق جميع خلقه، فلا شيء منها فوقه، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر وأحاطت ظاهره وباطنيه بكل ظاهر وباطن، فاسمه الأول دال أزليته، واسمه الآخر دال على بقائه وأبديته واسمه الظاهر دال على علوه وعظمته، والآية كلها في شأن إحاطة الله بجميع خلقه من كل وجه، لا يفوته منه شيء، وهذا يدل على كمال عظمته وأنه لا نهاية لها، وبيان إحاطته من كل وجه. ففي الأول والآخر إحاطته الزمانية، وفي الظاهر والباطن إحاطته المكانية. ثم صرح بإحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلية، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه متقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهذا يشمل عالمي الغيب والشهادة، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول، وهذا لا يكون إلا لمن جلت صفاته وتجلت آياته، فهو الظاهر والباطن عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وإن الاعتقاد بصفاته تعالى من متممات الإيمان بالغيب، عندئذ يكون هذا الإيمان هو ثمرة العقل الطبيعية لإزالة الحجب الساترة، والوقوف على قوة الظاهر من خلال مظاهر القدرة والاطمئنان إليها، ومع التقوى والإيمان بالغيب ومن خلال التأمل بآيات الله تعالى يكون اليقين بظهور الظاهر وقدرته بلا تردد ولا تأرجح ولا شك في هذا اليقين.

والخلق يدرك أن الله ظاهر في آياته جل شأنه، ومن أعظم آيات ظهوره أنه نور على نور وهذا يعني أنه واضح جلي ساطع ظاهر لا يستطيع إنكاره أحد ولا أن يغيبه أحد قال تعالى: لِيُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ^{٤٦٢} وإطفاء النار إذهاب لهبها الموجب لإذهاب نورها لا لإذهاب النار نفسها، لكن لما كان الغرض من إطفاء نار لا يراد بها إلا النور كالمصباح لإذهاب نوره جعل إطفائها عبارة عن مطلق إذهاب النور نفسه وإن كان لغير النار، والمراد بنور الله حجته تعالى النيرة المشرقة الدالة على وحدانيته وظهوره من خلال آياته ومن خلال القرآن العظيم الصادع الصادح بنوره الظاهر، ومن خلال نبوة محمد عليه

الصلاة والسلام التي ظهرت صباحاً منيراً بعد أن استطال نُجى الكفر، ولكن الله غالب على أمره بظهور الهدى من خلال نوره، والمراد من إطفاء نور الله الساطع الظاهر من قبل المشركين وأهل الكتاب هو الرد والتكذيب، أي يريدون أن يردوا ما دل على توحيد الله تعالى وظهور نوره بأن يطفؤا هذا النور بأفواههم، أي بأقاويلهم الباطلة الخارجة عنهم من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند إليه، وحال هؤلاء في محاولة إبطال نبوته صلى الله عليه وسلم بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق ساطع ظاهر لا يقوى عليه شيء ولا يقف بوجهه شيء ويكون قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ تحدٍ في إتمام النور وزيادة في استنارته وفتو ضوئه وظهوره، ونسبة النور إلى الله تعالى العظيم الشأن دلالة على الظهور الذي لا يقوى عليه شيء ولا يقف حياله شيء، ومن شأن النور المضاف إليه سبحانه أن يكون عظيماً فكيف يطفى المخلوق نور الخالق الذي جاء بالحق والتوحيد ليمحق الباطل والشرك ويظهر عليه ظهور حق وعدل وظهور انتقام وهم كارهون، قال تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾^{٤٦٣} والظهور على هؤلاء المشركين و المنافقين ظهور أمر وإرادة وقوة ومشية، حيث كانوا يمارسون الكيد والمكر وإثارة الفتنة وتغيير الناس عن قبول الدين حتى جاء الحق وظهر أمر الله على الرغم منهم، والمراد بهذا الظهور هو الإسلام و القرآن ودعوة محمد عليه الصلاة والسلام، وكذلك ظهر أمر الله الذي كان كالمستور والمراد بأمر الله الأسباب التي أظهرها الله تعالى وجعلها مؤثرة في قوة شرع محمد عليه الصلاة والسلام، وهم لها كارهون أي وهم لمجيء هذا الحق وظهور أمر الله كارهون، وفيه تنبيه على أنه لا أثر لمكرهم وكيدهم ومبالغتهم في إثارة الشر، فإنهم منذ كانوا في طلب هذا المكر والكيد، والله تعالى رده في نحرهم وقلب مرادهم وأتى بصد مقصودهم، فلما كان الأمر كذلك في الماضي، فهذا يكون في المستقبل لأن أمر الله غالب أبداً، ولما كان سر هذا النور وروحه هو الظهور للإدراك، وكان الإدراك موقوفاً على وجود النور وعلى وجود البصيرة، إذ النور هو الظاهر المظهر الذي

يتجلى للبصيرة، وليس شيء من الأنوار ظاهراً لمن عمت بصيرته ولا مظهراً له آية ولا مقدماً له برهاناً ولا كاشفاً له حقيقة إذ أن الظاهر جل شأنه يُدرك بالروح والبصيرة والتأمل في آياته، وبهذا ترتقي الروح بالبصيرة إلى النور الظاهر كونها ركناً لا بد منه لإدراك الظاهر، لأن الروح ساعنتذ هي التي تكون الباصرة وهي المدركة وبها يكون الإدراك، وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك، بل عنده الإدراك، فهو ظاهر بنوره مدرك لحقيقة خلقه وهذا مصداق قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} ^{٤٦٤} وهي دعوة للتأمل والتبصر فيروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم الدارسة وقصورهم الخالية، وجنانهم الخاوية وآبارهم المعطلة وديارهم المدمرة فيعتبرون ممن سبقهم من الأمم السالفة وكيف حق عليهم القول لما جحدوا آيات الله بظهورها لهم وظهوره عز وجل في آياته، وهو حث لهم ليشاهدوا ما حل بالظالمين، وهذه المشاهدة لا يكون النظر إليها بالعين الباصرة، ولكن إما عن طريق التأمل والتبصر، وإما عن طريق الخبر بالسمع والاتعاظ بسبب ما وعته عقولهم وبصائرهم من مظان الاعتبار ومواطن الاستبصار لما يجب أن يُعقل من التوحيد والإيمان.

ومع ذلك فإن الظهور العياني ورؤية المشاهدة للذات الإلهية بغير البصيرة أي بالعين الباصرة ممكنة وكل ممكن يخرج عن الاستحالة وما خرج عن الاستحالة فهو واقع لا محالة ولكنه يبقى مجهول الزمان مجهول المكان، وإن كان معلوماً بوقت غير محدد في الآخرة لا في الحياة الدنيا كما أخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام من مشاهدة أهل الجنة لربهم وأنهم لم يعطوا نعمة أحب إليهم من النظر إليه جل جلاله، ولكن الظهور في الدنيا والتجلي للخلق مستحيل، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ

فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَانَكَ نُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ^{٤٦٥}.

فظاهر الآية يستشف منه إمكانية الرؤية، لأن موسى عليه السلام عندما جاء لميقات ربه تطهر
وطهر ثيابه لما أتى طور سيناء. وفي القصة: أن الله عز وجل أنزل ظلمة على سبعة فراسخ
وطرد عنه الشيطان وطرد عنه هوام الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء ورأى الملائكة
قياماً في الهواء ورأى العرش بارزا وكلمه الله ونجاه حتى أسمعه، وكان جبريل عليه السلام معه
فلم يسمع ما كلمه ربه وأدناه حتى سمع صرير القلم فاستحلى موسى عليه السلام كلام ربه
واشتاق إلى رؤيته {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} أرنى نفسك أنظر إليك. وأعطني النظر إليك. فإن
قيل: كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا؟ ولكنه هاج به الشوق فسأل الرؤية
ظنا منه أنه يجوز أن يُرى في الدنيا قَالَ اللهُ تَعَالَى: {لَنْ تَرَانِي} وليس لبشر أن يطيق النظر إليَّ
في الدنيا ومن نظر إلي في الدنيا مات فقال إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك^{٤٦٦}.
الرؤية هنا مسببة عن النظر متأخرة عنه كما يريك ذلك النظر مثل قولنا: نظرت إليه فرأيته، وأن
النظر أصلاً هو تقليب الحدقة نحو الشيء التماساً لرؤيته، والرؤية الإدراك بالبالصرة بعد التقليب
والمراد بالاراءة هنا ليس إيجاد الرؤية بل التمكن منها مطلقاً أو بالتجلي والظهور وهو مقدم على
النظر وسبب له، وإمكانية رؤية الله وظهوره عياناً ممكنة عندما يأذن الله لمن يريد، لذلك لم ينكر
موسى عليه الصلاة والسلام على قومه بل قال اتقوا الله {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى
اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^{٤٦٧}} وكان سبب
طلب قوم موسى عليه الصلاة والسلام رؤية الله تعالى ظنا منهم أنه يظهر لهم وهو الظاهر
الباطن، "سمع القوم كلام الله مع موسى عليه السلام يقول له: افعل ولا تفعل، فلما تم الكلام

^{٤٦٥} - الأعراف ١٤٣

^{٤٦٦} - تفسير البغوي، ج ٣، ص ٢٧٥

^{٤٦٧} - البقرة ٥٥ - ٥٦

انكشف عن موسى الغمام الذي دخل فيه فقال القوم بعد ذلك: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعاً وقام موسى رافعاً يديه إلى السماء يدعو ويقول: يا إلهي اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم، فارجع إليهم وليس معي منهم واحد، فما الذي يقولون فيّ، فلم يزل موسى مشتغلاً بالدعاء حتى أحياهم الله^{٤٦٨}.

فالله جل شأنه وتقدست أسماؤه ظاهر لا بالتجسيم ولا بالتمثيل ولا بالتشبيه، وان جميع أسماء الله الحسنى هي صفات الذات الإلهية الأزلية الأبدية المنعوتة بالكمال والجلال والإكرام فهو الأول والآخر والظاهر والباطن أي الأول بوجوده والآخر بصفاته وأفعاله والظاهر بشهادته ومكوناته والباطن بغيبه ومعلوماته ثم التقديس عما لا يليق بكماله أو يشين بجماله من النقائص والردائل ثم القدرة الشاملة للممكنات ثم العلم المحيط بجميع المخلوقات حتى بدبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء وما هو أخفى منه كهواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفايا السرائر ثم الإرادة بجميع الكائنات ثم السمع والبصر لا يحجب سمعه بُعد ولا رؤيته ظلام فيسمع من غير أصمخة وآذان ويبصر من غير حدقة وأجفان، لبس ثوب العزة جلالة ومهابة فلا يحده المكان ولا يحتويه الزمان، أما المكان فهو الفضاء الذي لا نهاية له، والخلاء الذي لا غاية له، وأما الزمان فهو الامتداد المتوهم الخارج من قعر ظلمات عالم الأزل إلى ظلمات عالم الأبد لا بداية له ولا نهاية، كأنه نهر خرج من قعر جبل الأزل وامتد حتى دخل في قعر جبل الأبد فلا يعرف لانفجاره مبدأ، ولا لاستقراره منزل^{٤٦٩}.

والظاهر على مستوى الخليفة هو ما يظهر منه من قول وفعل وعمل، والظاهر هو الذي يمكن التوقف عنده من أجل التعرف عليه. وليس كل ظاهر واضح، بل معظم الظواهر تحتاج الى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية، والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان كقيم كامن في الإنسان

^{٤٦٨} - تفسير الرازي، ج ٢، ص ١١٢

^{٤٦٩} تفسير الرازي، ج ١، ص ٢٥٥.

كشكّل، والسلوك كتصرف ظاهر من الشكّل، أي ظاهر من الظاهر، فالانحراف السلوكي على سبيل المثال هو خروج عن الكامن بالظاهر.

وعليه، الإنسان كشكّل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خيراً أو شريراً إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة أو الملاحظة، وعند قيامه بسلوك وأفعال يمكن التأكد منها سلباً أو إيجاباً، وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بالكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سويّاً، أو مثلاً، ولكنه في الواقع، غير ذلك، فالأبناء كثيراً ما يكونوا أمام أسرهم، وخاصة الوالدين، على خلق، والتزام، وأدب، ولكنهم في حقيقة الأمر قد يكونوا على غير ذلك، ففي خلفهم قد يقوموا بأكبر الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغ الوالدين، بأن أحد أبنائهم منحرفاً، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضب، هذا الإدعاء، مع أنه الحقيقة، ولذلك الحكم بالظاهر (المشاهد) على الظاهر (السلوك) قد لا يؤدي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكلاً وصورةً، وقد يكون قولاً، أو سلوكاً، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصى الحقائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله، وكأنه غاية في حد ذاته، قد لا يؤدي إلى نتائج علمية موضوعية، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها، والظاهر قد يكون مشاهداً، وقد يكون محسوساً (لموس) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي يمكن بالمس التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديدها، ولكن الذي يود أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي أو يبحث عنه هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلى مريض مصفر الوجه، هل يتوجه هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفرار؟ أم إلى البحث عما يكمن وراءه من علل وأسباب؟. بالتأكيد سيكون الاصفرار كظاهر مؤشر إلى البحث عن كامن، لأن الاصفرار مسبب، وبما أنه مسبب،

لابد وأن تكون له أسباب، ومسببين له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي مثل الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدين أو المجتمع أو نتيجة تعرضه الى مواقف قد تؤدي به الى الهلاك وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له رأي فيها، أو حتى وجهة نظر في ذلك.

وعليه فالظاهر هو ما ليس بكامنٍ مما يجعله خاضعا للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحلل ظواهر من بعدها، وهكذا تحليل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من اجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضح، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الظاهر هو الذي لم يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بين للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابل للامتداد والحركة ويتجسد في السلوك والفعل بالنسبة لما يتعلق بالحياة البشرية. الظاهر ما ليس بكامن، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر.

والظاهر والباطن صفة المكان، فالحق سبحانه وسع المكان ظاهراً وباطناً، ووسع الزمان أولاً وآخراً، وإذا كان مدبر المكان والزمان هو الحق تعالى كان منزهاً عن المكان والزمان، ومحيطاً بهما وظاهراً بإرادته وظاهراً على خلقه من أهل المعصية وظاهراً في خلقه من أهل طاعته، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾^{٧٠} يدل الله سبحانه وتعالى من خلال فعل الإرادة على ظهوره في هذه الآية، ظهور قوة وظهور قهر وظهور جلاء، فالأشقياء من الخلق ظهر الله تعالى عليهم قهراً، وظهر بهم إرادة، أي ظهرت إرادته بهم كونهم في النار بدوام السموات والأرض، وظهر فعله جلاء ووضوحاً فهو الظاهر في كل شيء وعلى كل شيء وهذا دوام وتأبيد ونفي انقطاع العذاب أبداً. فالنصوص القطعية دالة على تأبيد وجودهم فيها بظهور الله تعالى عليهم، وهو ظهور نقمة على أهل النار الذين كانوا يسعون في الأرض فساداً ويحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل فنالوا جزاءهم بظهور الله تعالى عليهم والانتقام منهم، فكان ظهور نقمة بما كانوا يكسبون، وأما ظهوره تعالى ظهور نعمة فواضح على المستخلفين الذين فازوا بالجنة ونعيمها، حيث لهم ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون، فظهور الله تعالى على أولئك من أهل النار يختلف في ظهوره على هؤلاء من أهل الجنة، فالله سبحانه وتعالى ظاهر بنعمته ونعيمه في جنات الخلد وما فيها من جزاء ونعيم لأهل طاعته، من جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنهار من عسل مصفى وأزواج مطهرة وغلaman يطوفون عليهم فهذا ظهور الله تعالى بنعمته لأهل الطاعة والتقوى، حيث يتجلى لنا هذا الظهور في قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مِّنْ حَشِي الرِّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمٌ

الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ^{٤٧١}. والله سبحانه وتعالى ظاهر في الدنيا للذين يتفكرون في آياته وخلقه مما يدب على الأرض وينبت منها، ومما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وظهوره في نعمته في الآخرة أشد وضوحاً وأعظم برهاناً في إسباغ نعيمه على أهل الجنة حيث ذكر ابن أبي أسامة البغية جزء من نعمة الجزاء السابقين من أهل الجنة أن لكل واحد منهم من بعض جزائه ونستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم في كل جمعة على كثيب من كافور لا يرى طرفاه وفيه نهر جار حافتاه المسك عليه جوار يقرآن القرآن)^{٤٧٢} حيث أنهم لم يعطوا شيئاً من النعم أحب إليهم من النظر إلى وجهه الكريم وهو المزيد (والمزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف)^{٤٧٣} وهذا الظهور لا يستقيم معه الكم وينتفي عنه الكيف، وإنما هو يتجلى سبحانه وتعالى في قوله: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ^{٤٧٤}} وأما القول في ظهور الله تعالى ظهور نعمة وظهور نعمة في الآخرة فيتفق مع فطرة العقل السليم، لأنه من كان لديه شيء من علم الفلك فسوف يطلع على هذا الكون وما فيه من مليارات من مجرات كونية تحوي كل واحدة منها مليارات من الكواكب، والكلام في علم الفلك هو جزء من الكلام في علم الإلهيات الذي يبحث إثبات وجود الله تعالى وظهوره وقدرته، ومن ثمّ إثبات صفاته جل شأنه التي تقوم على التسليم، ومن لم يسلم فإننا والحمد لله نستطيع أن ندحض أية حجة تقول بمخالفة ما نعتقد، لا على سبيل التعصب، وإنما بالقول الحق والحجة الدامغة التي تستند إلى الدليل المقنع إما عن طريق العقل والحواس وإما عن طريق الخبر المتصل بالسند الصحيح. والخبر المتصل بالسند الصحيح المتواتر عجزت عن دحضه العقول، واستسلمت له الأفهام، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا^{٤٧٥}}، وحقيقة الروح التي هي مدار البدن

٤٧١ - ق ٣١-٣٥

٤٧٢ - القرطبي ١٨، ١١٨

٤٧٣ - القرطبي ١٧، ٢١

٤٧٤ - الأنبياء ٢٣

٤٧٥ - الإسراء ٨٥

الإنساني ومبدأ حياته وكل منا يحملها بين جنبيه فقد حارت في كنهها العقول وهذا من أدق الأمور التي لا يسع أحد إنكارها ويتطلع كل إنسان إلى معرفتها فقد كل عن إدراكها العقلاء وتصاغت في فهمها الأذهان وتاهت فيها البصائر فكيف يحيا الإنسان بهذه الروح، وأين مكنها أو مظهرها يا ترى؟ وما الذي يفارق جسده فيموت، وأين تكمن بعد مفارقة الجسد، أو إلى أين ترحل؟، بل أين كانت قبل دخولها فيه، فهذه التساؤلات تؤشر على ظهور الله تعالى في خلقه وآياته قال تعالى: {سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ^{٤٧٦} فالله تعالى يظهر ظهور قدرة في خلقه من بني البشر وظهور قوة في بقية المخلوقات، وأنه وعد، فوعده الحق وقوله الصدق بأن يطلع الناس على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء. فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها، وعن النظام الشمسي وما فيه، وان هذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، وعرف الناس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير، وان كل هذه المعرفة و المعلومات والاكتشافات ما هي إلا ذرة من علم الله مصداقا لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَئِن سَأَلْتُمُوهُنَّ لَتَنْدَهَبْنَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكُنَّ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّ لَهُنَّ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا لَقِيلًا} ^{٤٧٧}. ومن ذا الذي يعلم أمر هذه الروح وهذه النفس إلا الذي خلقها؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير؟.

إن صفة الظاهر خاصة وبقية الصفات الحسنى لله تعالى عامة، ذات قيمة في الحياة الإنسانية، قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن

٤٧٦ - فصلت ٥٣

٤٧٧ الإسراء ٨٥ - ٨٧.

كُنْتُمْ صَادِقِينَ^{٤٧٨} أي أظهروا ما عندكم من حجج إن كنتم صادقين أيها الكفرة المشركين، ومن ثم كانت هذه الصفة تمنح الإنسان أفقا واسعا في التأمل بقدره الله الذي ظهر في نفس الإنسان وفي خلق الإنسان بحيث نجد هناك تساوقا وتناسقا في صفة الظاهر بين الإنسان كخلق داخلي وبين نفسه كشكل خارجي وبين ما يقول ويفعل، وهذا التناسق هو الذي يؤلف منه وحدة متناسقة متكاملة من الشعور والإحساس والإدراك. بحيث يتولد في نفسه الدين الحق، الذي يعبر عنه علماء الاجتماع بالضمير الذي هو ميزان الحق والعدل والحلال والحرام، وحالة من الوجدان أي شعور مصحوب بالتأمل، ويكون مدعاة للوصول إلى الحقائق، وباجتماع الضمير والوجدان ينبثق منهما اتجاهات وأعمال؛ وتتوحد بهما المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة؛ وتصل الإنسان بالله في سره وجهره وترتقي بالروح لتخترق حجب الغيب وصولا إلى حقيقة الظاهر قدما يستطيع العقل إدراك هذا الظاهر جل شأنه.

إن علم الإلهيات الذي يبحث في الموضوعات الغيبية (المتفزيقيا) أي ما وراء الطبيعة القائم على الأدلة العقلية من خلال وجود الوقائع المدركة بالحس أو بالحدس الذي يدل على البديهيات مثلا كشروق الشمس وغروبها والاتجاه الذي تشرق منه والاتجاه الذي تغرب إليه، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، أو بوجود الروح مع الإقرار بجهل حقيقتها بما لا يختلف عليه اثنان، أو أن هذه الأدلة كامنة خلف وجود المدلول، بمعنى وجود واجد واجب الوجود لوجودها، وهذا الواجد الذي هو واجب الوجود هو ظاهر بقدرته بما أوجد فقد قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثَبَّتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^{٤٧٩} فهذه الموجودات التي خلقها سبحانه بهذا الخلق العظيم، من أزواج على سُنَّةِ الذكورة والأنوثة، وخلق

^{٤٧٨} البقرة ١١١.

^{٤٧٩} - يس ٣٦ - ٤٠.

أنواع الكائنات الحية و مما تثبت الأرض ومن الأنفس، وخلق ما نعلم وما لا نعلم، وفيه الدليل الكبير على عظيم قدرته تعالى وظهوره فيها.

فهذا الليل الذي يزيل منه النهار ويضع الليل مكانه، فهو من آيات الله وبديع صنعه في هذا التعاقب، فالليل يُسَلخ من النهار والنهار يُسَلخ من الليل، نتيجةً لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، فتشرق الشمس على بعض الآفاق فيكون عندهم نهار، وتغيب عن البعض الآخر بانتظام فيكون عندهم ليل. وإنها لظاهرة فلكية عظيمة الأهمية في حياة البشر وكافة الأحياء على هذه الأرض، وكذلك فهي تسير إلى مستقرٍ لها بقدره الله الظاهر عليها وعلى غيرها من الخلق لمكان يعلمه لسبب ولسبب نجهله.

وكذلك سير القمر وتقديره في منازلها، ينزل في كل واحد منها كل ليلة، إذ يبدو في أول الشهر هلالاً ضئيلاً، ثم يزداد ليلة بعد ليلة إلى أن يكتمل بدرًا، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود ضئيلاً مثل عرجون النخلة. ثم يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص الشهر فهذا تقدير العزيز العليم، فهذا الخلق العجيب والنظام الكوني الرهيب الذي ظهر فيه سبحانه وتعالى بقدرته، وظهر عليه بقره وبسط سيطرته وانصياعه لما أمر له بإذعانه للقاهر الظاهر فلا الشمسُ يمكنها أن تخرج عن هذا النظام البديع فتلحقَ بالقمر وبينهما مسافة هائلة، ولا الليل يتأتى له أن يغلب النهار ويحول دون مجيئه، بل هما متعاقبان، وكل من الشمس والقمر والكواكب والنجوم يسبحون في هذا الكون الفسيح بنظام دقيق عجيب. إن الآية الكريمة استعرضت الآيات الكونية التي يمر عليها بعض المعرضين غافلين عن هذا الظهور؛ وهي مبنوثة في أنفسهم وفيما حولهم وفي تاريخهم وهي بيان لقدرته تعالى الباهرة في الزمان بعدما بينها سبحانه في المكان لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي، الذي لا يمكن لكائن حي أن يعيش خارج هذين الحيزين.

وبعد هذا فإن من تمام الاعتقاد الحق والمنهج الصدق الذي يجب علينا اعتقاده، ويلزمنا في ظاهره وباطنه اعتماده ما دل عليه كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وذلك أن يعتقد العبد

ويقر ويعترف بقلبه ولسانه أن الله واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد ظاهر في آياته وملكوته، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ^{٤٨٠} فقد خلق السماوات والأرض و استولى وظهر على العرش بقدرته وذل وخضع كل شيء لعظمته و هو خالق الكون ومبدعه، خلق السموات والأرض في ست أيام، ثم استولى على السلطان الكامل فيها، وهو الذي يجعل الليل يستر النهار بظلامه، ويعقب الليل النهار بانتظام وتعاقب مستمر كأنه يطلبه، وخلق الله سبحانه الشمس والقمر والنجوم، وهي خاضعة لله تعالى مُسَيَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، لا إله سواه، ولا معبود إلا إياه، ولا شريك له، ولا نظير له، ولا صاحبة له، ولا ولد له دلت عليه دلائل القدرة فتعدى بظهوره حدود إدراكنا.

قديم أبدي أزلي، أول من غير بداية، وآخر من غير نهاية لا تحيط به الأبصار، ولا تدرك كنهه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا عنت له الوجوه طوعا وكرها: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ^{٤٨١} فالجاحدون اتخذوا آلهة من دون الله، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء، ونحن نرى كل من في هذا الكون يخضعون لإرادته ويعنون لعظمته، وفي هذا تعميم لكل شيء، فالله سبحانه يخضع لإرادته وعظمته كل من في السموات والأرض من أكوان ومخلوقات وبشر وجن وملائكة طائعين أو كارهين، حتى ظلالهم من طول وقصر حسب أوقات النهار في الظهيرة وفي الأصيل خاضعة لأمر الله ونهيه وهذا هو الظهور المطلق لله تعالى، فهو موصوف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والبقاء والبهاء والجمال والعظمة والجلال

٤٨٠ - الأعراف ٥٤

٤٨١ - الرعد ١٥ - ١٦

والمن والإفضال، لا يعجزه شيء، ولا يشبهه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} ^{٤٨٢} فهو وحده مالك الكون ومدبره، وله الحمد في الآخرة على جميل إحسانه ورحمته وهو الحكيم الخبير ببواطن الأمور وجميع ما يدور في هذا الكون. إنه يعلم ما يدخل في جوف الأرض وما فيها من ماء وكنوز ومعادن وغير ذلك، وما يخرج منها كالحيون والنبات ومياه الآبار والعيون، وما ينزل من السماء وما يصعد فيها ويرقى إليها، كالملائكة وأعمال العباد والأرواح والأبخرة والدخان وكل ما يطير ويحلق في الأجواء لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة مما يحصل في هذا الكون الواسع العجيب. وهو مع كثرة نعمه وفضله، واسع الرحمة عظيم الغفران وهذا من عجائب الظهور وهو أنه غني عن العالمين مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وفاسقهم وغنيهم وفقيرهم، لأنه منزه عن كل نقص وآفة، مقدس عن كل عيب وعاهة، الخالق الرازق، المحي المميت، الباعث الوارث، الأول الآخر، الظاهر الباطن الذي وسع كل شيء علما وإحاطة وظهورا، وهو جل شأنه الطالب الغالب، المثيب المعاقب، الغفور الشكور، قدر كل شيء وقضاه، وأبرمه وأمضاه، من خير وشر، ونفع وضر، وطاعة وعصيان. وعمد ونسيان، وعطاء وحرمان، لا يجري في ملكه ما لا يريد، عدل في أقضيته غير ظالم لبريته، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، رب العالمين، إله الأولين والآخرين، مالك يوم الدين فلا نصفه إلا بما وصف به نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الكريم، لا تجاوز ذلك ولا تزيد، بل نقف عنده وننتهي إليه، ولا ندخل فيه برأي ولا قياس، لبعده عن الأشكال والأجناس. ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ولا يفقهون، فهو الظاهر على خلقه ببسط سلطانه

على جميع مخلوقاته وظاهر على الناس بخلقهم ورزقهم وموتهم وبعثهم ونشورهم: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا
بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^{٤٨٣} فالخطاب لجميع المخلوقات من الإنس والجن
والملائكة والحيوان وكل ما دبَّ وطار وانساب، فخلقهم جميعاً كخلق نفس واحدة لأن الأمر لا
يتعلق بالآلة والصنعة والكيفية وإنما خلقها وبعثها في سهولة التأتي بالنسبة إليه عز وجل، لا
يشغله تعالى شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل متعلق بإرادته تعالى الواجبة أو قوله جل وعلا:
كن فيكون وهذا لا يتوقف على آلة ومباشرة تقتضي التعاقب ليختلف عنده تعالى الواحد والكثير
كما يختلف ذلك عند العباد الذين هم بحاجة إلى الوقت والعمل والآلة لإنجاز ما يريدون من
الأعمال.

وأما ظهور الله تعالى بخليفته أو إظهار خليفته فأكثر من أن يحصى حيث يمنح السلطان
الظاهر لعباده ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وما فعلوه من
الإعانة على دفع الظلم ودحر الظالمين الذين يستحقون العقاب بقدر الذنب ويمنحهم القدرة
والتمكن باطناً وظاهراً، و ليس مستلزماً لولي الله تعالى وخليفته أن يكون متمكناً ذا سلطان دائماً
وإنما قد يدخله في امتحان الصبر فقد يكون مستضعفاً إلى أن ينصره الله، وقد يكون عدو الله
مستضعفاً وقد يكون سلطاناً إلى أن ينتقم الله منه، وأما الغلبة فإن الله قد يديل الكافرين على
المؤمنين تارة كما يديل المؤمنين على الكافرين، كما كان لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مع
عدوهم، لكن العاقبة للمتقين، فإن الله يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^{٤٨٤} وإذا كان في المسلمين ضعف وكان العدو مستظهماً عليهم كان ذلك بسبب
ذنوبهم وخطاياهم إما لتقريبهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما بعدوانهم بتعدي الحدود باطناً
وظاهراً وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَدَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ

٤٨٣ - لقمان ٢٨

٤٨٤ - غافر ٥١

سَيُجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ^{٤٨٥} والإثم كل ما حرمه الله، و ظاهر الإثم ما تعلق بالجوارح من الأعمال، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب، كالكبر والحسد وتدبير المكاييد الضارة بالناس، فهنا يبرز واجب الخليفة الظاهر في إعادة الحق إلى نصابه، بأن يأمر من كان تحت ولايته بالمعروف وينهاهم عن المنكر لإقامة الحق والعدل بما أمر به الله تعالى.

ولا تقتصر صفة الظاهر على الذات الإلهية وإنما يجب على الإنسان أن يأخذ بحظه منها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهو ظهور نسبي إلى قوة الله وقدرته في الظهور المطلق، ولكن الذين يرثون الأرض من عباد الله هم خلفاؤه في أرضه، وليس كل إنسان يستطيع أن يخلف الله في الأرض فالله يختار من عباده من يشاء ويمنحه من النعم ما يؤهله لذلك فتكون له القوة والقدرة لإقامة الخلافة و إعمار الأرض، فالإنسان بشر، إن لم يكن من المستخلفين ستكون بنيته متهافئة وطنيته منتثرة، وله عادة طالبة، وحاجة هاتكة، ونفس جموح، وعين طموح؛ وعقل طفيف، ورأي ضعيف، يهفو لأول ربح، ولكن الخليفة الذي أسبغ عليه الله نعمه ظاهرة وباطنة يكون قد اتصف بالصفات التي تجعل منه خليفة وأولها ظهور التقوى والطاعة لمن استخلفه في أرضه، والتقوى والطاعة من رواجح العقل، وبذلك يصبح له سلطان على نفسه، وقهر لشهواته، وقمع الهوائج الدافعة نحو التهور بسيطرة الحلم وإجالة الرأي، وقبول المناصحة، والتهيؤ للمعضلات الجسام، وتبوء المكانة العالية على الأقران بما يمتاز عنهم من الصفات التي تتم بها سعادة من ولاه الله أمرهم من العباد باستبصاره في طلب ما عند الله من الرضا ويكون بذلك قد استتصف من هواه لعقله المرشد، ومن دنياه لدينه ومن نفسه لربه، فهو لا ينظر بمنظار الآخرين على أن الإنسان صغير الحجم، ضعيف الحول، لا يستطيع أن يجمع بين حظوظ بدنه وإدراك إرادته، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه فيكون بذلك أهل للخلافة التي أمر بها الله تعالى ونذر نفسه لله حيث باع الدنيا واشترى بها الآخرة، لا كما يفعل بعض الناس بقولهم نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار فهذا المذبذب الذي لا هو من

هذه ولا من تلك، فيكون كما قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} ^{٤٨٦} فقد أظهر الله تعالى الخليفة على هؤلاء بافتضاحهم، والخليفة يعلم أنهم يعملون من أجل أن يراهم الناس لا يؤمنون وهم مترددون لا يستقرون على حال.

إن المنافقين يحسبون أنهم يخدعون الله ويخفون عنه حقيقة أمرهم، وهو يكشف خداعهم لا محالة، فيمهلهم يرتعون في شرهم ونفاقهم، ثم يحاسبهم على ما يفعلون. وإذا قام هؤلاء المنافقون إلى الصلاة قاموا متثاقلين بدون رغبة ولا إيمان. إنهم يخشون الناس فيوهمونهم أنهم مؤمنون، كما يعملون الأعمال الطيبة لمجرد الرياء، حتى يراهم المؤمنون فيظنون أنهم منهم. وهم لا يذكرون الله إلا نادرا، ويظنون مذبذبين تارة مع المؤمنين وتارة مع الكافرين، لأنهم طلاب منافع، ومن قضت سنته تعالى أن يكون ضالاً عن الحق، فلن تجد له سبيلا للهداية.

لذلك فإن الله تعالى أظهر الخليفة عليهم وأبداهم له، وهذا الظهور، هو ظهور علم بما أعلمه الله من أمر هؤلاء، فالخليفة ظاهر على أعداء الله بما أوتي من العلم الذي أظهره الله له ليأمن شرهم ومكائدهم، وظهور العلم من الله لأنبيائه وأوليائه وخلفائه إنما هو تأييد بالقوة والظهور في استبانة الرأي والقول الصائب بما كشف الله له من بصيرة قال تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ^{٤٨٧} ورب قائل: يقول أن يعقوب عليه الصلاة والسلام: على الرغم من تحذيره لأبنائه ودعوته لهم بأن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفا عليهم فقد وقع لهم ما يكرهون، وهذا لا يتعارض مع ظهور الخليفة بعلمه، إذ أنه من باب وقوع المتوقع، ويمكن أن نقرب الفكرة بشكل أبسط من هذا حيث نجد الآباء والأمهات يحرضون أبناءهم ويشجعونهم على القتال والجهاد

٤٨٦ - النساء ١٤٢ - ١٤٣

٤٨٧ - يوسف ٦٨

في سبيل الله والدفاع عن الوطن والأرض والعرض، فهم بهذا يدفعونهم إلى موت يعلمون أنه محقق، ومع ذلك يوصونهم بالانتباه والحذر وأخذ الحيطة لأنفسهم فهذا من باب وقوع المتوقع والقضاء الذي لا مرد له من أمر الله، ومن هذا يتضح لنا أن ظهور الخليفة ظهورا علميا إنما هو منفعة للبلاد والعباد، حتى وإن لحق المجتمع بعض الضرر فإنما ظهور الخليفة بعلمه يكون قد اختار أقل الضررين كما فعل عمر رضي الله عنه عندما عطل بعض الحدود في عام الرمادة حيث أصاب الناس قحط شديد وكان هذا العمل لدرء أشد الضررين عن الناس، فكان ظاهرا بعلمه على الرغم من اعتراض البعض في البداية حتى اتضح لهم صواب رأيه وسلموا بظهور علمه ورأيه على ما كانوا يعتقدون خلافه في اتخاذ هذا القرار.

إن ظهور الخلفاء هو أمر قضاه الله في علمه ليتم أمره، فالخلفاء بظهورهم على بقية الخلق يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم، وهم الكرام الذين يتسعون في أحوالهم، ويوسعون على غيرهم من سعتهم، ويهتمون بذخائر الشكر المعجل في الدنيا، ويحرصون على ودائع الأجر المؤجل في الآخرة؛ ويتلذذون بالثناء، ويهتزون للدعاء، وتملكهم الأريحية عند مسألة المحتاج، وتعتر بهم الهزة معها والابتهاج، وذلك لعشقهم الثناء الباقي، والصنيع الواقي، ويرون الغنيمة في الغرامة، والريح في البذل، والحظ في الإيثار، والزيادة في النقص، أي نقص أموالهم بما ينفقون هو زيادة في أجرهم بما وعدهم الله من جزيل العطاء في الدنيا والآخرة والله يضاعف لمن يشاء من عباده، فالخليفة يدرك ذلك لأنه اكتسب صفة الظاهر النسبية من الظاهر مطلقا فالله يخلف عليه ويضاعف له الأجر والثواب قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾^{٤٨٨}

ولا يقتصر ظهور الخليفة على جانب دون آخر ولكنه أيضا يصل إلى صفة الكمال النسبية على

مستوى البشر، وكما أنه ظاهر العلم والمعرفة، فهو أيضا ظاهر التقوى والإيمان والورع، فإن أنبياء الله وأوليائه وخلفاءه هم أشد الناس تقوى وأعظمهم إيمانا وأكثرهم ورعا لله ومهابة منه، لذلك كانوا أكرم الخلق على الله إذا سألوا أعطاهم وإذا دعوا أجابهم، فهذا زكريا عليه الصلاة والسلام بعد أن بلغ من العمر عتيا وامراته عاقر يرزقه الله بالذرية الطيبة الصالحة قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} ^{٤٨٩} فعندما سمع زكريا عليه الصلاة والسلام هذه البشرى استبعد أن يكون له ولد وهو عجوز طاعن في السن وامراته عقيم لا تلد، فردّ عليه الله بأنه متى شاء أمراً أوجد له سببه. فدعا زكريا ربه أن يجعل له علامة لتحقق هذه البشرى، وكانت علامة ذلك أن لا يقدر على كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ومع ذلك فقد ظل يذكر الله ويسبّحه أثناء تلك الأيام الثلاثة اتجه إلى الله ضارعاً أن يهبه من فضله وكرمه وبقدرته ولداً، فهو يسمع دعاء الضارعين، وهو القدير على الإجابة وإن وقفت الأسباب العادية من شيخوخة أو عقم دون تحقيقها.

فاستجاب الله دعاءه "فنادته الملائكة وهو قائم في معبده متجهاً إلى ربه، بأن الله يبشرك بولد اسمه يحيى، يؤمن بعيسى - عليه السلام - الذي سيوجد بكلمة من الله فيكون على غير السنّة العامة في التوالد، ويجعله - أي يحيى - يسود قومه بالعلم والصلاة، يعزف عن الشهوات والأهواء، ويجعله من الأنبياء والصالحين. ولما سيقب إليه هذه البشرى، اتجه إلى ربه متشوقاً إلى معرفة الكيفية التي يكون بها هذا الغلام، مع عدم توافر الأسباب العادية لكبر سنه وعقم زوجته، ورد الله عليه بأنه متى شاء أمراً أوجد له سببه، أو خلقه بغير الأسباب المعروفة. فهو يفعل ما يشاء. فدعا زكريا ربه أن يجعل له علامة لتحقق هذه البشرى، فأجابه الله بأن علامتك أن تعجز

عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة إليهم بما تريد، وثابر على نكر ربك وتزريه في المساء والصباح^{٤٩٠}.

فهذه الأدلة الواضحة على تمكن الخليفة عندما يتحلى بالتقوى وإقامة العبادات والحدود والفرائض فيكون ظاهرا بعبادته وظاهرا على أعدائه، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى خاطب أوليائه وخلفاءه بخطاب رقيق فيه من التودد واللفظ والرقعة ما يدل على قربه منهم وتكفله بأن يظهروا على من عاداهم وأن ينصرهم ويظهرهم أمرهم وذلك بسبب طاعتهم وتقواهم وعبادتهم وقربهم إلى الله، حيث قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} ^{٤٩١} إنما ولايتكم أيها المؤمنون لله ورسوله ومن ولاه الله أمركم من خلفائه القائمين بأمره، فلا ناصر ينصركم غيره والمؤمنون الصادقون هم الذين يقيمون الصلاة ويحسنون أداءها، ويؤدون الزكاة وهم خاضعون لله ظاهرون على أعدائه ومن يتخذ الله ورسوله والمؤمنين وأوليائه ذخرا وسندا فإنه يكون قد استمسك بالعروة الوثقى فهم المنتصرون الفائزون الغالبون، لذلك كان من أوليات واجب الخليفة إقامة العبادات والابتعاد بالرعية عن مصارع السوء باصطناع المعروف لأن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق، ولذا فالخليفة يعمر الأرض ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق، وهكذا يستخلف الخليفة بالطاعة والهداية.

قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} ^{٤٩٢} فالله تعالى لما أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يبلغ هذه الرسالة إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز

^{٤٩٠} - التخب ١، ج، ص ٩١

^{٤٩١} - المائدة ٥٥ - ٥٦

^{٤٩٢} - التوبة ١٢٨

والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم. وأيضاً فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان. فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير، ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو القدوة والأسوة الحسنة للمسلمين فقد وجب عليهم اتباعه والتخلق بأخلاقه والسير على نهجه وإن أولى الناس بهذا لهو الخليفة الذي يخلف الله في أرضه ويسوس عبادَه ويعمر أرضه ويقيم شعائره ويظهر دينه فهو بهذا يكون ظاهراً بإيمانه وأخلاقه ودينه وقدوة للمؤمنين وهو رؤوف رحيم بهم يوردهم موارد الخير وينأى بهم عن المهالك ويرتفعهم مراتع الأمن والطمأنينة ويعمهم بخير الدنيا والآخرة، وصولاً إلى النعمة الظاهرة عليهم، وما أعطي أحد من نعمة مثل ما أعطي الرسل وقد خصَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام بما جاء في قوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} ^{٤٩٣} ورُوِيَ عن عائشة أنها قالت هو نهر في الجنة، وعن أنس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً قلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت علي أنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم {إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وأنحر إن شانئك هو الأبتَر} ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول ما تدري ما أحدثت بعدك ^{٤٩٤}.

^{٤٩٣} - الكوثر ١

^{٤٩٤} - صحيح مسلم، ج ٢، ص ٣٦٤

إن نعمة الظهور التي رُزقها محمد عليه الصلاة والسلام لم تؤت لأحد من قبله ولا من بعده ويكفي أن حوضه الكوثر جعله ظاهراً على جميع الخلق، وأما في الحياة الدنيا فظهوره بالنبوة والرسالة والفتوح التي فتحها الله عليه من نشر هذا الدين وإسلام الناس على يديه. وأما الخليفة فهو ظاهر بالنعمة على العباد وهو قدوتهم، وظهوره بنعمة الهدى التي يدعو بها إلى الدين الحق وإقامة ما أمر به الله تعالى من العبادات والحدود والفرائض، ثم أن الخليفة ظاهر النعمة في عقله الذي يسوس به الناس، وحزمه الذي يكون الحارس الأمين، وظاهر في نعمة الدين القويم والطريق المستقيم، واستدامة هذه النعمة ودوام ظهورها متواترة تكون أيضاً بنعمة الشكر، أما غير الخليفة فإن هدم النعمة وزوالها عنه أيسر بكثير من بنائها والمحافظة عليها لأنه لم يصل إلى درجة الخلافة، فهو لا يعرف موجباتها، ولم يرتق لأن يكون أهلاً لأن يجمع شروط الخلافة.

والخليفة ظاهر بنعمة العلم والمعرفة في وضوح البيان وطلاقة اللسان وصدق النية والعمل، ومن ظهور النعمة على الخليفة أو أنه ظاهر بالنعمة، أنه يعرف سبل الناس ومصالحهم، وإن جهلوا فضل ما يقدم إليهم من الإحسان، ويعلم مضارهم فيبتعد بهم عنها، ويعلم منافعهم فيأخذ بأيديهم إليها، فلذلك يحتمل ثقل تقويمهم وإرشادهم، وإن أنكروا فضل ما يسدي إليهم من معروف، لكن الخليفة يعلم أنه مكلف بهذه الخلافة وإقامتها، فهو ظاهر بحلمه وعقله يتجاوز كل ما يصدر عن الرعية لأنه خليفة الله في الأرض فهو ممتثل لأمر الله عز وجل.

الظاهر جل جلاله قابل للمشاهدة والملاحظة من حيث الآتي:

أولاً المشاهدة: الظاهر يشاهد بآياته العظام الظاهرة من حركة وسكون وزمان، ومن إيجاده للشيء وتوليد الأشياء منه، فهو في الشمس ظاهر مثلما في القمر ظاهر ولهذا فهو الظاهر بالقوة والقدرة في كل ثابت ومتحرك، وهو الظاهر في كل مشاهد يسبح باسمه تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا

عَفُورًا^{٤٩٥}. والخليفة هو المؤمن الحق بالحق فلا يعصي له أمرا، وهو الذي يتبع هداه وكما يقول يفعل قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}^{٤٩٦} هؤلاء هم الكفرة والمنافقون الذين يقولون ما لا يفعلون وفي ذلك يكون للخليفة الاختلاف والخلاف معهم بالطاعة التامة والالتزام بطاعة الأمر الذي أمر به الظاهر عز وجل، ولأبين الظاهر القابل للمشاهدة أقول إن المشاهدة هي: الوقوف عن كذب على الشيء المراد رؤيته، بالاختصار على العين في مشاهدة الأشكال والأفعال والصور، وتُمكن الخليفة من الوصف لما يشاهده، وتمكنه من الاستفادة منه بالتسخير والتصنيع والتطوير.

وتوجد علاقة ترابط بين المشاهدة والملاحظة تتمثل في أنّ الملاحظة عميقة وواسعة، وتحتوي على الاستنتاج العقلي، أما المشاهدة فتحتوي على المعاينة بالعين للشيء، وذلك عن طريق تفحصه ككل وكجزء بنظرة نافذة. أي أن المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكال والصور والأجسام، وحركتها والتعرف على مكوّنها (الأجزاء المتكونة منها) بالتعرف على كل ما يمكن تصويره أو رسمه أو أنه في حالة حركة وامتداد.

عليه قد تكون المشاهدة وسيلة هامة للملاحظة، فمن مشاهدة جماعة نشاط فني حر من أجل دراسة اتجاهاتهم قد نجد أن أحد الأفراد يرسم وردة أو زهرة أو غزالة، ونجد آخر يرسم رجلا على صدره أو على إحدى ذراعيه إخطبوط، ونجد ثالثا يرسم فتى وفتاة بينهما مودة، أو يرسم قلبا في وسطه فتاة، أو سيارة يركبها عريس وعروس. هذه مشاهدات يمكن أن يلحظ من خلالها، أن الأول يحب الجمال ويلحظ عليه أيضا الانشراح والمرونة والحياة المبتهجة، وهو مبتسم غير عبوس، ويلحظ على الثاني الاتجاه الإجرامي والانحرافي وعدم احترام الآخرين، ويلحظ على الثالث أن له حبيبة وقد يكون راغبا في زواجها وهي مركز اهتمامه. هذه الاتجاهات الثلاث قد يتم

^{٤٩٥}الإسراء ٤٤.

^{٤٩٦}الأعراف ٣٣.

التعرف عليها من الملاحظة وبواسطة المشاهدة. ويلحظ أيضا العمق في كل حالة من الحالات الفردية السابقة، والتي ظهرت أمامنا من البداية كمشاهدات محدودة، وإذا شاهدنا مباراة لكرة القدم، نشاهد أمامنا جماعتين في وسط الملعب بنوعين من الملابس الرياضية، ومرميين للتهديف، بوسطهما حارسين وجمهوراً متحمساً، ونشاهد حركة اللاعبين وحركة تسجيل الأهداف. هذه المشاهدات التي تترتب عليها الملاحظات، والتي تُمكن الخليفة الملاحظ من معرفة درجة التعاون بين اللاعبين، والمهارات الفنية لهم ولياقتهم وقدرات تحملهم، وعلاقتهم بالجمهور وإصرارهم على الفوز، ويلحظ أيضا علامات الهزيمة، والفوز أو الإحباط في نهاية المباراة على أفراد الفريقين والمشجعين والمدربين حسب النتيجة لكل فريق.

تعتمد المشاهدة على ما تراه العين، ولكن ليس كل ما تراه العين هو حقيقة، وذلك لأن الظاهر قد لا يكون الباطن، وبالنسبة للظاهر المطلق فلا يُرى مباشرة ولكنه يُرى في آياته العظام قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^{٤٩٧} ولهذا فالاعتماد على المشاهدة في القضايا العلمية، مسألة غير يقينية فيصعب التسليم بمصداقيتها قال تعالى: ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾^{٤٩٨} فمن مشاهدة سلوكهم قد تعتقد أنهم في حالة سكر، ولكن بملاحظتهم عن قرب، قد لا يكونون سكارى مع أن حركتهم فيها شبه من هذا الأمر. ولذا فإن الاعتماد على العين في المقارنات العلمية غير كافٍ، وليس دقيقاً، لأن إجماع الناس على حكم معين بمثل هذه الوسيلة غير ممكن. مما يستوجب استعمال وسيلة الملاحظة والمقابلة في عمليات الدراسة، سواء في جمع المعلومات أو التحليل أو التشخيص أو العلاج الذي يُمكن الأفراد والجماعات من أداء واجباتهم الاجتماعية وفق ما لهم من حقوق، وما عليهم من مسؤوليات تقاديا لعيوب المشاهدات يقول الله

^{٤٩٧}الأعراف ٤٣ .١

^{٤٩٨} الحج ، ٢ .

تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} ^{٤٩٩}. وأيضاً قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} ^{٥٠٠}. فمن خلال المشاهدة كان يعتقد القمر هو الرب ولما غاب لاحظ أنه يفتقد لصفة الرب الواحد (الله عز وجل) وهي خاصية البقاء دون غياب بوحدانية الثبات، واعتقد مرة أخرى بأن الشمس هي الرب فلما غابت عن المشاهدة في الليل، لاحظ أنها تغيب وهذه الصفة لم تكن من صفات الله عز وجل وذلك لانعدام خاصية البقاء، لأنه الحي الذي لا يغيب، ويرى الناس وأفعالهم، وما تخفيه وتظهره صدورهم.

لذلك ترتبط الملاحظة بالموضوع ولا تتفصل عنه، لأنها إذا انفصلت عنه تصبح غير علمية وبدون معنى محدد لها. فإذا افترضنا أن الموضوع هو: مدى تمسك سكان مدينة من المدن العربية بارتداء الزي (الملبس) الوطني، فإن ذلك يستوجب على المشاهد الموضوعي ملاحظة ومشاهدة سكان المدينة في أماكن مختلفة وأوقات مختلفة، وقت العمل وأماكنه وفي المدارس والجامعات والمناسبات الدينية والأعياد الوطنية والأعراس وحفلات الختان والمآتم وفي الشوارع العامة وأيام العطلات وأماكن الترفيه. فإذا ذهب الخليفة إلى المصيف البلدي وشاهد المصطافين بدون زيهم الوطني فهذا لا يعني عدم تمسكهم به، ولكنه يعني أن طبيعة المكان لا تستوجب لبس أو ارتداء الزي الوطني، بل إنه لو شاهد أحد المواطنين يرتديه وهو مع المصطافين على الشاطئ يلحظ عليه إخلالا بالذوق العام، وعدم احترام الزي الوطني، وإذا شاهد أحد أساتذة الجامعة يرتدي ملابس البحر القصيرة وهو في الفصل الدراسي أو المدرجات الجامعية في البلدان الإسلامية، فإنه يلحظ عدم احترام الأستاذ للمكان الجامعي ولطلبة الجامعة والذوق العام، وتختلف المشاهدة عن الملاحظة في المثاليين السابقين، الملابس تشاهد وتميّز، أما الاحترام والتقيد بالذوق العام يلحظ ولا يشاهد. وإذا ذهب أحد إلى مآتم وشاهد امرأة ترتدي ملابس عروس، يلحظ أنها خارجة عن

^{٤٩٩} الأنعام ٧٧.

^{٥٠٠} الأنعام ٧٨.

الموضوع، لأنها لم تنتقد بالظرف الزماني والمكاني للذي ترتديه، ولم تحترم المناسبة وشعور الآخرين، وإذا شاهد بعض الأفراد يسبحون بالزبي الوطني بالمصيف العام يلحظ عليهم عدم احترامهم للزبي الوطني الذي يجب ألا تقدم له الإهانات .

ولا تقتصر الملاحظة على الصور والأشكال بل تتعداها إلى المعاني والألفاظ، وما يحاول أن يخفيه أو يظهره البعض، إن التناقض في الحديث والتلعثم والخجل والتظاهر بالبراءة والتظاهر بالخوف والخوف الحقيقي والمحبة والتظاهر بالمحبة والانطواء والاكتمال والتشاؤم ومحاولة إنكار الانفعال والغضب، وإظهار الفرح والمرح كل هذا لا يمكن مشاهدته، ولكن من الممكن ملاحظته. المشاهدة تقتصر على رؤية المنبسط فرحة، أو الباكي حزنا، ولهذا فالباكي يشاهد، والبكاء يلحظ، وكذلك الفرحان يشاهد، والمفرح يلحظ.

وعليه ليس كل ما يلحظ يشاهد، ولكن كل ما يشاهد يمكن أن يلحظ. إن قوة العلاقات بين أفراد الأسرة أو الأمة لا يمكن مشاهدتها، ولكن بالإمكان ملاحظتها، ممارسة الحرية لا يمكن مشاهدتها، ولكن من الممكن ملاحظتها من خلال مشاهدة سلوك وأفعال الممارسين لها، ولذا مع أن الحرية أساليب لممارستها في سلوك عن طريق اللجان والمؤتمرات والبرلمانات والجمعيات، والتنظيم الاقتصادي من خلال الملكية العامة والخاصة، وديناميكية الإنتاج التي يمكن مشاهدتها كتعبير عن الحرية؛ إلا أن التعبير المعلن عنها من قبل الحكومات من خلال المشاهدة قد لا تعبر عن مصادق، ومن خلال الملاحظة قد يثبت عكس ما يقال أو يكتب، فعن طريقها قد تكون الحقيقة أن الدولة التي تدعي ممارسة الحرية عن طريق جلسات المجالس والبرلمانات التي يمكن مشاهدتها بالنقل المباشر من خلال شاشات الإذاعة المرئية وشبكات الانترنت، يلحظ أنها نظاما كبحيا أو سلفيا أو طبقيا أو قبليا.

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لإثبات الحقائق والمصادق، وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة إلى جانب توليد المشاهدات، فالعمليات العقلية هي: تلك التساؤلات والافتراضات أو الانتقادات والتوقعات، وكيفية تقادي المواقف، وكيفية اختيار الأساليب ومراعاة الظروف المناسبة.

أي أنها الحوار الذي يتم بين الفرد ونفسه، والمبادئ العلمية حول الموضوع والأهداف مع مراعاة الفرد أو الجماعة أو المجتمع قيد المشاهدة والملاحظة، والأساليب الدفاعية التي قد تحول دون الملاحظة أو تعرقها، أما توليد المشاهدات فهو: الانتقال من المشاهد إلى الأسرار التي وراءه والعلاقات المكونة لعناصره، قال الله تعالى: {قل انظروا ماذا في السماوات والأرض} .^{١٠١} إنه أمر لمشاهدة آياته في السماء وهي الظاهر من النجوم والكواكب من خلال النظر إليها، ويمكن مشاهدة حركتها وضوئها الجميل، وبالمشاهدة يلحظ أن هناك علاقة، وأن هناك قدرة وراءها، وأنها علامات يمكن الاهتداء بها في تحديد الاتجاهات ليلا ونهارا وفي البر والبحر، وهذه مشاهدات تولدت من خلال الملاحظة والمشاهدة، وهكذا تتولد المشاهدة من المشاهدة، وتتولد الملاحظة من الملاحظة، فمن مشاهدة الشمس يشاهد الشروق والغروب، ومن مشاهدة القمر يشاهد الشمال والجنوب، ومن مشاهدة الجبال والمخلوقات يلحظ أن من ورائها خالق، وهكذا تتولد الفكرة من الفكرة لنلحظ أو نشاهد ما يترتب على الفكرة وتوليدها.

تعتبر الملاحظة والمشاهدة أحيانا أدواتين هامتين لوسيلة المقابلة. لأنه من خلال المقابلة يمكن مشاهدة المشاهد وتصرفاته، ويمكن ملاحظة ردود أفعاله على الأسئلة المطروحة عليه من قبل طارح الأسئلة.

وفي كثير من الأحيان تضع المشاهدة المشاهد في حالة شك، حيث خدعة الحواس، مما يجعل الشك في بعض المسموع، وبعض المشاهد، فسلامة البصر وقوته ليست واحدة، وبالتالي يجب أن لا يثق المشاهد في كل ما يقوله المشاهد سواء كان فردا أو جماعة. ولأن المشاهدة ترتبط بالظاهر سلوكا وحركة ومتحركا، فلا ينبغي أن يعتمد عليها في إصدار الأحكام. خاصة أثناء إجراء المقابلات مع أصحاب الحالات الشاذة أو الانحرافية. فعلى سبيل المثال مشاهدة الأخصائي الاجتماعي للمبحوث وهو يبكي أثناء المقابلة، فمن خلال الملاحظة يمكن إثبات أن هذا البكاء ليس على صدق، ولكنه لاستمرار عطف الأخصائي الاجتماعي، نتيجة الحيل الدفاعية للمبحوث

ونكائه في التأثير على الأخصائي الاجتماعي وتمييع الموضوع. كما أن مشاهدة المتسولين وهم في ثياب رثة بالية قد تظهر للوهلة الأولى ظروفهم المعوزة، ولكن إذا أخضعوا للملاحظة، قد يكونوا عكس ما يشاهد تماما لأنهم اختاروا أقصر الطرق للعيش بدون مقابل، ومع ذلك إرفامًا السائل فلا تنهر^{٥٠٢}. وهكذا تكون الملاحظة اختبارية للمشاهدة، وتكون المقابلة اختبارية للملاحظة، فكل ما يلحظه المُلحِظ يمكن أن تختبر مصداقيته أو عدمه بالمقابلة. وتختلف الملاحظات والمشاهدات العلمية عن الملاحظة والمشاهدة العابرة التي تواجه الإنسان كل يوم، والتي قد تثيره في وقتها لاحتوائها عنصر المفاجأة أو التي تعرّف عليها في الماضي وتكرر من حين لآخر مثل مشاهدته السحب والأمطار، ومعرفته لها كما هي مشاهدة، ولا يعرف العلاقة بين السحب ومكوناتها والقوة التي تذيبها فتسقط مطرا، وأنه يشاهد البرق ولكنه لا يعرف القوة المولدة له، أما الملاحظات والمشاهدات العلمية المقصودة فهي تحدث وفق خطة وانتباه واع وتتبع دقيق، وتتطرق من موضوع وتحقق أهدافا.

إذن لا مشاهدة إلا لظاهر، والظاهر قد يكون ظاهرا في ذاته وقد يكون ظاهرا في قوله أو يكون ظاهرا في فعله أو يكون ظاهرا في أكثر من آية، ولأننا نتحدث عن الظاهر المطلق فالظاهر المطلق واحد أحد لا تراه الأبصار التي تراه في آياته التي لا تعد ولا تحصى سبحانه لا إله إلا هو واحد أحد لا شريك له، له الملك وله الأمر.

ثانيا الملاحظة: الملاحظة إدراكية يتم بلوغها عن طريق العقل الذي يصوغ ما يصل إليه من الحواس جميعا، ولذا تعتبر الملاحظة من الأدوات المهمة في عمليات البحث العلمي، عندما تكون قابلة للتحقق منها. وتبين الملاحظة مدى سعة تفكير الباحث، وإدراكه ووعيه لما يحدث معه ومن حوله، وذلك بما يُمكنه من فهم سلوك الفرد أو الجماعة وظروفهم المحيطة مع استقرار ما يحدث من ردود أفعال، وذلك من خلال الربط بين المشاهد والمسموع والمحسوس والمدرك). وتشتمل الملاحظة على لحظة حدوث الشيء فيُلحِظ في حينه (وقت حدوث الفعل) وهذه قد تكون

عن رؤية، وقد تكون عن استماع مباشر واعٍ ومقصود، وقد تكون عن استقراء واستنباط، وترتكز الملاحظة على أهمية الحضور لكي تتم عملية المقابلة المباشرة للمصدر ذي العلاقة بالموضوع. كما ترتكز على المعاينة لما هو محسوس بشكل مباشر أو غير مباشر، فكل ما يتم عن طريق الحواس الخمس هو مباشر، أما الذي يتم عن طريق الاستنباط والاستقراء فقد يكون غير مباشر، ولهذا يجب أن لا يغفل الباحث عن استقراء ما بين الأسطر، واستنباط المحمول في المضمون. ولهذا تعتبر الملاحظة الأداة المُمكنة من التمييز بين الصدق واللغو، وبين ما يجب وما لا يجب. فعن طريق المعاينة السماعية يتمكن الباحث من التعرف على العلاقات السالبة والموجبة بين المواضيع. فالعين لا تشاهد الكلمات المنطوقة مع أنها تشاهد المكتوبة منها. والأذن قادرة على ملاحظة المسموع وغير قادرة على التمكن من المكتوب، وبمشاهدة المكتوب يُمكن أن تُلحظ مضامينه إدراكا واعيا. وبالاستماع يمكن أن يتعرف الباحث على اتجاهات أو نوايا الطرف أو الأطراف المستمع إليها، وحتى فاقد حاسة البصر يُمكن أن يكون شاهدا مع أنه لم يكن قادرا على أن يشاهد شيئا بعينه، فإذا أنصت إلى حديث جماعة تتحدث عن فلسفة التغيير الاجتماعي، فيمكنه أن يُلحظ اتجاهاتهم حول هذا الموضوع، ويلحظ الوحدة التي بينهم، أو الاختلاف والتباين في وجهات نظرهم.

ولأنها الأداة المعتمدة على الحواس ودرجة سلامتها، فهي تتطلب من الباحث كفاءات وقدرات يمكن قياسها، هي:

- أ - القدرة على الإنصات الواعي للآخرين وتفهم وجهات نظرهم.
- ب - القدرة على التذكر والتصور والتخيل، والتفكير وفقا لما هو متوقع وغير متوقع.
- ج - القدرة على التمييز بين المعايير التي يحتكم الأفراد والجماعات والمجتمعات إليها.
- د - القدرة على تحديد الرؤية لما يجب أن يحدث، ومتابعة ما يحدث بالفعل.
- هـ - الاهتمام بجميع المتغيرات التي يمكن أن تؤثر على الموضوع المدروس، وتبني التفكير في المتغيرات الجديدة ووضع معايير لها.

وعليه فالظاهر هو ما يظهر للمعرفة سواء بالمشاهدة أو الملاحظة، ولأن الله هو الظاهر الذي أظهر بقوته وقدرته ما خلق لمن خلق، فهو الظاهر المطلق الذي لا يخفى عما خلق، ولذا كل ما خلق يسبح له طاعة حتى وإن كنا لا نفقه تسبيحه قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا آئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} ٥٠٣ . ولذا أتساءل:

هل يمكن أن يتم التسبيح لو لم يكن هناك ظاهر يستوجب حمده وذكره؟.

وهل يمكن لنا أن نعرف التسبيح لو لم يكن ظاهرا للمعرفة؟.

وهل يمكن أن نعرف العلاقة بين الظاهر والظاهر لو لم تكن العلاقة بينهما ظاهرة؟.

ولذا فالظاهر هو المثبت بوجوده للإدراك الواعي وليس لمن تقتصر الرؤية عليه.

وعليه فالظاهر المطلق هو الذي لا تخفيه خافية، ولا تحده حدود، ولا يطويه الزمن والحركة، وهو الغالب والظاهر فوق خلقه، وهو على كل شيء قدير، وهو السميع المجيب، وإذا أراد أمراً يقول له كن فيكون. إنه الله الظاهر جل جلاله. الله الذي يشاهد في آياته العظام، ويلحظ في وجوده غير المحدود في الزمان والحركة، ولأنه خالق فهو موجود بالقوة والقدرة، وإلا هل يمكن أن يتم الخلق بدون وجود خالق سابق عليه؟. إنه الحق الذي لا يخفى عن الأسماع والأبصار والعقول سبحانه لا إله إلا هو.

ظاهر بقوله: مصداقا لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ

الرُّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةً كَازِبَةً خَاطِئَةً فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} ٥٠٤.

ظاهر بفعله: مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِثُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ٥٠٥.

ظاهر بسمعه: قال تعالى: {وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ٥٠٦، وقال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَوَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} ٥٠٧.

ظاهر ببصره: قال تعالى: {وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ٥٠٨، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} ٥٠٩.

٥٠٤ العلق ١ - ١٧.

٥٠٥ البقرة ١١٥ - ١١٧.

٥٠٦ الأعراف ٢٠٠.

٥٠٧ آل عمران ٣٨ - ٤١.

٥٠٨ يونس ٦٥.

٥٠٩ الفرقان ٢٠.

ظاهر بكرمه: قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} ٥١٠،
وقال تعالى: {إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ
كَرِيمٌ} ٥١١.

ظاهر بوحدانيته: قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ} ٥١٢، وقال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ
اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ٥١٣.

ظاهر بقهره: قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ٥١٤، وقال تعالى:
{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} ٥١٥.
ظاهر بكيده: قال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلُ
الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا} ٥١٦.

ظاهر بمكره: قال تعالى: {وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} ٥١٧، وقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} ٥١٨.

٥١٠ الحديد ١١.

٥١١ الحديد ١٨.

٥١٢ الإخلاص ، ١ - ٤ .

٥١٣ الحشر ٢٢ - ٢٤ .

٥١٤ ص ٦٥ .

٥١٥ غافر ١٦ .

٥١٦ الطارق ١٣ - ١٧ .

٥١٧ آل عمران ٥٤ .

٥١٨ الأنفال ٣٠ .

ظاهر بقوته: قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا إِلَّا إِن تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِنَمُودَ} ^{٥١٩}، وقال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} ^{٥٢٠}

ظاهر بقدرته: قال تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِّن تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} ^{٥٢١}، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} ^{٥٢٢}.

ظاهر بملكه: قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ^{٥٢٣}.

ظاهر بمغفرته: قال تعالى: {نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ^{٥٢٤}، وقال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ^{٥٢٥}.

ظاهر برحمته: قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

^{٥١٩} هود، ٦٦ - ٦٨.

^{٥٢٠} الشورى ١٩.

^{٥٢١} الأنعام ٦٥، ٦٦.

^{٥٢٢} الإسراء ٩٩.

^{٥٢٣} آل عمران، ٢٦، ٢٧.

^{٥٢٤} الحجر ٤٩.

^{٥٢٥} القصص ١٦.

الضَّالِّينَ} ^{٥٢٦}، وقال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} ^{٥٢٧}.

ظاهر بسلامه: قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ^{٥٢٨}، وقال تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ^{٥٢٩}.

ظاهر بعزته: قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} ^{٥٣٠}، وقال تعالى: {يَقُولُونَ لِنُنَّ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ^{٥٣١}.

ظاهر بهيئته: قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ^{٥٣٢}.

ظاهر بقهره: قال تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ^{٥٣٣}، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ^{٥٣٤}.

الظاهر بإهلاكه: قال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} ^{٥٣٥}، وقال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ^{٥٣٦}.

^{٥٢٦} الفاتحة ١ . ٧ .

^{٥٢٧} الحشر ٢٢ .

^{٥٢٨} الحشر ٢٣ .

^{٥٢٩} يونس ٢٥ .

^{٥٣٠} النساء ١٣٩ .

^{٥٣١} المنافقون ٨ .

^{٥٣٢} الحشر ٢٣ .

^{٥٣٣} الزمر ٤ .

^{٥٣٤} ص ٦٥ .

^{٥٣٥} الإسراء ١٧ .

الظاهر بالحق: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ٥٣٧، وقال تعالى: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} ٥٣٨.

آيات ظاهرة بعظمة الظاهر الذي اظهر الحياة والممات والبعث والبقاء بعد حساب عادل لا مكان للظلم فيه، وبعد فرصة كبيرة للمغفرة والرحمة وبعد أن بين الرشد من الغي، وبعد أن جعل من صفاته خليفة ليهدي للتي هي أحسن وأقوم بقول الحق وفعل الحق وذلك باتباع اليقين. ولأن الله هو الظاهر لذا فهو الذي لا يخفى عن كفيف وبصير وأصم وأبكم، وجماد ونبات وطائر ودابة وكل متحرك وساكن أي أنه بالمطلق لا يخفى عن خلق، ومع ذلك آمن من آمن وكفر من كفر والله الواحد القهار الظاهر الذي لا تخفى عليه خافية سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله.

٥٣٦ القصص ٨٨.

٥٣٧ البقرة ٢٦ - ٢٩.

٥٣٨ الأنعام ٦٢.

اللهم يا الظاهر على كل شيء وفي كل شيء ومظهراً لكل شيء أردته أجعل الحق ظاهراً فينا على الباطل والعدل على الظلم وعبادتك على الشرك بك وطاعتك فينا ظاهرة على معصيتك حتى نكون بذلك ظاهرين بخلافتك في أرضك مظهرين لشرعك وحكمك وكل صفاتك في أنفسنا.

اللهم يا الظاهر أظهرنا على آياتك العظام في الظاهر والباطن، واجعلنا من الناظرين إليها حتى نراك فيها، ومن المفكرين فيها حتى اليقين، ومن المتذكرين حتى تكون لنا العبر.

اللهم يا الظاهر اجعلنا في كل مواقيت الصلاة ظاهرين، وبالمعروف آمريين وعن المنكر ناهيين ومنتهين، واجعلنا بالصبر ظاهرين ولك طائعين عابدين.

الباطن

الْبَاطِنُ "الَّذِي لَا يُحَسُّ، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِآثَارِهِ وَأَفْعَالِهِ"^{٥٣٩}.

"الباطن الذي احتجب عن أبصار الناظرين لجلاله وحكمته وكمال عزته وعظمته"^{٥٤٠}

الحمد لله الذي يعلم البواطن والظواهر، المحتجب عن خلقه فلا تراه العيون ولا تدركه الظنون، المتواري في حجب عزته، الظاهر في جلال قدرته، فقد بطن حتى تقرد في وحدانيته، عنت له الوجوه ظاهراً وباطناً، وذلت له الرقاب قاهراً وقادراً، فهو الظاهر بنعمته، الباطن برحمته،

^{٥٣٩} الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ٩٨.

^{٥٤٠} أسماء الله الحسنى، ج ٣٢، ص ٤٣.

والظاهر بقدرته على كل شيء، والباطن العالم بحقيقة كل شيء، وهو الظاهر الذي لا يقهر، والباطن في كونه الأول، قد أظهر كل شيء، ورفع السماوات بغير عمد نراها، وبسط الأرض على الماء حيث كان عرشه جل جلاله، فسبحان الذي لا تحوم حوله العقول، فهو ظاهر فيما بطن، وباطن فيما نرى من آياته التي هو ظاهر فيها، والتي نستدل منها على أنه سبحانه وتعالى باطن ليس دونه شيء.

الباطن: هو "المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط به وهم وهو العالم بكل ما بطن"^{٥٤١}.

ولأنه جل جلاله واحد أحد فهو الباطن والظاهر، ولكن قد يتساءل البعض: كيف يكون سبحانه جل جلاله ظاهراً وباطناً في آنٍ معاً.

الباطن في أمره (كن) الذي به تظهر الآيات من مصادر باطنة كقوله للشيء (كن) فيكون، قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} ^{٥٤٢}.

إنه الباطن في قلوب المؤمنين معرفة تامة والظاهر خشية في أعمالهم وأقوالهم وسلوكياتهم وأفعالهم وحسناتهم وصلاتهم وزكاتهم وصدقاتهم.

وعليه لا ظاهر إلا من باطن ولا باطن إلا من ظاهر، وعلاقة قوية في دائرة الممكن تربط بين الطاقة الكامنة والساكنة وبين القوة الدافعة لخروجها، ولذا ترتبط الحواس بعضها ببعض كما ترتبط الأفكار في تحليلها للمواضيع وتفسيرها للنتائج، والعلاقة قد تكون قوية وقد تكون ضعيفة بين الأفكار كما هو الحال بين الحواس، وذلك كل حسب درجة سلامته، والحواس هي التي تنقل الأفكار وتترجمها وتحللها وتفسرها، وتنتقل الأفكار والمعلومات من الداخل (الباطن) إلى الخارج

^{٥٤١} لسان العرب المحيط، ج ١، ص ٢٢٨.

^{٥٤٢} البقرة ١١٧، ١١٨.

(الظاهر) أو من الخارج إلى الداخل، فالظاهر للحواس الخارجية ينتقل إلى الحواس الداخلية (إلى العقل والأحاسيس والمشاعر) وهكذا المتخيل بالعقل ينتقل إلى الحواس الخارجية فيحدث التبادل من أجل استكمال المعلومة أو الفكرة ويرتبط المشاهد والمحسوس بالمجرد كما يرتبط الجوهر بالصورة، ولذلك الموضوع مادة للعقل ومجال للخيال المبدع عندما يثرى بالتفكير الذي يظهر الإبداع من الداخل إلى الخارج (من العقل إلى الحواس) لتشاهد أو تمارس كأفعال من خلال العلاقات الاجتماعية والأدوار التي يمكن القيام بها، ولهذا يتم تحليل المحتوى والمضمون بطريقة التبادل في حالتنا الانتقال من المشاهد إلى المجرد، أو من المجرد إلى المشاهد، فإذا نظرنا إلى القمر على سبيل المثال بانتباه، وفكرنا في حركته، وجماله، وعلاقته بغيره من الكواكب الأخرى، فإن أفكارنا ستنقلنا إلى طرح السؤالين الآتيين:

كيف وجد؟ ومن الذي أوجده؟ ولا تتم الإجابة على هذين السؤالين إلا بمعرفة القوة التي تكمن وراء وجوده، وإذا بحثنا فيما وراء وجوده، فإن تفكيرنا يدفعنا إلى التعرف على الواجد الذي من ورائه، حيث وراء كل موجود واجد بالضرورة.

وعليه، لا ظاهر إلا من ورائه باطن أو علة وسبب، ولا علة وسبب إلا من ورائها باطن أو ظاهر. فالإيمان على سبيل المثال في بدايته الكمون (البطون) إلى أن يصبح قناعة، وفي نهايته الظهور عندما يصبح سلوكا وفعلا.

وعليه لا أقول علاقة قوية بين الظاهر والباطن بل أقول: ورأي كل ظاهر باطن ووراء كل باطن ظاهر وعلى المستخلفين فيها التبيين قبل إصدارهم للأحكام، فالظاهر ظاهرا في آياته العظام التي

لا تكون إن لم يكن هو من ورائها، وباطن في قدرته وقوته وتسييره بالحركة والزمان. لذا فالظاهر هو الذي لا يحجب قدرته حاجب ولا يواجه قوته قوة، إنه الظاهر بإحيائه والظاهر بإماتته والظاهر ببعثه والظاهر بحسابه وجزائه وعقابه. وهو الباطن في ذاته التي لا تبصرها الأبصار، أي انه الظاهر من حيث انه يدرك الأبصار، وباطن من حيث أنه لا تدركه الأبصار، مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

وَكَيْلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ
وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^{٥٤٣}.

فلا يكون الشيء ظاهراً لشيء آخر وباطناً له في الوقت نفسه، فهو إن كان كذلك فإن هذا
الشيء أو ذاك لا يخرج عن حالين لا ثالث لهما:

الأول: إما أن يكون ظاهراً أبداً وإن اختفى لعلّة طرأت عليه، وهذه العلة إما أن تكون من جوهره
أو من عرضه أو من مؤثر خارجي، فإن كانت العلة المؤثرة عليه من جوهره فهو فاسد بالطبع
لأن هذه العلة أدت إلى تغيير ماهيته، فهذا لا يصلح أن يكون إلهاً، وإن كانت العلة المؤثرة فيه
من أعراضه فكيف يطغى العرض على الجوهر الذي هو صادر عنه والعرض جزء منه، وهذا لا
يصلح أن يكون إلهاً أيضاً، وإن كانت العلة مؤثر خارجي، وهذا المؤثر مخلوق بإرادة الشيء
فكيف يؤثر المخلوق في الخالق وهذا لا يستقيم لعقل، وعلى هذا فالظاهر الذي يختفي لعلّة
طارئة هو مخلوق لخالقه بفعل قدرة الخالق لأمر أَرَادَهُ هو.

الثاني: إما أن يكون باطناً أبداً وإن ظهر لعلّة طرأت عليه، وإذا طرأت عليه فظهر فإنه
ينسحب عليه ما انسحب على الأول من التغيير والتبديل والتحول بفعل الجوهر أو العرض أو
المؤثر الخارجي، ولهذا نحكم عليه بما حكمنا على الأول لتبدل جوهره وأعراضه وصفاته وهذا
التبدل الذي يطرأ على ماهية الأشياء هو الدليل على أنها خلقت بفعل خالق وبحكمته لأمر أَرَادَهُ
فيجري عليها ما يجري على بقية المخلوقات الخاضعة لنظام الخلق في هذا الكون صغيرها
وكبيرها وظاهرها وباطنها وجليلها ودقيقها وعظيمها وصغيرها على حدٍ سواء، فالأشياء جميعها
لا تكون ظاهرة من وجه وباطنة من وجه آخر، فهي إما أن تكون ظاهرة حقيقة ذات جواهر
وأعراض وأبعاد، وإما أن تكون باطنة حقيقة ذات جواهر وأعراض وأبعاد وهذه هي المخلوقات

المعلومة التي وجدت بقول الكينونة {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}°٤٤ لما أراد الله تعالى ذلك، ولكن الله سبحانه ظاهر لنا بالاستدلال، فإذا قام الدليل وظهرت الحجة انقطع الظن والاحتمال، واستدلالات الخلق والآيات قطعت الظن والشك بالبرهان واليقين لوجود البرهان الدامغ واليقين الثابت في هذا الكون وفي الآفاق وفي أنفسنا ما ظهر منها وما بطن.

ولكن كونه باطنا جل شأنه فإن دليله يختلف عن دليل ظهوره الذي يعلم بالعقل، ودليل كونه باطنا فإنما بعيد كل البعد عن الحواس، وإنما يعلم من إدراكات الحواس لا من الحواس نفسها وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع للظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرك بالحواس، وهو الظاهر العالي على كل شيء الغالب له، والباطن الذي بطن كل شيء، أي علم باطنه فظهر له الباطن وليس ذلك عدولا عن صفة الظاهر وإنما هي من تمام الكمال للذات الإلهية التي لا تنفصل عنها، وهو الباطن غير مدرك، فإن بطونه تعالى عن إدراك العقول كبطونه عن إدراك الحواس لأن حقيقة الذات غير مدركة لا عقلاً ولا حساً، وإنما يعلم عن طريق العقل باستدلالات خارجية تؤدي إلى إدراك الباطن، كما يعلم بإدراكات الحواس لا عن طريق الحواس نفسها، لذلك فإن أدلة إثبات الصفات لا تخضع لقوانين المادة المشاهدة لا حساً ولا عقلاً، فأنه هو الباطن فما اختفى في شيء ولا تغيره الدهور ولا تعجزه الأمور ولا يدركه الزمان ولا يحويه المكان ولا يشغله شأن عن شأن، ذلكم الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى والكلمة العليا أنزل الكتب بالحق وأرسل الرسل بالصدق ظاهر على كل شيء باطن في كل شيء، وبطونه يدل على القرب والمصاحبة قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمَ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}°٤٥.

فإنه سبحانه وتعالى بكونه الباطن العليم فهو لا يخفى عليه شيء من أحوال الإنسان من خفياته حتى وإن استتر عن الأعين سواء أكانت تلك الخفيات من صالح الأعمال أم من غير ذلك، فهو

°٤٤ - يس ٨٢

°٤٥ - ق ١٦

سبحانه باطن بقره يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وما يحدث الإنسان به قلبه ونفسه ولا يخفى عليه مكنونات السرائر أو الضمائر فالله تعالى أقرب إلى الإنسان من نفسه في الباطن وضرب حبل الوريد مثلا "لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء، وحبل الوريد عرق العنق، وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين، يتفرق في البدن"^{٥٤٦} وهذا التعبير يحمل على باب العلم بكل صغيرة وكبيرة، قريبة كانت أم بعيدة لأنه محيط بكل شيء ما ظهر وما بطن والعالم بما ظهر وما بطن، وهو ظاهر بحججه الساطعة وبراهينه الواضحة وشواهد الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن أبصار الخلق فلا يدرك ولا تستوي عليه الكيفية وهو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، الأول والآخر، إنه الظاهر الحكيم والباطن العليم، وهو الأول ببره بالعباد إذ عرفهم توحيده والآخر بجوده إذ عرفهم طريق التوبة عما جنت أيديهم والظاهر بتوفيقه إذ وفقهم للسجود له والباطن بستره إذا عصوا يستر عليهم، وهو الأول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب، وهو الباطن الذي احتجب عن الأبصار عزة وجلالة ومهابة، وهو الباطن العليم الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} ^{٥٤٧} عظمة الله الظاهرة لا يمكن أن تدركها الأبصار القاصرة، فالكمال يرى كل شيء ولا يراه شيء، والقصور يراه كل كمال، ولذا فالقاصر لا يصلح حاله فهو في حاجة للكمال الذي يمتلك القوة والقدرة الإصلاحية، سبحانه الله الظاهر في كل حين والباطن في كل شيء صغير أو كبير، فلا تظهر الأشياء إلا به ولا تبطن إلا به سبحانه ما أعظم شأنه.

^{٥٤٦} - تفسير البغوي، ج ٧، ص ٣٥٨

^{٥٤٧} الأعراف ١٤٣.

إنه الباطن بما يستر الخلق حتى أن الكافر ينال هذا الستر للدلالة على أنه باطن يستر خلقه مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وعاصيهم إلا من أبى، أي من أبى ورفض أن يستر نفسه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"^{٥٤٨} فالله باطن ستر خلقه عندما يرتكبون المعاصي ليفسح لهم المجال في التوبة ويكفر عنهم سيئاتهم، وهو باطن ستر يستر خلقه باللفظ بهم عندما تنزل بهم النوازل ولكنه ينفذ أمراً قضاءه بعالم غيبه ويخفف من المصيبة بالستر واللفظ فينجيهم إلا من جرى عليه القلم بالقضاء والقدر، فهو الحكم العدل والقضاء الحق، وما هذا إلا صفة الباطن العليم والعالم الحليم، ومن أخذ من هذه الصفات نصيبه نسبياً إلى المطلق فهو الخليفة لا محالة.

فحقيقة الباطن لا تحوم العقول حول إدراك كنهه، وليس يعرف الله إلا الله وتلك الباطنية سواء في الدنيا أو الآخرة وذلك فإن كونه باطناً بكنهه حقيقته لا ينافي كونه مرئياً في الآخرة من حيث صفاته، وهو الباطن الذي لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر أو الخفي كامل العلم بكل شيء جليله وخفيه وجليله ودقيقه وفي هذا المقام معان أخرى لأن صفات الله تعالى لا ينفصل بعضها عن بعض، وبعضها يفسر بعضاً، وعندما نتكلم عن صفة من صفاته جل شأنه لا بد أن نخرج على بعض من الصفات الأخرى لنوضح بها تلك الصفة التي نحن بصدد معرفتها، فإن كان كلام الله يفسر بعضه بعضاً، فكذلك صفات الله تفسر بعضها بعضاً، وعندما نتكلم عن صفة الباطن إذاً هو الأول الذي ابتدأت منه الأسباب بإرادته والآخر الذي تنتهي إليه المسببات بأمره فإذا كانت موجودات الكون المتكونة بعضها من بعض مبدؤها من الله بفعل الكينونة والقوة والقدرة والإرادة، فلا شك أن منتهاها إلى حيث ابتدأت بالفعل نفسه ومن هنا نستطيع القول أن بعض صفة الباطن تكمن في هذه الصفات، وهذا يعني أن الله تعالت صفاته وتقدست أسماؤه منه ابتدأت الأسباب وإليه تنتهي المسببات هو منزّه عن أن تدركه الأبصار وإن صفته الظاهر

فهو الغالب على كل شيء والباطن أي العالم بباطن كل شيء و الظاهر من ظهر وغلب والباطن من بطنه إذا علم باطنه، قال تعالى: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ^{٥٤٩} . فقله تعالى: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) بناء على هذه الآية الكريمة أتساءل: من الذي يملك السماوات والأرض.

بطبيعة الحال يملكهما من خلقهما من لا شيء.

ولأن السماوات والأرض ظاهرات للمشاهدة، فهل يمكن أن يكونا لو لم يكن من ورائهما ظاهر أعظم منهما.

ثم جاء في قوله (يحيي ويميت) وهنا ينبغي أن نستوقف قليلا ونتساءل:

هل الحياة والموت ظاهران أم باطنان.، وهل الإحياء والإماتة يشاهدان أم يلحظان.

الحياة والموت ظاهران بالقوة إثباتا، أي أننا نعيشهما ونحن من الشاهدين (مؤمنين أو كفرة) (مهتدين أو ضالين) فالكل يؤمن بذلك إثباتا. ولكن لا الحياة ولا الموت يشاهدان بالرغم من وجودهما وهما في حالة تزايد كل يوم، أي الزيادة في عدد المواليد والزيادة في عدد الأموات. وذلك لأن المشاهدة بالعينين، والعيون لا يمكن أن تريان الحياة ولا الموت إنهما باطنان، فقط إنهما يريان الحي والميت، ولذا فالفرق كبير بين الحياة التي لا يمكن مشاهدتها والحي الذي يمكن مشاهدته وملامسته حسيًّا على المستوى الخلقى، وفي ذلك يكون الاستثناء للحي الباقي الذي يرانا ولا نراه فهو الذي لا تدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار، مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}°°.

وللإجابة على الجزء الثاني من السؤال: هل الإحياء والإماتة يشاهدان أم يلحظان. أقول: الإحياء والإماتة لا يشاهدان وذلك لتجردهما من المادة، ولكن لتجسدهما في الشيتين فإن كل منهما يلحظ ولا يشاهد، فالإحياء والإماتة فعلين يحدثان بقوة الفاعل المطلق، الذي يلحظ ولا يشاهد، ولكن بأفعاله يدرك وبآياته يدرك، حتى يتم التبين بالمفعول فيه إحياء أو إماتة. وعليه مع أن الحياة والموت ظاهران إثباتا إلا إنهما لا يشاهدان ولهذا ليس كل ظاهر قابل للمشاهدة ولنا في ما سبق دليل وبرهان بالحجة. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}°°، فإذا تساءل البعض:

كيف يمكن أن يكون الدين ظاهرا وهو لا يشاهد؟ أقول: أي شيء يشاهد يكون في دائرة البصر بالعينين، ولأن الدين لا يُرى بالعينين لأنه دين، والدين عبادة، فالعبادة لا تُرى في دائرة النسبية البشرية، التي فيها يُرى المتعبد ولا تُرى عبادته، ولكن بمشاهدته وهو يتعبد قولاً وسلوكاً تلحظ

°° الأنعام ١٠٢، ١٠٣.

°° التوبة ٣٣.

أفعاله حتى يتم الحكم عليه بأنه مسلم على رسالة موسى أو عيسى عليهما الصلاة والسلام أو أنه على الرسالة الخاتمة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه يقول: "اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر"^{٥٥٢} وفيه دليل على أن الله سبحانه باطن بعلمه قريب من عباده، وهو بهذا الباطن ليس شيء أقرب إلى مخلوقاته منه عز وجل فليس شيء دونه في القرب والعلم وهو يحول بين المرء وقلبه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^{٥٥٣} فالذين صدّقوا بالحق وأذعنوا له يعلمون أن الله تعالى قريب منهم رقيب عليهم فهو باطن منهم بعلمه وقربه وقدرته، لذلك جاء الأمر بإجابة الله من القلب لما يأمرهم به، وهذه الإجابة لله سبحانه تكون بالأجساد عبادة، وبالأرواح تعلقا به وبالعقول تأملا في آياته وبالقلوب إذعانا وخضوعا له، ومن هذا نعلم علم اليقين أن الله تعالى قائم على قلوب البشر كونه، يقبلها كيف يشاء فيحول بين الإنسان وقلبه، فإذا أقبل الإنسان على التردى والهوى، فهو ينقذه من المهالك والفتن، فالله تعالى باطن في آثار قدرته، وباطن فيما يتعلق بحياة البشر وشؤونهم المختلفة، ويعرّف الخلق بربهم الحق الذي عليهم أن يعبدوه، فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه، وهو الرزاق الذي لا يترك أحدا من رزقه. وهو الذي يطلعهم على آثار قدرته وحكمته في خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوار وآماد محكمة تدل على ظهور الله تعالى عليها وأنه باطن بإرادته عليها ماض حكمه الغالب فيها، والباطن العالم ببواطن الأشياء وأنه الغالب الذي

^{٥٥٢} - مسند أحمد، ج ١٨، ص ١٤٥

^{٥٥٣} - الأنفال ٢٤

يغلب كل شيء ولا يغلب عليه فيتصرف في المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء إذ ليس فوقه أحد يمنعه وليس دونه أحد يفوته، والعالم ببواطن الأشياء فهو الملجأ والمنجى يلتجئ إليه كل ملتجئ لا ملجأ ولا منجى منه دونه، فهو الباطن الذي لا يدرك بالحواس وإنما بالنوايا والاعتقاد والأفكار مما لم يعبر عنها بقول أو فعل أو شكل أو صورة أو تشبيه أو تمثيل، ويتبين ذلك من قوله تعالى: {لَنْ نَحْنُ خَلْقَانَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنِتَاقًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} ^{٥٥} فالله سبحانه يضرب مثلا بقربه ولولا قربه لم يكن باطنا، وكونه باطنا في ابتدائه خلق البشر بعناية إلهية فلا بد أن يكون خفيا، وكونه خفيا فهو ظاهر القدرة بإرادة مطلقة، وهذه الإرادة توضح لنا معنى كونه باطنا، فمن الذي يرعى الإنسان مذ كان نطفة ثم يتدرج طورا بعد طور ثم يكتمل في بطن أمه، فلا بد أن يكون هناك راعٍ يرعاه ويتعهده في أطواره هذه حتى يكون في أحسن تقويم إلى أجل مسمى، فالله المحيط بكل شيء هو محيط أيضا بهذه النطفة التي قدر خلقها ورعاها حماية وحنانا وعطفا ورحمة، ومحيط أيضا بمن يحيط بها، ومحيط بالمحيط الذي يحيط بها إلى ما لا نهاية من الإحاطة بكل ما خلق، وهذا الأمر ينسحب على كل شيء من أصغر ما هو مخلوق في هذا الكون من الذرة والنواة والإلكترون والنيوترون، إلى أعظم الكواكب والنجوم والأجرام السماوية، وهذا أوضح دليل فيما نرى من الرأي على أنه باطن في كل شيء و محيط به، ومحفوظ برعايته و مقهور بإرادته وموجود بحكمته جل شأنه.

الباطن هو الكامن ما يجعله غير خاضع للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل وتفسير ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحا، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الباطن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الباطن يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله غير بين للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابل للامتداد والحركة ويتجسد في السلوك والفعل بالنسبة لما يتعلق بالحياة البشرية.

العلاقة بين ما هو باطن وما هو ظاهر كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتتمدد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تخرج النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تنمر.

وعليه، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة. وكثيرا ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سويا، أو مثالا أو فيه القدوة، ولكنه في الواقع، قد يكون غير ذلك، فالابن، أو الابنة كثيرا ما يكونا أمام أسرتهما، وخاصة الوالدين، على خلق والتزام وأدب، ولكنهما في حقيقة الأمر قد يكونا غير ذلك من ورائهما، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر

الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرفاً مع الاتجاهات السلبية، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضب هذا الإدعاء، مع أنه الحقيقة، ولذلك الحكم بالظاهر على الظاهر قد لا يؤدي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكلاً وصورة، وقد يكون قولاً أو سلوكاً، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصي الحقائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته، قد لا يؤدي إلى نتائج علمية، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها، والظاهر قد يكون مشاهداً، وقد يكون محسوساً (لموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي بالمس يتم التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة، ولكن الذي يود أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلى مريض مصفر الوجه، هل يتوجهوا هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفرار الظاهر. أم إلى البحث عما يكمن وراءه من علل، وأسباب. لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشراً إلى البحث عن كامن، لأن الاصفرار مسبب، وبما أنه مسبب، إذن لا بد وأن تكون له أسباب، ومسببين له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر الله في الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدين والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلى الهلاك، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له رأى، أو حتى وجهة نظر في ذلك.

وعود على بدءٍ للآيات التي وردت، فنحن نحترث ونبذر وهو بذاته يصير زرعاً كلما توفرت له اشتراطات النمو، فنقول نبت الزرع تجوّراً ونلقي بالفاعلية على الزرع في حد ذاته، وفي الآيات

مفارقة عجيبة للمتفكرين والمتأملين كيف أن الله سبحانه ذكر خلق الإنسان وإنبات الزرع ومع هذا فلا نجد أحدا ينسب فعل إنبات الولد إلى المولود نفسه قياسا على إنبات الزرع، ولو قال قائل إن الله تعالى استعمل هذه الصيغة كثيرا في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ} ^{٥٥} فأخرج وآزر واستغلظ كل هذه الأفعال فاعلها الزرع، فنقول له هذا من باب إسناد الفعل للمفعول لغير العاقل، وأما مع العاقل فلم ترد هذه الصيغة على الإطلاق، وإنما كانت الصيغة (وهبنا) بإسناد الفعل إلى الفاعل الحقيقي وليس إلى الفاعل مجازا لغير العاقلين، فقد أخبرنا تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} ^{٥٦}، وعن موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} ^{٥٧}، وعن زكريا عليه الصلاة والسلام بقوله: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} ^{٥٨}، وعن داوود عليه الصلاة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ^{٥٩}، وعن أيوب عليه الصلاة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} ^{٦٠}. فأنت ترى أنه في هذه المواضع جميعها قد أسند الفعل إلى فاعله الحقيقي وهو الباطن جل شأنه واستخدم لفظة فيها من اللطف والوداعة والرقّة والرحمة والكرم ما لا يخطر على قلب بشر، ومهما اجتهد مجتهد على أن يأتي بلفظة تحل محلها وتؤدي المعنى المقصود لكان من المقصرين، فإنبات الزرع لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا ولا بفعل نفسه، ولو قال غير المؤمنين هو ينبت بنفسه (وهو باطل) فما قولهم في سلامته عن الآفات التي تصيبه، فيفسد قبل اشتداد الحب وقبل انعقاده، أو

^{٥٥} - الفتح ٢٩

^{٥٦} - الأنعام ٨٤

^{٥٧} - مريم ٥٣

^{٥٨} - الأنبياء ٩٠

^{٥٩} - ص ٣٠

^{٦٠} - ص ٤٣

قبل اشتداده وقبل ظهور الحب فيه، فهل يحفظونه منها أو يدفعونها عنه، أو هذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات إن قالوا إنه ينبت لوحده، ولا يشك أحد أن دفع هذه الآفات لا يكون إلا بإذن الله تعالى، وحفظه عنها لا يكون إلا بقدرته. فهو إذا باطن حقيقة ظاهر قدرة، فلا يدرك العقل سر تلك الحقيقة الباطنة إلا من خلال التفكير والتأمل في آيات الخلق وتدبرها، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} ^{٥٦١} فهي التي تظهر حقيقة وجود باطن تولى شأنها وأكمل خلقها ويدخل في ذلك الزمان والمكان وما بينهما. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَمُ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ^{٥٦٢} إن البصائر النافذة التي تتأمل فيما أقام الله من الأدلة والبراهين الواضحة على توحيده وكمال قدرته وعلمه وإحاطته بجميع مخلوقاته، تقرر دون أدنى شك بما نقول من صفة الباطن عز وجل فقد جاءت هذه الآيات البيِّنات دلائل يتبصر فيها البشرُ الحججَ الكونية والبراهين العقلية، فهي تثبت عقائد الحق اليقينية والباطنية الغيبية التي عليها مدار الدنيا والآخرة، وهذه البراهين والأدلة العقلية واليقينية هي جامعة مانعة تثبت حقيقة كونه باطنا سبحانه لما فيها من الشمول. فهي جامعة من حيث تحوي الزمان والمكان، ومانعة لعدم وجود غيرهما في الوجود ولا يخرج الخلق عن هذين الحيزين وقد ذكر جميع آياته العظمى في هذا الكون العجيب من أدنى مخلوقاته المتناهية في صغر حجمها

^{٥٦١} النساء ٨٢.

^{٥٦٢} - الأنعام ٩٥ - ٩٩

مع دقة صنعها، في فلق الحب والنوى وما هو دونه وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي وهذا ينسحب على الأحياء الدقيقة من البكتريا والجراثيم والميكروبات والفيروسات والخلايا الشعرية وما دون ذلك دقة في الخلق إعجازاً، إلى الشمس والقمر والنجوم والكواكب التي لا يحيط بحجمها عقل، وحتى هذه الأفلاك السيارة إنما تشغل مكاناً هذا الذي نسميه الفضاء فهو حيز مكاني وهذا هو الحيز الأول الذي يشغل المكان، وأما الإصباح والليل وإفراد الشمس والقمر وتخصيصهما بالحسبان فقد شغل الحيز الزماني ولا خلق خارج هذين الحيزين، فهذان الشرطان لوجوب وجود الخلق، وقد تنزه الخالق عن المخلوق، فهو جل شأنه لا مكاناً يحده ولا زماناً يعده. فهو باطن في آيات خلقه وقدرته، وبطونه بمعنى القرب المجازي ونقصد به الرعاية والعناية الإلهية، ولو لم يكن باطنا كما وصف نفسه تعالى لاختلفت موازن الكون، وهذا معنى أن صفات الله تعالى هي صفات لازمة بالضرورة. إن دلائل القدرة على الخلق والبعث والنشور، متوافرة متنوعة في آيات الله العظام، فهو وحده الذي يشق الحب ويخرج منه النبات، ويشق النوى ويخرج منه الشجر، انه هو الذي يخرج الحي من الميت، كالإنسان من التراب، والميت من الحي، كاللبن من الحيوان، ولقد اقترنت جملة فلق الحب والنوى بفلق الإصباح اقتراناً يدل على دورة الحياة ووجود الضوء والظلام، حيث أن الضوء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو النبات، فالحب والنوى بعد أن يفلق نباتاً إنما يحتاج إلى غذاء وهذا الغذاء يتكون من عناصر الأرض، ومن ضوء الشمس، فجزور النبات تتغذى من الأرض، وأغصانه وأوراقه تتغذى مما يتم امتصاصه من إذا من الأرض ومن حرارة الشمس التي يؤذن بها فلق الإصباح وهذه تحتاج إلى قدرة، فلا يقدر إلا الحي مطلقاً أن يجهز الكائن الحي نسبياً بالقدرة على إحالة البذور الميتة إلى خلايا حية، أو تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة وهذا مظهر من مظاهر قدرته ومن مظاهر قربه ورعايته وعنايته وإحاطته و بطونه جل جلاله.

إن جميع العلوم لا تستطيع أن تقدم لنا تفسيراً مقنعاً لما يحدث في هذا الوجود من حياة الأحياء دون استثناء، سواء على المستوى الإنساني الذي أقر العلماء بأن جسم الإنسان هو أصغر

مختبر من حيث الحجم والتكوين وأعظمها على الإطلاق من حيث الدقة والإنتاج والنوعية، ذلك أن علم الصيدلة مثلا يحاول أن يقلد في الصناعات الدوائية ما ينتجه جسم الإنسان من مضادات حيوية تقضي على الجراثيم والبكتريا الضارة دون البكتريا النافعة وهذا مما يذهل العقل، وأما بقية الأحياء كالنبات والأحياء الدقيقة والأحياء البحرية، فكلما وقف العلم على نوع جديد منها يخرج بمصطلح التطور (تطور النبات، وتطور البكتريا، وتطور الجراثيم)، وأما حقيقة الأمر فما هي إلا أنواع اكتشفت مؤخرا أو آخر ما تمّ اكتشافه فيدعونه تطورا لهذا النوع من الأحياء أو ذاك، وما خطر ببالهم أن الله سبحانه كل يوم هو في شأن، ولو كان ثمة تطور لهذه الأحياء، لكان الإنسان أولى الأحياء بهذا التطور لأنه العاقل الوحيد منها، وإن قال (دارون) بمثل هذا فإن هذه النظرية دُحضت وثبت بطلانها علميا وتم رفضها إنسانيا كما سبق وأن بينا سابقا، إذ كيف يقبل إنسان عاقل أن ينتمي إلى فصيلة القرود والخنازير والله خلقه في أحسن تقويم، ولكن الذي نعتقد ونقر به أن تفكير بعض البشر قد ينحط إلى مستوى التفكير القردى والخنزيرى كما هو حال الذين لم يؤمنوا من بني إسرائيل بما جاء به من الأنبياء والمرسلين، الذين جاءوهم بالمعجزات التي طلبوها شريطة لإيمانهم، ثم بعد أن رأوها بأمهات أعينهم كفروا فهؤلاء ومن على شاكلتهم هم قرده وخنازير تشبيها بأسباب انحطاط تفكيرهم في أسفل السافلين، قال تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} ٥٦٣ فاختلط الأمر على (دارون) وعلى أتباعه وقالوا كلمة الكفر، وأما القول في هذه المخلوقات الدقيقة الصغيرة المتناهية في الحجم مثل الذرة وأجزائها والتي تتكون منها جميع المواد، فلا نستطيع أن نفسر حركتها بأنها حركة تلقائية ذاتية، فإذا كانت الشمس تجري لمستقر لها وهو تعبير بالجزء عن الكل أي أن الشمس هي واحد من هذه الكواكب السابحة في الفضاء وهي تتكون من كتل عظيمة وكل كتلة تتكون من أجزاء إلى أن تصغر في حجمها إلى الذرة فما دون ذلك ومن ثمّ حدوث هذه الانفجارات

الشمسية بفعل هذه الأجزاء الدقيقة التي لا تكاد تُرى حتى بالمجهر وتمتلك هذه القوة الهائلة وهي تتحرك ضمن أفلاك ومدارات لها عملها الدقيق في مكانها المحدد والوقت المعلوم الذي يؤذن لها فيه أن تتحول إلى طاقة حفاظا على حرارة الشمس الثابتة وهي ستة آلاف درجة مئوية لا تزيد ولا تنقص منذ أن خلقها الله، فإذا انفجرت هذه الذرات وتحولت إلى طاقة من الحرارة والضوء فما الذي يحل محلها ومن أين يأتي لاستمرار حياة الشمس إن جاز لنا التعبير، والذي نذهب إليه ونعتقده لا بالتجربة ولا بالبرهان، وإنما بالقياس على أنواع الحياة الأخرى للمخلوقات أن هذه الذرات تنمو وتتكاثر كما تنمو البكتريا بأعداد مذهلة وبوقت سريع مع تغير الصفات الفيزيائية لتلك الحياة بما يناسب جوهرها، وخواصها الفيزيائية وطبيعة الخلق والتكوين تجعلها تعيش وتنمو وتتكاثر في هذه البيئة الطبيعية بالنسبة لها، لتؤدي العمل الذي وجدت من أجله، وربما يقول قائل: كيف يستقيم هذا لعقل. فنقول إنما أبواب الحكم في الشريعة أربعة، الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ويكفي واحد منها لإصدار الحكم إذا قام الدليل، فأنواع الحياة للأحياء المختلفة الأنواع المعروفة لنا، واختلافها بالصفات الفيزيائية قائم، وإلى حد ما بالصفات الكيميائية كالإنسان والنبات والأسماك وبعض الزواحف على الأقل في عملية التنفس، فإن قال هذه أحياء فالإجابة تأتي من قوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} ^{٥٦٤} فالذي يسبح لا بد أنه حي ولكن ليس بالضرورة أن تكون حياة كالحياة التي نألفها، ومع أنها تسبح ظاهرا بالنسبة لخالقها، إلا أن تسبيحها بالنسبة للمخلوق باطن حيث لا ظاهر منها مشاهد أو ملاحظ، وقوله تعالى (وإن من شيء) فمن في اللغة تشمل العاقل وغير العقل، وعلى هذا نعتقد صحة ما نقول نظريا بالقياس إلى أن يأتي الوقت الذي تتوفر فيه الوسائل والأدوات المادية لإثبات ذلك بالتجربة العلمية. أما الاعتماد على فكرة المصادفة في هذا المجال فهي لا تكفي لأن تقوم دليلا على سر الحياة، فكيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة. فمما لاشك فيه أن النظرية

التي تدّعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي، بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات أو الصدف، فهي نظرية لا يمكن الأخذ بها، لأنها لا تقوم على أساس من منطق يقنع العقل، ولكن الذي نقول به أن الله سبحانه وتعالى باطن القدرة والإرادة والمشية، نتحقق من صفاته بتدبير خلقه وكل مسخر لما خلق له، وهذه المخلوقات تثبت أن الله حق ظاهر، فهو ظاهر بحسب النظر إلى وجود الحق، وهو باطن بحسب النظر إلى وجود الخلق، فظاهر الحق باطن الخلق وباطن الخلق ظاهر الحق، ومهما تضاءلت الأمثلة التي نضربها من المخلوقات الهينة البسيطة التي لا تكاد تقع العين عليها إما لضعفها أو لصغر حجمها للدلالة على كون الله باطن في هذه الآيات من الخلق فإننا لا ننظر إلى أنفسها وأشكالها ومناظرها ومحلها ولا إلى أقدارها وقيمها ولا إلى وقعها في نفوس وعقول الناس، وإنما ننظر لما وضع الله عز وجل فيها من دقة الخلق وقدرة التكوين للدلالة على أنه باطن، وعلى إتقان صنعه، وعلى عجب تدبيره، وعلى لطيف حكمته، وفيما استخزنها من عجائب المعارف، وأودعها من غوامض الإحساس، وسخر لها من عظام المنافع والمرافق، ودل بها على أن الذي ألبسها ذلك التدبير، وأودعها تلك الحكم، التي يجب أن نفكر فيها؛ ونعتبر بها إنما هو الباريء المصور الذي برءها وصورها وكونها، فإذا نظرنا إلى هذه العجائب التي تتجلى في الخلق علمنا أن الله عز وجل عندها وفيها ومعها وفوقها ومحيط بها خارج المادة والزمان والمكان، فقد غشي ظاهرها بالبرهان، وعم باطنها بالحكمة، وشوّق للنظر فيها والاعتبار بها؛ ليعلم كل ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سدى؛ ولم يترك الصور هملاً؛ وليعلموا أن الله عز وجل لم يدع شيئاً غفلاً غير موسوم، ونثراً غير منظوم، وسدى غير محفوظ؛ وأنه لا يخطئه من عجب تقديره، ولا يعطله من جمال تدبيره، ولا من زينة الحكمة وجلال قدرة البرهان، ثم كان هذا الإعجاز متساوياً بين كبيرها وصغيرها وجليلها ودقيقها وعظيمها وهينها من البعوضة فما دونها إلى الكواكب فما فوقها وهو دليل على أنه باطن بقدرته يتجلى في آياته ومخلوقاته التي نعلمها ومخلوقات لا نعلمها فهو

سبحانه يخلق ما لا نعلم {يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ^{٥٦٥}. وهنا يتجه الكلام إلى وجوه مختلفة للدلالة على قدرته تعالى بأنه باطن، أحدها أن تكون هناك ضروب من الخلق لا يعلم مكانها كثير من الناس، ولا بد أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه ومعنى وجوده ولماذا خلق، أو يعلمه صفوة جنود الله وملائكته، أو تعرفه الأنبياء، أو يعرفه بعض الناس لتخصصهم في مجال معين، وقد يكون الله عز وجل إنما عنى بذلك أنه خلق أسبابا، ووهب عللا، وجعل ذلك رافدا لما يظهر لنا من نظام الخلق العجيب وكل ما نسوق من أدلة سواء أكانت من النصوص أم من الاستنتاج أم التحليل فكلها تدل أن الله باطن في جميع صفاته، ومن حكمته أنه باطن ولولا كونه باطنا فكيف نفهم أن الله تعالى واحد لا شريك له و فرد لا مثل له و صمد لا ند له وأزلي قائم، أبدي دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته، قيوم لا يفنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، منزه عن الجسمية ليس كمثله شيء، وهو فوق كل شيء، وفوقيته لا تزيده بعداً عن عبادته، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، وهو معنا أينما كنا، لا يشابهه قربه قرب الأجسام، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام، منزه عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان، حي قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملكوت والعزة والجبروت خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصى مقدراته، ولا تنتهى معلوماته، عالم بكل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر، مرید للكائنات، و مدبر للحوادث، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، من خير أو شر ونفع أو ضر، إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدئ المعيد الفعّال لما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا، ولو اجتمعوا لصنع ذبابة لفشلوا

مصادقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} ^{٥٦٦} سبحانه إنه هو السميع البصير المتكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه، وكل ما سواه سبحانه وتعالى، فهو حادث أوجده بقدرته، وما من حركة ولا سكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على صفة من صفاته وقد تضمنتها صفة الباطن حكمة وإرادة ومشیئة وقدرة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} ^{٥٦٧}، وهذا التقدير الذي قدره الله تعالى في هذا الكون الذي هو باطن ظاهر ظاهر فيه، قدر أيضا للإنسان عقلا يدرك هذا التقدير، والعقل جوهر مضيء في ذات الإنسان خلقه الله عز وجل في الدماغ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة. وهذا العقل ينقسم إلى قسمين:

قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما.

فأما الأول: فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء.

وأما الثاني: فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وبعبارة أخرى هو ما يتمثل بالذكاء الفطري والذكاء المكتسب، فالذكاء الفطري أو العقل الفطري يكاد يكون متساويا لدى جميع العقلاء إلا ما ندر كالأنبياء المكلفين ومن دونهم الذين يمثلون أعلى درجات العبقرية ومن هؤلاء يكون الخليفة الذي يدرك بواطن الأمور وخفاياها ومكامنها التي غابت عن أمثاله من الخلق، وبهذا يكون قد اتصف بصفة الباطن النسبية، وأما الذكاء المكتسب فهو الذي تحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع والخبرة، وباعتبار هذه الحالة فإن الإنسان الطاعن في السن يكون أكمل عقلاً وأتم دراية

^{٥٦٦} الحج ٧٣ - ٧٦.

^{٥٦٧} - الفرقان ١ - ٢.

ولهذا نقول أصبح فلان شيخاً، لأن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة بتجاربه وتعلمه من ميادين الحياة، ولهذا قيل: من بيضت الحوادث سواد لمته، وأبليت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى بكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأقضيته كان جديراً برزانه العقل ورجاحة الدراية. وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانه عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب، وبهذا يكون بالنسبة لغيره عليم ببواطن الأمور أو توقع ما يمكن أن يحدث في قضية معينة قبل حدوثها، ووفق هذه الصفات الباطنة يختار الله سبحانه وتعالى خليفته في الأرض، فتدركه من الله عناية، ويحفه رعاية، فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفتنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، فما بالك عندما يكون مكتمل العقل والسن والتجربة، ثم يمنحه الله تعالى هذه الصفات فلا شك أنه هو خليفة الله في أرضه، وإليه أوكل إعمار الأرض وإقامة العدل وإحقاق الحق وجميع ما أمر الله به من خير، فالخليفة يدرك ذلك بباطنه ويعلم أنه مكلف مأمور.

إن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله بقضاء الله وقدره وقربه وإحاطته وظهوره وبطونه، فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تظن بعوضة ولا تسقط من ورقة إلا وهو يعلمها، وهي بقضائه وقدره وإرادته ومشئته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. و أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره، فهو كائن لا محالة، كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله من خير لأحد فلا يحصل إلا بسبب، وهذا السبب إما أن يكون عن طريق الدعاء، وإما أن يسخر الله تعالى أحداً من خلقه يجعله سبباً في هذا الخير بما كان في قدر الله وقضائه، وهذا واضح جلي في أن الله تعالى قريب من أنبيائه وأوليائه وخلفائه خاصة، ومن عباده عامة فعندما نقف على قصة مريم ورعايته لها وإحاطته بها، يدل على أنه باطن، فقد أمرها أن تأخذ

بالأسباب فقال تعالى: { فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا }^{٥٦٨}، لقد ذهبت بحملها إلى مكان بعيد عن الناس لأنه المكان الذي أمرت أن تذهب إليه ويوجد فيه النخل وهو المكان الشرقي البعيد وكان مأهولا من بعض المتعبدين، فألجأها ألم الولادة والطلق إلى جذع النخلة لتستند إليه وتستتر به، وتمنت لو أنها كانت ماتت قبل هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت، حياء من الناس وخوفا من لومهم، وكان شيئا منسيا، لان الناس لا يعرفون الحقائق ولا يعذرون فناداها عيسى عليه الصلاة والسلام من تحتها، حيث انطقه الله، لا تحزني بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومن الألم، ومما يقوله الناس، فقد جعل ربك تحتك إنسانا شريفا رفيع القدر والشأن وهزي النخلة يتساقط عليك الرطب الطيب، والرطب فيه الغذاء الكافي الذي لا يحتاج الإنسان معه إلى أي مادة غذائية أخرى لاستمرار حياته حيث يحتوي الرطب على جميع العناصر الغذائية التي يتطلبها الجسم من السكريات والنشويات والبروتين والحديد والكلس والفيتامينات وكل مغذي مفيد ونافع، وهذا لا يجتمع في أي ثمرة على الإطلاق لذلك يعيش عليه خلق كثير فكل من ذلك الرطب، واشربي من الماء عندك وطيبني نفسا، فان رأيت أحدا من البشر ينكر عليك أمرك، فأفهميه بأنك نذرت لله الصوم عن الكلام وأنت لا تكلمين اليوم أحدا، ومن هذا نتيقن أننا عندما نرى الظاهر فإننا نستدل عليه بالباطن، فهذا البطون في جانب الخير، غير أن الله سبحانه سبب الأسباب وأمر بالأخذ بها حتى لا يعتمد الخلق إلى التواكل، والتواكل غير التوكل الذي أمرنا به، وأما نقيض الخير الذي يصيب الناس فبما كسبت أيديهم، فما كان من مصيبة تصيب أحدا إلا بعلم الله وقضائه وقدره، فهو باطن في علمه بما قدره على العباد، { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ

مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا^{٥٦٩} ما أصابك من خير ونعمة فمن الله تفضلا منه فان كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافئ نعمة الوجود فكيف يقتضى غيره، وما أصابك من بلية وشيء تكرهه فمن نفسك لأنها السبب فيها لاستجلابها المعاصي وهو لا ينافى قوله تعالى: {كل من عند الله} فان الكل منه إيجادا وإيصالا غير أن الحسنه إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام وما من مسلم يصيبه أذى أو مكروه إلا بذنب اقترفه، فيكون ذلك كفارة عن ذنبه وما يغفر الله أكثر، وأمّا ما يصدر من الإنسان من عمل فهو مخير فيه إذ لا علاقة للخالق بما تجني يد المخلوقين، وأما الذين يقولون هو قضاء الله وقدره على هذا الإنسان أو ذاك بأن يفعل ويعمل من الخير أو الشر ما كتبه الله له أو عليه، فنقول إن القضاء والقدر هو علم الله المسبق لما سيحدث قبل حدوثه فهو بعلمه الباطن قضاء وقدره، وهو من عمل الإنسان بإرادته ذلك أن مراتب الأعمال أربع مراتب: مرتبتان منها لله تعالى وليس للعبد فيهما مدخل وهما التقدير والخلق، ومرتبتان منها للعبد هما الكسب والفعل، فان الله تعالى منزه عن الكسب وفعل السيئة فهما يتعلقان بالعبد ولكن العبد وكسبه مخلوق خلقه الله تعالى كما قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}^{٥٧٠} أي خلقا وتقديرا لا كسبا وفعلا، لذلك فإن بين الخليفة وبين غيره من الناس بون شاسع وفرق كبير في إدراك التمييز بين الفعل والخلق، فالله تعالى هو الذي يخلق الأفعال ولكن الإنسان هو الذي يفعل الفعل، فالخير والشر موجودان مخلوقان، والإنسان بعقله يختار بإرادته ووعيه هذا أو ذاك، غير أن الخليفة كونه مكلفا فبالضرورة أنه أعطي من الله حكمة وفطنة وعلما وبلغ إلى ما لم يبلغه غيره وهذا هو حق اليقين الذي يظهر من علامات الخليفة فقد أدرك ذلك بمشاهدة من الباطن التي هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقى فيها عن حد التقليد لمجرد السماع، وحاله حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق وحال غيره حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة إلا بعد أن ظهر له البرهان.

٥٦٩ - النساء ٧٨ - ٧٩

٥٧٠ - الصفات ٩٦

فالنسبة للخليفة يكون علم الباطن بمثابة علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات. وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك هو سياسة الرعية وسلامة الحكم بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالخليفة وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الحق. وهذا بفضل ما أوتي من العلم الباطن والعلم الذي يحمله الخليفة علمان:

١ . علم الدنيا: هو من العلوم الظاهرة الشائعة.

٢ . وعلم الآخرة: هو من العلوم الباطنة لأن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه يترفع عما هو عليه بقية الناس، لأنه أوتي علما باطنيا هو من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته ملك الخليفة تلك اللطيفة، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضمون به بل لا رخصة في ذكره، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودر عزيز اشرف من هذه الأجرام المرئية وإنما هو أمر إلهي، ومع أن كل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر المخلوقات لحمله الأمانة وتأديتها على الوجه الذي أمر به الله تعالى، والخلق والأمر جميعاً من الله، والأمر أعلى من الخلق، وطالما أن تأدية الأمانة أمر من الله فهي أعلى رتبة من الخلق، والذي يحمل هذا الأمر إنما هو جوهرة نفيسة حاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملها وأشفق منها من عالم الأمر، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} ^{٥٧١} فالخليفة أكثر ما يكون اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تقضي إلى المشاهدة، ودقائق علوم القلب تتفجر بها

^{٥٧١}الأحزاب ٧٢.

ينابيع الحكمة من القلب، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تتفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة ما سمع بكلمة غير أن الخليفة القائم بأمر الله نفسه وعقله وقلبه يفتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول نوي الألباب، وذلك أن له صدر منشرح وقلب منفتح مدرك ولولا إدراك قلبه للنور الباطن لما حكم على علم الظاهر فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجربين للذكر والفكر وأن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وأطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه، فقد أدركوا كون الله باطنا في كل شيء من خلال آيات الخلق التي تدل عليها هذه الصفات، فالله تعالى دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه وبوجود أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فوجود الأثر يدل على وجود الباطن والظاهر والقادر والمريد والعليم والحق، فالقادر يدل على قيام القدرة والمريد يدل على مشيئة القدرة وإرادتها والعليم يدل على معرفة منتهى القدرة والمشيئة، والحق يدل على عدالة هذه الصفات والظاهر يدل على ظهورها والباطن يدل وجوده وإحاطته بها بحيث لا تفارقه إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر وثبت من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات والذين أدركوا حقيقة صفات الله وتمثلوها من الأنبياء والأولياء والخلفاء فقد فتح الله عين بصيرتهم وأطلعهم على مكنون سره فأفردوا الحق بالوجود وتجلى أمام بصيرتهم كل موجود برؤية الله من خلال صفاته وأثر تلك الصفات في مخلوقاته، إذ محال أن تفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها فلزم من وجود الصفات وجود الذات وهذا هو سر الخصوصية الذي خص الله بها أنبياءه وأوليائه وخلفاءه ولم يشاركهم في ذلك غيرهم.

قال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ^{٥٧٢}. الفاحشة هي نتاج ارتكاب الأعمال المحرمة والمنهي عنها، والظاهر منها هو الظاهر من القول والفعل والباطن منها ما تكنه الصدور حيالها وهو باطن في غير محله، ولذا كل ظاهر وكل باطن في غير محله هو محرم أو منهي عنه ولهذا قال ولا تقربوا: {وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ^{٥٧٣}.

وأما الباطن فهو المدرك للأمر قبل وقوعه فمن حقيقة هذه الصفة كامنة في كل حركة وسكون إي أنها القوة التي تحرك الممتد والقوة الموقفة له، ولذا فهو جل جلاله هو الظاهر في السلوك والعمل وهو الباطن من وراء كل سلوك وكل عمل، ولأنه الباطن فهو يعلم ما في أنفسنا وما تكنه الصدور.

ومما تقدم نستطيع القول أن معنى الباطن أيضا هو علم السرائر والخفايا وهو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم، فلا يدركه البصر ولا يحيط به وهم فهو العالم بكل ما بطن، واختفى بعد ظهوره في كل شيء من آيات خلقه، فهو مبدأ الأشياء وإليه تنهي فهو باطن القدرة فيها، فنحن نقف على وجود مخلوقات دائمة الحركة من قوة الرياح وسيرها وشدة سرعتها أو بطئها وحركة الأمواج في البحار والمحيطات وهذه الكواكب السيارة وجميع هذه المخلوقات ذات قوة باطنة ندرك من خلالها صفة الباطن، أو المحرك الأول إذا استخدمنا المصطلح الفلسفي، ولكننا نقول بالمحرك الخالق الذي هو باطن بهذه القدرة، وهو باطن علما بكل شيء، وظاهر بصفة القدرة على كل شيء، إذا فهو باطن ظاهر، باطن العلم ببواطن الأشياء، وظاهر عليها قدرة ومشية، فله تلتجىء وإليه تنتهي بما خلق وقدر.

^{٥٧٢} الأنعام ١٥١.

^{٥٧٣} الأعراف ٣٣.

فإن قال قائل كيف يكون ظاهراً وباطناً في آنٍ معاً، فأول حجة نسوقها من الأدلة على أنه ظاهر باطن هو وجود الروح التي لا ينكرها أحد ولا يدرك وجودها أحد قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} ^{٥٧٤} فالروح أعظم من تدركها العقول مع الإقرار بوجودها وهو دليل على أن الذات الإلهية أعظم من تدرك بالحواس، وإلا هل هناك من يرى الروح بأمر عينيه حتى يقول نقول إنها ظاهرة وقابلة للمشاهدة. وأعلم إن الكل (مسلم وكافر ومن هو بدون هوية) جميعهم يعلمون بالروح ولكنهم لا يعلمون أمرها، وذلك لأن أمرها باطن. فإن كان آية من آيات خلق الله تعالى لا تدرك بالحواس، فإن جميع صفات الذات الإلهية أعظم وأجل من أن تدرك بهذه الحواس، وإنما تدرك بآثار تلك الصفات، وهذا يعني أنه تعالى ظاهر بأدلة الخفاء الباطنة التي تدرك بذات الحواس، وهذه الأدلة هي آياته في مخلوقاته، فإن قال لماذا. فنقول لأن كنهه وحقيقة الخالق لا تتساوى مع مادة وجوهر المخلوقين، فكيف يستويان مثلاً لعاقل، فهو باطن بدلائل قدرته في إيجاد الدليل (الخلق).

ومن صفة العلم أنه باطن يؤتية الله لمن اصطفاهم من الأنبياء والأولياء والخلفاء وهو سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب من ألقى عليهم محبته ولم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً، ولأن العلم في معظمه باطن قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} ^{٥٧٥} إي لم يكن منه إلا قليل ظاهر، ولكن هذا القليل دائماً في حالة ازدياد وفقاً لقدرات الإنسان العقلية المحدودة، ومع أنه في حالة ازدياد إلا أنه دائماً سيكون قليلاً إذا ما قورنا بالعلم الكامل الذي لا يعلمه إلا العليم الحكيم. وهكذا أمر الروح باطن أي لم يكن ظاهراً وذلك لانعدام خروجه عن أمر الله عز وجل، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} ولأنها بأمر ربي فهي باطنة في علمه لا يظهرها إلا هو ولا يعلم أمرها إلا هو سبحانه إنه على كل شيء قدير.

^{٥٧٤} - الإسراء ٨٥

^{٥٧٥} الإسراء ٨٥.

ولهذا ليس بالضرورة أن من ملك ملكا من الدنيا أن يكون له علم من الباطن، ذلك أن علم الباطن هو هبة من الله تعالى وإلهاما منه للخليفة وفرق كبير بين الملك وبين الخليفة حيث نقف على ذلك في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ^{٥٧٦} أراد هؤلاء القوم من بني إسرائيل أن يكون لهم حاكماً يجمع شملهم بعد تفرق ويقودهم تحت لوائه إعلاء لكلمة الله واسترداداً لعزتهم، ولما كان داوود عليه الصلاة والسلام في شك من صدق ادعائهم بما أوتي من علم الباطن سألهم ليستوثق من جدهم في الأمر ألن تجبنوا عن القتال إذا فرض عليكم، فأنكروا أن يقع ذلك منهم قائلين كيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا وقد طردنا العدو من أوطاننا، فلما أجاب الله رغبتهم وفرض عليهم القتال أحجموا إلا جماعة قليلة منهم، وكان إحجامهم ظلماً لأنفسهم ولنبيهم ولدينهم، والله يعلم ذلك منهم، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: إن الله استجاب لكم فاختر طالوت حاكماً عليكم. فاعترض كباروهم على اختيار الله قائلين كيف يكون ملكاً علينا ونحن أولى منه، لأنه ليس بذئ نسب ولا مال، فرد عليهم نبيهم، إن الله اختاره حاكماً عليكم لتوافر صفات القيادة فيه، وهي سعة الخبرة بشؤون الحرب، وسياسة الحكم مع قوة الجسم، والسلطان بيد الله يعطيه من يشاء من عباده ولا يعتمد على وراثة أو مال، فبعلم الله الباطن الشامل، اختار ما فيه مصالحكم، وهذا هو الإلهام والعلم الباطن الذي انكشف له في قلبه بهذا النوع من العلم، لا من جهة المحسوسات

الخارجية، وإنما هو العلم الباطن الرباني الذي يأتي إلهاما للمتقين، وقد صرح القرآن بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم، وخص الله به خلق دون خلق فقال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} ^{٥٧٧} فليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس، وهذا هو العلم الرباني وإليه أشار بقوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} ^{٥٧٨}، ومع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنياً بل العلم اللدني أو علم الباطن هو الذي يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف، غير أن قلب هؤلاء ممن ذكرنا والذين هم أهل للخلافة مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تحيد عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه بما أوتوا من العلم الموقوف عليهم وحدهم دون غيرهم، وبهذا امتازوا عن باقي الخلق بذكاء القلب وسرعة البديهة ورجاحة العقل وإصابة الرأي والحزم في الأمور، وأما غير هؤلاء ممن لا تتوافر فيه صفات الخليفة وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في قلوبهم فمختلفة تماماً، إما من الظاهر حيث الحواس الخمس، وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من المزاج الإنساني؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر. والمقصود أن القلب في التغيير والتأثر دائماً خاضع لهذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر؛ ونعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار، والأفكار وما ينتج عنها من إدراكات علوم إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث أنها تخطر بعد أن كان القلب

^{٥٧٧} - آل عمران ١٣٨

^{٥٧٨} - الكهف ٦٥

غافلاً عنها، والخواطر هي المحركات للإرادات فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد أن خطر بنية الفعل بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء. والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أي ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى ما ينفع في الدار الآخرة، فهما خاطران مختلفان فافترقا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً، والخاطر المذموم الداعي إلى الشر يسمى وسواساً، ثم إننا نعلم أن هذه الخواطر حادثة، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب، وهذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب.

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً واللطيف الذي يتهياً به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً والذي به يتهياً لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة، فالخليفة هو خلق خلقه الله تعالى وأسدى عليه من النعم والخير الظاهر والباطن ما لم يؤته لغيره من الخلق، لذلك فهو مكلف بإفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك، وأما الشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء؛ والتخويف عند الهمة بالخير بالفقر، فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان أشار تعالى بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^{٥٧٩}. إن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه واحد احد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها، وهذا ليس مقصوراً على الذكر والأنثى وإنما كل شيء وضده أو نقيضه أو ما يقابله، فالإيمان والكفر والتقوى والمعصية والخير والشر والإصلاح والإفساد وما إلى ذلك من الأزواج التي خلقها الله تعالى من كل شيء خلق صنفين مزدوجين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل

والنهار والشمس والقمر والصيف والشتاء والبر والبحر والسهل والجبل والإنس والجن والنور والظلمة والأبيض والأسود والدنيا والآخرة والإيمان والكفر والسعادة والشقاء والحق والباطل والحلو والمر والموت والحياة والرطب واليابس والجامد والنامي والناطق والصامت والحلم والقهر والجود والبخل والعزة والذلة والقدرة والعجز والقوة والضعف والعلم والجهل والصحة والسقم والغنى والفقر والضحك والبكاء والفرج والغم والفوق والتحت واليمين والشمال والأمام والخلف والحرارة والبرودة، فيقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوان المتزوج زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج، ولكل ما يقترن بالآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج، وهو تنبيه على أن الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض ومادة وصورة وإن لاشيء يتعري منها إذ الأشياء كلها مركبة من تركيب يقتضى كونه مصنوعاً وأنه لا بد له من صانع تنبيهاً على أنه تعالى هو الفرد الصمد لكل شيء والظاهر الباطن في كل شيء، فبين أن كل ما في العالم هو زوج من حيث أن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً يخضع لقانون المادة من جوهر وأعراض وصورة وأبعاد، والإنسان هو خلق مثله كبقية المخلوقات من حيث هذا الذي ذكرناه في صفات ومواصفات الخلق، إلا أنه يمتاز عنها من ناحيتين هما الخلق والخلق فالأول هو الظاهر والثاني هو الباطن والإنسان هو خلق مثله كبقية المخلوقات من حيث هذا الذي ذكرناه في صفات ومواصفات الخلق، إلا أنه يمتاز عنها من ناحيتين هما الخلق والخلق فالأول هو الظاهر والثاني هو الباطن فقولنا فلان حسن الخلق والخلق - أي حسن الظاهر و الباطن - فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} ٥٨٠ فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا

المقام واحد؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً وهذه صفة الخليفة الذي أضفى عليه الله تبارك وتعالى من العلم الباطن والحكمة ما يمكنه من إعمار الأرض وسياسة الناس، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً وإن صدر عنها بعض الحسنات، لأن من يصدر عنه بذل المال اليسير في النذر القليل لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء والكرم ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما الشرط أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء في الضدين واحد، وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل، فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن هناك أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان والشروط واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوة العلم، وقوة الغضب وقوة الشهوة، وقوة العدل.

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحميدة التي يؤتيها الله تعالى من يشاء، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا

أُولُو الْأَلْبَابِ} ^{٥٨١} وأما قوة الغضب، فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، بمعنى إشارة العقل والشرع فيما أحل الله، فالعقل هو الناصح المشير، وقوة العدل هي القدرة على الاختيار بين الحق والباطل، فهي الأداة المنفذ لإشارة العقل، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة، فهو كالطفل الذي يحتاج إلى أن يؤدب حتى تسهل تربيته ويوجه بحسب الإشارة لا بحسب الرغبة وشهوة النفس، والشهوة كالخيل فإنها تارة تكون مروضة وتارة تكون جموحة فتحتاج إلى تقييدها بالحكمة، فمن استوتت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا واتصف بصفات الخليفة أو هو الخليفة نفسه، ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق فقط، بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض. وحسن ضبط قوة الغضب واعتدالها يعبر عنها بالشجاعة، وحسن ضبط قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنها بالعفة، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنًا وخورًا، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهًا، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودًا، وهذا لا ينطبق على الخليفة الذي ترفع عن شهوات النفس وجموح العقل بامتلاكه الحكمة التي هي أعلى درجات حسن الخلق وأرفعها على الإطلاق وأكرمها خصالا بما أوتي من العلم الباطن.

إن مظاهر الباطن جل شأنه تتجلى في كل ما خلق من حيث أنه أبطن باطن قدرته في ظاهر خلقه، قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} ^{٥٨٢} فجميع ما ذكر في هذه الآيات هو من الحوادث التي لها محدث وجوبا، فالتأمل لهذه المحدثات لا بد أن يدرك أن وراء حدوثها قوة وقدرة ومشئمة وإرادة وهي التي تجعلنا ندرك أنه

٥٨١ - البقرة ٢٦٩

٥٨٢ - النازعات ٢٧-٣٣

باطن في هذه الآيات الكونية، وإذا استغرقنا في هذا التأمل نقف مذهولين عندما نتيقن من القدرة الخفية الباطنة فيها، وسياق هذه الآيات ليس في مجال التحدي بين الخالق والمخلوق، ولا في مجال المقارنة بين الشدة والرخاوة والقوة والضعف والصلابة واللين، وإنما هو في مجال إظهار القدرة الباطنة للمنكرين، فهل البعث والنشور أعظم من إيجاد هذه المخلوقات، فالسمااء خلقها وضم أجزاءها المتفرقة بعضها إلى بعض، ورفع أجزائها فوقكم، فجعلها مستوية لا تفاوت فيها ولا خلل، وزينها بالمصابيح التي ترونها والشموس والأقمار فأظلم ليلاً وأظهر نهارها لتعلموا عدد السنين والحساب ومنافع أخرى والأرض بعد ذلك بسطها ومهداها لسكنى أهلها وأخرج منها ماءها بتفجير عيونها، وإجراء أنهارها ونباتها ليقنن به الناس والدواب وثبت الجبال أوتادا تمنع الأرض من أن تميد بكم، فهل هذا يكون من الصدف أم من عجائب الخلق الذي أظهره الباطن لأمر يريد نفاذه، وهو على ما نعتقد إظهار قدرة الباطن في ظواهره، فشدة بناء السماء مثلا بمعنى الصعوبة لا بمعنى الصلابة قياسا للخلق وليس قياسا للقدرة الباطنة لدى الخالق، لأن السياق في الآيات لا يلائم مقام التفاضل إذ ليس في القدرة الباطنة مجال مقارنة بين السهولة والصعوبة فالأميرين بالنسبة إلى قدرة الله واحدة فقد خلق السماء بلا مادة على عظمها وقوة تأليفها وانطوائها على البدائع التي تحار فيها العقول، وذلك آية من آياته لأمر أراده، ألا وهو التفكير وصولا إلى الإيمان الباطن الذي يكشف قدرة الباطن فالإيمان الباطن هو المؤدي إلى الآخرة الموصل بأهله إلى حميد العاقبة فقال فالإيمان بالله إيمان ظاهر وقع به الستر الظاهر وإيمان باطن وقعت به الخشية الباطنة، والإيمان الظاهر إقرار اللسان بالتوحيد وموافقة جوارح الأبدان فرائض التوحيد، هذا هو الإيمان الظاهر الذي يقع الستر الظاهر به، وأما الإيمان الباطن الذي وقعت به الخشية الباطنة فهو إيمان القلب وهو على ثلاثة:

فالأول منها التصديق لله فيما وقع به وعده ووعدته.

والثاني حسن الظن بالله تعالى من غير المعرفة والكيفية.

والثالث هو الوثوق من عقد الله وعهده مطلق الثقة.

وعليه التصديق إذا صح في القلوب وتمكن من عقائدها انفتق من هذا نور فيه دلالة النفس على مكوّنها، فإذا صح العلم فيها بأنها مكونة لا من شيء كوّنت، دلها وجود ما علمته من خلقها على الشيء المغيب عنها أنها أعجب مما قد شاهدته بنظر، فها هنا سكن القلب إلى تصديق الباطن عز وجل بالباطن من العلم فيما وقعت به المعرفة، وينصرف الهم إلى تجريد العناية إلى ما وقع به أمر الباطن ونهيه جل شأنه، ومن علم المعرفة بالله أن الله عز وجل أحسن إليه في خلقه تفضلا منه عليه لا باستحقاق عمل متقدم كان منه إليه فيكون مبتدؤه به من نعمة الخلقه أنها تفضل من الله عليه أقام النظر من العقل الباطن في الأشياء فينظر إلى كل ما قعد به الجهل، عن معرفته من العلم الذي يحتاج إلى تقوية معرفته وإلى طلب الازدياد في تصديق الباطن وحسن ظنه بما يجري به تدبيره فيه، علم أن وهن تصديقه وضعف حسن ظنه من جهله به، وفي هذه المرحلة من الإيمان الباطن تنهتك أستار الجهل وتقع البصيرة في النظر الذي كشف عن ضرر الجهل، والإيمان الباطن الذي لا يرقى إليه إلا من اختاره الله تعالى ليكون خليفة، فهو يعلم تحقيق القلوب بالتيقن من إثبات الباطن بكمال أسمائه وصفاته ووجوب توحيده بأحدثه السرمدية أبدا وأزلا، والإيمان تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب، ومواهب الإيمان بوادي أنواره والملبس لأسراره، وظاهر الإيمان النطق بألوهيته على تعظيم أحدثه، وأفعال الإيمان التزام عبوديته والانقياد لقوله، والإنابة التزام الخدمة وبذل المهجة، والرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم الموجد، وحقيقة الرجاء الاستبشار لوجود فضله وصدق وعده ووعيده، والزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي عن الأملاك إلا الملك الواجب الذي أمر به الله تعالى من الخلافة، وحقيقة الزهد التبرم بالدنيا ووجود الراحة في الخروج منها، والقناعة و الاكتفاء بما يكفي، لأن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وحقيقة القناعة ترك التشوق إلى المفقود والاستغناء بما هو موجود، وأن يعلم أن المذكور واحد والذكر مختلف، ومحل قلوب الذاكرين متفاوتة، وأصل الذكر إجابة الحق من حيث اللوازم فمن أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته، ثم ينقسم الذكر قسمين ظاهر وباطن، فأما الظاهر فالتهليل والتحميد والتمجيد

وتلاوة القرآن، وأما الباطن فتنبية القلوب على شرائط التيقظ على معرفة الله وأسمائه وصفاته، وعلى أفعاله ونشر إحسانه وإمضاء تدبيره ونفاذ تقديره على جميع خلقه، ثم يقع ترتيب الأذكار على مقدار الذاكرين، فيكون ذكر الخائفين على مقدار قوارع الوعيد، وذكر الراجين على ما استبان لهم من وعده ووعيده، وذكر الخليفة على قدر ما انكشف له من كفاية الكافي له، فذكر الله منفرد وهو ذكر المذكور بانفراد أحدىته على كل مذكور سواه، وإفراد النطق بألوهيته لأن أفضل الذكر لا إله إلا الله.

فعلم الباطن هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أصفياؤه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً، وطلب علم الباطن فريضة على أهله الذين يختارهم الله لحمل أمانة وتأدية وديعة أودعها الله في يقين هؤلاء الذين هم أهل لهذا العلم، وهم الذين أختارهم الله بعلمه الباطن ليكونوا قوامين بما أوتوا من العلم الباطن، وهو مخصوص لأصحاب اليقين الثابت ممن صفت نيته ونقيت سريرته واستتار قلبه واتقد ذهنه فانكشف له من العلم الباطن ما لم ينكشف لغيره وهؤلاء هم صفوة الصفوة من الخلق بعد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومن هؤلاء يكون الخليفة بما فضله الله تعالى على غيره وبما أوتي من علم الباطن وهو العلم اليقيني فكان أرفع درجة وأعلى منزلة وأعظم قدراً وأكثر مهابة وأشد طاعة وأخلص نية وأنفذ بصيرة وأفضل حزماً وأمضى عزمًا وأصوب رأياً بما خصه الله من علم حيث قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^{٥٨٣} فالله تعالى يرفع العلماء درجات خاصة بسبب العلم للدلالة على علو شأنهم وسمو مكانهم حتى كأنهم جنس آخر وهم طبقات عالية ومراتب مرتفعة بسبب ما جمعوا من العلم والعمل لعلو درجة علمهم فعلت منزلتهم بعلو علمهم لذلك يقتضى جزاء العمل المقرون بهذا العلم مزيد رفعة لا يدرك شأنها ومكانتها من كان عمله بالعلم الظاهر العادي وإن كان في غاية الصلاح، ولذا كان من الواجب الاقتداء بعلم هؤلاء وأفعالهم وأعمالهم ولا يقتدى بغيرهم، وذلك بسبب أنهم أصحاب العلم الباطن اليقيني الواجب إتباعه، لأنهم أتوا علم

اليقين، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين بعلم الباطن المخصوص في قلوب أهل المعرفة، وهو علم باطن في القلب، وهو العلم النافع الذي رفع الله به هؤلاء لترفعهم عن العلم الظاهر المباح، وهو العلم الذي ينال منه القاصي والداني، أما علم الباطن فهو خاص بالصفوة من الخلق، لذلك فإن علم الظاهر من علوم المُلْك وعلم الباطن من علوم الملكوت، ونعني به أن ذلك من علم الدنيا لأننا نحتاج إليه في أمور الدنيا وعلم الباطن من علوم الدنيا والآخرة، وكونه من علوم الدنيا، لأن الخليفة يصلح به البلاد والعباد، وهو من علوم الآخرة لأنه من زادها وهو المفتاح إلى باب الرضوان، وعلم الظاهر يظهر في اللسان، وعلم الباطن يكمن في القلب ويرسخ في الجنان، ولأن اللسان ظاهر فهو من المُلْك وهو خزانة العلم الظاهر، والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن فقد صار فضل العلم الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على المُلْك وهو الملكوت الباطن الخفي، وكفضل القلب على اللسان وهو الظاهر الجلي، وبفضل ما أوتي هؤلاء من العلم الباطن فقد جعل الله تعالى لهم نورين: أحدهما ظاهر، والآخر باطن، فظاهره آلة لباطنه، وباطنه عدّة لآخرفته ومعاده، فمن نور العلم الظاهر طلب المعاش وإصلاح الشأن، واستصلاح الأمور، ودفع المضارّ عمّن هم في ولايته ورعايته، والتحفّظ من الموارد المهلكة في العاجلة، ومن نور العلم الباطن طهارة القلب، وإخلاص النية لله، واستحضار ما وعد الله على طاعته من ثوابه والخوف مما أوعد من العقاب، واختيار العفو في الانتقام، والأناة على الإقدام، ونفي الأحقاد، وإطفاء نار الحسد، وإيثار الصدق الذي هو منجاة الدارين، والوفاء لأصحاب العقود وأهل الثقة، والحياء لأن الله حييٌّ يحب الحياء، وخلع طاعة الشّهوات لأنها من المهلكات، وقمع شهوة النفس لأن النفس أمارة بالسوء، واستشعار القناعة لأن القناعة تبعد عن الدنيا وتقرب من الآخرة، وإجلال العلماء فهم ورثة الأنبياء، وتفضيل العلم، وأخذ النفس بوظائف الترويض على طاعة الله، وهذا هو النور الروحاني الذي يشعه العلم الباطن في النفس وتتجلى به الروح، فتجعل صاحبه يتمسك بسلامة العقيدة وعمق الإيمان وإقامة الدين وحسن السيرة ونقاء السريرة ومحاسن الخصال وكرم الأخلاق، وكلما استحکم العلم من

الإنسان، دقت رويته، وصفى ذهنه وانشرح صدره وأنور قلبه فتضيء له الدنيا لتريه طريق الآخرة وهذا جُلّ مراده ومنتهى مبتغاه وأقصى ما يرجوه من الذي منحه هذا العلم الذي بزّ به أقرانه فحق له أن يكون خليفة. وهنا يكون جُلّ سعيه فيما يحرز من إعمار الأرض وإصلاح الناس والدعوة إلى الحق الذي لا نهاية له، لأنه ماضٍ إلى يوم القيامة، ليبلغ ما يقيم به العدل ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فهذا همه وشغله ومبتغاه ولذلك وجب عليه وعلى أمثاله من أولى الألباب والمعرفة رفض الدنيا، والأخذ منها بالنصيب الطيب، والانشغال بما هو مكلف به في إحراز حظّه الذي يستريح بالوصول إليه من ألم الدنيا إلى نعيم الآخرة، ووجب عليه كذلك الصبر على مكابدة التّوائب النازلة، والفواجع الواردة، إذ علم بعلمه الباطن أنّ لها انقطاعاً لا محالة، وأنّ دوائر الأيام تسلبها، والليالي تزيلها وتغيّبها، فإذا صحّح هذا عنده باليقين استخفّ بالمكاره، واستحقر عظيم المصائب، ولم يطمع من الدنيا إلا بما يوصله للآخرة، وبهذا يكون قد أعطى هذا العلم حقه، وأخذ منه نصيبه الذي نذر نفسه لأجله، فيصل إلى مطلبه وينال مبتغاه من رضوان الله تعالى في حق هذا العلم، الذي هو أصلاً أدّى حقه بنشره وإقامته، لأنه يعلم بما أوتي من العلم أن زكاة العلم نشره.

إن صفة الباطن عز وجل كما ذكرنا شاملة محيطية، فهي شاملة لكل شيء من حيث العدد والإحصاء، ومحيطية بكل شيء من حيث الحجم والزمان والمكان غير داخلية بأيّ منها احترزا، إذ لا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر إلا في كتاب مبين، فمن حيث العدد والإحصاء المتضمن علم الله الباطن جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلَّمَا أَتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾^{٥٨٤} إن كل ما في السموات والأرض من مخلوقات هم عبيد الله عددهم وأحصاهم وهو أهون عليه، فإذا قال المنكرون كيف يكون ذلك فنقول: بما أن الصانع يعلم أعداد صناعته فمن باب أولى وأقرب لفطرة العقل السليم أن الخالق عز وجل أعلم بعدد خلقه هذا من جهة، ومن جهة

أخرى طالما أنه هو خالقهم فبالضرورة طوعا أو كرها أن ينقادوا لحكمته، ويخضعوا لإرادته، فقد أحاط بهم جميعا وبأعمالهم، وعدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فلا يخفى عليه أحد منهم ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم وهم جميعا يجيئون إليه يوم القيامة مجتمعين و منفردين، فاجتماعهم دلالة على البعث والنشور، وانفراد كل واحد منهم على حدة دلالة على الحساب، فكل من في السموات والأرض خاضع لألوهيته منصاع لإرادته، فالخلائق كلهم عبيده، عدّ عليهم أنفاسهم وأحصى أيامهم وعلم آثارهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته مجتمعين، وهذا هو النوع الأول من الإحصاء، وهو الإحصاء الجماعي للخلق وبالتالي فهو الاستحضار الجماعي الذي يدل على عظمة الباطن، ثم بعد ذلك يأتي كل واحد عبدا ذليلا خاضعا، ليس معه من أحوال الدنيا شيء وهذا هو الإحصاء الفردي الذي يدل على علم الباطن، فقد علم تفصيلا بما عندهم، فعلم عدد الموجودات كلها، لا يغيب عنه شيء منها ولا من أعمالها فهو إحصاء لا يغيب منه شيء، وإحاطة لا يفرط بأحد منهم في شيء. والأصل في أنه أحصى عدد كل شيء على ما نرى، قال تعالى: {إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} ^{٥٨٥} أن فائدته في بيان أن علم الله تعالى بالأشياء ليس المقصود منه في هذا المقام علم كلي إجمالي، بل المقصود هنا العلم الجزئي التفصيلي لأن الإحصاء يراد به العدد الكلي مجتمعا والإحاطة الإجمالية التامة، ولتوضيح المسألة نأخذ مثلا بسيطا وهو الدائرة المعروفة في علم الهندسة، وهي عبارة عن خطٍ منحنٍ يلتقي طرفاه بأبعاد متساوية عن مركز هذه الدائرة، وهذا الخط المنحني الذي يحصر المساحة التي تتوزع من مركز الدائرة بأبعاد متساوية إلى أن تتداخل مع ذلك الخط المنحني الذي نسميه محيط الدائرة، بمعنى أنه ليس هناك نقطة واحدة من مساحة الدائرة إلا وقد أحاط بها ذلك الخط، لذلك يسمى هذا الخط محيطا، فإذا كانت هذه المساحة مجموعة من النقاط-وهو كذلك- ونبدأ نعدّ هذه النقاط وكلما اجتمعت لدينا مجموعة منها وضعناها على حدة، فهذا هو الحساب،

فإذا جمعنا عدد المجموعات نكون قد أحصيناها، فإذا وضعناها ضمن هذا الخط المنحني نكون قد أحطنا بها، أي لم يبقَ شيء خارج هذا المحيط من هذه النقاط إلا وأحصيناها إحاطة، فإذا غادرنا هذه الدائرة ومحيطها إلى العالم الخارجي وما فيه من مخلوقات يصل حجم بعضها إلى أصغر من الذرة، وحجم البعض الآخر إلى أكبر من الشمس نستطيع أن نقف على علم الله الباطن الذي قد أحاط بكل شيء علما حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} ^{٥٨٦} فهو الذي أوجدها فأحصاها عددا وأحصى كل ما خلق، وعرف عدد ما خلق وأفعال من خلق كبيرها وصغيرها وجليلها ودقيقها ولم يفته علم شيء لا من ظاهرها ولا من باطنها إلا في كتاب مبين أحصاه الله ونسوه، فما فرط سبحانه وتعالى في شيء. فبالإضافة إلى ما تشير إليه الآية الكريمة من علم الله الباطن وإحاطته بكل شيء، فإنها تأمر بتعلم العلم من أجل الوصول إلى بعض العلم الباطن لبعض الخلق من البشر وهو أمر من الله تعالى بقوله: لتعلموا، حيث نستدل من السياق على أن هناك أشخاص مأمورون ومكلفون بتعلم هذا العلم واستنباطه، وهؤلاء نعرفهم من أوصافهم وسماتهم وأعمالهم، ومن هؤلاء يكون الخليفة لما تتوفر به من سمات هذا العلم الموهوب هبة وليس كسبا، فعلمهم الباطن يكون لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قرينة من الله وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة ودليلهم على السراء ومنجاتهم من الضراء والحسن عند الإخلاء والأعداء، والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفعهم الله تعالى به فيجعلهم في الخير قادة وهداة يقتدى بهم وأدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أعمالهم، وتكون أفعالهم منارا لغيرهم، وينتهي كل رأي إلى رأيهم وترغب الملائكة في مجالستهم وتحفهم بأجنتها حتى كل رطب ويابس يستغفر لهم وحتى حيتان البحر وهوامه وما يدب على البر غير الثقلين، والسماء ونجومها، كل ذلك لما يحمل من العلم الباطن، لأن هذا العلم حياة القلوب من العمى ونور

الأبصار من الظلم وقوة الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، فبه يطاع الله تعالى وبه يعبد وبه يوحد وبه يتورع، فهذا هو العلم الباطن الذي يناله صفوة خلق الله الذين منهم الخلفاء، إذ أن الخليفة أوتي من العلم على قدر ما هو مكلف به، ولما كان الخليفة هو القائم بأمر الله تعالى في أرضه إصلاح وإعمار كان حقيقاً على الله أن يكرمه بهذه الدرجة من علمه الباطن ليعلم ما لا يعلمه غيره من الخلق، إذ أن هذا العلم هو نوع مخصوص لأناس مخصوصين بما أوتوا من الحكمة والصبر، فهم أهل الذكر لله تعالى وأهل التوحيد والعقل والحكمة والطاعة والتقوى بما أوتوا من الله جل جلاله، فلم يكونوا يتلقون هذا العلم دراسة لا من الكتب ولا يتلقاه بعضهم من بعض بالألسنة إنما كانوا أهل عمل وحسن معاملات فكان أحدهم إذا انقطع إلى الله تعالى واشتغل به واستعمله المولى بخدمته بأعمال القلوب، وكانوا عنده في الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه ولا يشتغلون بغيره فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالى رشدهم ووفقهم لسديد قولهم وآتاهم الحكمة ميراثاً لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهمهم العالية فأثرهم بحسن توفيقه أن ألهمهم حقيقة العلم وأطلعهم على مكنون السر حين آثروه بالخدمة وانقطعوا إليه بحسن المعاملة ومدارة الخلق وسياستهم، فكانوا يجيبون عما يُسألون عنه بحسن أثره الله تعالى لهم وبجميل أثره عندهم، فتكلموا بعلم القدرة وأظهروا وصف الحكمة ونطقوا بعلوم الإيمان وكشفوا بواطن الخفايا، وهذا هو العلم النافع بين العبد وبين الله تعالى وهذا العبد هو الخليفة الذي يلقاه الله تعالى به ويسأله عنه ويثيبه عليه وهو ميزان جميع الأعمال، ولهذا لا تخلو الأرض من خليفة قائم لله تعالى بحجة، إما ظاهرة مكشوفة وإما باطنة مكتومة لنلا تبطل حجج الله تعالى وبيئاته، ولذلك يكون من الأقلين عدداً والأعظمين قدراً أعوانه قليلون يظهره الله بهم و يحفظ الله تعالى به حجه حتى يودعها نظراءه وأمثاله من أهل الثقة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ

قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِنْتُمْ وَلَتَنَارَعَنْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَالُ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^{٥٨٧} . ولهذا أوقفه العلم على حقيقة الأمر فباشر روح اليقين فاستلان الصعب وأنس بما استوحش منه الغافلون عن حقيقة الأمر، فصحب الدنيا بروح معلقة بالملأ الأعلى لأنه من أولياء الله ومن خلقه وعماله في أرضه والداعي إلى دينه، فهذه كلها أوصاف علماء الآخرة وأوصاف الخليفة الذي يحمل علم الباطن وهو علم القلوب لا علم الألسنة.

ومن مظاهر صفة الباطن أن الله سبحانه وتعالى يبدي باطن النعم من ظاهر النقم، ولا يدرك هذا الأمر إلا ذو حظ عظيم ممن أوتوا العلم الباطن حيث يدركون أن الله تعالى اختارهم على علم ليقينهم وهم يعلمون أن الأجر على قدر المصيبة وهو الابتلاء الذي لا يدرك حقيقته والغرض منه إلا الراسخون في العلم، فنحن بني البشر إذا أراد أحدنا أن يكلف شخصا ما بأمر عظيم أو مهمة خطيرة فيحاول بداية أن يختبره بعمل بسيط، فإن نجح في ذلك زاد له من صعوبة المهمة حتى يعلم أنه أصبح أهلا لما يريد أن يكلفه به من جسام الأمور وعظائم المهمات، والذين لم يصلوا إلى العلم الباطن ينظرون إلى الأمر على أنه مصيبة تخلف مصيبة، وما علموا أن هذا الابتلاء هو إعداد للشخصية والنفسية من أجل التهيئة للتعامل مع ما سوف يواجهه مستقبلا بالمهمة التي يكلف بها، هذا على مستوى الإنسان العادي من البشر، أما إذا كان المكلف من الذين اختارهم الله لأمر يريد نفاذه فإن الابتلاء يكون أعظم وطأة وأشد ثقلا، فهذا نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام أرسل الله عليه من جنوده الباطنة ما لا يحتمله غيره، فأهلك ماله وولده وجسده، ولم يبق من جسده سليما غير الهيكل الفارغ من اللحم وبقي القلب واللسان والأذان والعينان على طاعة الله التامة مع ذلك الهيكل الذي من نعيم ابتلائه شفي وتعافى فضل من الله ورضوانه، ولهذا لما قصد المرض قلبه الذي هو منبع المعرفة ومعدن النبوة والخلافة

ولسانه هو مصدر الذكر والتوحيد خاف أن ينقطع عن طاعة الله وتسييحه بالكلية فإنه كان من ضعف الحال بحيث لا يستطيع القيام للصلاة فلما انتهى وقت الابتلاء وحصل الفناء التام في مقام الابتلاء ألهمه الله الدعاء ليوصله إلى أعلى مرتبة فيتجلى له في الباطن لصبره على ما كان أصابه من البلاء، في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرف شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل فارهة، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأُفردَ في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته التي كانت تقوم بأمره، وإن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم من الخلفاء والصالحين، أي الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه وعلى قدر علمه وعلى قدر صبره، ومع ذلك ليس لنا بدا إلا أن ندعوه ونحن نقول: لا يكلف الله نفس إلا وسعها ثم ندعوه بعدم المؤاخذة إن نسينا أو أخطأنا وأن لا يحمل علينا إصرا كما حمله على الذين من قبلنا وأن لا يحملنا مالا طاقة لنا به ويعفوا عنا ويغفر لنا ويرحما إنه مولانا فنعم المولى ونعم الوكيل، قال تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^{٥٨٨}﴾ ونحن نرى أيوب عليه الصلاة والسلام لما أوتي من العلم الباطن ومعرفته بأن ظاهر النقم يكمن فيها باطن النعم لم يشك وكان يستبشر بكل ما أصابه، حتى أنه عندما دعا الله كان في دعوته حياء شديد من الله حيث كانت دعوته بصيغة النداء وليست بصيغة الدعاء تأدبا مع الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ^{٥٨٩} فقد كان عليه الصلاة والسلام، غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، فعلى الرغم مما أصابه لم يزد أن قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، فقد أدرك بما يحمل من العلم الباطن أن هذه النقم تحمل باطن النعم.

ومن هذا الباب أيضا قصة يونس عليه الصلاة والسلام التي تظهر أن عظم المصيبة من باب قرب الفرج، أي أن النعمة تحمل بين طياتها وفي باطنها جزيل النعم حيث قال تعالى: لَوْذَا نُنُورِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ^{٥٩٠} لقد بُعث عليه الصلاة والسلام لقوم أشداء فتمادوا في إصرارهم مع طول دعوته إياهم، وبذهابه عنهم دون إذن من الله تعالى، فقد ألقاه في الظلمات وهي بطن الحوت والبحر والليل فنادى في تلك الظلمات بأنه (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، وهنا تظهر صفة الباطن لا على وجه الحصر والتخصيص للصفوة الذين يختارهم الله، وإنما هي عامة للبشر بواسطة هؤلاء الصفوة، لذلك كانت دعوة يونس عليه الصلاة والسلام من خصوص العموم، وليست من عموم الخصوص، بمعنى أنها لا تعم الخاصة وإنما تخص العامة، لذلك كانت هذه الدعوة، دعوة أي مسلم أصابه الكرب، فإن دعا بها جلا الله بها كربها، وهذا يعني أنه تعالى تفضل على جميع خلقه بأن أطلعهم على شيء من الباطن ليس لأنهم أهل لذلك، ولكن رحمة فيهم وتفضلا عليهم. وتتجلى هذه الصفة في الإشارات التي تصل إلى الأنبياء والأولياء والخلفاء بنوع من الرحمة والعناية والحفظ لتدلل على أنه باطن قريب، كما تتجلى هذه الاختبارات بأنها خير على ما تحمل من الضر، غير أن أهل الباطن يعرفون كيف يجتازون الابتلاء والمحن بما أوتوا من هذا العلم،

^{٥٨٩} - الأنبياء ٨٣ - ٨٤

^{٥٩٠} - الأنبياء ٨٧ - ٨٨

وكذلك تتجلى صفة الله الباطن في وحدة المبدأ و العقيدة والطريق قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} ^{٥٩١} فهؤلاء الصفوة من الأنبياء والأولياء والخلفاء تكون صفة الباطن قريبة منهم ملازمة لهم على مدار الأيام حتى لكانهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان، وهذه إحدى دلائل وحدانية صفة الباطن، ووحداية الإرادة المدبرة، ووحداية الناموس الذي يربط سنن الله في الكون، ويؤلف بينها، ويوجهها جميعاً وجهة واحدة، إلى معبود واحد: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} ^{٥٩٢} فما هو ذا يكشف لنا أننا على السنة المطردة التي سنها الله تعالى، فالباطن جل شأنه بما يسدي من نعمة العلم الباطن يجلو ظلمات القلب والعقيدة، وظلمات الضلال والباطل، وهي ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير، وإن القلب البشري ليظل مظلماً حتى تشرق فيه شعلة الإيمان، فتتير جوانبه، وتكشف له منهجه، ويستقيم له اتجاهه، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقديرَات فيعلم أنه ينتفع بالضياء، ويسير على هداه.

إن المنهج العلمي الحديث القائم ومن اشتغل به في العلوم الطبيعية على اختلاف أنواعها من الطب والصيدلة والتشريح وعلم النبات والفلك وعلوم البحار وما إلى ذلك، يقرون بشكل غير مباشر بأن الله تعالى باطن في كل ما وقفوا عليه من نتائج بحوثهم، حيث تتوافق هذه النتائج حدّ الانطباق مع الفطرة التي فطر الله تعالى بها الخلق في أن الله باطن في جميع مخلوقاته لا مادة ولا جوهرًا ولا عرضًا، إنه الله الذي خلق كل شيء وأحسن خلقه وهو الباطن في كل سبب وعله وهو الباطن في كل ظاهر ومشاهد قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ} ^{٥٩٣}

^{٥٩١} - آل عمران ١٩

^{٥٩٢} - الأنبياء ٩٢

^{٥٩٣} الغاشية ١٧ - ٢١.

فالعلم في بحثه يتجه أولاً إلى المشاهدة ووضع الفرضيات، ثم ينتقل إلى ملاحظة التجربة العملية التي تظهر النتائج، ثم يضع نظرية من تلك النتائج تكون أساساً للعاملين في هذا المجال أو ذاك، لأن هذه النظرية فسرت تلك الفرضيات من حيث انطباقها على الواقع الذي أيد صحة الفرضيات، الأمر الذي يجعلها حقيقة يقينية تصل حدّ البديهية، ومن ثم تكون قانوناً عاماً مؤيداً للظاهرة، بمعنى كشف سنن الله الكونية في خلقه، هذا إذا تماثلت التجربة مع الواقع فتكون قد انطبقت على القانون الطبيعي لمنطق الأشياء في قضايا الخلق التي يسلم بها العقلاء من الناس، أما إذا تنافرت مع الواقع فلا تكون حقيقة ثابتة، إذ أننا لا يمكن أن نغير الواقع لينطبق على خطأ الفرضية التي نضعها، وإنما يجب إعادة التجربة وفق فرضيات أخرى، ففي قوله تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} ^{٥٩٤} فمرج البحرين هو اضطرابهما وهيجانهما وتلاطمهما ومع ذلك فلا يبغي أحدهما على الآخر ولكن كيف يكون ذلك علماً أن الماء هو أكثر السوائل سيلاً وأشدّها امتزاجاً، ولذلك يجب أن يكون أكثرها اختلاطاً، والأمر ليس كذلك.

إن وجود هذا البرزخ أو الحاجز بين المائتين يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، سواء المالح بالمالح أم العذب بالعذب أم المالح بالعذب، فالخلق وما فيه لا يقوم على الفوضوية، وإنما هو خاضع لقانون الباطن الذي لا يعلمه كثير من الناس، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} ^{٥٩٥}، وقال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا

^{٥٩٤} - الرحمن ١٩ - ٢٠

^{٥٩٥} الفرقان ١، ٢.

فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوَافًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ^{٥٩٦} فهو القانون الإلهي الذي جعل كل شيء بحسبان، فهذا البرزخ الذي يكون بين أي مائتين إنما هو مختبر ومعمل كيميائي لمعادلة النسب بين هذه المياه من الكثافة والوزن النوعي والمعادن والأملاح، فهذا الماء القادم لا يمكن أن يدخل في ماء آخر قبل أن يأخذ المواصفات والخواص التي تؤهله للعيش في المكان الجديد أو الاندماج فيه، والذي يثبت صحة ما نقول أن الأحياء المائية من حيوان ونبات تختلف من بحر إلى بحر ومن بحر إلى نهر لاختلاف خواص الماء الكيميائية في كل منها، وهكذا لكل بيئة معطياتها ومعطيات العيش أو الاندماج فيها، ولكل نقيض ما يخالفه بالرفض والاستقلالية أو الحيادية، وكذلك هذا البرزخ أو المختبر فأحياؤه أيضا مختلفة عما يجاوره من أنواع المياه كونه حاجزا منيعا لا يسمح بأن يطغى أحدهما على الآخر، وفي هذا الأمر سر باطن لا يعلمه يقينا إلا الباطن جل جلاله، وهذا يفسر لنا وجود الينابيع العذبة في وسط المحيطات وأعماق البحار، ومن هذا ندرك أن الله تعالى يتجلى باطنا في كل شيء قدرة وإرادة ومشية.

إن وجود الباطن يتجلى من خلال التفكير والتأمل والتدبر لآيات الله وخلقه، فيتبين الحق وتتكشف الظلمة بظهور الدلائل التي تحمل في طياتها صفة الباطن، ومع ذلك فإننا لا نسلم بأن كل شيء خاضع للتجربة العلمية الواقعية في مجال القياس بين النتائج التي هي أحكام ذهنية. فالتجربة تجري عليها القياس هي موجودات مادية مشخصة، فمن هنا غالبا ما يكون التباين بالمقارنة بين المادة ونقيضها، لذلك يكون التطابق بين الأحكام الذهنية والموجودات المادية غير يقيني، لأن المادة تحول دونه إلا ما دل عليه دليل يشهد به الحس، وذلك فالبراهين المنطقية في علم الإلهيات لا تكفي أن تقوم نصوصا قطعية الدلالة.

فصفة الباطن جل شأنه لا يمكن أن تدرك لا بوجود خارجي في الواقع، ولا بتصور داخلي في الذهن، وإنما هو تسليم في القلب ووقور في الجنان وتصديق في اللسان، والوقوف على ذلك باليقين من خلال آيات الله في خلقه وتدبير شؤون هذا الخلق الذي قدره تقديرا.

الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة والكامن من ورائه ساكنا:

كل خاضع للمشاهدة أو الملاحظة هو ظاهر، قولا كان أم فعلا أم سلوكا أم أثرا. وكل ما خُفي عن ذلك في حيز الوجود هو كامن. فعندما تكون الفرحة ظاهرة على السطح، يكون الحزن فينا كامنا، وعندما تتوفر اشتراطاته أو معطياته يفور من حينه ليعلن أنه قوة قادرة على مدهامة واختراق كل الحواجز التي سترته قبل الظهور.

الحواس هي المُمكِّنة من الإدراك العقلي لكل ما هو ظاهر وما هو باطن، وحيث ما يكون الظاهر في الصدارة متحركا يكون الباطن من ورائه ساكنا، وقد يتماثل الظاهر مع الباطن وقد لا يتماثل، فعندما يكون القول كاذبا بطبيعة الحال يكون مخالفا للحقيقة. وعندما يكون صادقا يصبح مماثلا لها، وهكذا في كل أمر. وعليه، عندما تُترجم الأقوال الظاهر في سلوكيات وأفعال تمر شخصية الإنسان حسب مواقفها من الحقيقة بخمسة مستويات قيمية هي:

- ١ . الاتزان الانفعالي لا سالب ولا موجب (ذاتية حيث التمرکز على قيم المجتمع).
- ٢ . الميل لأخذ المواقف السالبة (الميل إلى ما لا يُرضي الآخرين، حيث الانسحاب من بعض القيم الاجتماعية).
- ٣ . بلوغ قمة المواقف السالبة (الشخصانية حيث ظهور السلوك الأناني والتفكير في الأنا فقط).
- ٤ . الميل لأخذ المواقف الموجبة (التطلع لكل مرضي حيث المنطق والحُجة).
- ٥ . بلوغ قمة المواقف الموجبة (الموضوعية حيث العقل سيد الميدان مع الرقي في حُسن التصرف).

وبناء على ما سبق فإن القاعدة هي:

- ١ . الظاهر يُشاهد.

٢ . الظاهر يُلحظ.

٣ . الكامن ساكن.

٤ . وراء كل ظاهر كامن.

والاستثناء هو:

١ . انعدام مشاهدة الظاهر.

٢ . انعدام ملاحظة الظاهر.

٣ . انعدام سكون الكامن.

٤ . أن لا يكون وراء الظاهر كامن.

الظاهر مثبت بالقول والفعل والسلوك والأثر:

بما أن الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظ، ومثبت بالفعل والسلوك ويترك أثرا.

إذن فهو قابل للنفي والإثبات.

ولذا فالقاعدة هي:

١ . الظاهر مثبت بالقول.

٢ . الظاهر مثبت بالفعل.

٣ . الظاهر مثبت بالسلوك.

٤ . الظاهر مثبت بالأثر.

والاستثناء هو:

١ . الظاهر لا يُثبت بالقول.

٢ . الظاهر لا يُثبت بالفعل.

٣ . الظاهر لا يُثبت بالسلوك.

٤ . الظاهر لا يُثبت بالأثر.

ولذا، فالقواعد تُثبت وجود قضايا، والاستثناءات تُنفي وجودها. ومع ذلك تخضع أدلة الإثبات إلى التقويم في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع). ولهذا ليس كل فعل أو سلوك يُحَثُّ أو يُحَرِّض عليه. فهناك البعض السلوكي يُنهى عن ارتكابه، حيث لا يُحَرِّض عاقل على فعل مُشين. وبما أنه لا يتم التحريض من قبل عاقل على كل فعل أو سلوك. إذن الانتباه إلى القواعد هو الأساس في التمييز بين ما يجب وما لا يجب. فالقاعدة تتمركز على التبيين. والاستثناء يتمركز على الغموض. وعليه:

- تبيّن قبل أن تقدّم.
- تبيّن قبل أن تتسحب.
- تبيّن قبل أن تفعل.
- تبيّن قبل أن تسأل.
- تبيّن قبل أن تحكم.
- تبيّن قبل أن تقدّم.
- تبيّن لتقف على اليقين.

الأفعال ظاهرة والغموض يحفها:

بما أن الأفعال الظاهرة بيّنة، إذاً كيف تُحَف بالغموض.

بطبيعة الحال ليس كل ما يُقال حقيقة، فبعض ما يقال يحفه الخطأ أو يتعرض له، والبعض يحفه الصواب أو يتوحد معه، ففي الوقت الذي يميل فيه البعض عن قول الحق، في الوقت ذاته يميل البعض إلى التمسك به، ولهذا دائماً بعض القضايا صادقة وبعضها دائماً كاذبة.

ولهذا فالقول بعد الاستماع إليه تترتب عليه استجابة، قد تكون مُعلنة، وقد تكون غير مُعلنة. في كلتا الحالتين، تقع الاستجابة في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) ما يجعلها في أربعة احتمالات:

- ١ . أن تكون متوقعة صادقة.
 - ٢ . أن تكون متوقعة كاذبة.
 - ٣ . أن تكون غير متوقعة صادقة.
 - ٤ . أن تكون غير متوقعة كاذبة.
- وفي مقابل ذلك يمكن أن تكون:
- . ظاهرة صادقة.
 - . ظاهرة كاذبة.
 - . باطنه صادقة.
 - . باطنه كاذبة.

وعليه

- . لا تسلم بكل ما يقال.
- . لا تسلم بكل ما يفعل.
- . تبين الظاهر من الكامن.
- . لا تستعجل بغرس الثقة.
- . أظهر حسن النية.
- . أعمل على تأكيد حسن النية.
- تقبل العباد كما هم.
- . أعمل على نقلهم إلى ما يجب.

لذا يُعد التبيّن ضرورة لأجل التأكد من سلامة ما يُقال. ولأنّ ما يُقال في كثير من الأحيان يرتبط بالأفعال والسلوكيات، ولأن كل ما يُقال في بعض الأحيان ليس بحقيقة، إذاً قد لا ينطبق الفعل مع القول. فإذا حدث ذلك تصبح الأفعال مُحفّة بالغموض (أصبح القوا أو الفعل الظاهر لا علاقة له بما هو باطن).

ولذا، الفاقد للمصادق والحقيقة، يعكس أفعالاً فاقدة هي الأخرى للمصادق والحقيقة. ولهذا تُحف الأفعال الظاهرة بالغموض. ما يجعل دور الخليفة وتقصيه، في اتجاه إزالة اللبس والغموض.

ولهذا القاعدة هي:

تمائل الظاهر مع الكامن.

والاستثناء هو:

عدم تماثل الظاهر مع الكامن.

الكامن، غير متيسر للمشاهدة مع أنه يشغل حيّزاً وقابل للظهور:

مع أن الباطن غير متيسر للمشاهدة برغم أنه يشغل حيّزاً، إلا أنه السابق على القول والفعل. فلو لم يكن الباطن ما كان الظاهر، ولهذا القاعدة الفكرة أولاً وإظهارها والعمل بها ثانياً. وبذلك يعد الكمون هو الأصل، حيث تكمن النخلة في النواة، مثلما يكمن الزيت في ثمرة الزيتون.

لذا: الظاهر هو النواة، والكامن هو النخلة. مثلما الزيت هو الكامن وثمره الزيتون هي الظاهرة. وعليه كل كامن قابل للظهور كلما توفرت اشتراطاته. وقابل للاستقراء والاستتباط كلما لوحظت ردود أفعاله، وقابل للإثبات والمقارنة كلما تلمسنا الأثر وشاهدناه، وهكذا تكمن الحقائق في العلل والسباب التي من خلفها مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ

عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ^{٥٩٧}.

ولهذا فالقاعدة هي:

- ١ . الباطن غير متيسر للمشاهدة.
 - ٢ . الباطن يشغل حيزا.
 - ٣ . الباطن قابل للظهور كلما توفرت معطياته.
- والاستثناء هو:

- ١ . تيسر الباطن للمشاهدة.
 - ٢ . أن لا يشغل الباطن حيزا.
 - ٣ . انعدام قابلية الباطن للظهور.
- وعليه:

- ١- يسر الأمر تُيسر لك الأمور.
- ٢- يسر يتم تقبلك.
- ٣- يسر تُغرس الثقة فيك.
- ٤- يسر يتم الاعتراف بك.

ولهذا فالتيسير يُمكن من الآتي:

- . التيسير يُمكن من نيل الاعتراف.
- . التيسير يُمكن من غرس الثقة.
- . التيسير يُمكن من إنجاز الأهداف.
- . التيسير يُمكن من المشاركة والتفاعل.
- . التيسير يُمكن من التقبل المتبادل.

. التيسير يُمكن من بلوغ الأغراض والغايات.

. التيسر يُمكن من أحداث النقلة.

اعرف الباطن تعرف الحقيقة:

وبما انه لا يمكن أن تعرف الحقيقة إذا لم يُعرف الباطن من أمرها .

وبما أن الفعل والسلوك ظاهرين والحقيقة موضوع احتمال (في حالة شك) إذن قد تُرتكب الأفعال والسلوكيات وهي لا تحمل أو تُجسد حقائق (بلا مصادق) ولهذا فلا يغزك الظاهر إن لم يكن هو الحق.

أذن الظاهر قد يُغرر بمن يضع الثقة فيه إن لم يكن الظاهر هو الحق.

وعليه:-

. تأكد قبل أن تقدم.

. تبين قبل أن تتخذ قرارا.

. خطط قبل أن تعمل.

. فكر حتى تعرف.

. لا تتسرع فالتسرع مصيدة.

. تأنى فكل شيء ممكن.

. تحقق بمقارنة.

. دقق بملاحظة.

. استنبط بفطنة.

. حل بمنهج.

. ابحث بطريقة ووسيلة وأسلوب.

. شك حتى ترى الحقيقة بين يديك.

ولأجل أن يُسهم الخليفة في غرس الثقة، ويُسهم في إحداث النقلة، وفي صناعة المستقبل المفيد

والنافع، عليه بمراعاة الآتي:

. التقصي والتتبع الدقيقين.

. الوقوف عند كل ردة فعل.

. تقييم السالب وتقويمه.

. اعتماد الموجب وعرضه.

. تحديد الأهداف بكل وضوح.

. الإصرار وإن واجهته الصعاب.

. تنفيذ الأهم قبل المهم .

. تجنب المنهي عنه.

. رفض المحرم.

. ممارسة الحقوق.

. أداء الواجبات.

. حمل المسؤوليات.

بناءً على ما سبق لا ظاهر إلا والباطن من ورائه ولا علاقة سالبة أو موجة إلا وهي نتاج قيم

الترابط بين الباطن والظاهر في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

يتداخل الظاهر مع الكامن في علائق قيمية وترابط متين مثلما يتداخل المتوقع وغير المتوقع في

دائرة الممكن. وعليه يكون الإيمان سابقاً على السلوك والفعل المترتب عليه، كما تسبق الخيانة

أو الردة السلوك أو الفعل الذي يرتكبه الخائن أو المرتد.

ولأن علاقة قوية تربط دائرة الظاهر والباطن، بدائرة المتوقع وغير المتوقع، لذا فبالضرورة أن

يكون في دائرتيهما ما هو محتمل بالسالب وما هو محتمل بالموجب.

وعليه:

- في حالة التماثل العلائقي، يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب.
 - في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل السالب مع الكامن الموجب.
 - في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب.
- الثقة في حالة اهتزاز بين باطن وظاهر:

الثقة قيمة أخلاقية تُغرس في من يستطيع حملها، وتُزرع ممن لا يستطيع. ومع أنها لا تُغرس بقرار، إلا أنها قد تنزع به. غرسها يحتاج إلى زمن ومعطيات مرضية وقبول إرادي، أما نزعها فمترتب على فعل أو سلوك سالب أو مجموعة أفعال سلبية، مرتكبة عن وعي وقصد. ولهذا يتضح اهتزاز الثقة وثباتها في الآتي:

قول موجب + فعل سالب. لا يؤدي إلى غرس الثقة.

قول سالب + فعل موجب. لا يؤدي إلى غرس الثقة.

نية صادقة + قول صادق + فعل صادق = حقيقة نافعة. تؤدي إلى غرس الثقة.

نية كاذبة + قول صادق (ظاهرياً) لا يساوي حقيقة.

بلا شك هناك علاقة موجبه أو سالبة تربط الظاهر بالباطن.

في حالة التماثل العلائقي يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي لا يتماثل الفعل السالب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب .

وعليه أينما يكمن السالب يكمن الضعف فيه.

وأينما يكمن الموجب أو يظهر تكمن القوة فيه.

يستقرأ الباطن من الفعل الظاهر:

اللسان ينطق يتكلم وقد يقسم لك بما يعتقد أنه مُمكن لك من تصديقه، ومع ذلك قد لا يكون صادقا.

المزور أو الخائف قد يُظهر لك الوثوق وعدم الخوف في نفسه، ومع ذلك بالملاحظة ينكشف سره أو أمره.

وعليه لحن القول علامة تستوجب أخذ الحيطة من الذي يُلحن في قوله.

عدم الثبات أثناء الحديث الموضوعي يستوجب وضع علامة الشك على صاحبه.

جفاف الحلق، واصفرار الوجه، وتصيب العرق، وعدم السيطرة على حركة اليدين (ارتعاشهما) أثناء المواجهة التقييمية أو الاختبارية لما هو كائن، هي علامات دالة على الخوف والارتباك في اتخاذ المواقف والتردد عنها. ولذا فهي تتأرجح بين المتوقع حيناً وبين غير المتوقع حيناً آخر.

الباطن ما ليس بظاهر، والباطون هو استتار الشيء عن الحس. ولذا فإن الكمون هو بطون كل حقيقة، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزاً لا تراه العينين ولكن يدركه كل عقل ناضج سليم. وهكذا تبطن الأسرار أو تكمن في الصدور حتى يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة.

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف على جوهره، على أسراره وخفاياه، فالإنسان يبطن في جوهره كما يبطن أو يكمن في بصماته. ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف على البصمة، بل الغاية معرفة صاحبها أولاً، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانياً، وثالثاً معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلى ارتكابه، وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامناً في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد، فكثيراً من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وأثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة، وكأنه لم يكن سارقاً، وبعد إجراء عملية المقارنة البصماتية، تم القبض عليه فكان هو السارق.

وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهداً، وقد لا يكون كذلك. وقد يتوحد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها، والمجتمع في حشوده. ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع، لا

يمكن أن تشاهد، ولكنها تُلاحظ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يراء (يشاهد) الزواج. لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) على موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعى الناس إليه. إذن الذي تتم مشاهدته، هو الزوجين الذكر والأنثى، والعقد المكتوب بينهما على ورق، والناس الذين حضروا لأجل ذلك، وهذا كله لم يكن الزواج، بل هذه مراسم الزواج. الزواج توادد، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلى التباس بعضهما، حبا واشتياقا وفق اتفاق على مستقبل مشترك، يجعل الآخرين شاهدين على ذلك بأنه الحق، ومحرضين عليه. إذن الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة، وذكر وأنثى، وهذه تُلاحظ، ولا تشاهد بالعينين. والطلاق كموضوع هو الآخر يُلاحظ، ولا يشاهد، وهكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما، ولا يخضعان للمشاهدة، لان الذي يشاهد هم الأفراد، كبار وصغار، ذكور وإناث، وحشود من البشر، وهؤلاء لم يكونوا هم الأسرة، ولا المجتمع، مع أنهم عناصر تكوينهما، فبدون علاقات مشتركة ذات معنى لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنى للأسرة، أو المجتمع، ولهذا تتكون معارفنا من ظاهر وباطن وتوحد بينهما. فنحن نعرف الأبوة، والأمومة، والأخوة، ونعرف الخال والجد، ونعرف أيضا أن هذه المفاهيم جميعها لا تشاهد، لأنها كامنة ومرتبطة على علاقات يمكن ملاحظتها.

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية. ولكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أثناء تحليل البيانات والمعلومات، أن لا يغفل الخليفة عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتى لا تكون المعرفة قاصرة.

وللمزيد من التوضيح هل العبادات كدلائل كامنة، هي بالتمام العبادات كسلوك مشاهد. فالحج على سبيل المثال، هل هو ما نشاهده من سلوك، أم أنه أكثر من ذلك. أن المشاهد أثناء أداء فريضة الحج هو حشود من البشر، ترتدي زي موحد (الإحرام) وتقوم بحركات واحدة في مواقيت معينة، ويلحظ عليها التعاون، والانضباط، والمساواة في أداء الفرائض، وأنه لا رئيس لهذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم. فهل هذا السلوك المشاهد، والملاحظ هو الحج.

في اعتقادنا السلوك الظاهر، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج، ولم يكن الحج في ذاته. فالحج عقيدة وإيمان بوحداية الله، واعتراف بقديسية ذلك المكان، الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان، ويقين بأن ما قام به محمد (ص) من سلوك، هو الحق الذي يستوجب الإلتباع. ولهذا لو لم يكن هناك مدلولاً باطنياً لفريضة الحج، ما كان هناك ظاهر سلوكياً له.

قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ^{٥٩٨} فقله تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ} إثبات أنه الباطن، وإلا كيف علم ما يخفون لو لم يكن باطن، أنه يعلم السر وأخفى، {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ^{٥٩٩}. ولهذا يخفون في أنفسهم ما لا يبديون لك، تثبت حقيقة إن الباطن غير الظاهر، فظاهر القول شيء وباطنه شيء آخر، والباطن وحده يعلم ما يخفون وما يسرون.

قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} ^{٦٠٠}، خائنة الأعين تدل على أن حاسة البصر ومحيطها الحسي يظهر علامات الصدق والكذب وعلامات الخوف والفرحة أو الحزن، فمن يكون متفرساً في مشاهدته وملاحظته يستطيع استقراء المكتوب على الجبين بأفعال الحواس وردود أفعالها ذات العلاقة بما هو مخفي، وإذا كان الحال هكذا على المستوى البشري فما بالك يمكن يعلم ما تخفي الصدور إنه الباطن جل جلاله.

^{٥٩٨} آل عمران ١٥٤.

^{٥٩٩} طه، ٦ - ٨.

^{٦٠٠} غافر ١٩.

قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَفُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} ^{٦٠١}. يلحظ توضيحا بينا بأن المنافقين هم دائما يظهرن ما لا يبطنون، فهم في الظاهر يقولون بألسنتهم أنهم مؤمنون، وإذا خلوا، إذا انفردوا بحالهم يظهرن ما كانوا يبطنون وهو الكره والحقد على من آمن، ولأنه جل جلاله باطن فهو يعلم كل علم الباطن سواء كان في خائنة الأعين أو في الصدور ومهما كانت الأسرار فهو يعلمها وهي باطنة، ولهذا قال للمنافقين عز وجل وهو ينبه رسول الكريم عليه الصلاة والسلام بباطنهم بقوله: (قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا).

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ^{٦٠٢}، ولأن الخليفة لا يعلم إلا ما وقع في الماضي وما يقع في الحاضر ويتوقع ما سيحدث في المستقبل استقراء واستنباطا، فهو يعلم أيضا أن علم كامل في دائرة المطلق وهو لا يعلمه، أي انه يعلم أن الساعة آتية وهو يعلم أن أمرها علم غيب، أي لم يكن ممكنا معرفته في دائرة الزمان والمكان على مستوى العقل البشري.

واقتبس من روايتنا التي نشرت ٢٠٠١م بعنوان (البستان الحليم) ما يفيد التبين بين علم الغيب وعلم المستقبل "قصة لطيفة يا جدي، والحوار فيها ليس غريباً عن تفكير بعض من يتمثل تفكيره مع تفكير كتكوت، فأنا بعد أن تيقنت بأن اليوم الآخر أوسع وأعظم من يومنا هذا تيقنت أننا بني البشر في وسط هذا العالم مثل الكتكوت في وسط البيضة.

^{٦٠١} آل عمران ١١٩، ١٢٠.

^{٦٠٢} فاطر ٣٨.

ها أنت يا بني قد عرفت الشيء بالشيء ذاته، وما عليك الآن إلا أن تتعرف على فلسفة هذه العلوم لكي تتمكن من معرفة الفرق بين علم الغيب وعلم المستقبل. أعرف جيداً أنه لا فرق بين علم الغيب وعلم المستقبل.

لا يا ولدي، الفرق كبير، علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، أما علم المستقبل فكلنا نعلمه وفقاً لافتراضاتنا وخططنا.

استغفر الله يا جدي ما علم المستقبل إلا من علم الغيب وهذا لا يعلمه إلا الخالق سبحانه وتعالى.

يا بني لو سألتك: من أجل ماذا تأكل وتشرب وتتنفس. ألا تُجيبني من أجل المستقبل.

نعم لو لم أتنفس واشرب وأكل الطعام لا مستقبل لي على الإطلاق. وإذا سألك غيري يا ولدي بقوله: لو تحكّم أحد في مشربك ومأكلك وحاول أن يمنعك من استنشاق الأكسجين فماذا تفعل.

أقتله يا جدي قبل أن يقتلني.

لماذا.

لكي أعيش المستقبل.

ولماذا أنت راغب في حياة المستقبل.

أولاً: أنا نفس بريئة وقتل النفس البريئة مُحَرَّم.

ثانياً: أريد أن أفعل خيراً في هذه الحياة الدنيا لعله يفيدني في تلك الحياة الآخرة. وثالثاً: أريد أن أتعلم وأعمل وأبني مسكناً وأتزوج ليكون لي أبناء أعلمهم وأزوجهم

من بعدي، وأنا اهديهم إلى الطريق المستقيم في مرضاة الله الباطن والظاهر.

من أجل ماذا يا بني تريد أن تعمل كل هذا.

من أجل المستقبل.

إذن لديك خطة تستهدف بها كل ما ذكرت وأكثر.

نعم وهذا ما آمل أن أحققه في المستقبل.

ولكن هل يمكنك أن تضع خطة علمية وأنت لا علم لك بمبرراتها أو أنك لا تعلم

الأهداف التي من ورائها.

بالطبع لا.

إذن لا أهداف إلا في المستقبل، وإلا فمن أجل ماذا تصلي وتصوم وتزكى وتؤمن

على ممتلكاتك.

كل ذلك من أجل المستقبل.

إذن لو لم تعلم بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وفي الزكاة طهارة للنفس

وما تملك وفي الصوم سلامة للروح والبدن ما نويت القيام بها قبل أن تفعلها،

وعندما تؤديها لا جزاء لك عليها إلا في المستقبل.

يبدو أن كل حياتنا هي من أجل المستقبل، ولهذا يمكننا التعرف على علم المستقبل

من أوسع ميادينها إذا سعينا، وهو مثل الفرض الذي يستنبط من الموضوع ليربط

العلاقة بين متغيراته، ويمكن إثباته أو بطلانه بالنتائج المتوقعة له، فالبحوث

العلمية تنطلق من فرضيات في الزمن الآن وتسعى إلى تحقيقها في الزمن

المستقبل.

هذا صحيح ولذا نؤمن بأن اليوم الآخر يقع في المستقبل بما فيه من عقاب وثواب

وجنة ونار ونؤمن أن علم الغيب وقع ويقع وسيقع إن شاء الله.

والله هذا صحيح، وبما أن الأمر هكذا إذن ما هو علم الغيب.

علم الغيب إنه في الباطن فلا يعلمه إلا الله، فنحن نعلم بأن الساعة آتية في

المستقبل لا محالة، ولكن متى وكيف هذا علم غيب، وعندما يكون اليوم الجمعة

نعلم أن غداً سيأتي السبت بالقوة مادامت الحركة الفلكية مستمرة، ومع ذلك قد لا

يأتي غد السبت بالإرادة، فأنت يا بني عندما تفكر في المستقبل تعلمه وعندما تفكر في الغيب لا تعلمه مع أنك تعلم بوجوده، وعندما ترسم خطة لمستقبلك القريب أو البعيد فإنك ستوفر لها الإمكانيات التي تمكنك من تحقيقها وفقاً لعلم المستقبل ولكنك قد لا تحققها وفقاً لعلم الغيب.

جزاك الله خيراً يا جدي الآن فهمت الفرق بين العلمين، فأنا على سبيل المثال سأكتب كتاباً في المستقبل بعنوان (تواصل الحضارات) والآن أكتب كتاب عن (الخليفة في أسماء الله اللطيفة)، ولكن قد لا أتمكن من تأليفهما أو إتمام ما أنا اكتب وفقاً لعلم الغيب، وهكذا حال الطبيب الذي قرر إجراء عملية إشعاعية بعد غد لمريض لإنقاذ حياته من الموت فقد لا يتمكن هو كذلك بسبب موت المريض قبل الموعد المحدد لإجراء العملية أو بموت الطبيب المخطط لذلك.

ها نحن على اتفاق مع علماء الأرصاد بأن غداً سيكون الطقس معتدلاً وعلى اتفاق بأن غداً قد لا تشرق فيه الشمس علينا من جديد.

جدي، بما أن للشمس خالقاً عظيماً فلا بد أن تشرق من جديد.

معك حق، بما أنها موجودة قد تشرق على غيرنا ولا تشرق علينا، وبالضرورة لن تشرق عندما لا يُراد لها أن تشرق.

إذا أنتهت الشمس من الوجود فلا بد وأن تنتهي القمر الجميلة هي الأخرى من الوجود والتي لا أظن أن هناك أجمل منها. خالقها أجمل.

نحن في عصرنا نحكم على ما يشاهد ولا نحكم على ما لا يشاهد. هذا غير صحيح. هل شاهدت علم الغيب وعلم المستقبل عندما استطعت أن تقارن بينهما وتؤمن بهما.

بالطبع لا.

إذن بماذا حكمت عليها.

بالعقل.

إذن لا تنس أن العقل الذي تحكم به بين الأشياء أو عليها لا يشاهد، وعليك أن تعرف القاعدة العلمية التي تنص على أن (المخلوق دائماً لا يرى خالقه والخالق دائماً يرى ما خلق)^{٦٠٣}

وعليه فالباطن هو الله والظاهر هو الله، ومنه جل جلاله ظهرت الأشياء والمخلوقات وبطنت في الأسرار التي من ورائها، اللهم أظهرني على علم من علمك الظاهر والباطن، ومكّني باسمك الأعظم من إدراك ما نستطيع إدراكه من علمك الظاهر والباطن أنت الله الذي به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وأسرتي إليه إنك مجيب الدعاء فارحمنا أنت مولنا سبحانك لا مولى لنا غيرك وأنت الرحمن الرحيم.

اللهم يا الباطن يا رب العرش العظيم، يا من لا تراه العيون ولا تدركه الظنون، نسألك بأن تُطهّر قلوبنا وما يكن في الصدور، ونسألك أن تصلح لنا فساد أنفسنا ليكون في باطنها ما تطمئن به. اللهم يا الباطن اجعل قلوبنا تتير بنور اسمك الذي لا يخالفه الظاهر فننجو من النفاق في الاعتقاد والرياء في العمل، ونسألك يا الله أن تكون باطنا في قلوبنا بمعرفتك وخشيتك، وظاهرا في أعمالنا بمراقبتك والإخلاص لك، فيكون كل عمل لنا ظاهر أنت يا ربنا من ورائه الباطن. اللهم إنك الباطن الذي يعلم ما نسر ونجهر فلا تجعل شيئا مما نسر ونجهر في غير طاعتك، اللهم إنك الباطن الذي يعلم الغيب فاجعل لنا في علم غيبك المكارم والفضائل وما تطمئن به الأنفس إنك أنت الباطن سبحان جل جلالك.

^{٦٠٣} عقيل حسين عقيل، البستان الحلم، فاليتا، ٢٠٠١م، ص ١٧٧ - ١٨١.

الوالي

الْوَالِي "هُوَ الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ وَالْمُتَوَلَّى لَهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ يُنْفِذُ فِيهَا أَمْرَهُ، وَيُجْرِي عَلَيْهَا حُكْمَهُ"^{٦٠٤}.

الوالي "الذي يلي أمر الخلق ويتولى مصالحهم"^{٦٠٥}.

الوالي المطلق هو الله جل جلاله فهو والي من له والي، ووالي من لا والي له، فالأب والي ابنه، والله تعالى والي الأب والابن ومن سبقهم ومن سيلحق بهم.

أما الوالي بالإضافة فهو والي من لا والي له من العباد غيره بالرعاية والعناية الصحية والتعليمية والتربوية والخدمية المتعددة والمتنوعة.

الوالي المطلق هو والي العباد وولاتهم وأرزاقهم وسلامتهم وأمنهم وكل أحوالهم، فهو الوالي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أي أنه الوالي الشهيد الذي له الكمال والجلال فلا يغفل، وهو الباقي الذي لا يزول، ولهذا جميع الولاة يزولون إلا الوالي المطلق فهو باق سبحانه نعم الوالي ونعم الباقي جل جلاله.

^{٦٠٤} الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ١٧٤.

^{٦٠٥} تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٦١.

الوالي يعلم الأمر والنهي ويرزق من يشاء بغير حساب ولا ينتظر طلبا لذلك فهو المجيب بعلمه للحاجة والمحتاج، ويعطي بدون مقابل، ومن يحمده على عطائه ويشكره على خلقه له في أحسن تقويم يكون من المستخلفين في الأرض.

الوالي هو الراعي الذي يعلم الأحوال والظروف ويعلم مستقبلها قبل أن يعلمها من هو في حاجة للولاية والرعاية والعناية فيتولاه تعالى كفيلا بها، فنعم المولى ونعم النصير.

الوالي هو النافع بقوته وقدرته وملكه ورزقه وهيمنته وعلمه وحكمته وهو الضار لكل ضرر، والماكر بكل مكر، والكائد لكل كيد سبحانه لا إله إلا هو.

الوالي هو الله سبحانه وتعالى، وهو أسم من أسماء الله الحسنى عز وجل، وهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها، وكأن الولاية تُشعر بالتدبير والقدرة والفعل.

والوالي هو الله تعالى وهو الذي ولي الأمور وملك الملك والخلق، والولاية تنفيذ القبول على الغير شاء الغير أو أبى وفيه دليل على أن خلاف مراد الله محال، فانه المتفرد بتدبير الأشياء المنفذ للتدبير ولا معقب لحكمه، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطبق عليه اسم الوالي، وذلك أن الله هو الوالي لكل مخلوق على وجه العموم، ولكل مخلوق من الملائكة والجن والإنس على وجه الخصوص، وهو واضح من قوله تعالى: {لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} ^{٦٠٦} إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظكم، فكل واحد من الناس له ملائكة تحفظه بأمر الله وتتناوب على حفظه من أمامه ومن خلفه، وأن الله سبحانه لا يغير حال قوم من شدة إلى رخاء، ومن قوة إلى ضعف، حتى يغيروا ما بأنفسهم بما يتناسب مع الحال التي يصيرون إليها، وإذا أراد الله أن ينزل بقوم ما يسوؤهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره، ولا من يتولى أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم سوى واليهم الذي يتولاهم في كل شيء.

هذه المعقبات من الملائكة تبين مدى ولاية الوالي سبحانه وتعالى لعباده، فهم معقبات من بين يديه ومن خلفه، والمعقبات ملائكة الليل والنهار. ويقال للملائكة الحفظة معقبات لكثرة تعاقب بعضهم بعضاً في النزول إلى الأرض بعضهم بالليل وبعضهم بالنهار إذا مضى فريق خلفه فريق، "أي يعقب ملائكة الليل ملائكة النهار، وملائكة النهار ملائكة الليل ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر. والمعنى له ملائكة يتعاقب بعضهم بعضاً كائناً من أمام الإنسان ووراء ظهره أي يحيطون من جوانبه و يحفظونه من أمر الله، ومن بأسه ونقمة إذا أذنب، وبدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهلهم رجاء أن يتوب من ذنبه وينيب أو يحفظونه من المضار التي أمر الله بالحفظ منها"^{٦٠٧}.

فالله هو الوالي يتولى خلقه في كل شيء من أمرهم، فإذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما بهم من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع، وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل إلى الفرج بعد الشدة، فالله تعالى هو الوالي المطلق الذي يتولى كل شيء من خلقه. أما الوالي بالإضافة فهو الذي يلي الأمور بنفسه لما يتصف من صفات الوالي المطلق، وبذلك يكون خليفة في الأرض، فإن وليها غيره بأمره فليس بوال ولا خليفة، وإنما الوالي والخليفة هو المنصوب للولاية، وإنما سمي والياً لأنه يوالي الأمر من غير إهمال لأمر ما، مما له عليه ولاية، وإن لم يفعل فليس بوال، وإنما هو حاكم هوى وقد قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^{٦٠٨} فالله تعالى يخاطب الوالي بالإضافة بأنه جعله خليفة عنه في الأرض، ليحكم بين الناس بما شرع لهم، فلا يمشي في الحكم وراء الهوى،

^{٦٠٧} - تفسير حقي، ج ٦، ص ٢٣٣

^{٦٠٨} - ص ٢٦

فيحيد به عن سبيل الله، إن الذين يحدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عن يوم الجزاء.

فالوالي عز وجل عندما يخاطب الإنسان: إنا جعلناك خليفة في الأرض، أي استخلف الله أولياءه في الأرض، فالخليفة هو من استمد صفاته من صفات خالقه جل جلاله، أي انه قائل الحق ومتبعه الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فإن قلت آدم عليه السلام قد نص الله على خلافته فليس داود مخصوصا بالتصيين على خلافته قلنا ما نص على خلافة آدم مثل التصيين على خلافة داود، وإنما قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة فيحتمل أن يكون الخليفة الذي أراده الله غير آدم بأن يكون بعض أولاده، ولو قال أيضا إني جاعل آدم لم يكن مثل قوله إنا جعلناك خليفة بضمير الخطاب في حق داود فان هذا محقق ليس فيه احتمال غير المقصود، قال بعضهم تجبرت الملائكة على آدم فجعله الله خليفة، وتجبر طالوت على داود فجعله خليفة، فلذا جعل الله الخلفاء آدم وداود. وكان مدة ملك داود أربعين سنة مما وهبه الخليفة الأول من عمره، فإن آدم وهب لداود من عمره ستين سنة، فلذا كان خليفة في الأرض كما كان آدم خليفة فيها^{٦٠٩}.

فالخلافة والولاية الحقيقية ليست بمكتسبة للإنسان، وإنما هي عطاء وفضل من الله يؤتيه من يشاء كما قال تعالى (إنا جعلناك خليفة) أي أعطيناك الخلافة، وإنا جعلناك خليفة في الأرض أي استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة وواليا ممن قبلك من القائمين بالحق، فاستعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^{٦١٠}. وهذا يعني أن الإنسان وإن خلق مستعدا للولاية ولكن بالقوة فلا يبلغ درجاتها بالفعل إلا القليل النادر، فالولاية هنا، هي الخلافة بعينها، فهو الذي جعل من الخلق ولاية وخلفاء

^{٦٠٩} - تفسير حقي، ج ١٢، ص ١٤٣

^{٦١٠} - الأنعام، ١٦٥

للأمم فى عمارة الكون، ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى الكمال المادي والمعنوي لأخذهم فى أسبابه، ليختبرهم فيما أعطاهم من النعم كيف يشكرونها، وفيما آتاهم من الشرائع كيف يعملون بها، فقد جعل الله كل واحد من بنى آدم، آدم وقته وخليفة ربه فى الأرض، وواليا يتولى شؤون نفسه بما أمر به الوالى المطلق، ويتولى شؤون غير من اتصف بصفات الوالى عز وجل، وسر الخلافة والولاية، أن صورّه على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميحا بصيرا عالما قادرا متكلماً مريداً، فمن قام بهذه الصفات بما يرضى الله تعالى فهو والٍ وخليفة، فأنفاس الوالى وحركاته وتصرفاته عليه معدودة، والوالى لا يكون أبداً إلا فى الخير الذى لا بد منه، فإنه موجد على الدوام فلا تراه أبداً إلا فى فضل وأنعام وإقامة حد لتطهير، والتطهير خير، فإن الوالى على الحقيقة هو الله، وإن المنصوب للولاية بحكم الله، يحكم بما أراه الله وهو الحق الذى أمر به، وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه معلماً إيانا فقال: "لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك"^{٦١١} فالوالى لا يوالى إلا الخير ولا يأمر إلا بالخير، ولا يكون عنه فى العقوبة والمثوبة إلا الخير، ثم قال والشرّ ليس إليك، فالوالى لا يوالى الشرّ بل لا يفعله أصلاً، لأنه ليس إليه، فالوالى إذا كان من نصّب الحق فالشر ليس إليه إلا إذا ترك ولاية الحق وحكم بالهوى فضّل عن سبيل الله فله عذاب شديد بما نسي يوم الحساب، فيكون ديوان الحكم الإلهي يأخذه إذا حاسبه، فالشقي من تأخر تطهيره إلى ذلك المقام الأخروي، والسعيد من تقدم تطهيره فى الدنيا إما بتوبة يتوبها وإما بإنصاف، وأخذ منه فى الدنيا حتى ينقلب إلى الآخرة وليس عليه حق، وربما يكون ممن يمشي فى الدار الدنيا وما عليه خطيئة لكثرة ما يبنتليه الله به مما يقع له به من الكفارات، وعلى الوالى أن يأخذ بالنصيحة، فلا يغل فى الدين ولا يقل على الله إلا الحق ولا على الخلق إلا الحق فإنه المطلوب بما هو والٍ عليه وعنه.

^{٦١١} - سنن النسائي، ج ٣، ص ٤٤٧

والوالي الذي يتولي أمور الناس ويحكم بالعدل والإنصاف بما أمر به الوالي المطلق فقد كان جزاؤه أجراً عظيماً حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله^{٦١٢} من أئمة العدل والحاكمين بالعدل الذين يمكن لكل واحد منهم أن يكون الوالي والخليفة، وهؤلاء السبعة على الحقيقة يمثلون الوالي، وإن اختلفت الصور هذه السبعة اختلفت أعمالهم في الصورة، وجمعها معنى واحد، وهو مجاهدتهم لأنفسهم، ومخالفتهم لأهوائها، وذلك يحتاج أولاً إلى رياضة شديدة، وصبر على الامتناع مما يدعو إليه داعي الشهوة أو الغضب أو الطمع، وفي تجشم ذلك مشقة شديدة على النفس، ويحصل لها به تألم عظيم، فإن القلب يكاد يحترق من حر نار الشهوة أو الغضب عند هيجانها إذا لم يطفء ببلوغ الغرض من ذلك، فلهذا كان ثواب الصبر على ذلك أنه إذا اشتد الحر في الموقف يوم القيامة، ولم يكن للناس ظل، يظلهم واليهم ومولاهم ويقيهم حر الشمس يومئذ، وكان هؤلاء السبعة في ظل الله عز وجل، فلم يجدوا لحر الموقف ألماً جزاء لصبرهم على حر نار الشهوة أو الغضب في الدنيا، وتتجسد صورة هؤلاء السبعة في شخص الوالي العادل، ومن جرى مجراه وسار على خطاه.

إن الوالي الذي يعطيه الله الولاية مما يجب أن يحمل من الصفات فيصونها ويؤدي حقها، فقد خصهم الوالي عز وجل بنوع خاص من الثواب يوم القيامة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا"^{٦١٣} فالذين ما ولوا أي كانت لهم ولاية، والمقسطون هم العادلون.

^{٦١٢} - موطأ مالك، ج ٦، ص ٢٢

^{٦١٣} - صحيح مسلم، ج ٩، ص ٣٥٠

وأما المنابر فإما أن يكونوا على منابر حقيقية، وإما أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة، والوالي العادل الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تقريط هو صاحب هذه المنابر، بما كان يقي نفسه ويأمر غيره باتقاء أنفسهم من المهلكات و المعاصي. والوالي المطلق هو متولي إدارة الكون والخلق وفق نظم لكل خصوصية ووفقا للنظام العام الذي ارتضاه لخلقه ولما خلق، والوالي بالإضافة هو من يتولى إدارة نفسه ويتولى أمر من له علاقة به وتستوجب رعايته عناية وحفظ، فالأب والي لأبنائه حتى يغرس روح الولاية والأبوة فيهم، والأم والي على أبنائها حتى تغرس روح الأمومة فيهم، والأخ الكبير والي على الأخوة الصغار حتى يغرس روح الأخوة فيهم، والعالم والي للجاهل حتى يجعل منه عالما، والمصلح والي للمفسد حتى يجعله على الصلاح، والقوي والي للضعيف حتى يُمكنه من القوة، والعادل والي للظالم حتى يرده للحق، والأستاذ القدوة والي على التلاميذ والطلبة حتى يجعلهم على القدوة الحسنة، وهكذا من يولى على أمر يكون واليا على ما ولي به، وتكون طاعته في الأمر واجبة في غير معصية الله تعالى.

لذا فالوالي بالإضافة يرفع رعيته ويسوسهم ويحفظهم، فهو يعلم أن الطريق إلى خير الإنسان وما فيه من صلاح الدنيا والدين هي ولاية النشء الصغير من أهم الأمور وأوكدها لأنهم أمانة عند والديهم اللذين هما ولاة على التربية والإصلاح للأبناء، فالابن وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة يميل إلى كل ما يمال به إليه، فإن تعود الخير وتعلمه ونشأ عليه سعد في الدنيا والآخرة وتأدب، وإن عود الشر وأهمل، شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عز وجل: **لَيَأْتِيَنَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**^{٦٤} ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم، ولا يحبب عليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا

كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره. ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، ولا يحرق النظر إليه ولا إلى من يأكل، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبهه كل من يكثر الأكل بالبهايم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان، وأن يحبب إليه الإيمان حتى يستتير قلبه به، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من مخالطة الأشرار والمفسدين.

إن الأمر بالوقاية من قبل الوالي هي بمعنى الحفظ والحماية والصيانة للنفس، والمراد بالنفس هنا ذات الإنسان لا النفس الأمارة، والمعنى حفظ النفس وإبعادها عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات وكذلك أهليكم بالنصح والتأديب والتعليم، وقد وجب على الوالي هنا، وكل والٍ وجب عليه الأمر بالمعروف للأقرب فالأقرب، ورحم الله رجلا قال: يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معهم في الجنة، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كلكم راع ومسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته قال فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال والرجل في مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته فكلكم

راع وكلكم مسؤول عن رعيته^{٦١٥} فكلكم راع، فعلى من كان واليا إقامة الأحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للناس كافة، و عليه أن يراعي حقوقهم، وأن يقوم عادلا بمصالحهم، ويعم بذلك جميع الناس فيدخل فيه المرعي أيضا، فالجواب أنه مرعي باعتبار، راع باعتبار آخر، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعيا لجوارحه وحواسه فهو والٍ عليها، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده، والرعاية من الوالي بمعنى الحفظ، يعنى كلكم ملتزم بحفظ ما يطالب به من العدل إن كان واليا، ومن عدم الخيانة أن كان موليا عليه، وكلكم مسؤول عما التزم حفظه يوم القيامة فالوالي على الناس راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، والعبد راع على مال سيده، والكل مسؤول والكل والٍ، و أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله وخص غيرهم بالنصيحة، مع أن حكم الأجانب من الوالي كحكمهم فى ذلك لأن الأقارب أولى بالنصيحة لقربهم كما قال تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} ^{٦١٦} وانذر العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي للأهل والأقارب، وإنما أمر بإنذار الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أهم، وهكذا لو الكل أنذر أهله الأقربون للحق الأمر الأبعد أيضا، ولكن البداية بهم فى الإنذار أولى، كما أن البداية بهم فى البر والصلة وغيرها أولى، وهنا شروط الأمر والنهي واجبة من الوالي فى حق الأجانب والأقارب وخاصة الأهل.

والوالي ليس فقط من دخل الناس فى ولايته من أهله أو من كان مسؤولا عنهم، وإنما أيضا، إضافة إلى ذلك فإن الإنسان نفسه هو والٍ على نفسه من الغرائز والجوارح والشهوات. الخليفة هو الوالي، وهو ظل الله فى الأرض، إذا حكم بين الناس عدل، والناس يستريحون إلى ظل عدله من حر الظلم، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليهم التقويم، وإذا كفر خرجوا عن طاعته.

^{٦١٥} - صحيح البخاري، ج ٨، ص ٢٥٣

^{٦١٦} - الشعراء ٢١٤

فبترتب على الوالي العدل والإنصاف حتى ينطبق عليه الوصف بأنه ظل الله في أرضه وخليفته فيها، فإذا جارت الولاية قحطت السماء، أي إذا ذهب العدل انقطع القطر فلم تنبت الأرض فحصل القحط لأن الوالي فاصل بين الحق والباطل فإذا ذهب الفاصل انقطعت الرحمة، وإذا منعت الزكاة هلكت العلاقات بين الناس، الزكاة رحمة من منعها منع رحمة الله في أرضه، ومن آتاها اتبع عدله المطلق في أرضه، وإذا منعت الزكاة بقي المال بدنسه ولا بقاء للبركة مع الدنس، وإذا ارتحلت البركة عن شيء هلك لأن نسله ينقطع، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة لأن الغنى من فضل الله، والفضل لأهل الفرح بالله وبعطائه وبالمناكحة الشرعية يلتقي الزوجان على الفرح بما أعطاهم الله، فمن زنا فقد آثر الفرح الذي من قبل الفحش، على الفرح الذي بفضل الله فأورثه الضلال.

لذلك وجب على الكافة إطاعة الوالي لأن طاعته من طاعة الله حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^{٦١٧} فإيا أيها الذين صدقوا بما جاء به محمد أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأطيعوا الذين يلون أمركم من المسلمين القائمين بالحق والعدل والمنفذين الشرع، فإن تنازعتم في شيء فيما بينكم فاعرضوه على كتاب الله وعلى سنة رسوله لتعلموا حكمه، فإنه أنزل عليكم كتابه وبينه رسوله، وفيه الحكم فيما اختلفتم فيه، وهذا مقتضى إيمانكم بالله واليوم الآخر، وهو خير لكم، لأنكم تهتدون به إلى العدل فيما اختلفتم فيه، وهو أحسن عاقبة، لأنه يمنع الخلاف المؤدى إلى التنازع والضلال، وهنا وجوب طاعة الولاية، وهم أمراء الحق وولاية العدل، ومن يقتدى بهم من المهتدين، وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله والرسول في وجوب الطاعة، حيث نهى الوالي عز وجل عن اتخاذ أهل الباطل أولياء لأنهم بعيدون عن الحق قريبون من الظلم والضلال فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^{٦١٨} فلا يحل لكم أن تتخذوا اليهود ولا النصارى نصراء توالونهم، فهم سواء في معاداتكم. ومن جعل لهم الولاية عليه فإنه من جملتهم، وإن الله لا يهدي الذين يظلمون أنفسهم بجعل ولايتهم للكافرين. فهو خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين، أي لا تتخذوا أحدا منهم وليا، بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشرهم مصافاة الأحاب ولا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فإنه أمر ممتنع، لأن بعض كل فريق من ذلك الفريقين أولياء البعض الآخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر، لأنه لا موالاة بين فرقي اليهود والنصارى رأسا، والكل متفقون على الكفر مجمعون على أذاكم ومضاركم فيكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة، ومن يتخذهم أولياء فإنه منهم ومعهم في النار وهذا إذا تولاهم لدينهم، وأما الصحبة لمعاملة شراء شيء منهم أو طلب عمل منهم مع المخالفة في الاعتقاد والأمور الدينية فليس فيه هذا الوعيد، وفيه زجر شديد عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة، لكون من يتولاهم منهم لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بترك إخوانهم المؤمنين وبموالاة أعداء الله، وإنما وجبت الموالاة للوالي الحق العادل الذي خوله من يتعلق الأمر به فردا أو جماعة أو مجتمعا، ولهذا جاء قوله: (أولي الأمر منكم) أي الذين أوليتموهم أمر التصرف فيما أوليتموهم فيه، وهنا تستوجب الطاعة، إما إذا خان الوالي ما ولي عليه فلا طاعة له بعد خيانة الأمانة. ولذلك على المستوى البشري لا إطلاق في أمر الولاية، والوالي على الحقيقة المطلقة هو الله تعالى فمن ثبت له هذا الاسم بالوجه الأعم فالأعم فهو أولى بالناس من أنفسهم، لذلك على المستوى البشري وجبت طاعة الوالي ما أن يأمر بمعصية، فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"^{٦١٩}.

وأما الولاية وهي الخلافة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، "فخير البلاد الذي يصيبها من الوالي العادل هو إعمارها بما أراد الله تعالى من خليفته في أرضه، وأما

٦١٨ - المائدة ٥١

٦١٩ - صحيح مسلم، ج ٩، ص ٣٧٠

خير العباد فيما يأخذ بأيديهم إلى الهدى والصلاح وسبيل الرشاد حتى ينجو مما هو حامل أمانته، وينجيهم بأن أوصلهم إلى طريق الأمان والسلامة بدعوة الحق وإقامة العدل، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر"^{٦٢٠} فالمقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا. والعدل لأنه الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من الحق، فهذا الوالي العادل أقربهم من محل كرامته وأرفعهم منزلة لامتثال قول ربه تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه إمام جائر في حكمه على رعيته فإن الله يبغض الظلم ويبغض الظالمين ويعاقبهم. فالولاية والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها من عظم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا، فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدر في جاهه وولايته وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً. ولهذا الخطر العظيم كان الأتقياء يخشون تقلد الولاية. ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك، بل الحق فيه أن الخواص الأتقياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، ونعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستنزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الولاية والخلافة، ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فلا يخوض في الولايات، ومن جرب نفسه فرأها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية

وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل، فيداهن خيفة من العزل، فهذا قد يختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية أم لا؟ ونحن نقول أنه يجب أن لا يكون خوف أمر في المستقبل، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية، فكيف إذا أظهرت التردد، والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداينة وإهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمانة الشر.

ومن واجب الوالي بالإضافة مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الناس والصبر على أخلاقهم واحتمال ما يصدر عنهم من تقصير والسعي في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم والعمل على تقويمهم إلى ما يجب الاتباع وتجنب ما يجب الاجتناب، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، فمعاونة الولاية بمنزلة الجهاد في سبيل الله. والوالي من يتولى الله سبحانه أمره، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه، رعايته، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي، من غير أن يتخللها عصيان، والوالي يجب عليه القيام بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء حتى يكون والياً بصدق.

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} ٦٢١ الله سبحانه وتعالى هو الوالي الذي يتولى أموركم جميعاً، قال تعالى: لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا

عَلَى اللَّهِ رِزْقَهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^{٦٢٢} فهو أمر بتحديد الولاية وحصرها في الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وفي المؤمنين الذين يأترون بأوامر الله في الطاعة والعبادة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وما دون ذلك فليسوا أولياءكم لأن بعضهم أولياء بعض، إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تخطئوهم إلى الآخرين.

لقد بين الله تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، بقوله: (إنما وليكم الله ورسوله) فالذي يتولى مصالحكم ويحقق تدبير أموركم هو الله تعالى، ورسوله يفعل ذلك بأمره، وكذلك المؤمنون بالحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طاعة لله تعالى، فقد بينت الآية الوالي المطلق والولاية بالإضافة، فهؤلاء أولى بتدبير أموركم ويجب عليكم طاعتهم في غير معصية الوالي المطلق الذي بيده الأمر والنهي وبيده الرزق والحياة والممات والبعث سبحانه لا إله إلا هو نحمده ونشكره ونستغفره ونتوب إليه.

فموالاة الله تكون في معاداة من خالفه فيما أمر وشرع وانتهك حرّماته بارتكاب المعاصي، فقد خص الله تعالى المؤمنين بالموالاة تحديداً وفرق بين الإيمان والإسلام، لأن الإيمان أعلى درجة من الإسلام حيث قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^{٦٢٣} فالإيمان هو التصديق بالله ورسوله المقرون بالثقة وحقيقة الصدق وطمأنينة القلب قال تعالى: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^{٦٢٤} فالإسلام انقياد ودخول في السلم وإظهار الشهادة.

وموالاة الرسول في معاداة النفس ومخالفة الهوى كما قال عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"^{٦٢٥}.

^{٦٢٢} هود، ٦.

^{٦٢٣} - الحجرات ١٤

^{٦٢٤} الحجرات ١٤.

^{٦٢٥} - الإبانة الكبرى، ج ١، ص ٢٩٨.

فالموالاتة هي الإيمان الكامل، الذي وعد الله أهله بدخول الجنة، والنجاة من النار، ولا يكون ذلك إلا بالقصر عما تحبه وتميل نفسه إليه، وتبعا لما جاءت به هذه الشريعة المطهرة الكاملة، بأن يميل قلبه وطبعه إلى الوالي الذي والاه وهو الله ورسوله، ويكون ذلك اكبر مما يحب من الأشياء الدنيوية التي جبل على الميل إليها من النفس والمال والولد والوالد، ومن كان هواه تابعا لجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا كاملا يعرف حق الوالي.

إن الوالي عز وجل إذا أراد أن ينزل بقوم ما يسوءهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره، ولا من يتولى أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم، وهو سبحانه يحفظهم، فكل واحد من الناس له ملائكة تحفظه بأمر الله وتتناوب على حفظه من أمامه ومن خلفه، وأن الله سبحانه لا يغير حال قوم من شدة إلى رخاء، ومن قوة إلى ضعف، حتى يغيروا ما بأنفسهم بما يتناسب مع الحالة التي يصيرون إليها، وإذا أراد الله أن ينزل بقوم ما يسوءهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره، ولا من يتولى أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم.

فإذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغيروا عليهم ما بهم من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغيروا ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل.

و إذا غيروا ما بألسنتهم من الذكر غير الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيان والغفلة، وإذا كان العبد في بسطة وتقريب، وكشف بالقلب وترقب فالله لا يغير ما بأنفسهم بترك أدب، أو إخلال بحق، أو إمام بذنب .

والوالي سبحانه وتعالى لا يكف ما أتاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويغير ما هو به من الشكر والحمد. فإذا قابل النعمة بالكفران، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يطيح به من العصيان، أبدل الله تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان، وسلبه ما كان يعطيه من الإحسان. و إذا توالى المحن وأراد العبد زوالها فلا يصل إليه النقيض منها إلا بأن يغير ما هو

به، فيأخذ في السؤال بعد السكوت، وفي إظهار الجزع بعد السكون، فإذا أخذ في التضرع غير الوالي ما به من الصبر.

إن الله سبحانه وتعالى هو الوالي، وهو الذي يتولى عباده المؤمنين الصالحين، ويتولى الصالحين لأن الله ورسوله أولى بالمؤمنين من أنفسهم فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾^{٦٢٦} فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينصر عباده وهو الله الذي يتولاهم بكل أمورهم في تسييرها وتدبيرها، والوالي هو الناصر والحافظ الذي يتولى نصر عباده وحفظهم، فالله تعالى يتولى الصالحين من عباده وينصرهم لا يخذلهم، فلا تضرهم عداوة من عاداه.

فالوالي جل شأنه سبق في مشيئته ووعدته أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم، وإنما خص اسم الذات بتتزيل الكتاب وجعلت الآية تعليلاً للدلالة على تفخيم أمر المنزل وأنه الفارق بين الحق والباطل وأنه المجلي لظلمات الشرك والمفحم لألسن أرباب البيان والمعجز الباقي في كل أوان وهو النور المبين والحب الممتين وبه أصلح الله تعالى شؤون رسوله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى تولاه حيث كمل به خلقه وأقام به أوده وأفسد به الأباطيل المعطلة، لذلك فإن ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي نزل الكتاب الذي تعرفون حقيقته ومثله يتولى الصالحين ويخذل غيرهم، والصالحون يتولاهم الله بفضله ويمنحهم مغفرته ويورثهم أرضه، فمن أعظم ما يضيفي السعادة على العبد ركونه إلى ربه، وتوكله عليه، واكتفاؤه بولايته ورعايته وحراسته، فهؤلاء الذين صلحت نياتهم، وأقوالهم، فهم لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر تولاهم الله ولطف بهم، وأعانهم على ما فيه الخير، والمصلحة في دينهم ودنياهم ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، فهذا التولي لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه فلا يكون متقدماً عليه وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه، وكونهم متقين وصالحين فدل على أن هذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين

والصالحين بنصره وتأبيده ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين، وهكذا الرحمة قال الراحمون
يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

فالله سبحانه وتعالى يتولى الصالحين، وهم الذين لا يعدلون بالله شيئاً فيتولاهم وينصرهم، ولا
تضرهم عداوة من عاداهم كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ} ^{٦٢٧} فالوالي جل جلاله ينصر من تولاه بالحجة والظفر والانتقام له من عدوه
بالاستئصال وغير ذلك من العقوبات العادلة، وأن الله تعالى ينتقم لوليه من الأعداء ولو بعد
حين كما بعد الموت، "ألا ترى أن الله تعالى انتقم ليحيى عليه الصلاة والسلام بعد استشهاده من
بني إسرائيل بتسليط بختنصر حتى قتل به سبعون ألفاً" ^{٦٢٨} وكمال النصرة في الظفر على أعدى
عدوك وهي نفسك التي بين جنبيك وهو الجهاد الأكبر، ولا يمكن الظفر على النفس إلا بنصرة
الحق تعالى للقلب، ولا يصل هذه الدرجة من التغلب على النفس وشهواتها إلا الوالي بالإضافة
الذي وصل إلى درجة الخليفة الذي أراه الله تعالى أن يكون مستخلفاً في الأرض لما يتصف به
من صفات الوالي النسبية التي تؤهله لأن يكون خليفة. وأول من يتولى الوالي المطلق من خلقه
ليكون والياً بالإضافة هم الصالحون، فقد قال الله تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي
الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} ^{٦٢٩} فهذا الجدار الذي
أقامه العبد الصالح - دون أجر - كان لغلامين يتيمين من أهل المدينة، وكان تحته كنز تركه
أبوهما لهما، وكان رجلاً صالحاً، فتولاه الوالي عز وجل وتولى ذريته من بعده بأن حفظ لهما
الكنز حتى يبلغا رشدهما، ويستخرجاه رحمة بهما، وتكريماً لأبيهما في ذريته. وما فعل ذلك العبد
الصالح باجتهاد منه أو علم، وإنما فعله بتوجيه من الوالي الذي تولى ذرية ذلك الرجل بعد موته

٦٢٧ - غافر ٥١

٦٢٨ - تفسير حقي، ج ١٢، ص ٤١١

٦٢٩ - الكهف ٨٢

إكراما لصلاحه، فمن أراد أن يحفظه الله في أبنائه فليخف من الله سبحانه وتعالى صلاحا وتقوى، وليحفظ الله في نفسه في السر والعلن، وفي السراء والضراء، وفي الصحة والمرض، فإن أهل الكنز الذين في سورة الكهف حفظ الله عليهم كنزهم، فلما كان ذلك الرجل صالحاً حفظ الله عليه أبنائه وكنزه، فكل من يتولى الله يتولاه الله في أهله وزوجه وأولاده ورزقه وفي مدخله ومخرجه حتى يلقي الله ربه.

إن الذين يتولاهم الله هم الفائزون بالدنيا والآخرة، ذلك أنهم اتصفوا بالصفات النسبية للوالي المطلق، فالتزموا وأمره وامتنعوا عن نواهيه، فأمنوا الخوف والحزن والجزع كما قال الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ٦٣٠ إن الموالين لله بالإيمان والطاعة يحبهم ويحبونه، فلا خوف عليهم من الخزي في الدنيا، ولا من العذاب في الآخرة، وهم لا يحزنون على ما فاتهم من عرض الدنيا، لأن لهم عند الله ما هو أعظم من ذلك وأكثر وهم الذين صدّقوا بكل ما جاء من عند الله، وأذعنوا للحق، واجتنبوا المعاصي، وخافوا الله في كل أعمالهم. لهؤلاء الأولياء البشرى بالخير في الدنيا، وما وعدهم الله به من نصر وعزة، وفي الآخرة يتحقق لهم وعد الله، ولا خلف لما وعد الله به، وهذا الذي بشروا به في الدنيا، وظفروا به في الآخرة هو الفوز العظيم.

من المعلوم أن أولياء الله هم أحباء الله وأعداء نفوسهم، لأن الولاية هي معرفة الله ومعرفة نفوسهم، فمعرفة الله رؤيته بنظر المحبة والخوف منه والتقوى والصلاح، ومعرفة النفس رؤيتها بنظر العداوة ومنعها الشهوات وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فإذا عرف الإنسان نفسه حق المعرفة وعلم أنها عدوة الله له وعالجها بالمعاندة والممانعة الحق وكسر الشهوات، أمن مكرها وكيدها، وهكذا يفعل أولياء الله حتى يتصفوا بالصفات الحسان النسبية للوالي.

وأولياء الله هم المؤمنون تمام الإيمان لقربهم الروحاني من الوالي سبحانه وتعالى، لأنهم يتولونه بالطاعات و يتقربون إليه بالتقوى والاستغراق في معرفته بحيث رأوا دلائل قدرته، وسمعوا آياته

ولهجت أسنتهم بالثناء عليه، فاجتهدوا في ذلك حق لذلك لا خوف عليهم في الدارين من أن يلحق بهم مكروهه، والخوف أنما يكون من حدوث شيء من المكاره في المستقبل، فهم أمنوا بطاعتهم وتقواهم ذلك الخوف لأنهم أصبحوا أولياء الله، ولا هم يحزنون أيضا من فوات مطلوب، لأن الحزن إنما يكون من تحقق شيء مما كرهه في الماضي أو من فوات شيء أحبه يندم عليه، فهم لا يعتر بهم ما يوجب ذلك، فلا يخافون ولا يحزنون، بل يستمرون على النشاط والسرور والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته، والسعي والجد في إقامة حقوق العبودية للوالي تعالى ليكونوا من خواص والمقربين.

الأولياء هم الأقلون عدداً، والأعظمون قدراً، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حجه حتى يودعوها من وراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فالوالي بالإضافة الذي اتصف بصفات الوالي المطلق من خلال علمه بقدرة الوالي وحقه واتباع أمره، وهو لم يكن من الذين ركنوا إلى هوى النفوس وملذاتها، إلا أن الوالي الذي يتولاه الله تعالى يأنس بما استوحش منه الغافلون، لأنه يصحب الدنيا بجسد روحه معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمناؤه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه الذين يرثون الأرض بما وعدهم الله من صالح أعمالهم، وضبط حركاتهم بموازين المعاني، وتصرفاتهم بالحسبان، فهذه سجية أولياء الله تعالى. وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه مدى أبعد، كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر، والتخلق بالأخلاق التي أمر بها أقرب إليه تعالى، وهو اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام وقرب منه، إذ القريب من النبي صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريباً، فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره.

إن الذين يتخلقون بأخلاق الوالي النسبية ويتمكن الإيمان في قلوبهم، فهؤلاء الذين يتولاهم الله تعالى، ويحفظهم بعنايته ويحفظهم برعايته لأنهم خلفاءه في أرضه بما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقد هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد الذي يخرجهم من الظلمات

إلى النور، فقد قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} ^{٦٣١} الله تعالى يتولى شؤون المؤمنين وهو ناصرهم، يخرجهم من ظلمات الشك والحيرة إلى نور الحق والاطمئنان، والكافرون بالله تستولي عليهم الشياطين ودعاة الشر والضلال، فهم يخرجونهم من نور الإيمان الذي فطروا عليه والذي وضح بالأدلة والآيات إلى ظلمات الكفر والفساد، هؤلاء الكافرون هم أهل النار مخلدون فيها.

وأما من والى الله تعالى فقد غمره بفضله ومحبه وإعانتة له، وهو الذي يتولى أمور أوليائه ولا يكلهم إلى غيره. فالوالي يكون باعتبار المحبة والنصرة فيقال للمحب والٍ لأنه يقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة لا يفارقه وقد يكون باعتبار التدبير والأمر والنهي فيقال لأصحاب الولاية أولياء لأنهم يقربون القوم بأن يدبروا أمروهم ويراعوا مصالحهم ومهماتهم ، فالله تعالى يتولى الذين عظم إيمانهم وثبت في علمه أنهم يؤمنون حق الإيمان، لذلك تولاهم الله وأخرجهم من الظلمات إلى النور، لأن إخراج المؤمن بالفعل من الظلمات تحصيل الحاصل، وهى أعم من ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه والشكوك، بل مما في بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلى مراتبها القوية الجلية بل مما في جميع مراتبها بالنظر إلى مرتبة العيان الذي يعم نور الإيمان ونور اليقين بمراتبه، ونور العيان يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من النور. وجمع الظلمات لان فنون الضلالة متعددة والكفر أنواع وملل متنوعة، وأما النور فقد أفردته فهو واحد، لأن الإسلام دين واحد، ويسمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه ويسمى الإسلام نورا لوضوح طريقه.

ومراتب المؤمنين في الإيمان متفاوتة وهم ثلاث طوائف، عوام المؤمنين وهم السواد الأعظم من المسلمين، وخواصهم وهم أعلى مرتبة، وخواص الخواص وهم أهل الذكر، فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية، والخواص الذين هم أهل الذكر والعلم،

وخواص الخواص الذين وصلوا إلى أعلى درجات الإيمان واتصفوا بالصفات النسبية للوالي فتولاهم الله تعالى وكانوا أوليائه فهم الخلفاء في الأرض.

قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} ^{٦٣٢} ومن يتخذ الله ورسوله والمؤمنين أوليائه ونصراءه فإنه يكون من حزب الله الذين تولاهم بعنايته ورعايته، وحزب الله هم المنتصرون الفائزون، ومن يتخذهم أولياء فإنهم الغالبون، ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون. وتشريفًا لهم بإضافتهم إليه تعالى وتعريضًا بمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان.

والغلبة على أعداء الله الظاهرة والباطنة، كالهوى والنفس والشيطان إنما تحصل بنصرة الله تعالى، وليست النصر والغلبة إلا بقوة الله تعالى وهو المعز وكل العزة منه تعالى، ولذا ترى الأنبياء والأولياء منصورين مظفرين على كل حال وهذه النصر والولاية من آثار عناية الله، وذلك لما منحهم من مواهب الرضا بمواقع القضاء والصبر عند نزول البلاء والتوكل على الله عند الشدائد والرجوع إلى الله عند النوائب، لهذا فأولياء الله تجب موالاتهم، وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم، وتحرم موالاتهم. وأولياء الله تعالى هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما ذكر الله ذلك في كتابه وهم قسمان المقتصدون أصحاب اليمين والمقربون السابقون فولي الله ضد عدو الله، فأولياء الله من والاهم بالموافقة له في محبوباته ومرضيته وتقربوا إليه بما أمر به من طاعته، وهؤلاء هم المقتصدون أصحاب اليمين وهم المتقربون إلى الله تعالى بالواجبات والسابقون المقربون وهم المتقربون بالنوافل بعد الواجبات.

إن من صفات المؤمنين موالاتهم بعضاً فدخل في ذلك رسل الله الذين هم أكمل المؤمنين إيماناً، وعليه فإن موالاتهم ومحبتهم في قلوب المؤمنين هي أعظم من موالاتهم غيرهم من الخلق لعلو مكانتهم في الدين ورفعة درجاتهم في الإيمان. ولذا حذر الله من معاداة رسله وعطفها في الذكر على معاداة الله وملائكته وقرن بينهما في العقوبة والجزاء، فقال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ^{٦٣٣} فمن كان عدواً لجبريل أو ميكائيل أو لأي ملك أو رسول من ملائكة الله ورسله الذين لا يفعلون ولا يبلغون إلا ما يأمرهم به الله، وكان مخالفاً لأمر الله عنادا وخارجا عن طاعته مكابرة فإنه بذلك يكون عدواً وكافراً به، والله عدو الكافرين، وإن من كان عدواً لجبريل لأجل أنه نزل بالقرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وجب أن يكون عدواً لله، لأن الله تعالى هو الذي نزله على محمد عليه الصلاة والسلام، فقد بين أن كل من كان عدواً لأحد من هؤلاء، فإنه عدو لجميعهم، وبين أن الله عدوه بقوله (فإن الله عدو للكافرين) فأما عدواتهم لله فإنها لا تضره ولا تؤثر وعداوتهم لهم تؤديهم إلى العذاب الدائم، الذي لا ضرر أعظم منه، المراد من عداوتهم لله وعداوتهم لأوليائه وأهل طاعته فهو كقوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ^{٦٣٤} أي يحاربون أولياء الله أهل طاعته. ومعادة أحد من ملائكته ورسله، فهو عداً لهم جميعاً، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم، وجبريل وميكائيل إنما خصهما بالذكر وإن كانا داخلين في جملة الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما وعلو منزلتهما، وقدّم جبريل على ميكائيل لفضله عليه لأن جبريل ينزل بالوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم الأولياء والخلفاء.

والموالاتة أن تتخذ ولياً، وأصلها من الولاية، والولاية هي المحبة، قال جل وعلا: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} ^{٦٣٥} يعني هنالك المحبة والمودة والنصرة لله الحق، فأصل الموالاتة المحبة والمودة، وأن أصل الموالاتة في القلب، فأصل الدين أن من دخل في (لا إله إلا الله) فإنه يحب هذه الكلمة وما دلت عليه من التوحيد، ويحب أهلها، ويُبغض الشرك المناقض لهذه الكلمة، ويُبغض أهلها. فكلمة الولاء والبراء هي معنى الموالاتة والمعاداة، وهي بمعنى الحب والبغض، فإذا قيل الولاء والبراء في الله هو بمعنى الحب والبغض في الله، وهو بمعنى الموالاتة

٦٣٣ - البقرة ٩٨

٦٣٤ - المائدة ٣٣

٦٣٥ - الكهف ٤٤

والمعاداة في الله، ثلاثة بمعنى واحد، فأصله في محبة القلب، إذا أحبَّ القلبُ الشرك صار مواليا للشرك، وإذا أحب القلبُ أهل الشرك صار مواليا لأهل الشرك، كذلك إذا أحب القلبُ الإيمان صار مواليا للإيمان، وإذا أحب القلبُ الله صار مواليا لله، وإذا أحب القلبُ الرسول صار وليا ومواليا للرسول صلى الله عليه وسلم، وإذا أحب القلبُ المؤمنين صار مواليا ووليا للمؤمنين.

فلكل مؤمن ولاية بحسبه، لكن اسم الوالي هذا خاص بمن كمل الإيمان والتقوى، و سعى في تكميل إيمانه وتقواه والإيمان، إيمان بالأركان الستة التي جاءت في القرآن الكريم وفي حديث جبريل عليه السلام عن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال: "يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان، قال يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك، قال يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ثم تلا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ٦٣٦. قال ثم أدبر الرجل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ردوا عليّ الرجل، فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم" ٦٣٧ وغيرها، ومنها الإيمان بالرسول، والإيمان بالكتب، ومن الإيمان بالرسول والإيمان بالكتب بل هو أخصها الإيمان بأنّ محمدا بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنّ القرآن خاتم الكتب، وأنّ طاعة محمد بن عبد الله فرض وليس لأحد أن يخرج عن طاعته، فمن أخذ بهذا وأيقن به واستمسك بما جاء من الله فهم من الأولياء الذين يخلفون الله تعالى في أرضه التي أورثها لهم لأنهم من العباد الصالحين.

٦٣٦ لقمان ٣٤.

٦٣٧ - صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٠

{النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} ٦٣٨

النبى عليه الصلاة والسلام هو الوالى الذى اجتمعت به جميع الصفات النسبية للوالى المطلق، ولذلك فهو أحق الخلق بولاية المؤمنين، فقد كان أرحم بهم من نفوسهم، فعليهم أن يحبوه ويطيعوه ويقتدوا به، وأزواجه أمهاتهم فى التوقير وحرمة التزوج بهن بعده، وذوو القربان بعضهم أولياء بعض فيما أمر به الله تعالى، فالله تعالى يُعلم المؤمنين بمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم ومرتبته لذلك وجب عليهم الالتزام بما أمر به الوالى المطلق بمقتضى تلك الحالة فقال: النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فهو عليه الصلاة والسلام أقرب ما للمؤمنين، وأولى منهم بأنفسهم، لأنه بذل لهم من النصيح والشفقة والرأفة، ما كان به أرحم الخلق بهم وأرفهم، فرسول الله أعظم الخلق مِنَّةً عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه، فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائنًا من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه.

إن الوالى الذى جعله الله خليفة فى الأرض وجب اتباعه لأنه أحرى وأجدر بالمؤمنين من أنفسهم فى كل أمر من أمور الدين والدنيا، لأنه لو دعاهم إلى شيء ودعتهم نفوسهم إلى شيء آخر كان الوالى أولى بالإجابة إلى ما يدعوهم إليه من إجابة ما تدعوهم إليه نفوسهم، لأن الوالى بالإضافة لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نجاتهم وفوزهم، وأما نفوسهم فربما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم وبوارهم كما قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} ٦٣٩ ومن هنا وجب أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام وهو والى المؤمنين وملاهم

٦٣٨ - الأحزاب ٦

٦٣٩ - يوسف ٥٣

أحب إليهم من أنفسهم، وأمره أنفذ عليهم من أمرها وآثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها وان يبذلوا دونه ويجعلوها فداءه في الخطوب، ويتبعوه في كل ما دعاهم إليه.

إن الوالي جل جلاله جل جعل الولاية بالإضافة خلفاء في الأرض من أجل أعمارها وإصلاحها خدمة للإنسان، لذلك أمر سبحانه وتعالى إتباع الوالي بالإضافة لما خصه الله تعالى من تفضيل على بقية الخلق لأنه اتصف نسبيا بصفات الله وتخلق بالأخلاق التي أمر بها الله سبحانه، ولذا وجب إتباعه وموالاته فقد قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} ^{٦٤٠} إن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم ودينه وموالاته هم الذين أجابوا دعوته واهتدوا بهديه وتخلقوا بأخلاقه، وكذلك محمد عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه، فإنهم أهل التوحيد الخالص وهو دين إبراهيم، والله يحب المؤمنين وينصرهم لأنهم أولياؤه، ويجازيهم بالحسنى وزيادة، فأولى الناس بموالاته الوالي هم الذين آمنوا به واتبعوا ملته وتخلقوا بأخلاقه، والتزموا ما أمر به من الأوامر، وانتهوا عما نهى عنه من النواهي، و محمد صلى الله على وسلم ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، فالله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، لموافقتهم في ما شرعه لهم وما أمرهم به، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إن لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليي أبي و خليل ربي إبراهيم، ثم قرأ (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين)" ^{٦٤١}.

ومما استدل به على استواء الولاية من الله عز وجل من خلقه، و من يتولى الله عز وجل من خلقه أن الله عز وجل قال: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) وقال: (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقال: (أنت وليي في الدنيا والآخرة توفي مسلما وألحقني بالصالحين) وقال: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) في آيات كثيرة قد ذكرنا بعضها، وكانت الولاية فيها من الله عز وجل لمن يتولاه من عباده كالولاية التي يتولى الله عز

^{٦٤٠} - آل عمران ٦٨

^{٦٤١} - مسند أحمد، ج ٨، ص ٤٠١

وجل من يتولاه. إن الله سبحانه وتعالى يتولى من يشاء ويستخلف من يشاء من عباده لتدبير شؤون خلقه حيث قال تعالى: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} ^{٦٤٢} عسى الله أن يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاء في الأرض، فيعلم سبحانه ما أنتم عاملون بعد هذا التمكين، أتشكرون النعمة أم تكفرون؟ وتصلحون في الأرض أم تفسدون؟ ليجزيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون.

فهو جاعلكم خلفاء في الدنيا في أموالكم ومتاعكم وأنعامكم التي هي في الحقيقة ليست لكم، وإنما هي لله تعالى جعلكم في التصرف فيها بمنزلة الوكلاء فناظر كيف تتصرفون، و جاعلكم خلفاء لمن كان قبلكم ومعطي ما في أيديهم لكم، فناظر هل تعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم، فالله تعالى هو الخالق لكل شيء، المالك له، ولم يغيب عن خلقه ومملكه حتى يتخذ خليفة عنه في أرضه، وإنما يجعل الله بعض الناس خلفاء لبعض في الأرض، فكلما هلك فرد أو جماعة أو أمة جعل غيرها خليفة منها يخلفها في عمارة الأرض، فمن توكل على الله فهو حسبه ومولاه فنعم المولى ونعم النصير، والذي يعتصم بالله هو مولاه لأنه توكل عليه، فالتوكل على الله والالتجاء إليه يكون من الاقتداء بسنة الله تعالى في أوليائه، لأنه هو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانته، ومن خافه وانتقاه آمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج من المنافع، لذلك وجب على الإنسان أن يكون واليا على نفسه، فلا يخرج عما أمر به الوالي المطلق عز وجل، ولا يبتعد عما يرضي ربه بحال من الأحوال أو وجه من الوجوه حتى يصلح أن يكون واليا.

فالوالي من يتولاه الله تعالى ويجعله خليفته وخليفةً يقتدي به الآخرون، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} ^{٦٤٣} وهو الذي جعلكم

٦٤٢ - الأعراف ١٢٩

٦٤٣ - الأنعام ١٦٥

خلفاء للأمم السابقة في عمارة الكون، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لأخذكم في أسبابه، ليختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونها؟ وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها، فكان من سنته تعالى أن يخلف بعضكم بعضاً، فاستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم لينظر كيف تعملون. فالله تعالى رفع بعضكم درجات في القوة والعافية والرزق والخلق والخلق فتفاوتت أعمالكم، وقد جعل كل واحد من بني آدم، آدم وقته وعصره وزمانه، وخليفة ربه في الأرض. وسر الخلافة أنه صورته على صورة صفاته حياً قيوماً سمياً بصيراً عالماً قادراً متكماً مريداً ليعاملكم معاملة من يبتليكم ويمتحنكم لينظر ماذا تعملون من الشكر أو غير ذلك.

فالله تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل، فجعل منهم الحسن والقبيح، والغني والفقير، والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل، فإن الله سبحانه وتعالى منزّه عن صفاته النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان، وعلى هذا يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر، وهو أعلم بأحوال عباده. فيبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب، لأن العبد إما أن يكون مقصراً فيما كلف به، وإما أن يكون موفياً ما أمره به، فإن كان مقصراً كان نصيبه التخويف والترغيب، فالله تعالى سريع العقاب للعصاة المذنبين، وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت فهو قريب، فإن كان العبد موفياً حقوق الله تعالى فيما أمره به أو نهاه عنه، كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم، لأن الله تعالى الذي تولى الصالحين يعفو عن ذنوب أوليائه وأهل طاعته، ويتولاهاهم ويستخلفهم كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^{٦٤٤}، لقد وعد الله

الذين صدّقوا بالحق وأذعنوا له منكم، وعملوا الأعمال الصالحة وعداً مؤكداً أن يجعلهم خلفاء لمن سبقوهم وارثين لهم في الحكم والولاية في الأرض، كما كان الشأن فيمن سبقوهم. وأن يمكن لهم الإسلام الذي ارتضاه ديناً لهم، فتكون لهم المهابة والسلطان، وأن يبذل حالهم من خوف إلى أمن، فالذين آمنوا وأتوا بالأعمال الصالحات فقد وعدهم الله تعالى أن يتولاهم وأن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفون في تدبيرها، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، وارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، وأنه يبذلهم من بعد خوفهم بالأمن والطمأنينة.

اللهم إنك الوالي الذي ليس لنا من دونه وإل، تتعم بالعطاء وتدفع للبلاء فانعم علينا بوسع نعيمك وادفع عنا كل بلاء وكل عناء وكل شقاء وارزقنا من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب يا الله. اللهم تولنا بالرعاية والعناية والهداية والحفظ من الدس والحسد والحقد والظلم والكيد والمكر فأنت ولينا وأنت خير الماكرين.

اللهم إنك الوالي الذي لا والي سواه فحل بيننا وبين كل سوء واجعل بيننا وبينه سداً، اللهم إنك الوالي القوي ونحن عبادك نحب القوة ونحب النصر فمدنا بالقوة التي بها نتنصر على الظالمين والكافرين والمشركين، اللهم يا الوالي إننا عبادك نكره الضعف فلا تجعله لنا رفيقاً، واجعل لنا بالحق مع القوة صحبة.

اللهم إنك الوالي الراعي للصادقين المصدقين بالحق فاجعلنا على الصدق ولا تجعلنا وأولادنا وأزواجنا من الكاذبين والمكذابين بالحق ولا تجعلنا من المنافقين.

اللهم إنك الوالي الذي يخرج من يشاء من الظلمات إلى النور اجعلنا على نور من نورك به نهتدي إلى سبل الصلاح ولا تجعلنا في ظلمة بها تغم الأنفس.

اللهم اجعلنا مع الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي

أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ^{٦٤٥}.

المتعالى

المتعالى: "هو المتفاعل من العلو والله تعالى عال ومتعال وعلى"^{٦٤٦}.

المتعالى: اسم من أسماء الله تعالى الحسنى وصفته التعالى، يوحى بالعلو والكبرياء والعظمة، وإذا تتبعنا ما ورد في اللغة نجد أن ابن منظور يقول: عَلُو كُلِّ شَيْءٍ وَعِلْوُهُ وَعُلَاوَتُهُ وَعَالِيَهُ وَعَالِيَّتُهُ أَرْقَعُهُ، والله عز وجل هو العليُّ المتعالى العالى الأعلى نُو العُلا والعلاء والمعالى، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظالمونَ عَلُوًّا كَبِيرًا هو الأعلى سبحانه بمعنى العالى وتفسير تَعَالَى جَلًّا وَنَبَاً عن كلِّ ثناءٍ فهو أعظم وأجلُّ وأعلى مما يُثْنَى عليه لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال الأزهرى: وتفسير هذه الصفات سبحانه يَقْرُبُ بَعْضُهَا من بعضِ فَالْعَلِيُّ الشَّرِيفُ فَعِيلٌ من عَلا يَعْلُو وهو بمعنى العالى وهو الذى ليس فوقه شيءٌ ويقال هو الذى عَلا الخلقَ فَفَهَرَهُمَ بِقُدْرَتِهِ وَأَمَّا الْمُتَعَالَى فهو الذى جَلَّ عن إِفْكِ الْمُفْتَرِينَ وَتَنَزَّهَ عن وَسَاوِسِ الْمُتَحِيرِينَ وقد يكون الْمُتَعَالَى بمعنى العالى والأعلى هو الله الذى هو أعلى من كلِّ عالٍ واسمه الأعلى أى صفته أعلى الصفات والعلاء الشرفُ ونو العُلا صاحب الصفات العُلا والعُلا جمع العُلُيا أى جمع الصفة العُلُيا والكلمة العُلُيا ويكون العُلَى جمع الاسم الأعلى وصفةُ الله العُلُيا شهادةٌ أَنْ لا إله إلا الله فهذه أعلى الصفات ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له ولم يزل الله عَلِيًّا عَالِيًّا مُتَعَالِيًّا تَعَالَى اللهُ عن إِحَادِ الْمُحَدِّثِينَ وهو العَلِيُّ العَظِيمُ^{٦٤٧}.

^{٦٤٥} فصلت، ٣٠. ٣٤.

^{٦٤٦} تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٦١.

^{٦٤٧} - لسان العرب ج ١٥ ص ٨٣.

المتعالى: هو الذى يتعالى عن كل وصف لا يتصف به، إنه المتصف بالصفات الحسان وبالأسماء الحسان الكاملة سبحانه لا إله إلا هو ليس له مثل ولا شبه.

والمتعالى جل جلاله هو الذى يعلم حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله، فثبت لنفسه وصفه الحقيقى، وهو: أنه العلى. وهذا المعنى هو معنى التعالى بالنسبة إلى الله تعالى، وأما التعالى بالنسبة إلى غيره: فهو ادعاء كاذب، وتكلف ممقوت، وخلق ذميم، يقول الله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} ٦٤٨

ويدخل اسم الله تعالى (المتعالى) مع مجموعة من أسماء الله الحسنى مكونا وحدة دلالية واحدة، وهذه الوحدة الدلالية يمكن تسميتها ب(صفات الحمد والتمجيد لله تعالى) وهذه الأسماء هي (الكبير، المتكبر، العلى، المتعالى، الجليل، العظيم، الكريم، الماجد، المجيد، الحسيب، ذو الجلال والإكرام، الصمد، الحميد). وهذه الصفات لها مطلق المجد والعظمة، والعلو والكبرياء، السيادة والكرم. والله تعالى هو الذى يستحق وحده منتهى الحمد والثناء عليه، بالعظمة والجلال، والعلو والكبرياء، وهو الذى يستحق التمجيد بمنتهى السؤدد والشرف الحقيقى.

واسم الله تعالى (المتعالى) يفتح ملفا معرفيا يتشكل من عدة محاور، وهذه المحاور تأخذ أبعادا مترامية الأطراف وتحينا إلى قراءات مختلفة، منها نستمد المعارف والأفكار التى تدخلنا حيزا جديدا يزيد إيماننا وثقتنا بالله تعالى.

المتعالى هو المنزه عن صفات الخلق وهذه صفة يستحقها بذاته وقد يكون بمعنى العالى فوق خلقه بالقهر ٦٤٩. والمتعالى جل جلاله متعالٍ عن الأشباه والأنداد والأمثال والأضداد وعن أمارات

٦٤٨ - الرعد ٨ - ١٠.

٦٤٩ - الاعتقاد ج ١ ص ٦٤.

النقص ودلالات الحدوث، وقيل: هو من العلو الذي هو بمعنى القدرة والسلطان والملك وعلو الشأن والقهر والاعتلاء والجلال والكبرياء^{٦٥٠}.

ويدخل اسم المتعالي مع اسم المتكبر مكونا تشكلا معرفيا يجمع صورتين كل واحدة تحيل على الأخرى، فترسمها بشكل يتفاعل فيه التعالي مع الكبر مما يخلق صورة واحدة تحيل إلى عظمة وتعالي وتكبر لله جل جلاله. "فَالْمُتَكَبَّرُ هُوَ الْمُتَعَالِي عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ وَيُقَالُ: هُوَ الَّذِي يَتَكَبَّرُ عَلَى عِتَاةِ خَلْقِهِ إِذَا نَارَعُوهُ الْعِظَمَةَ، فَيَقْصِمُهُمْ وَالتَّاءُ فِي الْمُتَكَبَّرِ تَاءُ التَّقَرُّدِ وَالتَّخْصِيصِ بِالْكَبْرِ لَا تَاءُ التَّعَاطِي وَالتَّكْؤْفِ، وَالْكَبْرُ لَا يَلِيْقُ بِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَإِنَّمَا سِمَةُ الْعَبِيدِ الْخُشُوعُ وَالتَّنَذُّلُ وَقَدْ رُوِيَ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ نَارَعَهُ رِدَاءَهُ قَصَمَهُ وَقِيلَ: إِنَّ الْمُتَكَبَّرَ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ الَّذِي هُوَ عِظَمَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا مِنَ الْكِبْرِ الَّذِي هُوَ مَذْمُومٌ عِنْدَ الْخَلْقِ"^{٦٥١}. وهنا ندخل في سياق التكبر، إذ لا بد من الإحالة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "قال الله عز وجل الكبرياء رداي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار"^{٦٥٢}.

وفي حديثنا عن اسم الله تعالى (المتعالي) لا بد من التفريق بينه وبين اسم (العلي) وذلك لأن الاسمين الكريمين يدلان على العلو، بمعنى أن دلالتهما واحدة لكن هناك في الوقت نفسه فرق بينهما ، فالعلي: الذي رتبته أعلى المراتب العقلية، وهي المرتبة العلية، فإن ذاته المقدسة هي مبدأ كل موجود حسي وعقلي، وعلته التامة المطلقة التي لا يتصور فيها النقصان بوجه ما. والمتعالي هو المستعلي على كل شيء بقدرته، أو المنتزه عن نعوت المخلوقات وعن كل شيء لا يجوز عليه في ذاته وصفاته وأفعاله^{٦٥٣}.

^{٦٥٠} - تفسير الالوسي ج ٢ ص ٣١٩.

^{٦٥١} - الأسماء والصفات ج ١ ص ١٨٣.

^{٦٥٢} - سنن أبي داود ج ٢ ص ٤٥٦.

^{٦٥٣} - الفروق اللغوية ج ١ ص ٣٧٥.

إن توضيح الفرق بين اسم العلي والأعلى والمتعالى، يأتي وفق التصور الآتي: إن كل اسم كما سبق دل على معنى من معاني العلو، فاسم الله العلى دل على علو الفوقية وأن الله عال عرشه وهو أعلم بالكيفية، واسمه المتعالى دل على علو القهر والغلبة، واسمه الأعلى دل على علو الشأن والعظمة، تنسجم في ذلك الأدلة اللغوية مع الأصول القرآنية والنبوية^{٦٥٤}.

واسم الله تعالى (المتعالى) ضمن تشكل صوتي يحيل إلى الكبر والعلو والسمو ففيه حرفان من حروف المد هما الألف والياء، مما يحتاج نفساً طويلاً عند قراءته مما يخلق جواً معرفياً طول مدة نطقه للتبصر به والتعمق والوصول إلى سبر أغواره، فيثير في النفس الرهبة والرغبة، فالرهبة تحيل إلى الخوف منه جل جلاله، فالتعالى صورة موحية بالخوف الشديد الذي يهز الأبدان فترتعش الأطراف وتخرج القلوب من الصدور إلى الحناجر، صورة مرعبة مضطربة تتبعها أزمة نفسية واهنة، وهذا التشكل النفسي المضطرب يدعمه صورة من صور القيامة التي رسمها لنا القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} ^{٦٥٥}، هذه الآية الكريمة رسمت صورتى الرحمة بالاصطفاء، والخوف المتحقق في النفس الإنسانية ضمن سياق بدأ بالإنذار قبل يوم التلاق. فالسياق هنا يتمثل في عرض مشاهد القيامة، وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتكرر بشكل ظاهر وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة^{٦٥٦}.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) أي: العلى الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته،

^{٦٥٤} - أسماء الله الحسنى ج ٣٢ ص ٢٠٤.

^{٦٥٥} - غافر ١٥ - ١٦.

^{٦٥٦} - في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٢٤٣.

وارتفع به قدره، وجلّت أوصافه، وتعالّت ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: (يُلْقِي الرُّوحَ) أي: الوحي الذي هو للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ) الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم. (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة من إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: (لِيُنذِرَ) من ألقى الله إليه الوحي (يَوْمَ التَّلَاقِ) أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه. وسماه (يوم التلاق) لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزلؤهم.

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ) أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. (لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) لا من نواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال. (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. (الْقَهَّارِ) لجميع المخلوقات، الذي دانته له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ^{٦٥٧}.

أما الرغبة فهي لا تكون إلا للمؤمنين بالله تعالى، فهذه الصفة يتحقق فيها الإيمان الحقيقي، إذ يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ^{٦٥٨} والمحبة: انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية، أو إحسان، أو اعتقاد أنه يُحب المستحسنَ وَيُجْرُ إليه الخير. فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه، فيكون المنفعل محباً، ويكون المشعور بمحاسنه محبوباً، وتعد الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالاً عند المحب، فإذا قويَ هذا الانفعال صار تهيجاً نفسانياً، فسُمي عشقاً للذوات، وافتتأناً بغيرها.

والشعور بالحسن الموجب للمحبة يُستمدّ من الحواسّ في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال، ويُستمد أيضاً من التفكّر في الكمالات المستدلّ عليها بالعقل وهي المدعوة بالفضيلة، ولذلك يحبّ المؤمنون الله تعالى، ويحبّون النبي صلى الله عليه وسلم تعظيماً للكمالات، واعتقاداً بأنّهما يدعونهم إلى الخير، ويحبّ الناس أهل الفضل الأولين كالأنبياء والحكماء والفاضلين، ويحبّون سعاة الخير من الحاضرين وهم لم يلقوهم ولا رأوهم^{٦٥٩}. وقد عبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المحبة المتحققة، فعن عبادة بن الصّامِتِ أنّ نبيّ الله -صلى الله عليه وسلم- قال "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"^{٦٦٠}. وهنا نعود إلى يوم التلاق لنستعرض فيه من هم المحبون؟ و المحبون هم من يتشكلون من القرآن الكريم وسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ونقصد بالتشكل هنا أتباع ما جاء في القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام، والمحبة وردت في النص القرآني في خطاب الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، إذ يقول تعالى: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^{٦٦١}، فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدا يسر له

^{٦٥٨} - آل عمران ٣١.

^{٦٥٩} - التحرير والتنوير، ج ٣، ص ٨٤.

^{٦٦٠} - صحيح مسلم، ج ٨، ص ٦٥.

^{٦٦١} - المائدة ٥٤.

الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد. وفي هذا السياق ورد قول الرسول عليه الصلاة والسلام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ - قَالَ - فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ - قَالَ - ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ - قَالَ - فَيَبْغِضُوهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ - قَالَ - فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ" ٦٦٢، المتعالي جل جلاله هنا يرسم للخلق أجمعين صورة عظيمة، فهو المتعالي تبارك وتعالى يحب مخلوقا ضعيفا، وهذا الحب يأخذ منا آخر، إذ يتشكل مع العبد ويجعل منه قوة كبيرة مستمدة من حب الله تعالى له، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيئِهِ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَتِهِ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" ٦٦٣. فضلا عن ذلك تنال محبة الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ٦٦٤، فمن اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم أحبه الله، ومن عصى الرسول صلى الله عليه وسلم أبغضه الله.

ولا بد أيضا من المحبة المنافية لظدها، فلا يحصل لقاتلها معرفة إلا بقبول ما دلت عليه من الإخلاص، ونفي الشرك؛ فمن أحب الله أحب دينه، ومن لا فلا، يقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

٦٦٢ - صحيح مسلم، ج ٨، ص ٤٠.

٦٦٣ - صحيح البخاري، ج ٢١، ص ٣٩٢.

٦٦٤ - آل عمران ٣١.

يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} ٦٦٥، فصارت محبتهم لله ولدينه، فأحبوا من أحبه الله، وأبغضوا من أبغضه الله، وفي الحديث: "وهل الدين إلا الحب والبغض" ٦٦٦ هذه صورة الحب التي يجب أن يكون عليها الخليفة ولهذا يجب أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين.

حب الله يستلزم الانقياد لأوامره ونواهيه، ومن علامات محبته صلى الله عليه وسلم: بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ، ومجانبة من خالف سنته، وابتداع في دينه، واستنقاله كل أمر يخالف شريعته، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ٦٦٧.

ومن الحب أيضا أن يحب القرآن الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ويحب سنته ويقف عند حدودها، قال سهل بن عبد الله: "علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بُغْضُ الدُّنْيَا، وعلامة بُغْضِ الدُّنْيَا أَلَّا يَدْخُرَ مِنْهَا إِلَّا زَادًا وَبَلَّغَةَ إِلَى الْآخِرَةِ" ٦٦٨.

الله سبحانه وتعالى متعالٍ عن الوصف والإدراك والإحاطة، إذ يقول تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

٦٦٥ - البقرة ١٦٥.

٦٦٦ - تفسير ابن أبي حاتم، ج ١٢، ص ٢٦٧.

٦٦٧ - المجادلة ٢٢.

٦٦٨ - البدع الحولية، ج ١، ص ١٣١.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ^{٦٦٩} ، هذه الآية هي إخبار من الله تعالى بأنه هو المتفرد بالإلهوية لجميع خلقه، وهو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه، فالآية الكريمة ترتسم ضمن صفات متعددة متتابعة فتبدأ بالحي القيوم، الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً. والقيم على غيره، وهو القائم بتدبير أمر عباده، يكلؤهم ويحفظهم ويرعاهم ويرزقهم ، ولا قوام للمخلوقات بدون أمره.

لا تأخذه سنة ولا نوم، لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا زهول عن خلقه، ومن تمام القيومة أن لا يعتريه سنة ولا نوم، لأن اعتراء النعاس والوسن دليل على العجز والضعف. له ما في السماوات وما في الأرض، وهو إخبار بأن جميع من في الكون عبيد له وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه، وهو المتصرف بشؤونهم، الحافظ لوجودهم.

من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، ومن عظمته، جل شأنه وعلا، لا يجروء أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا إذا أذن له بالشفاعة، ولا يتكلم أحد بدون إذنه.

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهذا دليل على إحاطته علما بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو يعلم أمور الدنيا التي خلفوها، وأمور الآخرة التي يستقبلونها.

ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - ولا يطلع أحد من خلقه على شيء من علم الله إلا ما علمه الله، وأطلععه عليه، وأذن له به. ولا يعرف إذنه تعالى إلا بوحي منه.

وسع كرسیه السماوات والأرض، والكرسي غير العرش، وهو أصغر منه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرائي فلاة في الأرض.

ولا يؤوده حفظهما، ولا يعجزه حفظ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما بل هو سهل عليه يسير؛ فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يغيب عنه شيء.

وهو العلي العظيم، وهو الكبير المتعالي عن النقص، العظيم بجلاله وسلطانه^{٦٧٠}. وهذا يقين بأنه تعالى الكبير المتعالي عن النقص، فهو سبحانه منزّه عن أي نقص فهو العظيم بجلاله وسلطانه. هذه الآية الكريمة تشكلت مع اسم الله تعالى (المتعالي) فجاءت بأنساق مختلفة كل واحدة تفضي إلى الأخرى لتشكل لنا حزمة معرفية تفتح لنا أفاقاً رحبة في التعرف على ربنا جل جلاله.

وفي هذا السياق نتذكر قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في هذه الآية العظيمة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ وَكَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمْضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لِأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَقَصَّ الْحَدِيثَ فَقَالَ إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. وَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - "صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ"^{٦٧١}.

والتعالي صفة لا يختص بها إلا الله تعالى، وهذه الصفة عند التحلي بها إنسانياً لها وجهان:

- ١ - محمود، وهو تعالٍ مطلوب في حق الخليفة ويتجسد في التعالي عن الرذائل والنقائص، فيجب على الخليفة التعالي بالطاعة عن المعصية وبالإيمان عن الكفر وبالعدل عن الظلم، وبالمطلق بالحق عن الباطل.

- ٢ - مذموم، ليعلم الخليفة أن أول من تعالَى عليه عدوه إبليس لعنة الله عليه، يقول المتعالي جل في علاه: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ

^{٦٧٠} - أسعد حومد، ج ١، ص ٢٦٢.

^{٦٧١} - صحيح البخاري، ج ١٦ ص ٤٩٩.

خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ^{٦٧٢}، من هنا يجب على الخليفة أن يستشعر التعالي المذموم الذي هو من أسباب دخول جهنم والعياذ بالله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ). قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَتَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ"^{٦٧٣}. هنا الحديث النبوي يقطع صورة التكبر الإنساني، ويرسمها ضمن شكل دقيق لا يرى بالعين المجردة في بعض الأحيان مما يجعلها خاصة بالمتعالي جل جلاله، فلا تكون إلا له.

وحظ الخليفة من اسم (المتعالي) جل جلاله، أن يتخلق به فلا يتعالي على الخلق، إنما يتعالي على كل شيء يبدد تشكل الخليفة الذي أراده الله تعالى، ويمثل لقول الله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}^{٦٧٤}، هذا الإتيان والنهي يمثل دائرة مغلقة يكون الخليفة بداخلها فتكسبه حصانة وأمانا وقوة، فضلا عن ذلك تعاليا يتماشى مع تشكله مما يمنحه صفة الإصلاح في الأرض، فيكون قادرا على هذا الإصلاح لأنه امتلك أدواته التي يتحقق من خلالها التغيير المطلوب من الله تعالى، من ذلك جاء قول الله تعالى مخاطبا داود عليه الصلاة والسلام، إذ يقول: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}^{٦٧٥}.

المتعالي جل جلاله يسقط أمامه كل كبير، والكبير وفق تشكلنا الإنساني يحيلنا إلى صورة كل متكبر وطاغية ومتجبر على في الأرض واستحكم عليها وملك المال والأنفس، وبطبيعة الحال

٦٧٢- ص ٧١-٧٦.

٦٧٣ - صحيح مسلم، ج ١ ص ٦٥.

٦٧٤ - الحشر ٧.

٦٧٥ - ص ٢٦.

إن ملك المال والنفس هو من باب المجاز ، فالله سبحانه وتعالى هو مالك الملك وبيده كل شيء ، ولنبدأ من فرعون تلك الشخصية التي أصبحت مضرباً للمثل، فضلا عن ذلك صارت معياراً للتجبر والتكبر ، فهذه الشخصية رُسمت صورتها وفق إطار التملك والقوة والجبر، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ٦٧٦ جمع فرعون قومه ونادى فيهم متبجحا متفاخرا بملك مصر، وتصرفه فيها، وفي أنهارها الجارية في أرضها ،وسياق الخطاب هنا تشكل من مفردات مختلفة كلها تحيل إلى القوة وعظم المكانة التي عليها هو، فضلا عن ذلك أراد تثبيتهم في طاعته، وصرفهم عن التأثر بموسى وما جاء به من آيات .

فإذا تتبعنا النص القرآني وجدناه قد رسم فرعون في صورة لم ترسم لغيره ، ألا وهي صورة العلو التي شغلت حيزا واضحا في سرد قصته ، إذ يقول تعالى: {فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} ٦٧٧ وقوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} ٦٧٨ وقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ} ٦٧٩ هذه الآيات الكريمة في كل سياقاتها بينت لنا صورة فرعون صاحب القهر والغلبة ، وفي الوقت نفسه هو عاتٍ متكبر ، هذه الصفات عند قراءتها والتمعن فيها تحيلنا إلى مخلوق قوي متمكن متسلط جبروت يفعل بالخلق ما يريد لا أحد يقف أمامه ، لكن هذه الصورة تتهاوى أمامنا حين نقرأ قول الله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ

٦٧٦ - الزخرف ٥١ .

٦٧٧ - يونس ٨٣ .

٦٧٨ - القصص ٤ - ٥ .

٦٧٩ - الدخان ٣٠ - ٣١ .

بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُجْجِكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَعَافِلُونَ^{٦٨٠} هنا تهاوى كل شيء، أين الجنود؟ أين المدافعون؟ أين الحماة؟ أين العلو الذي زعمته؟ {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى^{٦٨١}} الكل تفرق عنه وذهب كل يريد النجاة بنفسه، نفي عنه الأيمان لأنه لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، يقول تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^{٦٨٢}} تحقق أمر الله تعالى بغرقه في البحر، إلا أن الغرق تبعه أمر مهم بقي خالدًا في الذاكرة يتشكل معها ويوقظها عند سماع اسم فرعون، يقول تعالى: {فَالْيَوْمَ نُجْجِكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَعَافِلُونَ^{٦٨٣}، الإنجاء بالبدن صورة تبقى على طول الزمن واضحة معبرة لكل الخلق، فعندما تقع أعينهم على البدن يذكرون المتعالي جل جلاله، الذي يسقط أمامه كل من أراد العلو والتكبر والجبروت في الأرض، سبحانك ربنا لا اله إلا أنت، أنت المتعالي.

ولننتقل إلى شخصية أخرى وهي شخصية قارون، فقد قص علينا النص القرآني قصته، يقول تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

٦٨٠ - يونس ٩٠ - ٩٢.

٦٨١ - النازعات ٢٤.

٦٨٢ - النساء ١٨.

٦٨٣ - يونس ٩٢.

الْعِلْمَ وَيُلْكَمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ بَيْنَ سَطْرِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ^{٦٨٤}، قصة قارون تعرض سلطان المال والعلم، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق. وتقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد.

تبدأ القصة فتعين اسم بطلها (قارون) وتحدد قومه (قوم موسى) وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي (فبغى عليهم) وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء :
(وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ).

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبته في النفوس. لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالا كثيرا، يصور كثرته بأنه كنوز والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول وبأن مفاتيح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوى الرجال. من أجل هذا بغى قارون على قومه. ولا يذكر فيم كان البغي ، ليدعه مجهولا يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال^{٦٨٥}. ثم يأتي الخطاب القرآني بعد سرد قصة قارون ليبين صفات المستحقين للآخرة ، يقول تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَى نَجَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}^{٦٨٦} ومن بين هذه

٦٨٤ - القصص ٧٦ - ٨٢.

٦٨٥ - في ظلال القرآن، ج ٥ ص ٤٤٢.

٦٨٦ - القصص، ٨٣.

الصفات صفة العلو التي تشكل محورا مهما في حياة المؤمنين فهم لا يريدونها لأنهم متواضعون وعارفون أنها لا تكون إلا للواحد الأحد المتعالي جل جلاله.

وقوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} ^{٦٨٧} عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ { هذه الآية الكريمة فيها إطلاق معرفي ، فالله تعالى يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم من عوالم لانهاية لها ، ولا يخفى عليه شيء منه. و(الكبير) العظيم الشأن الذي كل شيء دونه و(المتعالي) المستعلي على كل شيء في ذاته وعلمه وسائر صفاته سبحانه، وجوز أن يكون المعنى الكبير الذي يجلب عما نعت به الخلق من صفات المخلوقين ويتعالى عنه ، فعلى الأول المراد تنزيهه سبحانه في ذاته وصفاته عن مدانة شيء منه؛ وعلى هذا المراد تنزيهه تعالى عما وصفه الكفرة به فهو رد لهم كقوله جل شأنه : {سبحان الله عَمَّا يُصِفُونَ} ^{٦٨٨} قال العلامة الطيبي: إن معنى (الكبير المتعال) بالنسبة إلى مردوفه وهو (عالم الغيب والشهادة) هو العظيم الشأن الذي يكبر عن صفات المخلوقين ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ما سبق من قوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} ^{٦٨٩} إلى آخر ما يفيد التنزيه عما يزعمه النصارى والمشركون ^{٦٩٠}.

التوازن الاجتماعي قضية مهمة تكتسب أهميتها في أنها ترسم للحياة جوانب الاستقرار التي إن تحقق تصبح الحياة تسير وفق تشكل خاص ورؤية خاصة تلمم الفكر المتشنت، وتبصره إلى الصورة المثلى التي يجب أن تتحقق، وهذه الصورة المثلى التي تتحقق ترتكز على صورتين مهمتين تستندان إلى مرجعيات سابقة ، ونقصد بالمرجعيات السابقة أن هناك أحداث وقعت، وعند استدعاء هذه الأحداث وتوظيفها تتشكل صورتان تتطقان بالتوازن الاجتماعي الذي يحصل

^{٦٨٧} - الرعد، ٨ - ٩.

^{٦٨٨} - الصفات ١٥٩.

^{٦٨٩} - الرعد ٨.

^{٦٩٠} - تفسير الالوسي، ج ٩ ص ٢١٠.

حين التفكير بهما، الصورة الأولى تقول إن أي متعالٍ أو جبارٍ من البشر حين يتفكر بما حصل لقارون يندك جبروته وتعالیه ، إذ يقول تعالى: { كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ }^{٦٩١} وقوله تعالى: { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ }^{٦٩٢} هاتان الصورتان تنطقان أن كل متكبر وكل عال في الأرض يكون هذا مصيره، فعند التفكير بهاتين الصورتين ينسج عقل المتكبر صورة جديدة واعية تركز على الخضوع والخشوع والطاعة لله تعالى، فيبني لنفسه حياة جديدة يشكها وفق الوعي الذي تشكل معه نتيجة التفكير المتحقق بعد طول تأمل وتبصر واستدعاء، هذا الأمر لا يقتصر على فرد واحد بل يستمر ليتشكل مع الأسرة أيضا، ولا يقف عند الأسرة الواحدة بل يستمر أيضا ليشمل المجتمع والأمة جميعها، وبهذا يتحقق للمجتمع صورة جديدة مُشَبَّعَةٌ برضا الله تعالى ، فضلا عن ذلك حتى لا يتخلف أحد من الوصف الذي ذكره الله تعالى بقوله: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }^{٦٩٣} .

أما الصورة الثانية: فهي صورة الإنسان الضعيف الذي يعلم أن له سندا أعلى لا ينال منه أحد فيطمئن ويعيش آمنا ، هذه الصورة تحيلنا إلى قوله تعالى: { اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لِينًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ

٦٩١ - الدخان ٢٥ - ٢٩ .

٦٩٢ - القصص ٧٩ - ٨١ .

٦٩٣ - آل عمران ١١٠ .

مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى} ^{٦٩٤} هذه الآيات الكريمة نسجت صورة عظيمة ارتكزت على قوله تعالى: (إِنِّي مَعَكُمْ) مما يفتح لنا هنا ملفاً معرفياً يتشكل فيه ثبات المؤمن ، فضلاً عن ذلك الجانب النفسي الذي يكسب المؤمن الثقة العالية في مواجهة كل ما هو متوقع وغير متوقع. وغير المتوقع هو ما حصل للنبي يونس عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَاْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} ^{٦٩٥} وهذا ثناء منه تعالى، على عبده ورسوله، يونس بن متى، كما أتى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: (إِذْ أَبَقَ) أي: من ربه مغاضباً له، ظانناً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما أغضبه عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، تكريماً لنبي الله يونس، وإنما ذكّرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبق لجأ (إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغلب، ألقى في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه. فلما (اقترعوا) أصابت القرعة يونس (فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) أي: المغلوبين. فألقى في البحر { فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ } وقت التقامه (مُليماً) أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه. (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه، وتسبيحه، وتحميده، فضلاً عن ذلك قوله في بطن الحوت حيث قال: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (الْبَيْتَ فِي

٦٩٤ - طه ٤٣ - ٧٤.

٦٩٥ - الصافات ١٣٩ - ١٤٨.

بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ) أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين، عند وقوعهم في الشدائد^{٦٩٦}. فكان هنا مقابلة غير المتوقع بأمرين، الأمر هو عبادة الله تعالى والإيمان به في كل الأوقات وبخاصة في أوقات الرخاء، أما الأمر الثاني فهو مواجهة الأمور الصعاب والعظام بالدعاء، ذلك لان الدعاء هو مخ العبادة أو هو العبادة، وبذلك يكتسب المؤمن قوة تحصنه وتعينه في حياته، فضلا عن ذلك أن كل الأمور التي يتعرض لها هي خير، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"^{٦٩٧}.

المتعالى جل جلاله هو المقصود في الحوائج، فإذا توجه العبد إلى الله تعالى أصبح في علو. فالعبد يقصد الله تعالى في كل الأمور سواء أكانت الأمور دنيوية أم أخروية، ولهذا جاء الخطاب القرآني وفق نص مفتوح لا يتقيد بأي شيء ، مما يرسم صورة عظيمة للرحمة التي يريدتها الله تبارك وتعالى لعباده ، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}^{٦٩٨} وقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}^{٦٩٩} فالعبد حين يطلب حاجته من الله تعالى يكون في علو ، لأنه يطلب الحاجة من المتعالى جل جلاله ، فالتشكل هنا يكون وفق تحقق صورة عظيمة ، العبد يطلب من المتعالى العظيم جل جلاله مما يجعله في حالة نفسية قوية ، تفيض روحه بالتعالى المستمد من المتعالى جل جلاله .

^{٦٩٦} - السعدي، ج ١ ، ص ٧٠٧.

^{٦٩٧} - صحيح مسلم، ج ٨ ، ص ٢٢٧.

^{٦٩٨} - البقرة ١٨٦.

^{٦٩٩} - غافر ٦٠.

والمتعالى جل جلاله متعالٍ في كل شيء وفي أي شيء نفكر فيه، مما يجعلنا ندور في حلقة مفرغة لا نصل إلى نتيجة تتفق مع علم الله تعالى بنفسه ، ومن خلال النص القرآني نتضح لنا صفة المتعالى في عدة تشكلات منها:

١ . المتعالى جل جلاله خارج قياس الحيز:

ورد في النص القرآني الكثير من النصوص التي تبين أن الله تعالى متعالٍ عن الحيز والجهة، ومن بين ما ورد قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ^{٧٠٠} إن الوجة المتحققة هنا ليست توجيه وجه القلب إليه، لأنه متعال عن الحيز والجهة، بل توجيه وجه القلب إلى طاعته لأجل عبوديته، فترك كلمة «إلى» هنا والاكتفاء بحرف اللام دليل ظاهر على كون المعبود متعالياً عن الحيز والجهة ^{٧٠١}.

والحيز يتحدد و له أبعاد، ويكتسب اتجاهات أربعة شمال، جنوب، شرق، غرب، وهذا كله لا يمد لله تعالى بأي صلة، فهو متعالٍ عن أي حيز أو جهة سبحانه.

٢ - الله تعالى متعالٍ عن العقوبة:

والعقوبة إنما هي لإحقاق حق وإبطال باطل. والعقوبة وردت في الدين الإسلامي من أجل إعطاء كل ذي حق حقه، فضلا عن ذلك تكون حياة لكل الخلق، يقول تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ^{٧٠٢} كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوع من الحياة

^{٧٠٠} - الأنعام ٧٦ - ٧٩.

^{٧٠١} - تفسير الرازي، ج ٦ ص ٣٥٤.

^{٧٠٢} - البقرة، ١٧٩.

عظيماً، فالحياة لا بد أن يسودها الأمن والأمان من أجل أن يعيش الناس حياة طبيعية يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وهذه الأمور لا تتحقق إلا إذا نفذ القصاص بالخارجين عن القانون، ففي القصاص ارتداع للناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتص من القاتل سلم الباقيون فيكون ذلك سبباً لحياتهم. وعلى الأول فيه إضرار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتص منه في الدنيا لم يؤخذ به في الآخرة^{٧٠٣}. فكل العقوبات التي وردت في النص القرآني والحديث النبوي تدل على أن الله سبحانه متعالٍ عنها، إنما وضعها تبارك وتعالى من أجل تنظيم أمور الحياة في كل تفاصيلها، وجعلها تسير ضمن نسق محدد واضح، فلا يحدث أي تجاوز أو خروج عن الحدود التي وضعها الله تبارك وتعالى، يقول جل شأنه: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} ^{٧٠٤}.

٣ . الله تعالى متعالٍ عن الحاجة:

الله سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى أحد، بل الكل في حاجة له تبارك وتعالى، إذ يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ} ^{٧٠٥} الآيات الكريمة هنا تتشكل ضمن سياقين، السياق الأول: يبين الله تعالى فيه أن خلقه للجن والإنس هو من أجل العبادة، وهذا السياق يفتح ملفاً مهماً يكون على أساسه الحساب الأخروي المتحقق في

^{٧٠٣} - البيضاوي، ج ١ ص ٢١٤.

^{٧٠٤} - النساء ١٣ - ١٤.

^{٧٠٥} - الذاريات ٥٦ - ٥٩.

الآخرة، والعبادة لم تتحقق عند جميع الخلق، لأن الله تعالى أراد منهم أن يعبدوه مختارين لا مضطرين إليها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم. والعبادة المطلوبة هي عبادة الله تعالى، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

أما السياق الثاني وهو محور كلامنا في سياق الحاجة، فقوله تعالى: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ} ٧٠٦ فالله تعالى لا يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق، فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، و بها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته، أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم الرياح، وابتلعهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين ٧٠٧.

ولننتقل إلى الحديث القدسي الذي يرسم صورة للمتعالى جل جلاله، إذ يتمحور على تشكلات مختلفة كلها تنطق بقدرة وجلال المتعالى تبارك وتعالى، عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه

٧٠٦ - الذاريات ٥٧ - ٥٩.

٧٠٧ - السعدي ج ١ ص ٨١٣.

وسلم - فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا من هديتُه فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلُّكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فضرروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألتَه ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيتكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. قال سعيد كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه^{٧٠٨}.

الحديث القدسي يفتح أمامنا الحاجة ضمن وجهين، الوجه الأول وقد مر ذكره أن الله تعالى ليس في حاجة إلى أحد، حتى العبادة تبارك وتعالى ليس في حاجة إليها، فتحققها وعدم تحققها يعود إلى المخلوق، أي أن مصيره مرتبط بالعبادة، فمن كفر يكون مصيره من الداخلين إلى نار جهنم والعياذ بالله، إذ يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} ^{٧٠٩}.

أما من آمن فيكون مصيره من الخالدين في جنات النعيم ورضوان الله تعالى، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ

^{٧٠٨} - صحيح مسلم ج ٨ ص ١٦.

^{٧٠٩} - الزمر ٧١ - ٧٢.

عَلَيْكُمْ طِبْنُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَنْبَوُا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} ٧١٠.

أما الوجه الثاني: أن الخلق أجمعين لو سألوا الله تعالى وأعطاهم ما يريدون لا ينقص من ملكه جل جلاله شيء، يقول تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ٧١١ وهذا الوجه يدخل في سياق الحديث عن ملك الله تعالى، فقد ورد في النص القرآني وفي كثير من المناسبات، من ذلك قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} ٧١٢ هذه الآيات الكريمة تبدأ بأمر الملك، ففيه عرض لملك الله تعالى بما يحاكي العقل البشري، فضلا عن ذلك أن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته؛ وبشيء وراءه من يد تدبره بحكمة، ويوحى بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة وحساب وجزاء إنما يدرك هذه الدلائل ويقرأ هذه الآيات ويرى هذه الحكمة، ويسمع هذه الإحياءات (أولو الألباب) من الناس الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح وبهذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين!

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا « الكون » والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة، وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من

٧١٠ - الزمر ٧٣ - ٧٤.

٧١١ - النحل ٩٦.

٧١٢ - آل عمران ١٨٩ - ١٩٤.

جهة أخرى. وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من الكون و (إله) الكون سبحانه وتعالى، فهي ركيزة من ركائز التصور الإسلامي للوجود .

يلي هذه الحقيقة في سياق الدرس استجابة الله (لأولي الألباب) وقد توجهوا إليه سبحانه بدعاء خاشع منيب؛ وهم يتدبرون كتاب الكون المفتوح، ويتأملون ما ينطق به من الآيات، وما يوحي به من الغايات. استجابته لهم استجابة توجيهية إلى العمل والجهاد والتضحية والصبر، والنهوض بتكاليف هذا الإيمان، الذي ثابوا به من جولتهم الخاشعة في كتاب الكون المفتوح. . مع التهوين من شأن الذين كفروا وما قد يستمتعون به من أعراض هذه الحياة. وإبراز القيم الباقية في الجزء الأخروي، التي ينبغي أن يحفل بها المؤمنون الأبرار^{٧١٣}.

٤ . الله تعالى متعالٍ عن النقص:

النقص مفردة تتردد في سياق الحديث عن المخلوقين، أما الله تبارك وتعالى فله الكمال المطلق جل جلاله، وقد بين الله تعالى أنه أحق بالكمال من غيره وأن غيره لا يساويه في الكمال، إذ يقول تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} ^{٧١٤} فالخلق صفة كمال وهي من الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب الأحسن والنظم الأكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل ، فكذاك أيضاً كانت شرحاً وتفصيلاً لأنواع نعم الله تعالى وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة ، والبيئات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم، وثبت أنه هو المولي لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جماداً لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) والمعنى: أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة على شيء أفلا تذكرون فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر . ويكفي فيه أن تنتبهوا على

^{٧١٣} - في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٢٧.

^{٧١٤} - النحل ١٧.

ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم ، وأنتم ترون في الشاهد إنساناً عاقلاً فاهماً ينعم بالنعمة العظيمة ، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الأصنام جمادات محضة ، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها ، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاقعتها^{٧١٥}.

والخلق صفة كمال، وأن الذي يخلق أفضل من الذي لا يخلق، وأن من عدل هذا بهذا فقد ظلم. يقول تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَمْلُ} ^{٧١٦} هذا مثل ضربه الله تعالى للكافرين في إشراكهم بالله الأوثان والأصنام، والمثل بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين رجل حر يملك ما لا ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كيف يريد ، هذا المثل يحمل تبعات معرفية مترتب عليها تشكل ثنائي يحيل إلى كمال الله تعالى مقابل النقص المتحقق الذي مثله العبد المملوك العاجز عن التصرف، وهذه الثنائية ألغت التسوية بين الإله القادر وبين الأصنام التي لا تملك شيئاً، ولا تقدر على شيء. فبين أن كونه مملوكاً عاجزاً صفة نقص، وإن القدرة والملك والإحسان صفة كمال.

وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ^{٧١٧} هذه هي سورة الإخلاص ، سورة تعدل ثلث القرآن الكريم ، وفيها جميع صفات الكمال لله تعالى ، وفي الوقت نفسه فيها نفي لجميع صفات النقائص والعيوب. وهذه السورة الكريمة انحصرت فيها الصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة التي لا نظير لها ولا مثيل. فالله تعالى هو الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) لكمال غناه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

^{٧١٥} - الرازي، ج ٩، ص ٣٦٨.

^{٧١٦} - النحل ٧٥.

^{٧١٧} - الإخلاص ١ - ٤.

كُفُوا أَحَدٌ) لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى ، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} ^{٧١٨} هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى، إذ اشتملت على جانبين مهمين يتشكل منهما إثبات الكمال لله تبارك وتعالى، وهما النفي والإثبات، نفي النقائص عن الله تعالى، وإثبات الكمال لله عز وجل، ويتشكل النفي في قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فالشفاعة أمر مهم جعله الله تبارك وتعالى خاصا لا يتحقق لأحد وإن كان من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء أو الصالحين، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله تبارك وتعالى، وهنا تتشكل لنا صورة الكمال المتحققة لله تعالى ، وفي الوقت نفسه السياق هنا في باب الرد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه سبحانه وتعالى في ذلك، وزعموا أن هؤلاء الشفعاء يقومون بما يريدون منهم عند الله عز وجل، إذ يقول تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ^{٧١٩}.

٥ . الله تعالى متعالٍ عن الظلم:

الظلم من المفردات التي تشكلت مع النسق المعرفي للبشر من آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، فهي سمت بشرية متحققة بين البشر، وورد الظلم في النص القرآني في مواضع كثيرة وبمعاني مختلفة، ومن بين هذه المعاني إضافة الظلم إلى الكافرين ونفيه عن الله عز وجل، وكان ذلك في عشرة مواضع شكل منها الخطاب القرآني سمة نفي الظلم عن الله تعالى وإضافته

٧١٨ - البقرة ٢٥٥.

٧١٩ - يونس ١٨.

إلى الكافرين، إذ يقول تعالى: {الْمَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ٧٢٠ وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ٧٢١ وقوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ٧٢٢ هنا السياق القرآني عمد إلى خلق صورة معرفية للظلم المتحقق، وكل الذين ذكرهم الله تعالى تتحقق ظلمهم على أنفسهم، فقد جاءتهم رسل الله بالبينات والدلائل والبراهين، فصدوا عنها، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} ٧٢٣.

وقد نفي عن الله تعالى ظلم هؤلاء لأن إيلاهم كان جزاء على أعمالهم وكل ما كان من نوع الجزاء يوصف بالعدل وقد نفي الله عن نفسه الوصف بالظلم فوجب الإيمان به سمعاً لا عقلاً

٧٢٠ - التوبة ٧٠.

٧٢١ - الروم ٩.

٧٢٢ - العنكبوت ٤٠.

٧٢٣ - الكهف ٥٤ - ٥٩.

في مقام الجزاء، وأما في مقام التكوين فلا. وظلمهم أنفسهم هو تسببهم في عذاب أنفسهم فجرؤوا إليها العقاب لأن النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها .
والاستدراك ناشئ عن نفي الظلم عن الله في عقابهم لأنه يتوهم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هذا التوهم^{٧٢٤}.

والله سبحانه وتعالى في أكثر من آية نفي الظلم عن نفسه ، إذ يقول تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}^{٧٢٥} وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}^{٧٢٦} وقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}^{٧٢٧}.
وصيغة الخطاب هنا تأخذ أبعادا كثيرة يرتسم في كلها أن الله تعالى يريد الرحمة والغفران لكل البشرية، لكن تصرف البشرية يسعى نحو الظلم الذي يكون الطريق الموصل نحو الهلاك المتحقق المرسوم قبل تحقق الظلم.

٦ . الله تعالى متعالٍ عن الكيد بغير حق:

الكيد ورد في القرآن الكريم ضمن سياقات عدة، من ذلك قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤْيَدًا}^{٧٢٨} هذه الآيات الكريمة رسمت صورة المشركين المكذابين ، فبين للسامع أن عملهم ذلك كيد مقصود، فهم يتظاهرون بأنهم ما يصرفهم عن التصديق بالقرآن إلا ما تحققوه من عدم صدقه، وهم إنما يصرفهم عن الإيمان به الحفاظ على سيادتهم فيضللون عامتهم بتلك التعليقات الملفقة والكيد، إخفاء قصد الضر وإظهار خلافه، فكيدهم مستعمل في حقيقته، وأما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع

^{٧٢٤} - التحرير والتنوير، ج ١٠ ص ٤٩٩ .

^{٧٢٥} - آل عمران ١٨٢ .

^{٧٢٦} - الحج ١٠ .

^{٧٢٧} - فصلت ٤٦ .

^{٧٢٨} - الطارق ١٥ - ١٧ .

تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريدده وحسنها محسن المشاكلة^{٧٢٩}.

٧ . الله تعالى متعالٍ عن الانتقام بغير حق :

وردت لفظة الانتقام في النص القرآني في مواضع خاصة، أراد الله تعالى أن يبين أن الانتقام يتحقق وفق معايير خاصة، ضمن تشكل خاص، ضمن سياق خاص، إذ يقول تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ }^{٧٣٠} هذه الآية الكريمة تشكلت ضمن ثلاثية متتابعة وهي الظلم - المجرمون - المنتقمون، فالسياق التتابعي يدل على تدرج في المخاطبة، فقد بدأ بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ) فالمخاطبون أصبحوا من أهل الظلم لأنهم ذُكِّروا بآيات الله تعالى ولم يؤمنوا بها، ثم دخل المخاطب في مرحلة جديدة وهي الإعراض عن آيات الله تعالى، مما تبع هذا الإعراض اكتسابه صفة جديدة تجاوزت صفة الظالم ألا وهي صفة المجرم، وهي صفة تفوق الظلم مما يتحقق له الحصول على درجة جديدة في الابتعاد عن الله تعالى، وبعد كل ذلك لابد من نهاية تتحدد لهم ، وهذه النهاية تكون من جنس عملهم لتحقق العدالة الإلهية وفق معايير خاصة أرادها الله تبارك وتعالى، فكان الانتقام منهم جزاء ما عملوه رغم التذكير المستمر لهم .

وفي سياق الانتقام ورد قوله تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَأِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }^{٧٣١} وقوله تعالى: { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ }^{٧٣٢}

^{٧٢٩} - التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٢١٠.

^{٧٣٠} - السجدة ٢٢.

^{٧٣١} - الزخرف ٣٩ - ٤٣.

^{٧٣٢} - الدخان ١٥ - ١٦.

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة والمحمود من انتقام العبد أن ينتقم من أعداء الله تعالى وأعدى الأعداء^{٧٣٣}.

٨ . الله تعالى متعالٍ عن المكر بغير حق:

المكر: تبييت فعل السوء بالغير وإضماره. وقد ورد في النص القرآني ضمن سياقات عدة منها قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَاللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} ^{٧٣٤} هذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة المكر المتحققة من الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنوردها كما ذكرها الزمخشري لنرى أبعاد المكر المتحقق من الكافرين، فضلا عن ذلك لنرى مكر الله تعالى المتحقق الذي يكون فيه العدل والحق. "لما فتح الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشاً - لما أسلمت الأنصار وبايعوه - فرقوا أن يتفاهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد ، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها؛ وتتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بئس الرأي؛ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحمله على جمل وتخرجه من بين أظهركم؛ فلا يضركم ما صنع واسترحتم . فقال إبليس: بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا

^{٧٣٣} - المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٣٩.

^{٧٣٤} - الأنفال ٣٠.

العقل عقلمانهم واسترحنا. فقال الشيخ - لعنه الله - : صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأياً. فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر علياً رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: اتشح ببرديتي ، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، وياتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه، فأبصروا علياً فبهتوا وخيب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم (ليثبتوك) ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح، من قولهم : ضربه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح ، وفلان مثبت وجعاً. وقرئ: (ليثبتوك)، بالتشديد. وقرأ النخعي: (ليثبتوك)، ومن البيات. وعن ابن عباس: (ليقيدوك)، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق (وَيَمَكُرُونَ) ويخفون المكاييد له (وَيَمَكُرُ اللهُ) ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة (والله خَيْرُ الماكِرِينَ) أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً ، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب^{٧٣٥}. وهنا تتضح صورة المكر التي اكتسبت درجة عالية جعلتها تذكر دائماً ، وتدخل سياق المكر من أوسع الأبواب، لكن في الوقت نفسه تحقق مكر الله الذي فيه الخير العظيم بحفظ رسوله عليه الصلاة والسلام وفي سياق المكر أيضاً ورد قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾^{٧٣٦}.

٩ . الله تعالى متعالٍ ببسطه للرزق :

الرزق مفردة يشترك فيها خلق الله تعالى جميعاً، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هُوَلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}^{٧٣٧} هذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة الرحمة المتحققة للخلق فمن أثر رحمة الله تعالى حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون ببلقائه فقد أعطاهم من نعمة

^{٧٣٥} - الزمخشري، ج ٢ ، ص ٣٥٧.

^{٧٣٦} - إبراهيم ٤٦ - ٤٧.

^{٧٣٧} - الإسراء ٢٠.

الدنيا على حسب ما قدر لهم وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿وَاكْتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالٌ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^{٧٣٨} هذه الآية طرحت دعاء المؤمنين ضمن نسق معرفي تابع إلى معرفتهم برحمة الله تعالى المتحققة لهم في الدنيا والآخرة، فكان الدعاء وفق الآتي (واكتب لنا) حياة طيبة في هذه الدنيا، من عافية وبسطة في الرزق، وتوفيق لطاعة، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول الجنة، ونيل رضوانك، إنا تبنا إليك (هدنا إليك) مما فرط من سفهائنا من عبادة العجل، ومن تقصير العقلاء منا في نهيمهم والإنكار عليهم .

ورد الله تعالى على دعاء موسى قائلا: لقد أوجبت أن يكون عذابي خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة، الذين لم يتوبوا، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء، وسأثبت رحمتي بمشيئتي للذين يتقون الكفر والمعاصي، ويؤدون الزكاة المفروضة، ويؤتون الصدقات التي تنزكي بها نفوسهم، وللذين يؤمنون ويصدقون بجميع آياتي الدالة على الوحدانية ، ويصدقون رسلي، وما جاؤوهم به^{٧٣٩}.

والرزق مرتبط بمشيئة الله تعالى ،فكل شيء يسير وفق مشيئته، من ذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا لَهُ وَبِهِ لَمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا وَبِجَعْلٍ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^{٧٤٠} هنا المشيئة تتشكل مع الرزق لرسم صورة متعددة أهم هذه الصور هي قدرة الله تعالى وعلمه الواسع ، فالقدرة متحققة لله تعالى وهو قادر أن يعطي الجميع نفس الشيء دون زيادة أو نقصان، أو اختلاف في الجنس وغيره، والعلم والقدرة لا أحد يتدخل بهما إلا هو تعالى، فهو جل شأنه عليم بمن يستحق كل نوع من هذه الأنواع، قدير على ما يريد أن يخلق، يقول تعالى: ﴿لِزَيْنٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنْ

٧٣٨ - الأعراف ١٥٦ .

٧٣٩ - أسعد حومد، ج ١، ص ١١١١ .

٧٤٠ - الشورى ٤٩ - ٥٠ .

الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^{٧٤١} وقوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^{٧٤٢}، ويعطي الله من يريد من خلقه عطاء جزيلًا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا، لأن الرزق لا يقدر على حساب الإيمان والكفر، بل يجري تبعًا لمشيئة الله، فمن الناس من يزداد له الرزق استدراجًا، ومنهم من يقتر عليه اختبارًا.

اللهم إنك المتعالي رفيع الدرجات تعلوا فوق كل علو فتمتد الأيدي إليك سبحانك لا إله إلا أنت، نسألك أن تجعلنا على الدرجات الحسان نعلوا ولا تجعلنا في أسفل سافلين في ظلمة وغمة وكدر وهم.

اللهم إنك المتعالي بعظمتك وكبريائك فاجعلنا من المتعاليين عن اتباع ما نهيت عنه واجتتاب ما امرتنا اجتنابه واجعلنا من الطائعين إحقاقًا للحق وإزهاقًا للباطل والآخذين بما آتانا الرسول الكريم محمد صلواتك وسلامك عليه ومنتهون عما نهانا عنه إنك السميع المجيب.

اللهم إنك خلقتنا أزواجًا وتعاليت عن صاحبة والولد فاجعل بيننا وبين أزواجنا تعالٍ عن الشرك بك واجعل بيننا مودة ورحمة.

اللهم إنك تعاليت عن الصورة وخلقنا في أحسن صورة وتقويم ورزقتنا من الطيبات واستخلفتنا في الأرض فتبارك الله أحسن الخالقين.

اللهم إنك المتعالي عن الشبيه والصورة والمثال نسألك أن ترحمنا العلو بالحق لا العلو عليه، إننا نتقيك ونستغفرك ونتوب إليك.

^{٧٤١} - البقرة ٢١٢.

^{٧٤٢} - البقرة ٢٤٧.

الْبِرُّ

البر من الأسماء الحسنى لله تعالى، ولا نملك إلا أن نقف أمام الاسم الذي يفيض بكل معاني الجمال التي يمكن أن ترد على خاطر أو تخرج حروفا على لسان أكثر أهل الأرض لنا ورأفة ورحمة فكل هذا وغيره مشمول في حرفين يسبقهما (ال) التعريف اللذان يحويان لذي القلب الرقيق أن كل رحمة وعطف ولين ومحبة قد جمعت في (بر)، و(ال) السابقة التي هي للتعريف تفيد الاستغراق والتخصيص فلا (بارّ) ينتهي ببره إلي برّ (البر).

هو المحسن والبر المطلق هو الذي منه كل مبرة وإحسان والعبد إنما يكون برا بقدر ما يتعاطاه من البر ولا سيما بوالديه وأستاذته وشيوخه^{٧٤٣}.

البر فاعل البر والإحسان^{٧٤٤}.

^{٧٤٣}الغزالي المقصد الأسنى، ص ١٣٩.

^{٧٤٤}الإيجي كتاب المواقف، ج ٣، ٣٢٣.

الْبِرُّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ "الْعَطُوفُ الرَّحِيمُ اللَّطِيفُ الْكَرِيمُ" قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْبِرُّ دُونَ الْبَارِّ وَهُوَ الْعَطُوفُ عَلَى عِبَادِهِ بِبِرِّهِ وَلَطْفِهِ، وَالْبِرُّ وَالْبَارُّ بِمَعْنَى وَإِنَّمَا جَاءَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْبِرُّ دُونَ الْبَارِّ ٧٤٥.

البر: هو الذي يلتجئ إليه عند كل حاجة أو شدة، وهو الذي يمد بالعون والمنفعة، فيكرم ويغني ويرحم ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

والبر هو المتسع بملكه وهيمنته وبواسع رحمته، وهو الذي يملك الملك بالمطلق فلا ينقص من بره شيء، وهو الرحمن الرحيم.

البر الرحيم: هو الذي يرحم كلما تم الالتجاء إليه، ولذا كلما التجأ إليه أحد حفظه من كل سوء وعطش وجوع وفاقة. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ٧٤٦.

البر الرحيم هو الذي يستوعب الكل دون أن يستثني أحد من بره، ولذا فهو البر الكامل بالحسنات ولا نقيصة فيه.

البر مصدر وليس مشتقاً، أي انه مصدر للاشتقاق، ولذا تستمد الحسنات منه.

فالطائر الذي يحمل الطعام في منقاره الصغير لأفراخ له أعجزها البرد والصغر والضعف، ممن استمد هذا الحنان؟

استمده من الله البر.

٧٤٥ لسان العرب، ج ٤، ص ٥٤.

٧٤٦ الشعراء ٦٩ - ٨٣.

والحيوان الذي يحنو على صغيره بالرغم من كونه وحشا غير أليف، من الذي دفعه لتلك الرحمة الحانية على صغير مجهول المستقبل في علاقته بأبويه؟
دفعه لهذه الرحمة الله البر الرحيم.

والأم التي تتحمل ويلات ألم الحمل والوضع والسهر لتتنشئة صغير ضعيف ولا تعلم هل سيكافئها بما فعلت بالإحسان أم بالجحود والنكران، وهي مع هذا تشعر بكل متعة وسعادة؟ فكيف جمعت في نفسها بين نقيضين ألم وسعادة!

جمعت بين النقيضين بفيض من البر الرحيم جعلها تستعذب العذاب وتسعد بالآلام وتستمتع بالوهن لهذا أمر الله الإنسان أن يحسن إلى الوالدين ولاسيما الأم لما أعطت من بر ورحمة ممزوجان بالوهن وهذا مما قاله الله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} ^{٧٤٧}، وقال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} ^{٧٤٨}.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن كل مظهر من مظاهر البر سره يكمن في سريان نور الاسم البر في هؤلاء الرحماء وغيرهم من مخلوقات لا يحصيها إلا الله البر الرحيم.

وما وصلنا إليه بعد تعمق في مصادر العلم من كتاب وسنة وكتب لغة وكتب تفسير وشرح للحديث أن الاسم البر "كمادة لغوية" لها علاقة بها بالشكل المرسوم هكذا (الْبِرُّ) (بالباء المفتوحة) فهذا المظهر لا ينطبق إلا على الله البر الرحيم.

و(الْبِرُّ) بكسر الباء، هو مجموع الخلق الحسن والخير والإحسان في صورته وأفعاله، وهذا هو المظهر العملي للبر أو ما يمكن أن نسميه بالنمط السلوكي المشتتمل على القول والفعل والحافز

^{٧٤٧} - لقمان ١٤

^{٧٤٨} الإسراء ٢٣، ٢٤.

الذي يحفز الفرد للفعل بدافع من الشعور الداخلي المفعم بكل أحاسيس الوفاء والرغبة في تقديم فعل مماثل لما قدّم له من خير في مراحل عمره المختلفة، لذلك فإن البار وهو المتخلق بهذا الاسم يحوي الشكر والعرفان وأداء ما عليه من واجبات تجاه الآخرين، سواء أحسنوا إليه أم أساءوا، فيتوجه بالرحمة والبر لكل مخلوق على وجه البسيطة، وهذا المتخلق الأمثل بالبر المطلق هو مدار البحث في أسماء الله الحسنى من حيث المدلول والعلاقة بالخليفة المتخلق بالاسم البر.

الاسم البر في أسماء الله الحسنى:

جاء في التنزيل العزيز قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} ^{٧٤٩} فقوله: (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) ورد مرة واحدة وفيها إشارة وتنبيه لنا بأن البر واحد كما أن الله واحد، وأنه لا بر إلا البر، ولا أبر من البر المطلق لأنه الواحد فلا يبر به أحد.

والبرُّ من صفات الله تعالى وتقدس "العَطُوفُ الرَّحِيمُ اللَّطِيفُ الْكَرِيمُ"، البرُّ وهو العَطُوفُ على عباده ببرِّه ولطفه، والبرُّ والبارُّ بمعنى واحد وإنما جاء في أسماء الله تعالى البرُّ دون البارِّ ^{٧٥٠}. وهذا لأن البر مصدر من حيث اللغة والبار مشتق اسم فاعل ولا يصح أن يكون البر المطلق الذي يسع الكون ومن فيه وما فيه مشتق من غيره بل الذي يصح أن يكون البار الذي يتمثل الاسم البر أن يكون مشتقاً من البر الأعظم المطلق فيتمثل أمره ويجتنب نهيه والذي يتمثل بالبر هو الخليفة الذي يسع غيره بجوده وإحسانه وعطفه ولطفه وكرمه.

^{٧٤٩}الطور ٢٨، ٢٩.

^{٧٥٠}لسان العرب - ج ٤، ص ٥١

والبر هو واسع الإحسان، صادق الوعد، عظيم الجود لعباده، فهو مصدر البر يمن بعبائه على عباده في الدنيا والآخرة ولا يقطع الإحسان بسبب العصيان^{٧٥١}. فهو البر بعباده، العطوف عليهم ومن مظاهر بره وإحسانه بهم:

١. برُّ بهم قبل عالم الدُّرِّ.

وهذه المرحلة هي التي يمكن أن نطلق عليها مرحلة اللاشيء لا العدم لأن العدم شيء، فهو سبحانه قدر عباده في عباده في اللوح المحفوظ وخلق الخلق ولم يكونوا في عالم الوجود الذي نطلق عليه (شيء) والشيء وجود، أما ما قبل الشيء فما هو. بالتأكيد ليس هو العدم لأن العدم خلق من خلق الله، ولكن خلقهم بالقدرة الربانية من لا شيء قبل خلق الشيء الذي منه العدم ومنه الوجود، بمعنى قدرهم في علمه الذي هو محدث منه ولم يكن له سابق عليه، وهو عز وجل يظهر من علمه بقدر ما يريد، وقدرته متناهية مع عدم تعارض القدرة مع الإرادة فهو يقدر على كل شيء بشرط ألا تتعارض القدرة مع الإرادة وهذا الذي نقول من تمام القدرة المتناغمة المتسقة مع الإرادة.

ومن هنا لما تساءل نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام عن الكيفية التي سينجب بها الولد مع علمه بأن القدرة الإلهية لا تتعارض مع الأسباب، وإن كان هذا لتعارض في الظاهر أما في حقيقة الأمر فلا تعارض، أخبره الله تعالى بأن قدرته لا يحدها حد ولا يقيدها قيد من عقل يتقيد بالسبب ولا يتحرر إلى المطلق، والله عنده المطلق ولا قيد لديه وليس عنده سبب لأنه خالق الشيء وما قبل الشيء وتقيدنا نحن بالعقل الذي تقيد بالسبب، مع دعوته سبحانه للانفكاك من قيد القيد إلى إطلاق المطلق مع اليقين بأنه لا مطلق يتأتى إلا من خلال التقيد بقدرة المطلق الواحد، وكان هذا في الحوار الذي وصف لنا قدرة البر الرحيم العطوف الذي لم ينس من يتعلق ببره ورحمته فيكسر له كل القواعد الكونية المعمول بها لأن تلك القواعد والقوانين والنواميس من خلقه وهو قادر على فعل الشيء وضده مع عدم التعارض بين القدرة والإرادة كما أسلفنا فلما

^{٧٥١} - عبا لمقصود محمد سالم في ملكوت الله مع أسماء الله ص ١٠٤

كانت القوانين المتعارف عليها ألا ينبج من قد بلغ من الكبر عتيا من زوجة عاقر طاعنة في السن، فهنا لا قدرة بشرية تقدر على فعل شيء ولكن إرادة البر بعباده الذي يريد أن يدخل السعادة على قلب النبي زكريا عليه الصلاة والسلام قدرت غير ذلك فخلقه شيء وهو لم يكن له في السابق شيئا، قال تعالى: {كهيصص نِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} ٧٥٢ فمن عطاء الله وقدرته ورحمته وبره أبقى سيدنا زكريا عيه الصلاة والسلام وزوجه على حال الشيخوخة وأحسن إليهما وبرهما بنعمة الولد، مع قدرته على ردهما شباب ولا يوجد ما يمنع ذلك ولكنه البر الذي يملك القوة والقدرة فيظهر قدرته في بره وعطفه، فلا يمنع من عطائه وبره عقم ولا شيخوخة ولا وهن عظم، وكيف يمنعه سبب وهو خالق السبب.

وكيف يسأل عن الشيء وهو خالق الشيء من لاشيء!! لذا فقد قال الله تعالى: (وقد خلقناك من قبل ولم تك شيئا) وهذا ما قلناه إنه خالق الشيء من لا شيء وهذا اللاشيء هو نقطة الارتكاز في إظهار بره الشامل الواسع الذي وسع المخلوقات فهو قادر على بر من يشاء دون التقيد بسبب فهو قدر الشيء من لاشيء فلا يمتنع على بره شيء.

فله الحكم المطلق والإرادة المطلقة واليه يرجع الأمر كله ولا إرادة إلا إرادته ولا ينفذ إلا أمره.

٢ . برُّ بهم وهم في عالم الذر .

قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} ٧٥٣.

وعالم الذر عالم يكمن في عالم التكوين الروحي، عالم له وجود بكيفية أخرى غير مستساغة عقلا وإنما مقبولة تعقلا، وهنا نسأل: أليس العلم الحديث وصل إلى أن يخلق من الخلية الحية مثل لصاحبها .

أليس العلم الحديث قد وصل إلى تقنية يحفظ بها الحيوان المنوي الذكري والبويضة الأنثوية ويستطيع أن يمزجها ليأتي لنا بمخلوق جديد.

والسؤال الذي نتقدم به لكل ذي تبصر وتعقل هو:

أليست قدرة الله مطلقة.

أليست حكمة الله مطلقة.

أليس الله فعَّال لما يريد.

أليس الإنسان مدعواً لخلافة الله في الأرض.

تلك الأسئلة إذا أجبت عليها إجابة صحيحة فاعلم انك ممن يحق لهم خلافة الله في أرضه.

وتوضيح بر البر الرحيم بعباده في عالم الذر أن أوجد فيهم الحقيقة التي لا تقبل النقاش ولا

يرقى إليها شك ولا يستطيع أن يطعن فيها طاعن ولا يجادل فيها مجادل، وهذه الحقيقة تتمثل في

الإقرار بالوحدانية لله وأنه سبحانه وتعالى لا شريك له فقال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ

مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا

كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ٧٥٤.

٧٥٣-الأعراف ١٧٢-١٧٣

٧٥٤-الأعراف ١٧٢-١٧٤

إن الله تعالى اصطفى الأنبياء، ثم جعل منهم الذرية، أي أن أول المصطفين أبونا آدم عليه الصلاة والسلام وآخرهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فأبنائهم كهيئة الذر، فقد منحهم عقلا يفهم وإرادة تقرر ولسانا ينطق وعينا تبصر وأذنا تسمع، وهنا لنا وقفة لأن السائل من غير المصدقين بما ورد في القرآن الكريم، أو من وقف وراء عقل العقل أو ما يمكن أن نسميه من سجن فهمه في سجن العقل فيقول هذا السائل ومن حقه أن يقول: كيف تجتمع الحواس في نقطة واحدة. وهذه النقطة ذر قد لا ترى بالعين الجارحة. بل ترى بعين الروح والدليل على رؤية عين الروح الرؤى والأحلام التي يراها النائم فبأي عين يرى!.

٣. برُّ بهم في أصلاب الآباء.

فالله البر لم يترك الأمر سدى فهو نعم المقدر، فقد أخرج الإنسان من مرحلة اللاشيء إلى الشيء في عالم الذر ثم أودعهم أصلاب الآباء وفي علمه المؤمن والكافر، فبر المؤمن بأن خلق له الجنة وعاقب الكافر بأن خلق له النار، فالمؤمن يدخل الجنة برحمة الله ثم بعمله، والكافر يدخل النار بمعصيته لله وبعدل الله في ملكه، فهو سبحانه وتعالى ببره قد خلق الجميع في أصلاب الآباء على الفطرة والفطرة هي الإقرار لله بالعبودية فلم يترك الله البشر في مراحل تقلبهم من طور إلى طور بل فطرهم على فطرة الإسلام وصبغهم بصبغة الإيمان.

قال اله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ^{٧٥٥}.

فالأمر للنبي صلى الله عليه وسلم باستمرار التوجه لوجه واحد هو وجه الله المقصود دائما وهذا التوجه هو لب الدين المستقيم ومحور الوجدانية الخالصة التي فطر الله الناس عليها وخلقهم لها وأودعها في أرواحهم فلا يوجد من لا تنازعه نفسه بالتوجه إلى الله وقصده دون سواه، ولكنها هموم الدنيا التي شغل الناس بها أنفسهم، فطوبى لمن تغلب على الهم وصار من أصحاب الهمم والعزائم التي لا تلتين وفرغت أنفسها للتوجه لله بالوجه سجودا وبالروح تعلقا وبالقلب ثباتا على

وجهة الحق لا تقلبا من الحق إلى الباطل تمثلا بقوله صلى الله عليه وسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْتَرُ أَنْ يَقُولَ: " يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ"^{٧٥٦}، وَعَنْ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: "مَا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا قَالَ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ"^{٧٥٧}، فالقلب معلق بالرب الذي يقبله حيث يشاء الرب بعمل العبد ومن عمل العبد التوجه لله بالدعاء باللفظ المنطلق من نية صادقة وإيمان متين بالحفظ من التقلب السيئ الذي يؤدي إلى المهالك والبعد عن الفطرة السليمة والوجهة الصادقة.

لذا فالله يحفظ الإنسان من التوجه الخاطيء بتوجيه حواسه نحو الفطرة السليمة منذ التكوين ولأن علمه شامل فهو يعلم أهل النار وأهل الجنة والكل يدخل المكان الذي يستحق، بالعدل أو بالرحمة وحتى الإنسان وهو في صلب أبيه أو في رحم أمه لم يترك سدى بل شملته عناية البر الرحيم فعن السيدة عائشة أم المؤمنين قَالَتْ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ يُصَلِّي عَلَيْهِ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَى لِهَذَا لَمْ يَعْمَلْ شَرًّا وَلَمْ يَدْرِ بِهِ فَقَالَ: أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ"^{٧٥٨}.

وهذه الرحمة من الله البر كانت في الأصلاب كما كانت في عالم الذر، فلما أمر الله نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنداء لأداء الحج بوحدة القصد، وبثبات القلب، وبإقامة الوجه لتنزل الرحمة ومهبط النور في بيته لأكرم في مدينته الأقدس مكة وكان النداء لمن خرج من الأصلاب ومن كان كامنا في الأصلاب ومن كان متخلقا في الأرحام فمن لبي في عالم الذر

^{٧٥٦} سنن الترمذي ، ج ٨ ، ص ٢٩

^{٧٥٧} -مسند أحمد ، ج ١٩ ، ص ٩٥

^{٧٥٨} سنن أبي داود ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢

لبي في الأصلاب ومن لبي في الأصلاب لبي في الأرحام ومن لبي في كل ذلك لبي في عالم الأجساد.

وعليه فالله ببره لنا لم يتركنا في أي مرحلة من مراحل وجودنا في كل الأطوار قال الله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} ^{٧٥٩} هذا الخلق في مراحل المختلفة يبينه قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} ^{٧٦٠} وأطوارا من معانيها مراحل العمر المختلفة فالله قلب البشر شبابا وشيوخا وضعفاء وأصحاء، ومن معاني الكلمة القلب بين أحوال الجسد بين الصحة والسقم والبصر والعمى وغير ذلك، وقد تعني الأحوال من الأخلاق والسلوك لأن خالق الجسد خالق الفعل والسلوك مع عدم المخالفة في تخيير الإنسان في فعل فعله وسلوك سلوكه، وما يناسب المقام الذي نبحث فيه هو الخلق في مرحلة متقدمة بعد الإيجاد الأول بالخروج من علم الله إلى الوجود بقدرة الله وهو الإيجاد الأول، لأن ما بعد الإيجاد الأول وجود، وفيه صفات عارضة وأحوال متحولة.

وهذا يدل على كمال الخلق والقدرة على الإيجاد وتوالي بر الرب بعباده في جميع أطوارهم فهو سبحانه وجلت قدرته خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين، ثم طورها إلى علقة، ثم طور العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم أنشأته نشأة أخرى فأقامه في الحياة بمظهر مختلف عن المظاهر السابقة، وهنا نلاحظ جمال اللفظ القرآني أطوارا أي في مراحل مختلفة وهنا يروق لنا أن نضيف المعنى الحديث الذي يتراءى في ذهن متلقف الكلمة فهي تأتي في سياق جديد وهو التطوير الذي بمعني التحديث ولكن التطوير في المعنى القرآني بمعنى النقل من مظهر إلى مظهر فتتغير الوظيفة بتغير المظهر لأن صنعة الله كاملة لا تحتاج إلى

^{٧٥٩} نوح ١٣ - ١٤

^{٧٦٠} المؤمنون، ١٢ - ١٤ .

تحديث بمعنى تطوير، فالتطوير بمعنى التحديث يليق في حق البشر والتطوير بمعنى النقل يليق في حق الله وشتان بين هذا وذاك، إنها قدرة باهرة بديعة عظيمة وسلطة قاهرة دامغة لا نظير لها لله القائل: {أفأريتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون} ^{٧٦١}. ولأن الشيء الذي خلق الله منه البشر من بر الرب الخالق فهو يسأل في عجب هل هم الذين خلقوا الشيء الأول الذي منه الخلق، وهذا لشيء كما سبق أن ذكرنا جاء بعد مرحلة اللاشيء فيقول الله تعالى: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} ^{٧٦٢}، وهذا متعلق ببر الرب بخلقه في تطور أطوارهم وهذا منذ بدء الخلق والإيجاد وهو أقوى دليل على القدرة المطلقة، وبهذا المنطق يستطيع المحاور بالقرآن أن يرد على الذين يعتقدون في نظرية داروين وأمثالها كما في قوله تعالى: {قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره} ^{٧٦٣} فالبداية لاشيء لقوله تعالى: (من أي شيء خلقه) فلا شيء يعرفه الإنسان لأن الشيء لم يكن قد خلق بعد، فلا توجد إجابة، لأن الخلق من اللاشيء بقدرة الله الذي ببره أخرج الخلق من علمه إلى إيجاده، وهنا تُسَفُّ كل النظريات الإلحادية التي تقول أن الخلق نشأ وتطور بنفسه وأن الإنسان أصله قرد، وهنا نتحدى هؤلاء ومن شاكلهم ونقول لهم خذوا قردا واعكفوا عليه أنتم ومن اعتقد في قولكم وحددوا المدة التي تكفيكم أنتم وأبنائكم وأحفادكم لتحولوا القرد إلى إنسان، ونخبر أبنائنا بأن ينتظروا ليثبتوا أن الحق أحق أن يتبع، ذلك كله دليل على بر الرب بخلقه عباده وبره بهم في مراحلهم المختلفة، وعليه أتساءل:

. كيف يكون أصل الإنسان قردا والله تعالى يقول: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا} ^{٧٦٤}؟.

^{٧٦١} الواقعة ٥٨ - ٥٩

^{٧٦٢} الطور ٣٥

^{٧٦٣} عبس، ١٧ - ١٩

^{٧٦٤} الفرقان ٥٤.

. وكيف نصدق إن أصل الإنسان قردا والله تعالى يقول: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} ٧٦٥.؟

. وكيف نسلم بأن أصل الإنسان قردا والله تعالى يقول: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} ٧٦٦.؟

. وكيف نعقل كل ذلك والله تعالى يقول: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} ٧٦٧.

بناء على هذه الأسئلة التي تحمل إجاباتها فيها أتساءل:

- ألا يكون من غير اللائق بنا نحن بنو الإنسان أن نقبل بأن يكون أجدادنا الأبرار هم القردة ونحن نعتبر أصولنا منهم!، وهل يحق لنا أن نفتخر إذا اقرينا ذلك ونحن المكرّمون في الأرض بالاستخلاف فيها؟.

- ألا يكون من غير المقبول القبول بقول دارون (أصل الإنسان قرد) ونحن نعلم أن أبونا آدم الذي كلمه الله واصطفاه على ما خلق وميزه بالعلم حتى سجد الملائكة له مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} ٧٦٨.

. وكيف يكون ذلك بحق ومنا الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم جميعا؟.

. وكيف يكون ذلك ونحن المؤمنون به واحدا أحدا نفكر ونتذكر ونستغفر ونتوب إليه؟.

٧٦٥ السجدة ٧، ٨.

٧٦٦ التين ٤.

٧٦٧ آل عمران ٥٩، ٦٠.

٧٦٨ البقرة ٣٠ - ٣٤.

- وإذا كانت القردة قد تطورت وأصبحت نحن كما يدعي دارون في نظريته للنشوء والارتقاء، فلماذا لا زالت هناك قرود في الغابات وعلى خشب المسارح يلعبون بها (السيرك) الألعاب البهلوانية، فلو افتراضا القردة قد تطورت حتى أصبحت نحن فلما كان اليوم على سطح الأرض منها شيئاً، فالنوع عندما يتطور يحل محله بقانون التطور الذي انقلب حاله إليه، ولذا لو تطورت القردة كما يدعون لما بقي منها بين أيدينا شيئاً يذكر؟.

. وإذا قبلنا بما ذكر من مثل هذه الادعاءات آلا نقبل بذلك التطور العام الذي يغير حال الكائنات والمخلوقات الأخرى من حيوانات وطيور واسماك وغيرها كثير أم أنها هي الأخرى كانت غير التي نحن عنها نتحدث. أم أنها قد تطورت ونحن لم نعلم بما كانت عليه. وإذا كانت الإجابة بنعم قد تطورت ونحن الذين لا يعلمون بحالها السابق، أقول: ولماذا علمنا بحال تطورها كما يدعون بالتطور القردي حتى أصبح من بني الإنسان؟.

- وكذلك إذا سلمنا افتراضا بالتطور القردي الذي انتقل إلى المستوى الإنساني، آلا نسلّم بأن التطور لا يزال مستمرا ولا ندري بحالنا كيف نصبح من جديد ليكون التطور منتقل بنا إلى شيء لا نعرفه.

وعليه لقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ليكون الخليفة البر الوارث في أرضه (البر الواسع) وفي جنته (البر الأوسع) ولهذا فالإنسان أصل في بره مصداقا لقوله تعالى: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} ^{٧٦٩}. نعم لقد خلق الإنسان ولم يكن من قبل شيئاً، وهذه رد مطلق الحجة على كل من يدعي بأن الإنسان كان قردا تم تطور حتى أصبح إنسانا.

وأنقل من روايتنا (البستان الحلم) جزءاً من حوار أبونا آدم مع زوجه أمنا حواء وأحد أبنائهما الذي يقول فيه: "يا بني ألم تعلم أنني أعلم جميع الأسماء وهذه أسرار لم يعلمها غيري. قلت نعم، فقال لعن الله دارون ومن أتبعه، قلت في نفسي الحمد لله لم أكن منهم، واستمر أبونا في الحديث

يقول: وهو في حالة غضب، أنه من الغرابة أن يصف الإنسان أمه وأباه وأجداده الأبرار بالحيوان القردي، ويا بني اسأل أخوتك جميعهم لو كنتُ وأمك قردين كما يدعي البعض منهم فقلت حاشاكما، قال: استمع، لو كنا كذلك ألم تكن أنت وهم مثلنا. وقل لهم ليس لدى وقت أناقش فيه من هو أقل مني علماً وحكمة ولا يعلم ما أعلم، ومع ذلك أوصيكم بقراءة كتاب الحكمة وقراءة علم الوراثة الذي ينص على حفظ الأنواع واستمرارها، وإذا أجزتم بأن أصلكم قردي، فأقول لكم إنكم لم تكونوا مني، وإذا أجزتم ذلك أيضاً بأنكم قرده متطورة فأقول لكم إذن لماذا قرود اليوم التي تتبعونها في الأسواق وتشترونها وتلعبون بها في (السيرك) وتجرون عليها التجارب العلمية لماذا قرود اليوم باقية بما أن أصلها قد تغير وتطور إلى أن أصبح أنتم أيها السادة كما تدعون. وكيف تقبلون ذلك ومنكم الأنبياء والرسل. وإذا قبلتم بأن أصلكم قردي متطور فعليكم أن تقبلوا باستمرارية التطور إلى نوع آخر لا أدري ماذا سيكون.

اسألهم يا بني عن الأصول التي تطورت منها الأسماك والطيور والزهور والبغال العقيمة، وإذا قبلوا بأنها حافظت على نوعها فاسألهم أيضاً عن الأسباب التي جعلتها تحافظ على نوعها ولم تجعل الإنسان يحافظ على نوعه كما يدعون. وقرأ عليهم قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} ^{٧٧٠}، وقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ^{٧٧١}، الذكر والأنثى من كل نوع، وبالتالي الذين يتساءلون منكم عن أيهما أسبق من الآخر البيضة أم الدجاجة. فإنه تساؤل غير صائب إذ لا يمكن أن تكون البيضة ما لم تكن الدجاجة، ولا يمكن أن تكون الدجاجة ما لم تكن البيضة، ولهذا خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، فالبيضة إن وجدت بدون حيوان تذكير لا يمكن أن تنتج دجاجة أو تخرج فرخاً. الآن أتركك لتتم قصة بستانك على أمك، ولا تنس أهمية بستان المستقبل بالنسبة إليكم. وقبل أن

^{٧٧٠} ياسين ٣٦.

^{٧٧١} الذاريات ٤٩.

أودع أبي تدخلت أُمي بسؤالها وروح الاحتجاج فيها قائلة: هل من يحاوركم بلسان الحكمة يكون قرداً. فتدخل أبي قائلاً: لا تعمي الأحكام، هذا ابنك صاحب البستان.

أنا لست في حاجة إليه ولا إلى بستانه.

أعرف يا أُمي، ولكن أنا في حاجة إلى رضاك.

إذا أردت رضائي فاسجد لله على أديم هذه الأرض كما سجدت الملائكة عليها لأبيك.

قبلت رأسها وقلت: الحمد لله أنني من الساجدين^{٧٧٢}.

وهنا لمحة لغوية نرد بها على القارئ الذي سيسأل الآن لماذا يلح المتأمل في أسماء الله الحسنی وصلة الأسماء بالخليفة على الخلط والربط بين البر والرب فنقول أيها الحبيب ذو العقل والبصر والبصيرة انظر إلى مقلوب (بر) فستجد (رب) فالبر هو الرب والرب هو الله عز وجل وهو البر الرحيم جل جلاله.

ومن هنا فأطوار خلق الإنسان على النحو المتقدم أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله من العبد الذي يفر من الله لا يفر إلى الله، فالله الذي يحيي الإنسان في كافة أطواره، لأنه يحتاج إلى بر الرب الأعظم في كل مراحل حياته، وكل طور منها آية مستقلة ودليل دامغ على بره بخلقه وقدرته المطلقة، وهذا التوجيه في الأطوار المختلفة موجود في الظواهر الكونية في كل ما يحيط بنا من سماء وأرض، فالسماء كانت دخانا وكانت رتقا ففتقهما الله بقدرته، والأرض كانت على غير ما هي عليه الآن، حتى أصبحت أرضاً وفيها خليفة، ويبين الله بعضاً من مظاهر بره في قوله تعالى: {أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها}^{٧٧٣}، هناك تساؤل استغرابي في هذه الآية الكريمة بقوله: (أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها

^{٧٧٢} عقيل حسين عقيل، البستان اللحم، مالطا . منشورات الجأ، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص ١٠، ١١.

^{٧٧٣} النازعات ٢٧ - ٣٢

وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) أي هل خلقكم أقوى من خلق السماء التي رفعها بغير عمد ترونها.

ومن مظاهر بره وعطفه على خلقه ولطفه بهم توجه إليهم بالنداء وهم في الأصلاب فقال الله تعالى في قصة بناء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام للبيت الحرام وأمر الله له بالنداء له في الناس ليحجوا إليه، وكان هذا النداء لمن برزوا إلى الوجود الجسدي وإلى الذين كانوا في الجود الصلبي فقال الله تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} ^{٧٧٤} قوله عز وجل: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) فمن بر الله بإبراهيم أنه أرشده إلى مكان البيت ودله على موضع البيت، فبناه مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ومن بني البيت ببر من الله البر لا يشرك بالله فقال الله تعالى له: (لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) وقال (وَطَهِّرْ بَيْتِي) أن طهر بيتي (الكعبة) من النجاسات ومن عبادة الأوثان (لِلطَّائِفِينَ) لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة (والقائمين) المقيمون في مكة (والركع السجود) لأجل الصلاة بالأوقات المحددة من فرض وناقلة للمسلمين من كل مكان الذين يوحدون الله عز وجل، ثم قال الله عز وجل: (وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) بأن ينادي سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الناس، وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء الكعبة، أمره الله تعالى أن ينادي فنادى: يا أيها الناس، أجيئوا ربكم. إن الله تعالى قد بنى بيتاً وأمركم بأن تحجوه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما فرغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت أمره الله عز وجل أن ينادي في الحج، فقام على المنار، فقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد بنى لكم بيتاً فحجوه، وأجيئوا الله عز وجل، قال: فأجابوه في أصلاب الرجال وأرحام النساء: أجبناك أجبناك، لبيك اللهم لبيك،

قال: فكل من حج اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم على قدر ما لبي^{٧٧٥} فلما نادى يا أيها الناس، أجيئوا ربكم، فأجابوه من أصلاب الرجال: لبيك، فإنما يحج من أجاب سيدنا إبراهيم يومئذ. فعن عمر، رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالسا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيمانا. قالوا يا رسول الله الملائكة. قال: هم كذلك ويحق ذلك لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم. قالوا: يا رسول الله فالأنبياء الذين أكرمهم الله تعالى بالنبوة والرسالة. قال: هم كذلك ويحق لهم ذلك وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم قال: قلنا: فمن هم يا رسول الله. قال: أقوام يأتون من بعدي في أصلاب الرجال فيؤمنون بي ولم يروني ويجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا"^{٧٧٦}، وهذا من بر البر بنا ونحن في الأصلاب ففضلنا الله وجعلنا من أفضل أهل الإيمان إيمانا وليس الأمر كذلك بل جعلنا حاملين للواء الخلافة الربانية على الأرض.

٤- بر بعباده في أرحام الأمهات:

فالله سبحانه وتعالى أبر بعباده وهم أجنة في بطون الأمهات بعد أن برهم في عالم الذر في الأصلاب ونماهم وغذاهم من الأرض التي خلق منها أبيهم فقال تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} ^{٧٧٧} فعلمه شامل ورحمته واسعة، والآية تأكيد لقوله: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ضَلَّ} ^{٧٧٨} فمن يتخيل أو يتوهم بأن يعمل عملا في جوف الليل المظلم أو في أي مكان ما ولا يعلمه الله فهو واهم لأن الله يعلم أحوال الخلق وهم أجنة في بطونا الأمهات، والله عالم بتلك الأحوال فإن الله عالم بأحوالهم وهم في بطون الأمهات، فكتب على البعض أنه ضال، والبعض أنه مهتد، فقال تعالى: (هُوَ

^{٧٧٥} أخبار مكة للفاكهي - ج ٣ ، ص ٣٠

^{٧٧٦} المستدرک على الصحيحين للحاكم - ج ١٦ ، ص ٣١٤

^{٧٧٧} النجم ٣٢

^{٧٧٨} النجم ٣٠

أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) وهنا تأكيد على كمال العلم والقدرة، فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد خارجها، فمن بره أن أخرج الخلق من الأصلاب إلى الأرحام ووفر لهم سبل الحياة، ولا يقدر على ذلك إلى البر، فمن بره وإحسانه خلق الرحم في جوف البطن بكيفية تلائم حياة الجنين وتحافظ على حياته إلا إذا أراد الله غير ذلك، وبقدرته سبب له من أسباب الحياة وهذا ما يعجز الخلق جميعاً وإن اجتمعوا له فله الحمد والمنة.

٥- بر بعباده وهم أطفال لا يملكون أن يدفعوا ضرراً أو يجلبوا نفعاً.

فإن الله بر محسن بعباده بعد إخراجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومن الأرحام إلى دار الاختبار فأجرى الرحمة في قلب الأم والحنان في قلب الأب وقد سخر الله الاثنين لتوفير سبل الراحة للطفل الضعيف، فجعل الله الأبوان وليين لطفل، والولاية هي التي يقوم فيها ولي الطفل برعاية شئونه منذ ولادته، ففي فترة الحضانه تحتضنه الأم وتسقيه من ثديها الغذاء ومن صدرها العطف والحنان حتى ترى فيه مظاهر القوة، و من تمام البر بالطفل فقد حث الإسلام على استيفاء الرضاعة لعامين فقال الله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} ^{٧٧٩} والولاية في هذه الفترة خاصة بالأم أو امرأة أخرى تقوم مقامها بالرعاية والرضاعة والحنان، فالطفل في هذه المدة يحتاج إلى أمومة مستمرة حتى يصبح غلاماً يألف الناس ويألفونه، أما الوالد فإنه يشارك في هذه الفترة بالإنفاق على الأم حتى تقوم بواجبها، لذا كانت النفقة واجبة عليه فلو حدث أن أم الطفل لم تستطع إرضاعه لقله لبنها أو لمرضها وجب على الأب أن يدفع المال لامرأة أخرى تقوم بإرضاعه قال الله تعالى: {وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ} ^{٧٨٠} ثم إن الأب يشارك كذلك بالولاية على الطفل بالعناية والتهديب والإصلاح والحماية حتى إذا انقضت فترة الحضانه استقل الأب بالولاية على

^{٧٧٩} البقرة ٢٣٣.

^{٧٨٠} البقرة ٢٣٣.

النفس فيكون هو الولي، وفي هذه المرحلة يكون الطفل في حال توكل على الأم لأنه في مرحلة ضعف، والأولى من القول أن نعيد الحقيقة إلى نصابها فنقول إن الطفل في حال توكل على بر البر من خلال تسخير الأبوين لراحة الطفل، والطفل في مرحلة ضعفه لا يعرف غير أمه ولا يفرغ إلى سواها ولا يعتمد على غيرها، فإن رآها تعلق بها، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان بكأوه لفراقها، وأول خاطرٍ يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكفايتها له وشفقتها عليه.

ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبّر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب. فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى ينتهي إليه غذاء الأم مهضوم بواسطة السرة، ولم يكن ذلك بحيلة الجنين أو بقدرة منه، ثم لما انفصل سبط الله ببره ورحمته الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطراراً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم! إذ صار بحيث يوافق الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ، فإذا كبر واستقل يسّر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة، فجنبه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت، فإنه لم يكن قادراً على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته، نعم كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقتة مفرطة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بإدخال الله تعالى الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرفقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق عليه واحداً والآن المشفق عليه ألف وزيادة، وقد كانوا لا يشفقون عليهم لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجاً، ولو رأوه يتيماً لسلط الله داعية الرحمة على

واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه، فما روى في سني الخصب يتيم قد مات جوعاً مع أنه عاجز وليس له كافل خاص، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحداً والمشفق الآن ألف، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم! ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزقٍ ويرزق في غشاوته الجنين^{٧٨١}

وهذه رعاية الوليد الضعيف أو اليتيم التي كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي درجة من أعلى درجات التوكل على الله لأنه سبحانه وتعالى الذي يتولى الوليد والضعيف واليتيم ببره ولا يكله إلا احد طرفة عين أو أقل، كل ذلك بدفع خفي من البر الرحيم فقال صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"^{٧٨٢}.

٦ . بر بعباده وهم كبار لا يملكون رزقا بإنزال مطر أو تسيير رياح أو بسط أرض أو إنبات نبات، فمن بره وإحسانه بالعباد ما ذكره في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَقَالًا سَقَّاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ

^{٧٨١} إحياء علوم الدين - ج ٣ ، ص ٣٦٩

^{٧٨٢} سنن أبي داود - ج ١٣ ، ص ٢٨٣

تَذَكَّرُونَ} ^{٧٨٣}. فمن بره سبحانه وتعالى إنه (هو الذي يرسل الرياح لواقح) لأنه ربنا البر بنا الله الذي خلق السموات والأرض وهو الذي يرسل الرياح اللواقح هواء يحرك المياه الساكنة لتتبخر ولتجري في الأنهار والأودية بعد سقوطها أمطار رحمة على العباد، ولولا ذلك لظلت راكدة وظل بركودها ركود السفن وتعطلت سبل الحياة لا غنى لكثير من الخلق عنها، ولماتت حيوانات في البر والجو والبحر ولكن ببر البر ورحمته سخر الريح من الرحمة فقال: (بين يدي رحمته) والرحمة هنا المطر الذي هو من رحمته، وسماه رحمة لأنه المسبب في حياة الأرض الميتة، ولا نضيّق الأمر في المطر ونطلق العنان في مجال الرحمة ولكن الحقيقة لا نستطيع عد وحساب ووزن مقدار رحمة الله البر لأنه القائل سبحانه وتعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} ^{٧٨٤} جاء الشيء مطلقاً وهو كل شيء وأي شيء، والشيء المطلق هو مجال امتداد الرحمة، (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا) حتى إذا حملت هذه الرياح سحباً ثقيلة بما فيه من مطر وغيره من رحمة الله فيسوقه الريح بقدرة الله إلى البلد الذي يحتاج إليه فيبعث فيه الحياة، ولا يملك ذلك غير الله البر الرحيم.

٧. بر بعباده وهم عصاة لا يملكون سترا لمعصيتهم فسترهم.

فالله بر بعباده يسترهم وقت الذنوب ويعفو عنهم إذا رجعوا، لذا فالمتخلق ببر البر يستر ويعفو وذلك انطلاقاً من خير الهدى هدى النبي صلى الله عليه وسلم الذي يحث على الستر ولا يقدر على الستر والعفو من البشر إلى الخليفة الذي تشرب بمعني البر والرحمة واقتدى بالنبي في قوله صلى الله عليه وسلم: "من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة"، وقال: "لا يستر عبد عبداً إلا ستره الله يوم القيامة" وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة"، فإذن على المسلم أن يستر عورة نفسه فحق إسلامه واجب عليه

^{٧٨٣} الأعراف ٥٤-٥٨ .

^{٧٨٤} الأعراف ١٥٦ .

كحق إسلام غيره. قال أبو بكر رضي الله عنه: لو وجدت شارباً لأحببت أن يستتره الله، ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستتره الله^{٧٨٥}.

وفي الحديث: "إن الله ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى"، وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال: أتدري من هذا. قلت: لا، فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى. قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه. قال الله تعالى: (ولا تجسسوا) فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم، وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية: "إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم"، وقال صلى الله عليه وسلم: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته"^{٧٨٦}.

وعن عمار بن ياسر: "أتى رجلاً مرت به امرأة فأحرق بصره إليها فمر بجدار فمرس وجهه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يسيل دماً فقال: يا رسول الله إني فعلت كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أراد الله بعبد خيراً عجل عقوبة ذنبه في الدنيا فإذا أراد به غير ذلك أمهل عليه بذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة كأنه عير". والستر الأكبر في الآخرة أمام الخلائق يوم القيامة اللهم اجعلنا من المستورين في الدنيا بالبعد عن الذنوب وفي الآخرة بالنجاة من النار، وستر الآخرة ستر عظيم لأنه يكون أمام الإنس واجن والملائكة وغير ذلك من خلق الله يعلمهم ولا يحصيهم غيره سبحانه عظيم الجود والإحسان، وعن ابن عباس قال: قال

^{٧٨٥} إحياء علوم الدين - ج ٢ ، ص ٤٦

^{٧٨٦} إحياء علوم الدين - ج ٢ ، ص ٤٦

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شكا نبي من الأنبياء إلى ربه فقال يا رب يكون العبد من عبيدك يؤمن بك ويعمل بطاعتك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد من عبيدك يكفر بك ويعمل بمعاصيك فتزوي عنه البلاء وتعرض له الدنيا فأوحى الله إليه إن العباد والبلاد لي وإنه ليس من شيء إلا يسبحني وبهللني ويكبرني فأما عبدي المؤمن فله سيئات فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء حتى يأتيني فأجزيه بحسناته وأما عبدي الكافر فله حسنات فأزوي عنه البلاء وأعرض له الدنيا حتى يأتيني فأجزيه بسيئاته"^{٧٨٧}.

البر هو رحيم بعباده يداوي هفوات النفوس ويبرئ علات القلوب ويصلح نزوات الأجساد ويسمو بالروح إلى نور الطاعة متعاليا بها عن ظلمة المعصية، فببره يمهل العاصي بإمهاله ويستتره بستره يعفو عنه برحمته، ومن لم ينل العفو من البر فقد لقي الخزي الكبير لأنه عرض نفسه للتهلكة ولعذاب الله وكفي بالمرء عذابا كشف ستر الله له.

قال الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}^{٧٨٨} فمن بره خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات باهرات ومعجزات كبريات وخيرات حسان لا يمكن أن يعددها عاد ولا يحصيها حاص، وهذه الآيات لأولى العقول السليمة الفطنة التي تفحص وتدقق وتصل إلى إن ذلك الجود والبر من البر الأكرم الوهاب الأعظم وهؤلاء سماهم الله أولى الألباب أصحاب العقول التي تصل إلى مراد الله في خلقه وتعمل على إصلاح الأرض وتحقيق الخلافة التي أَرادها الله عز وجل، والمنادي للإيمان سيدنا محمد صلى

^{٧٨٧} - مجمع الزوائد وبع الفوائد - ج ٤ ، ص ٤٣٧

^{٧٨٨} آل عمران ١٩٠ - ١٩٤

الله عليه وسلم وسيلته في ندائه كتابُ اللهِ وسنته وهي التطبيق العملي لكتاب الله، والخليفة الذي يأخذ كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم طريقاً للنجاة بإتباع طرق الهداية وتعمير الأرض والتفكير في سبل الإصلاح، والذين يتبعون ذلك الهدي يقولون: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^{٧٨٩}. دعاء الخليفة على ألسنة الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم الذين اصطفاهم الله ليخرجوا الناس من الظلمات على النور، أي من المعصية إلى الطاعة ومن الظلم على العدل ومن الضلال إلى الهداية، والخير الأكبر والبر الأعظم طلب الستر في الدنيا وفي الآخرة فيقول كل من أراد التزود من بر البر بنعمة الستر الأكبر: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لأننا أمانة برسولك وصدقنا بكلامك، ولذا فمن يفعل ذلك لا يخزيه الله ويستره، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾^{٧٩٠} فهذا وعده تعالى وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

فالله يستر الذنب ويرحم عباده بالمغفرة والهداية وهذا بر وإحسان من الله الذي بره دائم متصل حتى لا يفضح العبد يوم القيامة، ولكن هناك من يقابل البر والعفو والستر بغير ذلك فيفضح ستر الله ويتكلم بالمعصية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل أمتي معافى إلا المجاهرون

^{٧٨٩} آل عمران ١٩٤ - ١٩٨.

^{٧٩٠} التحريم ٨.

قالوا يا رسول الله ومن المجاهرون قال الذي يعمل العمل بالليل فيستره ربه عز وجل ثم يصبح فيقول يا فلان علمت البارحة كذا وكذا فيكشف سر الله عز وجل عنه^{٧٩١}.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة"^{٧٩٢}.

والخليفة في حقيقة الأمر متحقق بأسماء الله فيبر من حوله بأعمال الخير ومن أعمال الخير ستر الجماعة المحيطة به والعمل على ستر من يستطيع، والستر الذي هو من أعمال البر لا يكون بحجب الحقيقة بالستر، والفرق كبير بين الستر، والتستر، فالخليفة يستر ولا يتستر، يستر بالنصيحة والتوجيه وتقديم يد المساعدة ومن ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ قَالَوا لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِلَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَأَيُّمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَامَّتِهِمْ أَوْ أَيُّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ"^{٧٩٣} وقال الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}^{٧٩٤} فالنصيحة ستر لمن تنصحه بشرط ألا تكون بين يدي الناس أو على مسمع منهم حتى لا يؤدي من تقدم له النصيحة، وهذا النصح من أعمال البر الذي يقوم به المتخلق بخلق البر، ولذا فالنصيحة تأتي من القوي الذي يملك التغيير بالمال والقوة والسلطة، وتأتي من الضعيف الذي لا يملك من الأمر إلا الخبرة فلا يمنعه ضعفه وقلة حيالته من النصح لوجه الله ورسوله.

٨- بر بعباده وهم تائبون فقبلهم وغفر لهم:

لأنه يحب التوابين المتطهرين من الذنوب والمعاصي بالطاعة والإنابة إلى الله البر الرحيم. قال الله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

^{٧٩١} إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٤٦

^{٧٩٢} السابق ص ٤٨.

^{٧٩٣} سنن أبي داود، ج ١٣، ص ١٠٧

^{٧٩٤} التوبة ٩١.

الرَّحِيمِ} ^{٧٩٥}. فالاستفهام للتقرير والتأكيد ومفاده أن الله هو وحده ليس غيره يقبل التوبة عن عباده وفي هذا إطلاق البر بعباده لأنه يقبلها عنهم وليس منهم وهذا أقوى وأشمل في قبول التوبة، وكيف لا وهو الذي ستر وقبل التوبة ووعده بالمغفرة فقال: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} ^{٧٩٦}.

الله سبحانه وتعالى يوضح في الآيات كمال رحمته وفضله وإحسانه في حق العباد وقد احتج البعض بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر لأن خصص اسم العباد للمؤمنين فقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} ^{٧٩٧} وقال: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} ^{٧٩٨} ولفظ العباد في مجال التوقير لذلك فهو يخص المؤمنين بالله ولأن المؤمنين هم الذين يعترفون بكونهم عباد الله، أما المشركون فإنهم لا يسمون أنفسهم بذلك، وعليه فقوله: (يا عِبَادِي) لا يليق إلا بالمؤمنين، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قال: (الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ) وهذا في حق جميع المسرفين، ثم قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) وهذا يقتضي كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين، لا عن غيرهم لأنهم لا يرجعون إليه بالتوبة ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية: (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب لجميع العبيد لما أمر بعده بالتوبة والإنابة إليه، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون، وقوله تعالى: (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) ولو كانت الذنوب كلها مغفورة، فأبي حاجة به

^{٧٩٥} التوبة، ١٠٤

^{٧٩٦} الزمر ٥١-٥٥

^{٧٩٧} الفرقان . ٦٣

^{٧٩٨} الإنسان . ٦

إلى أن يقول: (ياحسرتى على ما فرطتُ في جنبِ الله)، وليس ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاق في الإقدام عليها، لأنه لا يليق بحكمة الله، وإذا ثبت هذا وجب أن يحمل على أن يقال المراد منه التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا خلاص له من العذاب نهائياً، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة، فمعنى قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)، بالتوبة والإنابة، فعليه كل الذنوب مغفورة قطعاً بإذن الله للتائب النائب، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع، وهي للاستقبال والاستمرار وهذا من مطلق الرحمة والبر.

ومن أرد الخلافة فهو يجد وكد في دعوة الناس للعودة إلى الله والإيمان به حتى يتوب الله عليه، وتلك دعوة عامة للقاصي وللداني ولسان حال العاملين على بر من لهم التمثل بقوله تعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} ^{٧٩٩} فمن الرحمة في الدعوة إلى البر اللين في الدعوة لأن اللين مظهر من مظاهر الرحمة، والاستجابة لله بالعودة إليه والإيمان به وجزاء ذلك المغفرة والرحمة والنجاة من عذاب أليم أعده الله لمن يصبر ويتجبر ويتكبر ولا يعود إلى ربه البر به، فمن لا يستجيب لهذه العودة لن يجد إلا العذاب ولا ينقذه منه أهل الأرض والسماء، وهو بهذا لا محالة في ضلال مبين.

ويقول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} ^{٨٠٠}. (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) والتوبة هي الرجوع عن المعاصي بالندم عليها والعزم على أن لا يعاودها تكراراً. وروى جابر رضي الله عنه أن أعرابياً دخلَ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبّر فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله

٧٩٩ الأحقاف ٣٢

٨٠٠ الشورى ٢٥-٢٦

عنه يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين، وما التوبة قال اسم يقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما رببتها في المعصية وإذاقها مرارة الطاعة كما أدققتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحكٍ ضحكته. (ويَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ) صغيرها وكبيرها دون أن يشرك به لمن يشاء (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) كائناً ما كان من خيرٍ وشرٍ فيجازي ويتجاوزُ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح . وقرئ ما تفعلون بالتاء. (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي يستجيبُ الله لهم فحذف اللام كما في قوله تعالى: (وَإِذَا كَانُوا مِنْهُمْ) أي كالأولاء لهم، والمرادُ إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم فإنها كدعاءٍ وطلبٍ لما يترتبُ عليها، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "أفضلُ الدعاءِ الحمدُ لله". أو يستجيبون بالطاعة إذا دعاهم إليها. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له ما بالنا ندعو فلا نجابُ قال لأنه دعائكم ولم تجيبوه ثم قرأ: (والله يدعُو إلى دارِ السلام) وقوله: (وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ) على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد. وقال تعالى: (والكافرون لهم عذابٌ شديدٌ). بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضلِ المزيد^{٨٠١}.

والتوبة من شروطها أن تكون بنية صافية ورغبة في إصلاح النفس وعدم العودة إلى المعصية فهي ليست متاحة أو مباحة لكافر يصر على كفره ولا لمصر على الكبيرة يفعلها دون رادع قال الله تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} ^{٨٠٢}.

ولأن الله بر رحيم يحب اللين فالخليفة يتخلق بذلك يدعو باللين ويترك الفظاظة والغلظة في الوصول إلى قلوب الناس وليس أدل على ذلك من بر النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح الله عليه مكة، ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء

^{٨٠١} تفسير أبي السعود - ج ٦ ، ص ٨٢

^{٨٠٢} النساء ١٨

البيت فطاف به سبعا على راحلته فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد بها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة فقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده" وقال: "يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وادم من تراب ثم تلا هذه الآية يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" ^{٨٠٣} ثم قال "يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ثم جلس في المسجد فقام إليه على ومفتاح الكعبة في يده فقال يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء ^{٨٠٤}.

والشاهد إن النبي صلى الله عليه وسلم رفض أن يقسو على من آذوه وبرهم وأعطاهم ما كان لهم من فضل في الجاهلية ولم يؤثر أحدا على أحد وبر بهم وعفا عنهم. ومن مواقف البر والرحمة ما حدث بعد أحد بعد انكسار المسلمين بسبب تخليهم عن طاعة أمر النبي صلى الله عليه وسلم طمعا في غنيمة المعركة، فلم يعنفهم صلى الله عليه وسلم بل واساهم وطمأنهم وبر بهم وبيوضح الله ذلك في كتابه فقال: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ

^{٨٠٣}الحجرات ١٣.

^{٨٠٤}عيون الأثر - ج ٢، ص ١٩٩

عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنَّ
يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ} ^{٨٠٥}.

قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو
كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت
والله بما تعملون بصير) أي لا تكونوا كالمنافقين الذين يnehون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله
والضرب في الأرض في طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ويقولون إذا
ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) لقلّة اليقين بربهم
(والله يحيي ويميت) أي يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من ذلك من أجابهم بقدرته. قال تعالى:
(ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) أي إن الموت لكائن
لا بد منه فموت في سبيل الله أو قتل خير لو علموا وأيقنوا مما يجمعون من الدنيا التي لها
يتأخرون عن الجهاد تخوف الموت والقتل لما جمعوا من زهرة الدنيا زهدا في الآخرة (ولئن متم
أو قتلتهم) أي ذلك كان (لإلى الله تحشرون) أي إن إلى الله المرجع فلا تغرنكم الدنيا، ولا تغتروا
بها، وليكن الجهاد وما رغبتكم الله فيه من ثوابه أثر عندكم منها، والجهاد حق لإحقاق الحق، من
أجل إصلاح الأرض وأعمارها، وهذه من صفات وأعمال المستخلفين فيها.

قال وتعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ
عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنَّ
يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ} ^{٨٠٦}، فقله: (لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) أي لتركوك (فاعف عنهم) تسامح معهم وتجاوز عما
يفعلون (واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)

^{٨٠٥} آل عمران ١٥٥-١٦٠.

^{٨٠٦} آل عمران ١٥٩، ١٦٠.

فذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم لينه لهم وصبره عليهم لضعفهم وقلة صبرهم على الغلظة لو كانت منه عليهم في كل ما خالفوا عنه مما افترض عليهم من طاعة نبيهم صلى الله عليه وسلم. ثم قال تبارك وتعالى: (فاعف عنهم) أي تجاوز عنهم (واستغفر لهم) ذنوبهم (وشاورهم في الأمر) أي لترهيم أنك تسمع منهم وتستعين بهم وإن كنت غنيا عنهم تألفا لهم بذلك على دينهم (فإذا عزم) أي على أمر جاءك مني وأمر من دينك في جهاد عدوك لا يصلحك ولا يصلحهم إلا ذلك فامض على ما أمرت به على خلاف من خالفك، وموافقة من وافقك، (فتوكل على الله)^{٨٠٧}.

ولهذا فالبر إحسان واسع به يتم التمكن من المشاركة الواسعة واستيعاب الآخرين الذين يتعلق المر بهم، قال تعالى: (وشاورهم في الأمر) هكذا بدأ تأسيس الشورى في الإسلام لأجل ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات، والشورى تعني فيما تعني: أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقا لقوله تعالى: {وشاورهم في الأمر}^{٨٠٨}. ويقول ابن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم"^{٨٠٩} أما الشيخ الشعراوي فيقول: "المشورة هي تلقيح الرأي بآراء متعددة"^{٨١٠}. وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي ممارستها حقا للجميع الذكور والإناث، ولذلك يستوجب ممارسة الشورى في الأمر.

والأمر هو، كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أو كان هذا الأمر في حالة السلم أو في حالة الحرب، وسواء كان اقتصادا أو علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك

^{٨٠٧} الروض الأنف، ج ٣، ص ٣٠٤

^{٨٠٨} آل عمران، ١٥٩.

^{٨٠٩} تفسير الجلالين. بيروت، دار الفكر، ص ٩٤.

^{٨١٠} محمد متولي شعراوي، تفسير الشعراوي. القاهرة. أخبار اليوم، المجلد الثالث، ص ١٨٤٠.

يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية (وشاورهم في الأمر) موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم. ثم قال له: (وإذا عزم فتوكل) أي إذا وصلت معهم إلى قرار فاعتمده بهم للتنفيذ حتى تكون لهم المشاركة في كل ما يتعلق بهم من أمر، وحينها يتحملوا معك الأعباء التي قد تترتب على ما اتخذه من قرارات. وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} ^{٨١١}. إذن بكل وضوح إنَّ الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة شورى بين الرسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم. أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون وفقا لإمكاناتهم المتاحة والمتوفرة، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر. وكلمة أمرهم، تتكون من جزأين هما: (أمرُ)، و(هم)، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما (هم) فجاءت مطلقة أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية، بل الوجود فقط لكل دون استثناء، وكلمة بينهم الظرفية تعني، أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعنيه الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عز وجل بينهم، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول. وقد يتساءل البعض: إذا كان الأمر هكذا حاله، فإن الديمقراطية إذن مطبقة في المجتمعات الإسلامية، أليس كذلك. وللأسف الإجابة بأجل، وذلك لأن الفكر الإسلامي في

^{٨١١}. الشورى، ٣٨.

الشرق والتطبيق الإسلامي في الغرب (أعني وللأسف في اتجاهين متباعدين) نأمل أن يسود العدل والبر بين الناس رحمة ومغفرة وتوبة وإصلاح في الأرض. ولأن الله بر رحيم لم يترك عبده المؤمن دون عناية ورعاية فأرسل الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ليعلم الكافة الدين الحق، الذي يجعلهم على الحق عدلاً وإحساناً، ويجعلهم أمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ليكونوا أعتاباً كرام يوحدون الله ولا يشركون به شيئاً.

ومن بره يثبت المؤمن الذي آمن به ربا براً رحيمًا وبالنبي صلى الله عليه وسلم نبياً رسولاً من رب العالمين وهذا الثبات بقوله الحق الذي كان متمسكاً بها في الدنيا وثبت عليها ودافع عنه ليثبتهم على القول الثابت حتى تطمئن قلوبهم على الحق وبه، قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} ^{٨١٢}.

{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} هي كلمة التوحيد، وكلام الله الذي لا يتبدل ولا يتغير وإن تغير الزمن وذلك لصلاحية القرآن الكريم لكل زمان. (في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وقال: {وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ} الذين ظلموا أنفسهم بجهالتهم وكفرهم وشركهم، وبظلم الناس الذين لهم علاقة بهم، من أبنائهم وأزواجهم الذين جعلوهم يشبوا على الكفر والشرك وهذه مظالم جارنا الله منها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقبل توبة عبده ما لم يغرغر".
وقال الشاعر:

ويا دار دنيا إنني راحل عنك	ويا فرقة الأحباب لا بد لي منك
ويا سكرات الموت مالي وللضحك	ويا قصر الأيام مالي وللمنى
إذا كنت لا أبكي لنفسي فمن يبكي	فما لي لا أبكي لنفسي بعبرة

ألا أي حي ليس بالموت موقناً وأي يقين أشبه اليوم بالشك^{٨١٣}

ولأنه البر الرحيم يلتجئ الخليفة إليه تعبد ودعاء كل حين ويظهر ذلك في دعائه في كل صلاة وهو يحمده على رحمته وبره له في الأرض ويوم يبعثون، مصداقا لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^{٨١٤}، والبر من الله على الصراط بنور منه يعطيه للمؤمن ليمر على الصراط دون خوف أو وجل قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^{٨١٥}.

قال عز وجل: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) "في يوم القيامة على الصراط، والنور في حقيقته استبشار وطمأنة نفس ورضاء بالمكارم التي وهبها لهم البر الرحيم جل جلاله، (يسعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) بتصديقهم في الدنيا، أي بما قدمت أيديهم من عمل صالح في الحياة الدنيا وبما سلكوا وفعّلوا فيها من خيرات حسان نالت الجزاء الأوفى من البر الرحيم، فلم تكن وجوههم مسودة كما هو حال المعذبين بما جنت أيديهم في الدار الدنيا من مظالم ومفاسد وسفك دماء بغير حق، فهؤلاء لهم الظلمة، وللوارثين المستخلفين النور الذي به اهدوا إلى الصراط المستقيم ففازوا في الدارين، فيكون النور بين أيديهم، وأيمانهم الذي كان سببا في جلب النور إليهم. وتقول

^{٨١٣} فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، ج ٤، ص ٥٠٠.

^{٨١٤} الفاتحة ١-٧

^{٨١٥} الحديد ١٢-١٣

لهم الملائكة: (بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ) أبشروا هذا اليوم بكرم الله تعالى وبره لكم. (جنات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا) الجنات متعددة ومتنوعة وغير مختلفة، فهي كلها خيرات حسان، ولكل حسب ما قدمت يداه من حسنات في الدار الدنيا، أي ولكل درجات في الجنات المتنوعة والمتعددة، وهذه الجنات هي ديار البقاء الدائم^{٨١٦} (ذلك هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)، الفوز الذي لا يناظره فوز من حيث العظمة وهي الدرجة الرفيعة العالية المملوءة بالخيرات الحسان، (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) نُصِبَ مِنْ نُورِكُمْ، فنضيء معكم، والافتباس أخذ من أصل ثابت، دون أن يؤثر ذلك على المأخوذ منه، والمنافقون هم الذي لم يدخل الإيمان قلوبهم في الحياة الدنيا، فكذبوا ولم يكونوا من الصادقين فيما قالوا وعاهدوا. وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «بينما العباد يوم القيامة عند الصراط، إذ غشيتهم ظلمة. ثم يقسم الله تعالى النور بين عباده، فيعطي الله المؤمن نوراً، ويبقى الكافر والمنافق لا يعطيان نوراً، فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصر، كذلك لا يستضيء الكافر والمنافق بنور الإيمان، فيقولان: انظرونا نقتبس من نوركم، فيقال لهم: (قِيلَ ارْجِعُوا) حيث قسم النور فيرجعون، فلا يجدون شيئاً، فيرجعون دون مكاسب، وقد ضرب بينهم بسور. وعن الحسن البصري قال: إن المنافقين يخادعون الله، وهو خادعهم، لأنه يعطي المؤمن والمنافق نوراً، فإذا بلغوا الصراط، أطفئ نور المنافق، فيقول: المنافقون (انظرونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) انظرونا: أمهلونا إلى حين. فقال لهم المؤمنون: ارْجِعُوا (وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) ارْجِعُوا إلى ما فاتكم، وهم يعلمون أنهم لن يرجعوا ولكن ذلك يدل على الاستحالة، التي من بعدها لا ينفع الندم. والتماس النور لا يتم إلا من البر الرحيم، ولهذا فهم الذين لم يستجيبوا له حتى يكون لهم منه نوراً. (فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ) فصل بينهم فأصحاب النوار هم في جنات النعيم، وأصحاب النفاق والضالين عن الهداية هم في نار جهنم والحمد لله رب العالمين. والسور الذي ضرب بينهم (لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ) باب السور داخله فيه الرحمة، والرحمة جنة واسعة، فلا يدخلها إلا الخلفاء والوارثين في الدارين. (وظاهره مِنْ قِبَلِهِ

^{٨١٦} بحر العلوم، ج ٤، ص ٢٥١.

(العذاب) والظاهر هو المشاهد للعيان بالنسبة للكفرة والمشركين، فهم بطبيعة الحال لا يرون إلا النار، وذلك لأنهم لم يدخلوا مع الباب الذي باطنه الرحمة (الجنة)، أي لم ولن يتمكنوا من بلوغ باب الجنة ليروها أو ليدخلوا منه فهذا الأمر فيه حكم مطلق بعدم دخوله إلا لمن كان خليفة في الأرض فأصلح ولم يفسد فيها ولم يسفك الدماء بغير حق. والنار باب فيجاوز فيه المؤمنون، ويبقى المنافقون على الصراط في الظلمة (ينادونهم) من وراء السور (أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) يعني: ألم نكن معكم في الدنيا، فيجيبهم المؤمنون أي دنية.! الدنيا دار فانية، لم يبق منها إلا العمل الصالح وأنتم لم تفعلوه ولهذا كانت الإجابة بقولهم: (قَالُوا بلى) يعني: قد كنتم معنا في الدنيا، أو في الظاهر. (ولكنكم فتننهم أنفسكم) قد أصبتم أنفسكم حيث كفرتم في السر^{١١٧}.

ولما كان الله هو البر فقد أفاض بالبر على الخلق والبر (بكسر الباء) من الخلق تجاه الله البر يعني الصدق والطاعة وفي التنزيل: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ^{١١٨} ولكن البرُّ برٌّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، فليس البر حركات دون نية ولكن أعمال بإقرار وبقين وإيمان بالله بأنه صاحب النعمة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} ^{١١٩} فمن نعمة الله عز وجل علينا الهداية إلى الإيمان به، والتوفيق للتصديق بنبيه، والإقرار بصحة نبوته، الاعتراف بصدقه وأمانته، والإذعان لإتباعه والجد في طاعته وعصمنا من الضلالة التي هلك فيها عصاة عباده، وعتاة خلقه، فالحمد لله على نعمته علينا في ديننا ودنيانا، وله الشكر على إحسانه إلينا في جميع شئوننا، ونظره لنا فيما يصلحنا، ويعود علينا بالفوز في معادنا، والنجاة يوم حشرنا.

^{١١٧} المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٤.

^{١١٨} البقرة ١٧٧.

^{١١٩} النحل ٥٣

وللبر طريق لمن أراد أن يسلك إلى البر قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصُدَّقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا"^{٨٢٠}. ما أجمل الصدق وأعظمه وهو يقود إلى البر، وما أجمل البر وأعظمه وهو يقود إلى الجنة، وعليه فمن أراد الجنة عليه بالبر والإحسان والمعروف في طاعة الرحمن الرحيم.

ولأن الصدق هو إتباع للحق قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}^{٨٢١}، تقوى الله مخافته لا الخوف منه، فالفرق كبير بين المخافة التي هي التقوى بذاتها، وبين الخوف الذي هو في معظمه لا يعبر عن إرادة. فنحن المستخلفون فيها نعلم أن الله لم يكن مخيفاً، فالمخيف هو لا حسن فيه، والله جميل وصفاته حسان، ولكن الخوف من الأعمال المنقوصة التي تؤدي بأصحابها إلى حيث لا يرغبون، ولأن الكمال لله تعالى فإن المؤمنين يخافون من التقصير إن حدث منهم، ومع إنهم يعلمون أن الله غفور رحيم إلا أنهم ولحرصهم هم يحسبون الحسابات التي تجعلهم في حالة خوف مما عملوا قبل أن يصبحوا من المؤمنين حقاً، وحتى بعد الإيمان الحق فهم يخشون الله ويتقوه ويتضرعون إليه وهم طائعون. قال تعالى: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}^{٨٢٢}، الخوف هنا مما يعمل قومهم، والرجلان يخشيان الله مما يعمل قومهم من منكرات ومفاسد، ولهذا هما يتقيان الله فلا يعملان وهما اللذان انعم الله عليهما بدخول الإسلام، وهكذا يكون التوكل على الله بتقواه لا بالخوف منه، أي بمخافته في كل ما أمر به ونهى عنه، ولهذا المخافة تقوى وهداية للحق بالحق.

^{٨٢٠} صحيح مسلم - ج ١٣ ، ص ١٦

^{٨٢١} التوبة ١١٩

^{٨٢٢} المائدة ٢٣.

قال تعالى: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} ^{٨٢٣}، الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، هم الذين ليس لهم شفعاء يشفعون لهم، وذلك لعدم مخافتهم الله في الحياة الدنيا، فهم عملوا ما عملوا من مفسد وشرك وضلال، فلم يؤمنوا بالمرسلين، ولهذا ليس لهم شفيع ليتم التكفير عن سيئاتهم.

وقال تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} ^{٨٢٤} من الذين يخافون ربهم. بطبيعة الحال الملائكة، والصالحون والمؤمنون الذين يتوبون إلى الله متابا، ولكن في هذه الآية المعنى يعود على الملائكة الكرام الذين هم يفعلون ما يؤمرون، والمخافة هنا اتقاء الله وطاعته بالمطلق فيما يأمر به سبحانه جل جلاله. ولهذا لا خوف من الله بل الخوف من العباد الظالمين، فالله لا يظلم أحدا، ولكن العباد منهم الظالمين ومنهم الكفرة والمشركين والضالين، وهؤلاء جميعهم يخافون، إما الله العادل الودود الرحيم، يدخل الطمأنينة في النفس فلا يخيف. قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} ^{٨٢٥} خوفا وطمعا: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه. أي لم يكن الخوف منه في ذاته، بل الخوف بأسباب تعود للفعل البشري المنقوص، ولهذا فالعودة إلى الله تحقق الطمأنينة والابتعاد عنه إتباع عما أمر به ونهى عنه، هو الذي فيه المخاوف ومنه الخوف، فمن يتقى الله يأمن ومن لم يتقيه يضل، ومن يضل يعاقب بالشدّة.

وكيف يكون الله هو البر الرحيم ويخيف.

البر الرحيم لا يخيف في ذاته أبدا، بل المخيف هو ارتكاب الأعمال المضلة، وعليه الخوف دائما يكون ممن يظلم، والله عادل لا يظلم أحدا، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} ^{٨٢٦}، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ

^{٨٢٣} الأتعام ٥١.

^{٨٢٤} النحل ٥٠.

^{٨٢٥} الأعراف ٥٦.

^{٨٢٦} النساء ٤٠.

النَّاسِ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّئُكَ فَالْيُنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} ^{٨٢٧}.

والصدق: عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة، قال الله تعالى: {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما} ^{٨٢٨}، والصادق الاسم اللازم من الصدق، والصديق المبالغة منه: وهو الكثير الصدق، الذي الصدق غالبه، والصادق: من صدق في أقواله وأفعاله. ومن أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق؛ فإن الله تعالى قال: (إن الله مع الصادقين) ولهذا فالبر صدق، والصدق: الوفاء لله سبحانه بالعمل.

و البر الصلاح وهو بذلك أساس ما يقوم به الخليفة لأنه المأمور بإصلاح الأرض وإصلاح حال العباد وكأن بر الخليفة بالأرض التي يحيا عليها وإصلاح شأن الخلق القائمين عليها هو من طاعة الله البر ببر الأرض ومن عليها والإصلاح من هذا المنطلق كان هدف ورسالة الأنبياء الذين هم قدوة الخلفاء والصالحين قال الله تعالى: {إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} ^{٨٢٩} فالمصلح هو الذي يحقق الخلافة على الأرض بقدر طاقته معتمدا على توفيق الله من خلال الرجوع إليه والاسترشاد بهديه، ومن يفعل ذلك يكن من خلفائه الذين يتمسكون بالمنهج الصحيح الذي لا عوج فيه، وهؤلاء المصلحون الذين لا يضيع أجرهم في الدنيا بالخلافة ولا في الآخرة بالفوز بالجنة. وهم الذين قال الله فيهم: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} ^{٨٣٠}. أجر الله ثابت بالنية الصادقة، والفعل المنفذ

^{٨٢٧} يونس ٤٤ - ٤٧.

^{٨٢٨} النساء ٦٩ - ٧٠.

^{٨٢٩} هود ٨٨

^{٨٣٠} الأعراف - ١٧٠.

لها، وبالتالي لا يمكن أن يؤجل أجره، وبهذا يجد الخليفة أجرة في انتظاره يوم القيامة الجنة، إنه الفوز الكبير.

وبهذا فالبر الخير، والخير يشمل كل وجوه الأعمال الصالحة، لذا فقد وعد الله فاعلي الخير برده إليهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^{٨٣١}.

و المراد بالخير كل ما هو مطلق بالحسنات، والخير في الآخرة سيكون موجودا أكثر مما قدمت أيدي المستخلفين فيها من حسنات. (إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) لا تخفى عنه خافية في الأرض ولا في السماء، فإنه لا يخفى عليه القليل ولا الكثير من الأعمال وهو ترغيب في الخير لأنه سبحانه تعالى يجازي على القليل بالكثير و يجازي على الكثير بالأكثر منه، ومن هنا فالخير كل ما هو نافع حسن وكل ما يؤدي إليه من قول وفعل، والخير فيه الفلاح الذي هو مطمح الجميع فلاح الدنيا وفلاح الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^{٨٣٢}.

ومن البر الإنفاق في سبيل الله مصداقا لقوله عز وجل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^{٨٣٣} كل ما تقرب به إلى الله عز وجل من عمل خير فهو إنفاق والإنفاق لا ينفع الكافر نهائيا لذا فالله علم المؤمنين كيفية الإنفاق الذي ينتفعون به في الآخرة فقال: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ والذي يحبه الخليفة هو الرزق الحلال والإنفاق منه وهو الحلال، فإن من أنفق مما أحب كان من الأبرار، والأبرار في نعيم مقيم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^{٨٣٤} و من الثواب الذي وصفه الله للأبرار في دار ثوابه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾^{٨٣٥}، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأُرَائِكِ

^{٨٣١} البقرة- ١١٠

^{٨٣٢} -الحج . ٧٧

^{٨٣٣} آل عمران ٩٢ .

^{٨٣٤} -المطففين . ٢٢

^{٨٣٥} -الإنسان . ٥

يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خَتَامُهُ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ^{٨٣٦}. والله بين ما هو البر وكيف يكون وبأي وسيلة يتوصل الإنسان حتى يتوصل إلى البر الذي يستقى من بر البر سبحانه وتعالى فقال: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} ^{٨٣٧} فالله تعالى وضح في الآيات ثواب الأبرار وفي هذه الآية أشار إلى أن من أنفق مما أحب فقد نال البر، والبر ليس توجهه بالجسم تجاه النواحي المقدسة بل بالقلب والإخلاص في العمل فقال الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ^{٨٣٨}، ففي الآية أكثر أعمال الخير، وسماها الله البر، وقال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} ^{٨٣٩} فكل عمل من تلك الأعمال لا يتم إلا بالنفقة من أعز الأشياء إلى النفوس حتى تنفقوا مما تحبون، وهذا يدل على أن الإنسان إذا أنفق مما يحبه كان ذلك من أفضل الطاعات التي ينال بها البر.

والبر منه العمل المقبول الذي لا شائبة فيه وقد تقدم به صاحبه خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى وهذا ما يقوم به الخليفة فيبير الخلق دون أن يطلب جزاء.

قال تعالى في وصفه للأبرار: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً

^{٨٣٦} - المطففين . ٢٢ ، ٢٦

^{٨٣٧} - البقرة . ١٧٧

^{٨٣٨} البقرة ١٧٧ .

^{٨٣٩} آل عمران ٩٢ .

وَحَرِيرًا مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا وَبِطَاقٍ عَلَيْهِمْ بَانِيَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا^{٨٤٠}. إِنَّ حَرْفَ تَوْكِيدٍ وَنَصَبٍ عَلَى أَنَّ الْأَبْرَارَ دُونَ إِي ظَنِّ سَيَكُونُونَ مِنَ الْوَارِثِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَلِأَنَّهُ حَكْمٌ بِالْمَطْلُوقِ سَيَكُونُونَ مِنَ الشَّارِبِينَ مِنْ كُلِّ لَذِيذٍ رَائِحَةٍ وَمَذَاقًا، وَلِأَنَّ الشَّارِبِينَ مِنَ الْكَأْسِ الْمَمزُوجِ كَافُورًا لَا يَكُونُونَ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ، جَاءَ كَأْسِ الْحَقِّ شَاهِدًا عَلَى دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ.

إِنَّ الَّذِينَ بَرَّوْا بِطَاعَتِهِمْ رَبَّهُمْ فِي الْقَوْلِ الْحَقِّ وَالْفِعْلِ الْحَقِّ وَأَدَاءِ فَرَائِضِهِ هِيَ كَمَا هِيَ، فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ اللَّائِقِينَ بِهَا، هُمُ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ مَعَاصِيَهُ وَيَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَشْرِبُونَ مِنْ كَأْسٍ فِيهِ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ. قَالَ تَعَالَى: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ^{٨٤١}. فَالْأَبْرَارُ هُمُ الَّذِينَ اسْتَنَاهَمُ الْبِرَّ الرَّحِيمِ بِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَانَ مِنْ أُولَئِكَ الْمَجْرَمِينَ الَّذِينَ ضَلُّوا وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الْحَقِّ، وَلِأَنَّهُمُ الْأَبْرَارُ فَلَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ مُتَنَوِّعٌ وَفِيهِ لَذَّةُ الْمَذَاقِ الرَّفِيعِ. قَالَ تَعَالَى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ مِثْلَ الْجُبَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنْفَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا

٨٤٠- الإنسان ١٩-٥

٨٤١- الصافات ٤٠- ٥١.

السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَاكُمُ^{٨٤٢}.

وعليه: فالأبرار هم الذين:

١- يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ زيادة للطاعة التامة لله تعالى بالصلاة أو الصوم أو التصدق وكل ما من شأنه يسجل من أفعال الخير الحسان، فهم كلما تحقق لهم فوز في مرضاة الله ازدادوا التجاء إليه وإخلاصا وتطوعا في الأعمال الحسان.

٢- والأبرار هم الذين يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا، أي يخافون العذاب الذي يكتب بأسباب عدم الطاعة لله تعالى، وذلك اليوم الآتي هو اليوم الذي تجنبه الأبرار بالأعمال الحسان والعبادات المخلصة بالوحدانية لله تعالى، وقوله: (كان شره مستطير) لا يعني الماضي بل يعني أن الحكم قد صدر بالأمر (كن) ولم يعد في الزمن المستقبل فليعلم من يعلم أن الأمر قد صدر والتنفيذ سيكون يوم الحساب، وعليه فمن أراد السلامة والنجاة فالفرصة لا زالت سانحة لمن يشاء أن يؤمن حتى يكون من المستخلفين الأبرار الذين لهم الوعد الحق بالجنة، وهو أيضا حكم بالأمر (كن) قد صدر لا شك ولا ظن في ذلك والحمد لله رب العالمين.

٣- والأبرار هم الذين يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. أي أنهم يطعمون الطعام لحبهم لله جل جلاله الذي جعل الحسنات تجنى بالأفعال والأعمال الخيرية التي منابتها في إطعام المساكين واليتاما والأسرى.

٤- يطعمون الطعام لمن يستحقه دون رغبة إلا في وجه الله فهم يطعمونه (لِوَجْهِ اللَّهِ).

٥- وحالهم لمن يطعمونهم لا يريدون منهم ثريدًا جزاءً ولا شكورا) بل إنه يريدون مرضاة الله جل جلاله.

٦ . ولأن الأبرار يخافون عذاب ربهم فلسان حالهم (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)

والنتيجة:

١- (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ).

٢- (وَلَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا).

٣- (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا).

وقد وصف الله تعالى حالهم في الجنة بأنهم:

١- (مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ).

٢- (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا).

٣- (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْفُوفُهَا تَذْلِيلًا).

٤- (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنْيَةِ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا).

٥- (يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا).

٦- (وَيَبْطُونَ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٍ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا).

٧- (عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا).

وهذا ثواب الله في الجنة للأبرار الذين بروا عباده في الدنيا وأصلحوا ولم يفسدوا وحققوا الخلافة التي أوجدتهم الله من أجلها فقال الله لهم: (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا)، وذلك لأنهم لم يطلبوا الجزاء ممن قدموا لهم المعروف ولم ينتظروا منهم شكرا.

والبر في العبادات منه الحج المبرور والمبارك من البر الرحيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قَالَ "الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ"^{٨٤٣}.

وكذلك البر للوالدين من أهم ما يتخلق به المتخلق ببر البر وفي هذا من النصوص الدينية التي تجعل الإنسان يتشبه ببرهما لجزيل الثواب، فقال الله تعالى: (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) لطيفاً، (وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ)، من رحمتك إياهما. ومن بيان حق الوالدين قوله تعالى: (أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ). ففرن شكره بشكرهما. وعن معاذ بن جبل، قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فقال: (لا تعق والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك). وعن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بروا آباءكم تبركم أبناؤكم).

تقديم بر الوالدين على الجهاد والهجرة:

عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فقال: (أحي والداك). قال: نعم. قال: (ففيهما فجاهد).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى النبي يبایعه، فقال: جئت أبایعك على الهجرة وتركت أبوي بيكيان، قال: (فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما).

وعن أبي سعيد الخدري، قال: هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل باليمن أبواك). قال: نعم. قال: (أذنا لك). قال: لا. قال: (ارجع إلى أبويك فأستأذنهما فإن أذنا لك وإلا فبرهما).

وعن ابن عباس، قال: جاءت امرأة ومعها ابن لها، وهو يريد الجهاد، وهي تمنعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أقم عندهما، فإن لك من الأجر مثل الذي يريد).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد، فقال: (هل من والديك أحد حي). قال: أمي قال: انطلق فبرها). فانطلق يحل الركاب. فقال: (إن رضی الرب عز وجل في رضی الوالدين).

وعن ابن مسعود - قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي العمل أحب إلى الله عز وجل. قال: الصلاة لوقتها). قلت: ثم أي. قال: (بر الوالدين). قلت: ثم أي. قال: (الجهاد في سبيل الله).

قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا^{٨٤٤}، هذه معطيات البر بالوالدين، ومن يبر بوالديه يبره الله برحمته.

وكان الحسن يقول: (دعاء الوالدين ينبت المال والولد). وسئل الحسن: ما دعاء الوالد للولد. قال: (نجاه). وعن مجاهد: (ثلاثة لا تحجب دعوتهم عن الله عز وجل: دعوة المظلوم، ودعوة الوالد لولده، وشهادة ألا إله إلا الله)^{٨٤٥}.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى: أنا الرحمن وهذه الرحم لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته"^{٨٤٦}.

بر الوالدين من صفات الأنبياء ويذكر القرآن في ذلك نبيين هما: يحيى عليه الصلاة والسلام، وعيسى عليه الصلاة والسلام، فقال الله تعالى عن سيدنا يحيى: {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا}^{٨٤٧}، وقال تعالى عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}^{٨٤٨}.

وعليه فالبر هو الله، والبر كل عمل خير يرضي الله ورسوله، وفي عموم القرآن البر هو الله على الوجه المطلق، وسيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام وصفهما الله بالبر ولكن ليس بعموم الصفة ولكن بخصوصيتها في حق الوالدين ليحيى، ولئام مع سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام.

اللهم يا البرّ أجعلنا من المستخلفين الأبرار الأخيار، واجعلنا البارين بوالديهم وبكل ما يرضيك، وأرضى عنا وعن البنين، واجعلنا في الدنيا من المتقين الذين يذكرونك قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض وهم يقولون: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ

^{٨٤٤}الإسراء ٣٢، ٢٤.

^{٨٤٥}بر الوالدين - ج ١، ص ٨

^{٨٤٦}إحياء علوم الدين - ج ٢، ص ٥٨

^{٨٤٧}مريم ١٣ - ١٤

^{٨٤٨}مريم ٣٢

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، واجعلنا يا البرّ من الحامدين الشاكرين المسبحين باسمك الأعظم واجعلنا في الجنة من الوارثين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
 اللهم يا البرّ افتح علينا أبواب الخير في كل بر، وأحفظنا من كل شر ويسر لنا الأمر وأنت راض عنا في كل ما يفيد وينفع واجعلنا من الطامعين في فضلك وجودك وكرم الفائزين به ولا تجعلنا من الطامعين في سواك، اللهم إنك أنت البرّ الواسع فلا تجعلنا في ضائقة.

التَّوَابُ

التَّوَابُ "هُوَ الَّذِي يَتُوبُ عَلَى عِبَادِهِ ، فَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ كُلَّمَا تَكَرَّرَتِ التَّوْبَةُ تَكَرَّرَ الْقَبُولُ ، وَهُوَ يَكُونُ لَازِمًا وَيَكُونُ مُتَعَدِّيًا بِحَرْفٍ يُقَالُ : تَابَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ بِمَعْنَى وَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ ، فَتَابَ الْعَبْدُ كَقَوْلِهِ : ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، وَمَعْنَى التَّوْبَةِ عَوْدُ الْعَبْدِ إِلَى الطَّاعَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ"^{٨٤٩}.

التَّوَابُ اسمه الذي شاء له أن يكون على هذا المبنى اللغوي لنتذكر فتعيه أذان واعية، فقد جعله على صيغة فَعَّالٍ لِيَذْكَرَ عِبَادَهُ بِأَنَّهُ: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}^{٨٥٠}، ومعلوم أنها صيغة تدل على الكثرة، أما الاستمرار فقد دلت عليه الشدة المؤكدة الموجودة في اسمه جل وعلا (تَوَابٌ) وهو الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين. فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه.

^{٨٤٩} الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ١٩٥.

^{٨٥٠} البروج ١٦.

فهو التواب للتائبين: بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم^{٨٥١}.

قال تعالى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}^{٨٥٢} أي إنه يتوب على من تاب إليه وأتاب.

التواب كثير الإثابة، والتواب صفة تلاحق الخطائين الذين يخطئون ويتوبون، والذين تتكرر خطاياهم وتتكرر توبتهم إلى الله تعالى، ولذا فهو التواب بالمطلق.

التواب هو الذي تستمد التوبة منه، وهي صفة مرسخة لصفة الرحمن والرحيم والرعوف والودود، وبهذا تعد صفة إصلاحية للذات الإنسانية.

والتواب عالم بعباده فهو الخبير البصير علم أنهم يأتون السوء كما يأتون الخير قال تعالى: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}^{٨٥٣}، ثم قال لهم مرغباً ومبشراً وراحماً عباده: {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}^{٨٥٤}، فكتب عليهم أن يعملوا عملاً صالحاً ليتوب عليهم، فما هي هذه الأعمال التي تحقق التوبة:

١. أول هذه الأعمال وأصلحها الإيمان بالله عز وجل، وإتباع هداة وكل عمل لا يقترن بذلك فهو عمل محبط: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}^{٨٥٥}، والإحباط هو إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات وأشار التواب إلى نمط العمل المحبط فقال: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}^{٨٥٦}، وعلى العبد أن يسعى للتكفير عن عمله المحبط وذلك بالإكثار من الحسنات بعد السيئات، لأن التواب

٨٥١ شرح أسماء الله الحسنى، ج ١، ٥٧.

٨٥٢ البقرة ٣٧.

٨٥٣ القصص ٦٩.

٨٥٤ الفرقان ٧١.

٨٥٥ الأنعام ٨٨.

٨٥٦ هود ١٦.

يكفر السيئات: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} ^{٨٥٧}، ثم أبدل لهم التواب سيئاتهم حسنات بعد التوبة: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} ^{٨٥٨}، فعلى الخليفة أن يحرص أيما حرص على أن يسود العمل الصالح في أوساط من استخلف عليهم، وأن يقبل من المسيء عودة، فينظر في عمله اللاحق فإذا كان من المخلصين ترك الأخذ بما سبق من عمله ونظر إلى عمله الجديد وجزاه بالخير عليه.

٢ . عمل الطاعات: قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ^{٨٥٩}، وهذه وإن كانت من الفرائض التي لا يمكن لعبد أن يتركها إلا أن التواب جعل لهذه الفروض ثواباً في الدنيا والآخرة، فلا شك أن الصلاة هي أعظم فرائض الإسلام العملية فقد مدحها الله عز وجل، وأثنى على مقيميها في غير ما آية، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} ^{٨٦٠}، فبدأ بها قبل غيرها من صفات المؤمنين المفلحين، ثم ختم بها فقال: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ^{٨٦١}، وقال تعالى في ثوابها: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} ^{٨٦٢}، أما الزكاة فلها فوائد دنيوية يتحصل من خلالها العبد على الثواب ففيها تطيب لنفوس الفقراء وسد لحاجاتهم وهي إنفاق في سبيل الله وقد خصه التواب بالفضل فقال: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا

٨٥٧ محمد ٢.

٨٥٨ الفرقان ٧٠.

٨٥٩ البقرة ١١٠.

٨٦٠ المؤمنون ١، ٢.

٨٦١ المؤمنون ١١.

٨٦٢ المعارج ٣٤-٣٥.

وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^{٨٦٣}، وفيها تقوية لروابط المحبة بينهم وبين الأغنياء لاسيما ذوي القربى، لأن التواب يأمر بالإِنْفَاقِ على ذوي القربى بل جعلهم أول من ينفق عليهم العبد في كل آيات الإِنْفَاقِ في قوله: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^{٨٦٤}. ولاشك أن ثوابها في الآخرة عظيم من لدن التواب الكريم، أما دور الخليفة على الأرض فهو أن يحرص على الإحسان للمطيعين من العباد، وأن ينظر إلى أعمالهم هذه بإجلال وتقدير، وأن يبتعد عن الاستخفاف بأعمال الناس وإن كانت من المفروضات عليهم لأن مثل هذه النظرة يمكن لها أن تفقد العباد إحساسهم بالجدوى فيتحولوا من الطاعة إلى المعصية.

٣. ومنها العفو: والعفو تسامح وليس إهمال أو تنازل بغير حق، وهو المقرب للتقوى قال تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^{٨٦٥}، والعفو ترك التشدد المنفر للآخرين وترك الإقصاء، في كل ما يتعلق بممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات، ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق الطيب، لاسيما فيما يدور من جدل وحوار بكل مسألة تتعلق بالدين أو غيره كما يعلمنا المولى سبحانه في قوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ^{٨٦٦}، وعليه فالعفو صفة استيعابية، والاستيعاب قيمة احتوائية لا إقصائية، تعتمد تقبل الآخر والاعتراف بوجوده وبممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمل مسؤولياته. واستنادا على مبدأ التقبل يستوعب الخليفة الناس كما هم لأجل أن ينقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه. ولذا لا تتم دراسة الحالات ولا تتم عمليات التفاوض ولا تُحل المشاكل بين الناس إلا بالاستيعاب الذي يُحفِّز على التقارب ويؤدي إلى التفاهم.

^{٨٦٣} البقرة ٢٦١-٢٦٢.

^{٨٦٤} البقرة ١٧٧.

^{٨٦٥} البقرة ٢٣٧.

^{٨٦٦} آل عمران ١٥٩.

الاستيعاب يُمكن الباحث والمبحث من الإلمام بالموضوع ومتغيراته السلبية والإيجابية المؤثرة فيه بشكل مباشر أو غير مباشر، ويُمكن من التشخيص الموضوعي، ولذا على الخليفة أن لا يغفل عن الآتي:

أ . استيعاب الإيجابيات، والتأكيد عليها، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة، تمكنهم من التعرف عليها، وتحفزهم على العمل بها.

ب . استيعاب السلبيات، وتحديدتها، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل على إزالتها، وتنقية الموضوع منها، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها.

وبناءً عليه لم يكن التحليل الاستيعابي إقبائي بالتمام، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبا وموجبها) بل إنه تحليل تثبيتي إزالي، به تُثبت المعلومات الموجبة، وتُزال السالبة، ولهذا يتم استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف، حتى تتم عمليات التثبيت للموجب المُفضَّل، والإزالة للسالب غير المفضل.

الاستيعاب قيمة احتوائية، تقبل بالاختلافات وتعمل على احتوائها. فمن طبيعة الخلق أنهم لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتى في الرغبات والحاجات، ولا في درجة الفهم والمعرفة، ولذا فمن الضروري أن يقع الاختلاف الذي يستوجب التقدير، حتى تتم الفروق الفردية بين الناس بعضها البعض. ولهذا كل مفردة هي في حالة نقص، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب. وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين الناس هي السائدة، ولأجل ذلك فإن قيم ممارسة الفضائل الحسان وحدها التي تمكن من الاستيعاب. وبدونها لا يمكن أن يتحقق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

الاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد على القيم الآتية:

. الفهم: فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها، من حيث تاريخها، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها.

. التفهّم: تفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالعباد، ومراعاة آثارها على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي أو الإنساني.

. الاعتراف: الاعتراف بالناس من حيث أن لهم حقوقاً ومن حقهم أن يطالبوا بها ويمارسوها. وأن عليهم واجباتٍ فليقدموا على آدائها. وأن عليهم مسؤولياتٍ فلا يتأخرون عن حملها، وتحمل ما يترتب عليها من أعباء.

. التقدير: تحسيس الأفراد بأن لهم قيمة في ذواتهم، وأنهم مُقدّرون في أنفسهم وفي قراراتهم، ومشاعرهم وخصوصياتهم، وفيما يرغبون أو يقبلون أو يرفضون.

ولذا فالخليفة يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: لوجادلهم بالتّي هي أحسنُ^{٨٦٧}، ويجب أن يكون العفو شعار الخليفة ودينه لما فيه من روح المسامحة التي تسهم في تهيئة سبل الحياة من خلال إقامة التواصل ونبذ القطيعة، وكذلك فإن العفو يفتح أفق الحوار ويسمح للعقل بالحرية في التفكير مما يسهل على الخليفة القيام بأمر الخلافة.

٤ . الإقراض: ليا أيّها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى فاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسُ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا

تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ^{٨٦٨}، إن حرص التواب على الإثابة على الإقراض هو بمثابة درس للخليفة فيجب عليه أن يفهم معنى استخلافه لاسيما في أمر المال فلا يجعله حكراً عليه فيبخل به، ولا يجعله سائباً فيضيع، وإنما يكون وسطاً بين ذلك كما علمه التواب: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}^{٨٦٩}.

٥ . الإنفاق في غير الفرض وتتحصر في الصدقات التي قرنها التواب بقبول التوبة فقال: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}^{٨٧٠}، وهذه الصدقات محصية إحصاءً دقيقاً من التواب لأجل الجزاء بالأحسن: {وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}^{٨٧١}، ومن أبرز مهام الخليفة على الأرض التي استخلف عليها أن يكون منفقاً على المحتاج من العباد، وذلك بتحري المحتاج الحقيقي وعليه تجنب الإنفاق في غير محله، ونقول: يتحرى لأن المحتاج الحقيقي في الغالب الأعم يتعفف ولا يظهر حاجته، فيجب على الخليفة تحري هؤلاء لكي ينطبق عليه وصف التواب بالإضافة: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}^{٨٧٢}، فالخليفة يجب أن يكون عالماً وليس جاهلاً، هنا وجب أن يكون التحري من مهماته الأساسية في هذا المجال، وبخلاف ذلك سيكون إنفاق الخليفة في غير محله فيذهب المال إلى غير المحتاجين ويصبح كما وصفه التواب متداول بين الأغنياء أنفسهم: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ

^{٨٦٨} البقرة ٢٨٢-٢٨٣.

^{٨٦٩} الإسراء ٢٩.

^{٨٧٠} التوبة ١٠٤.

^{٨٧١} التوبة ١٢١.

^{٨٧٢} البقرة ٢٧٣.

مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ^{٨٧٣}.

٦ . العمل لمصالح الناس في الدنيا: قال تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} ^{٨٧٤}. أي عمل خير يجازي التواب عليه العباد القائمين به، ولذا فمن يشكر فإنما يشكر لنفسه، والشكر عرفان بالفضل الذي هو بالمطلق من عند الله عز وجل، وهو بين الناس في حالة تبادل، ولهذا فالعمل الصالح صفة رئيسة للاستخلاف في الأرض، فمن أراد أن يكون من المستخلفين فعليه بالإصلاح في الأرض ثم الاستصلاح والفلاح والإعمار دون إفساد ولا سفك دماء بغير حق. قال تعالى: {أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ^{٨٧٥}، هنا يأتي دور الخليفة الذي يجب عليه العمل الجاد من أجل تحقيق الخير والتسامح والتواد، وأن يكون له يد في كل ما من شأنه أن يحقق عدلا وتعاوناً على أفعال الخير وأعماله.

٧ . العدل: قيمة بينية تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن. تؤسس قيمة العدل على إعطاء كل ذي حق حقه. لذا فهي قول حق وفعل، يقول الله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} ^{٨٧٦} قال: إذا حكمتم بين الناس ولم يقل إذا حكمتم الناس. فالذين يريدون أن يحكموا الشعوب باسم الدين، فالدين لا ينص على حكم الناس، بل ينص على أن يكون الحكم بينهم بقوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) جاء الأمر هنا مطلقاً، والأمر هو كل ما يتعلق بالناس ومصائرهم، (السلم والحرب، والسياسة الداخلية والخارجية، الزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالإنتاج ووسائله). قال تعالى: {لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ

^{٨٧٣} الحشر ٧.

^{٨٧٤} سبأ ١٣.

^{٨٧٥} سبأ ١١.

^{٨٧٦} النساء ٥٨.

تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا^{٨٧٧}، وليس للخليفة إلا أن يعمل بالعدل وينشره بين من استخلف من بينهم لما له من فضائل فهو وجه من وجوه تقوى الله الذي قال في محكم كتابه: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^{٨٧٨}، وهو المحقق للمساواة من خلال إقرار الأحكام العادلة التي هي من قضاء الله: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^{٨٧٩}، وفي العدل تكون الحياة أكثر سعادة واستقرار وأمن وذلك من خلال تطبيق القصاص وعدم التساهل فيه لأنه يحقق كل ذلك: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^{٨٨٠}، لذا يجب على الخليفة أن يعي ما في العدل من فوائد، فيجب عليه أن يكون عادلاً في إقرار القوانين، وفي تنفيذها، وفي اختيار العباد المؤهلين لإقامة العدل بين الناس، فلا يكون الاختيار إلا بعد وثوق تام بصدق السريرة، وإخلاص العمل، وصلاح السيرة.

٨ . نصره الذين آمنوا: قال تعالى: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^{٨٨١}، وهذا دور الخليفة في الأرض أن ينصر عباد الله بالقول والفعل، فبالقول بأن يكون مخلص النصيحة صادق اللسان معهم فلا يماريهم على حساب الحق فيكون لهم ناصح أمين، وأن يرشدهم إلى التي هي أحسن وأصوب، قال تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ^{٨٨٢}، أما بالعمل فيكون بالانتصار بعدم تفشي الظلم لأن التواب

^{٨٧٧} النساء ١٣٥.

^{٨٧٨} المائدة ٨.

^{٨٧٩} المائدة ٤٥.

^{٨٨٠} البقرة ١٧٩.

^{٨٨١} الأنفال ٧٢.

^{٨٨٢} الأعراف ٦٨.

الذي استخلفه في الأرض ليس بظلام، أو بالانتصار لمن ظلم منهم بالحق ودون إسراف، وأن لا يتأخر عن تأدية الواجبات العظام في كل ما أمر الله به ونهى عنه دون أن يظلم أحدا. قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} ^{٨٨٣}.

٩. بر الوالدين: قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ^{٨٨٤}.

وكل هذه الأعمال وغيرها من الصالحات هي لصالح العبد يحصيها التواب له ليجزيه يوم القيامة بها قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} ^{٨٨٥}.

لكن رحمة التواب أوسع من حصر التوبة بالعمل، فجعل من كرمه على عباده الاستغفار يقابل العمل الذي يؤدي إلى التوفيق للتوبة من الذنب: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} ^{٨٨٦}، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه، فهو اللطيف بعباده الذي يعلم ما في صدور عباده من خير أو شر {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ^{٨٨٧}، فيوفق من يشاء للتوبة ويمنع من يشاء لا لبغض أو رغبة في إيقاع العذاب، ولا كيد بالعباد، وإنما لأنه عالم بالمخلص من غير المخلص: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ

^{٨٨٣} الشورى ٣٩-٤١.

^{٨٨٤} العنكبوت ٨.

^{٨٨٥} آل عمران ١٩٥.

^{٨٨٦} النساء ١١.

^{٨٨٧} الملك ١٤.

الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا^{٨٨٨}، والخليفة يجب أن ينزه نفسه عما تحمل النفوس من أضغان وحقد وكراهية، ولا يجعل أحدها سبباً في منع قبول التوبة والتراجع عن الخطأ من بعض العباد، وعليه أن يجعل الإخلاص في العمل هو المقياس الذي يميز به الناس فيقرب المخلص ويقبل منه ويبعد الخائن والغادر والغشاش عنه ولا يقبل منه قولاً أو عملاً إلا أن يتوب توبة حقيقية صادقة لله رب العالمين.

والتواب يتوب على عباده رحمة منه فهو الرحيم: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}^{٨٨٩}، وواضح أن إتباع اسم الرحيم لاسم التواب فيه دلالة واضحة على أن التوبة إنما هي رحمة من التواب الرحيم، وهي رحمة بالعبد الذي تصيبه العلة فتؤدي به إلى الخطأ والزلل، فهي رحمة خالق خبير يعلم عن العبد ما فيه وهو أنه:

أ . هلوع: أي لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل في كل واحدٍ منهما غير الحق^{٨٩٠}، {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}^{٨٩١}، وعلى الخليفة أن يفهم هذه الخصلة في نفسه وفي غيره، فيعامل العباد معاملة العارف بهلوعهم من حيث صبره عليهم وإدراكه لما يصيبهم من علة تؤدي بهم إلى الوقوع في الخطأ.

ب . عجول: {وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}^{٨٩٢}، والعجل شكل من أشكال الضعف، إما أمام رغبة يتعجل في تحقيقها، أو في قول يسبق إلى النطق به وهذا محاسب عليه كما الفعل لان المحصي جل وعلا يقول: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}^{٨٩٣}، وعلى

٨٨٨ النساء ١٤٦-١٤٧.

٨٨٩ البقرة ٣٧.

٨٩٠ تاج العروس، ج ١، ص ٦٥٣١.

٨٩١ المعراج ١٩.

٨٩٢ الإسراء ١١.

٨٩٣ ق ١٨.

الخليفة أن يتأنى في النظر إلى الأمور وأن يتأنى في الحكم على الأشياء حتى لا يسمح للعجلة بأن توقعه بما لا يريد التواب له أن يكون فيه من فعل أو قول.

ج . جزوع، وهو قلة الصبر، قال تعالى: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} ^{٨٩٤}، والتواب يدعو إلى الصبر على العسر والضيق والفاقة والمرض، ويمني الصابرين بحسن الجزاء: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} ^{٨٩٥}، لذا وجب على الخليفة أن يكون صابراً وأن يُعلم من معه الصبر على ما تجزع النفس منه.

د . يؤوس: قال تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} ^{٨٩٦}، يؤوس من إجابة دعائه فنوط بسوء الظن بربه، ويؤوس من زوال ما به من المكروه فنوط بما يحصل له من ظن دوامه، وهما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط ^{٨٩٧}، واليأس من أمراض الروح الهدامة التي يجب على الخليفة محاربتها وإلا فشل في مهمة الاستخلاف، لأن اليأس يمنع من القيام بمهمة إعمار الأرض التي هي المهمة الأساسية للخليفة.

هـ . ممنوع: أي مانع للخير: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} ^{٨٩٨}، وإذا كثر ماله، ونال الغنى تراه يبخل على المحتاج، فلا ينفق في سبيل الله، ولا يقرض محتاجاً مع توصية التواب له بذلك ونسبة القرض إليه بقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} ^{٨٩٩}، وذلك كله لأنه يحب المال حباً شديداً يجعله يمتنع عن إتيان المستحق لبعض هذا المال وإن قل: {وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} ^{٩٠٠}، وعلى الخليفة أن لا ينظر إلى ما بين يديه من المال على أنه الملك المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد، بل يجب

^{٨٩٤} المعراج ٢٠.

^{٨٩٥} البقرة ١٥٥.

^{٨٩٦} الإسراء ٨٣.

^{٨٩٧} فتح القدير، ج ٦، ص ٣٦٣.

^{٨٩٨} المعراج ٢١.

^{٨٩٩} الحديد ١١.

^{٩٠٠} الفجر ١٨-٢٠.

عليه أن يقوم بمهمة الإشراف على إنفاق هذا المال فيما يريد التواب منه فيجعل للمحتاج نصيباً ويجعل لنفسه نصيباً يساعده على مهمة الاستخلاف.

و . ضعيف: قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا} ^{٩٠١} ، وضعف الإنسان أمر بدأ مع خلق آدم، فقد ضعف آدم أمام الشيطان فاستجاب لدعوته بمخالفة الخالق: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَفَلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} ^{٩٠٢} ، ثم ضعف ابن آدم أمام رغبته الدنيوية: {وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} ^{٩٠٣} ، والآيات التي توضح صور الضعف الإنساني كثيرة وكلها تشير إلى أن الإنسان غير قادر على أن يكون قوياً بالمطلق لأنه ليس القوي المطلق، فالقوي المطلق هو الله فكان لا بد أن يظهر الضعف فيمن سواه، أما الخليفة فيجب أن يحرص على استلهاام القوة من القوي المطلق وذلك بإتباع أوامره واجتتاب نواهيه، وأن يتحرى الحق فمن الحق تأتي القوة.

^{٩٠١} النساء ٢٨ .

^{٩٠٢} الأعراف ١٩-٢٢ .

^{٩٠٣} المائدة ٢٧-٣١ .

والتواب يريد التخفيف عن العباد بهذه التوبة التي يهبها لمن يشاء لأنه: { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ }^{٩٠٤}، فقد رحمتنا التواب فخفف علينا قيام الليل: { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }^{٩٠٥}.

كما أباح لنا التمتع بغرائزنا لعلمه بالضعف الحاصل عند الإنسان في مواجهة غرائزه فلم يمنعنا من شهوة النساء ولا من شهوة الطعام بالحلال، قال تعالى: { أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَبِيثَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَبِيثِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }^{٩٠٦}.

ومن التخفيف ما كان في الفروض فما من فرض إلا وتجد معه تخفيفاً لغير القادر، فالصلاة تُقصر للمسافر رحمة من التواب: { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا }^{٩٠٧}، والصيام يؤجل للمسافر أو المريض: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ

^{٩٠٤} البقرة ١٨٥.

^{٩٠٥} المزمّل ٢٠.

^{٩٠٦} البقرة ١٨٧.

^{٩٠٧} النساء ١٠١.

فِدْيَةٌ طَعَامٌ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^{٩٠٨}، والحج للمستطيع فقط ولو كان لزاماً على القادر وغير القادر لأصيب العباد بعناء شديد مادي وجسدي ومعنوي: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ^{٩٠٩}، والزكاة لمن يملك مالا مجمداً وخارج حاجته وليس من ماله الذي ينفقه على أهله وعياله: {وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالٍ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ^{٩١٠}، من هذه الآيات يجب أن يعي الخليفة دوره في التخفيف عن العباد فلا يتشدد في المعاملات، وأن ينهج نهج ربه في التماس العذر للمضطر وغير القادر، وأن يتحرى أسباب ذلك لكي يُسهّل على أصحاب الضرورة حياتهم.

والتَّوَابُ يَتُوبُ عَلَى عِبْدِهِ بِفَضْلِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، بالرجوع والتَّوَابُ عَلَى مَا فَرَطَ فِيهِ^{٩١١}، {لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ^{٩١٢}، ومن فضله أنه يقبل التوبة ويتبعها بالعفو العام المطلق أي أن لا يكون للذنب السابق أثر في اللاحق من الأعمال الصالحة للعبد إن لم يرجع: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ^{٩١٣}.

والتَّوَابُ إِذْ يَتُوبُ عَلَى الْعَبْدِ إِنَّمَا يَنْقُذُهُ مِنَ الْمَعَاصِي: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^{٩١٤} يعني: الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحب من العفو عنه، جاء بالرحيم بعد ذلك للإشارة إلى الرحمة المنجية من العذاب، والتَّوَابُ هُوَ الْمُنْجِي مِنَ عَاقِبَةِ السُّوءِ الَّتِي تَلْحَقُ بِالْمَصْرِيْنَ عَلَى السَّيِّئَةِ وَذَلِكَ

^{٩٠٨}البقرة ١٨٣-١٨٤.

^{٩٠٩}آل عمران ٩٦-٩٧.

^{٩١٠}الأعراف ١٥٦.

^{٩١١}تهذيب اللغة، ج ٥، ص ٢٦.

^{٩١٢}النور ١٠.

^{٩١٣}الشورى ٢٥.

^{٩١٤}البقرة ٥٤.

بالتوبة على المؤمنين من العذاب: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^{٩١٥}، والنجاة تكون بالرحمة، وتختص بالقليل من الذين صدقوا الإيمان: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^{٩١٦}، وفي هذه المنجاة حكمة عظيمة تتمثل في كونها عبرة للعباد لكي يتأمل ويدرك حاجته إلى التوبة المنجية: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^{٩١٧}.

والتواب هو الذي يرجع إليه تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى بما يظهر لهم من آياته ويسوق إليهم من تنبيهاته ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إلى التوبة فرجع إليهم^{٩١٨}. قال تعالى: ﴿وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾^{٩١٩}، يقول: وأنا الذي أرجع بقلوب عبيدي المنصرفة عني إليّ، والرادُّها بعد إدارها عن طاعتي إلى طلب محبتي، والرحيم بالمقبلين بعد إقبالهم إليّ، أتغمدهم مني بعفو، وأصفح عن عظيم ما كانوا اجترموا فيما بيني وبينهم، بفضل رحمتي لهم. فييسر لمن يشاء أسباب التوبة ويمنع من يشاء، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^{٩٢٠}، فالتواب هو الذي يهب التوبة لمن يشاء من عباده ويمنع من يشاء، فهو الوهاب الذي يوفق من أحب من عباده لفعل ما يرضاه من أعمال ويسهل له القيام بها فيجعلها من أسباب قبول توبته. وهو قادر على ذلك لأنه القدير على أن يخلق الإنابة والرجوع في قلب المسيء ويزين جوارحه الظاهرة بالطاعات بعد ما لوثها هو بالمعاصي خطيئات^{٩٢١}، فالإنابة هي أساس التوبة ومعناها الرجوع إلى

^{٩١٥} الأعراف ٦٤.

^{٩١٦} الأعراف ٧٢.

^{٩١٧} العنكبوت ١٥.

^{٩١٨} أسماء الله الحسنى، ص ٩٩.

^{٩١٩} البقرة ١٦٠.

^{٩٢٠} آل عمران ١٢٨-١٢٩.

^{٩٢١} تفسير حقي ١، ٣٠٨.

الله الذي يهدي من أناب أمره إلى الحي القيوم: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ} ٩٢٢، والإنابة، تأتي بعد ذنب يتوب منه العبد خوفاً من ربه وطاعة له بعد تدبر، قال تعالى: {مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} ٩٢٣، أو فتنة، {وَلَقَدْ فتنَّا سليمانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنْابَ} ٩٢٤، هناك مجموعة روايات في هذا الأمر ولناخذ منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قَالَ سُلَيْمَانُ لِأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَإِمْ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ. لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ" ٩٢٥، فذلك قوله: (وَلَقَدْ فتنَّا سليمان)، وهناك قول آخر: يقال بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، (وَأَلَقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ) منه جَسَداً وذلك لشدة المرض ثُمَّ أَنْابَ أي رجع إلى حال الصحة ٩٢٦.

والتواب هو المتفرد بقبول توبة التائبين من عباده، ولا يشركه في ذلك أحد، قال تعالى: {الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} ٩٢٧. وفي الآية إشارة واضحة إلى تفرد سبحانه بفعل التوبة وذلك واضح في تأكيد الاسم الظاهر (الله) بالضمير الظاهر (هو) مما يدل ولاشك على قدرته على القيام بالتوبة وغيرها. ويذكر الفخر الرازي عدة فوائد لإيراد هو في الآية هي: " قوله: {هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ} في فوائد:

. الفائدة الأولى: " (هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ) تنبيه على أن كونه إلهاً يوجب قبول التوبة، وذلك لأن الإله هو الذي يمتنع تطرق الزيادة والنقصان إليه، ويمتنع أن يزداد حاله بطاعة المطيعين وأن ينتقص حاله

٩٢٢ الرعد ٢٧.

٩٢٣ ق ٣٣.

٩٢٤ ص ٣٤.

٩٢٥ صحيح البخاري، ج ٢٢، ص ٦٨.

٩٢٦ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٩٣.

٩٢٧ التوبة ١٠٤.

بمعصية المذنبين، ويمتتع أيضاً أن يكون له شهوة إلى الطاعة، ونفرة عن المعصية، حتى يقال: إن نفرته وغضبه يحمله على الانتقام، بل المقصود من النهي عن المعصية والترغيب في الطاعة، هو أن كل ما دعا القلب إلى عالم الآخرة ومنازل السعداء، ونهاه عن الاشتغال بالجسمانيات الباطلة، فهو العبادة والعمل الحق والطريق الصالح، وكل ما كان بالضد منه فهو المعصية والعمل الباطل، فالمذنب لا يضر إلا نفسه، والمطيع لا ينفع إلا نفسه كما قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} ٩٢٨، فإن كان الإله رحيماً حكيماً كريماً ولم يكن غضبه على المذنب لأجل أنه تضرر بمعصيته، فإذا انتقل العبد من المعصية إلى الطاعة كان كرمه كالموجب عليه قبول توبته. فثبت أن الإلهية لما كانت عبارة عن الاستغناء المطلق، وكان الاستغناء المطلق ممتنع الحصول لغيره تعالى، كان قبول التوبة من الغير كالممتنع إلا لسبب آخر منفصل، أو لمعارض أو لمباين.

الفائدة الثانية: في هذا التخصيص هو أن قبول التوبة ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما إلى الله الذي هو يقبل التوبة تارة ويردها أخرى. فاقصدوا الله بها ووجهوها إليه، وقيل لهؤلاء التائبين اعملوا فإن عملكم لا يخفى على الله خيراً كان أو شراً ٩٢٩.

واسم الله التواب يدل باللزوم على أنه الحي القيوم: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ٩٣٠، لما في الاسم من معنى الاستمرار فهو تَوَابٌ لمن يتوب بدوام طلب التوبة فهو حي قيوم، وأنه سميع بصير يسمع توبة التائب سرية كانت أم علنية: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ٩٣١، وأنه عالم يعلم التوبة الحق فيقبلها، ويعلم التوبة المزيفة فيردها على صاحبها: {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

٩٢٨ الإسراء ٧.

٩٢٩ تفسير الرازي، ج ٨، ص ١٤٣.

٩٣٠ آل عمران ٢.

٩٣١ المجادلة ١.

بِذَاتِ الصُّدُورِ^{٩٣٢}، ويدل على القدرة فهو القادر على قبول التوبة في كل وقت ومن كل العباد في وقت واحد أو في أوقات مختلفة وهذا كله من قدرته سبحانه وتعالى على ذلك قال: {قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{٩٣٣}، وعلى الرأفة: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ^{٩٣٤}، وعلى العفو: {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا^{٩٣٥}، وعلى الرحمة: {وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا^{٩٣٦}، وعلى الحكمة: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^{٩٣٧}، وغير ذلك من أوصاف الكمال التي يجب على الخليفة تحري معانيها والسعي جاهدا للعمل بها فيحرص على أن يكون حياً بمعنى الحضور الدائم لخدمة العباد وأن لا يكون متكاسلاً أو عاجزاً عن القيام بأمرهم، وأن يمتلك القدرة التي تؤهله لذلك، وأن يتحلى بصفة الرأفة فلا يكون جباراً لأنه لا يحصل من التجبر إلا على الخيبة: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ^{٩٣٨}، وأن يتحلى بصفة العفو وأن يكون قادراً عليه، وكل ذلك بحكمة يستمدها من حكمة من استخلفه في الأرض ليصلح فيها ولا يفسد.

والتواب يدل على كثرة ما يتوب به على عباده، وهذه المعادلة، أي كثرة الذنب مقابل كثرة التوبة، إنما هي من تقدير العالم بخلقه الذي يعلم بكثرة خطأ عباده، وهو ما ذكره المصطفى صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"^{٩٣٩}، والكثرة تدل ولا شك على كرم التواب حيث تأتي الشدة في التواب (فعال) للدلالة على كثرة من يتوب عليهم، ولأنه يُكثر في قبول التوبة

٩٣٢ فاطر ٣٨.

٩٣٣ آل عمران ٢٩.

٩٣٤ النور ٢٠.

٩٣٥ النساء ٩٩.

٩٣٦ النساء ١٦.

٩٣٧ النساء ٢٦.

٩٣٨ إبراهيم ١٥.

٩٣٩ سنن الترمذي، ج ٩، ص ٤٠١.

بحيث ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه^{٩٤٠} قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}^{٩٤١}، هذا من جانب ولأنه يتوب على كثير الذنوب من جانب آخر، فالتوب هو الذي يغفر الذنوب جميعا ليتوب على عبده من المسرفين الذين أكثروا من الخطايا: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}^{٩٤٢}.

التوب متصل التوبة، أي مثبتة لا تنقطع أبدا، والتوب استجابة لفعل خير، وطلب صادق، ونية طيبة، ونفس ودودة محبة للآخرين ومتعاونة معهم فيما يفيد الجميع.

والتوب يقبل التوبة، فما هي التوبة التي يقبلها التوب؟ وما أنواعها؟

التَّوْبَةُ الرَّجُوعُ مِنَ الذَّنْبِ، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- "النَّدَمُ تَوْبَةٌ"^{٩٤٣}، وتاب إلى الله يتوب تَوْبًا وَتَوْبَةً وَمَتَابًا أَنَابَ وَرَجَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، وأصل التَّوْبَةُ فِي اللُّغَةِ النَّدَمُ فَاللهُ التَّائِبُ عَلَى عِبْدِهِ يَقْبَلُ نَدْمَهُ وَالْعَبْدُ تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ يَنْدَمُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَالتَّوْبَةُ رَجُوعٌ عَمَّا سَلَفَ بِالنَّدَمِ عَلَيْهِ وَالتَّائِبُ صِفَةٌ مَدْحٌ لِقَوْلِهِ "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ" فَلَا يُطْلَقُ اسْمُ تَائِبٍ إِلَّا عَلَى مُسْتَحِقٍّ لِلْمَدْحِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ الرَّجُوعُ وَالْأَوْابُ الرَّاجِعُ عَنِ ذَنْبِهِ وَالْأَوْبَةُ الرَّجُوعُ^{٩٤٤}، وَمِنَ الْمَعَانِي الدَّالَّةُ عَلَى التَّوْبَةِ الْأَوْبَةُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ إِلَى مَا يَرْضَاهُ قَالَ تَعَالَى: {وَتُوبَ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}^{٩٤٥}.

^{٩٤٠} تفسير حقي، ج ١٧، ص ٤٦٠.

^{٩٤١} النور ٣١.

^{٩٤٢} الزمر ٥٣.

^{٩٤٣} سنن ابن ماجه، ج ١٢، ص ٤٥٨.

^{٩٤٤} المخصص، ج ٨، ص ٩٠.

^{٩٤٥} البقرة ١٢٨.

والتوبة من العبد ومن الرب، فتوبة العبد إلى ربه أوبته مما يكرهه الله منه بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه، وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن ذنبه، ومحو العقوبة، مغفرة له من التواب.

والتوبة على نوعين:

الأول: أن يوقع التواب في قلب عبده التوبة والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة، وشروطها من الإقلاع عن المعاصي، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، واستبدالها بعمل صالح .

الثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها، فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها^{٩٤٦}. قال تعالى: {لَرَبَّنَا وَاَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ^{٩٤٧}.

والتوبة النصوح هي أن لا يعود إلى ما تاب عنه^{٩٤٨}، وهي التوبة التي حضنا التواب عليها فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ^{٩٤٩}.

والتوبة تختلف باختلاف التائبين فتوبة سائر المسلمين الندم والعزم على عدم العود ورد المظالم إذا أمكن، ونية الرد إذا لم يمكن، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء، والفتور في الأعمال، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات^{٩٥٠}.

^{٩٤٦} شرح أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٥٧ .

^{٩٤٧} البقرة ١٢٨ .

^{٩٤٨} معجم العين، ج ١، ص ١٩٣ .

^{٩٤٩} التحريم ٨ .

^{٩٥٠} تفسير الالوسي، ج ٢، ص ١٠ .

ولابد من الإشارة إلى نوع من التوبة أكرم التواب أمة محمد بأن أعفاها منه، وهي توبة كانت زمن بني إسرائيل وأشار التواب إليها فقال: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ^{٩٥١}، فاقتلوا أنفسكم الفاء للتعقيب، والمتبادر من القتل، القتل المعروف من إزهاق الروح وعليه جمع من المفسرين والفعل معطوف على سابقه، فإن كانت توبتهم هو القتل إما في حقهم خاصة، أو توبة المرتد مطلقاً في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام، فالمراد بقوله تعالى فَتُوبُوا اعزموا على التوبة ليصح العطف وإن كانت هي الندم والقتل من متماتها كالخروج عن المظالم في شريعتنا فهو في هذا السياق على معناه، وظاهر الأمر أنهم مأمورون بأن يباشروا كل قتل نفسه، وفي بعض الآثار أنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، وروي أنه أمر من لم يعبد العجل أن يقتل من عبده، والمعنى عليه استسلموا أنفسكم للقتل، وسمى الاستسلام للقتل قتلاً على سبيل المجاز، والقاتل إما غير مُعَيَّن، أو الذين اعتزلوا مع هارون عليه السلام، والذين كانوا مع موسى عليه الصلاة والسلام، وجملة القتلى سبعون ألفاً، وبتمامها نزلت التوبة وسقطت الشفار من أيديهم، وأنكر البعض أن يكون الله تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم وقالوا: لا يجوز ذلك عقلاً إذ الأمر لمصلحة المكلف وليس بعد القتل حال تكليف ليكون فيه مصلحة، أما علموا بأن لنفوسنا خالقاً بأمره نستبقها؛ وبأمره نفيها وأن لها بعد هذه الحياة التي هي لعب ولهو، حياة سرمدية وبهجة أبدية، وأن الدار الآخرة لها الحيوان، وأن قتلها بأمره يوصلها إلى حياة خير منها ^{٩٥٢}.

وإذا عرفنا حقيقة التوبة فلا بد من السؤال؛ لمن تتحقق التوبة؟

١- لكل تائب لأن التواب عم العباد برحمته فشملمهم أجمعين بقبول التوبة إذا كانت خالصة فقال تعالى: {الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

^{٩٥١} البقرة ٥٤.

^{٩٥٢} تفسير الألوسي، ج ١، ص ٣١٨.

الرَّحِيمِ} ^{٩٥٣}. ويلاحظ في الآية الكريمة أنه تعالى بدأ بذكر اسم الله، ثم قال هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ، وفي ذلك إشارة إلى "أن كونه إلهاً يوجب قبول التوبة، ويجب على الخليفة أن يفهم هذه المعاني، فيقبل التوبة من الجميع لا يمنعه بغض ولا حقد، وأن ينأى بنفسه عن الانتقام الباطل وهو الذي يصدر عن هوى سرعان ما يقود إلى الندم.

٢- للمتقي الذي يضطر لأي سبب من الأسباب إلى الوقوع في الذنب: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} ^{٩٥٤}، والاضطرار هو: "كون الشيء بحيث لا يقدر الإنسان على الامتناع منه بسبب موجب لذلك" ^{٩٥٥}، وهذه الحالة تحدث للمتقي أكثر من غير المتقي، لأن غير المتقي لا يكون مضطراً بل هو مختار بنفسه لهذا العمل أو ذاك، فإذا أكل من محرم فباختياره في الغالب، أما المتقي فلا يأكل إلا مضطراً: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ^{٩٥٦}، هنا يتضح فعل التواب مع المضطر، الذي خصه التواب بآية في الذكر الحكيم فقال: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَثَلَّةً مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} ^{٩٥٧}، وهي رحمة من عالم خبير بخلقه، يعلم أنه مخلوق يصاحبه الخطأ والزلل في جل أعماله، ضعيف أمام حاجاته الغرائزية والفطرية التي فطر عليها خلقه، ما يدفعه إلى الاضطرار لفعل ما لا يرضاه التواب، هنا تأتي الرحمة بقبول توبة المضطر.

٣- النادم: الندم هو الشعور بالأسف لفعل سابق ورغبة صادقة في عدم العودة إليه لقباحته أو لتعارضه مع صراط التواب الرحيم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

^{٩٥٣} التوبة ١٠٤.

^{٩٥٤} الحجرات ١٢.

^{٩٥٥} الفروق اللغوية، ج ١، ص ٦٦.

^{٩٥٦} البقرة ١٧٣.

^{٩٥٧} النمل ٦٢.

فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ^{٩٥٨}، فالوارد في الآية دعوة صريحة إلى ترك العمل السيئ المتمثل بالظن السيئ، والتجسس بغير حق، والغيبة، فجعلها الله من قبيح العمل حيث جاء التشبيه بما تشتمز منه النفس وذلك باستخدام صورة أكل لحم الميت لما فيها من قبح وذلك ليستشعر العبد قبح هذه الأفعال المخصوصة في الآية، ثم قال واتقوا الله وتلك التقوى تكون بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تاب الله عليكم بتيسير ترك ذلك وتقيحه في نفوسكم، ومثله قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^{٩٥٩}، والخليفة وبموجب ما يملك من علم يدلّه على النادم الصادق عليه أن يقبل توبة هذا النادم ويعفو ويتسامح ويغفر، وأن يجعل ما سلف منه من عمل ندم عليه في حساب أفعاله الحسنة فلا يعيره به ولا يجعله مانعا لخير قدر لهذا العبد .

٤- لمستغفر تائب، يقول التواب: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا^{٩٦٠}، فقدم الاستغفار ثم أحقه بالتوبة لأن القائل قد يقول: أستغفر الله وليس بتائب، فقد يقول: أتوب وليس في قلبه توبة كما تدل على ذلك الأفعال فهو كاذب، لأن التوبة اسم للرجوع والندم، أما الاستغفار فإنه فعل قولي ما أن ذكره حتى أصبح صادقا، لذلك قال واستغفره إنه كان توابا وفيه دلالة واضحة على ضرورة اقتران الاستغفار بالتوبة، وهذه التوبة لها نصيب عظيم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا هي من موجبات نعم الخالق على عباده، فهي التي تهدي العبد للرزق الحلال ويبارك له فيه: {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ^{٩٦١} .

٩٥٨ الحجرات ١٢ .

٩٥٩ البقرة ١٥٩-١٦٠ .

٩٦٠ النصر ٣ .

٩٦١ هود ٣ .

وهي التي تأتي بالغيث الذي غالباً ما يكون بعد الانحباس لان كلمة غيث تحمل معنى الإغاثة وهي المعونة لمُعدِم محروم: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^{٩٦٢}، وهي التي توجب إجابة الدعاء: ﴿وَأَلَىٰ أَرْحَامِهِمْ صَلَاحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾^{٩٦٣}، وهي التي تنزل بعدها الرحمة التي لا غنى لعبد مهما كان عنها: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^{٩٦٤}.

٥- الجاهل هو فاعل الفعل على محمل الصواب مع الشك فيه، وله توبة رحمة من التواب الرحيم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^{٩٦٥}، وربما يكون مصدر هذا الفعل هو الاضطراب بين الصواب والخطأ وهو ما يقع فيه الجاهل فيسيء التقدير: ﴿الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^{٩٦٦}، وهنا يأتي دور الخليفة الذي يجب عليه بعد التمييز الدقيق أن يفسر بعض الأخطاء على أنها جهل من بعض العباد، فيقبل توبتهم ويقوم بتعليمهم الصواب لكي لا يعودوا إلى مثله فيكونوا من المصيرين وهؤلاء لا توبة لهم.

٦- للكافر توبة، يقول التواب: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

٩٦٢ هود ٥٢.

٩٦٣ هود ٦١.

٩٦٤ هود ٩٠.

٩٦٥ النساء ١٧.

٩٦٦ البقرة ٢٧٣.

رَحِيمٍ^{٩٦٧}، والمعنى أن يتوب عليه منهم لحكمة والمراد يوفقه للإسلام والله غَفُورٌ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي ورحيمٌ يتفضل عليهم ويثيبهم بلا وجوب عليه سبحانه^{٩٦٨}.

٧- للمشرك والزاني والقاتل وشاهد الزور توبة، يقول التواب الرحيم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخُذْ فِيهِ مَهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا^{٩٦٩}﴾.

الخالق خلق الإنسان عاقلا بعقل ليميز به بين ما يجب وما لا يجب، وبه يتدبر الأمر، وبه يتفكر ويتذكر، والهدف من ذلك التوبة والهداية، ولهذا فالعقل هو الصلة بين العبد وربه، ليتوب عليه وهو التواب الرحيم. وعليه أتساءل:

- ١ . هل يمكن أن يؤمن الإنسان بإرادة لو لم يكن عاقلا؟.
 - ٢ . هل يمكن أن يتدبر أمره لو لم يكن عاقلا؟.
 - ٣ . هل يمكن أن يتذكر لو لم يكن عاقلا؟.
 - ٤ . هل يمكن أن يتفكر لو لم يكن عاقلا؟.
 - ٥ . هل يمكن أن يتوب لو لم يكن عاقلا ومميزا؟.
 - ٦ . هل يمكن أن يتضرع وهو ينتظر الإجابة من ربه لو لم يكن عاقلا؟.
 - ٧ . هل يمكن أن يُطلب منه قصاص لو لم يكن عاقلا؟.
 - ٨ . هل يمكن أن يطلب منه أن يعدل أو يحكم بعدل بين الناس لو لم يكن عاقلا؟.
- كل الإجابات بالطبع لا.

^{٩٦٧} التوبة ٢٦-٢٧.

^{٩٦٨} تفسير الالوسي، ج ٧، ص ١٩٨.

^{٩٦٩} الفرقان ٦٨-٧١.

أ . لا يمكن أن يؤمن الإنسان لو لم يكن عاقلا مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} ٩٧٠، وقال تعالى: {اتَّأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ٩٧١ .

ب . لا يمكن أن يتدبر الخليفة أمره لو لم يكن عاقلا مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} ٩٧٢، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} ٩٧٣ .

ج . لا يمكن للخليفة أن يتذكر لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} ٩٧٤، وقال تعالى: {فَاتِّمَّا يَسِرَّنَا وَبَلِّغْنَاكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَاذِقْ مِنْهُمْ مَرْثِيُونَ} ٩٧٥ .

٩٧٠ الحديد ٨، ٩ .

٩٧١ البقرة ٤٤ .

٩٧٢ النساء ٨٢، ٨٣ .

٩٧٣ محمد ٢١ - ٢٤ .

٩٧٤ الزمر ٢٧ - ٢٩ .

٩٧٥ الدخان ٥٨، ٥٩ .

د . لا يمكن للإنسان أن يتفكر لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحِينَ اثْنينِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وفي الأرضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ وَنَخِيلٌ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^{٩٧٦}، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^{٩٧٧} .

هـ . لا يمكن أن يتوب الخليفة لو لم يكن عاقلا ومميزا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^{٩٧٨}، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^{٩٧٩}﴾

و . لا يمكن أن يتضرع الخليفة وهو ينتظر الإجابة من ربه لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ

^{٩٧٦} الرعد، ٣، ٤ .

^{٩٧٧} الروم ٢٠ - ٢٤ .

^{٩٧٨} النساء ١٧ ، ١٨ .

^{٩٧٩} المائدة ٣٩ .

صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا
حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا^{٩٨٠}

د . لا يمكن أن يطلب منه قصاصا لو لم يكن عاقلا مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ
شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَاةٍ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^{٩٨١} .

ر . لا يمكن أن يطلب منه أن يعدل أو يحكم بعدل بين الناس لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله
تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ
اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا^{٩٨٢} ، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا
الصَّيِّدَ وَأنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا
بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ
عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ^{٩٨٣} .

٨- للمتخلفين عن أمر الله ورسوله: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^{٩٨٤} ، والآية تدل على شمول التوبة لكل العباد بشرط الإخلاص في النية

^{٩٨٠} الفرقان ٦٨ - ٧٧ .

^{٩٨١} البقرة ١٧٨ ، ١٧٩ .

^{٩٨٢} النساء ٥٨ .

^{٩٨٣} المائدة ٩٥ .

^{٩٨٤} التوبة ١٠٥ - ١٠٦ .

والعمل، فحتى الذين تخلفوا عن أعظم فرض (الجهاد)، ومع أعظم الخلق محمد صلى الله عليه وسلم كانت لهم توبة من لدن تواب رحيم.

٩- للظالم: قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{٩٨٥}، والظلم من عظيم الذنوب لذا أوجب التواب أن يسبقه استغفار لتحصل التوبة على هذا الفعل، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} ^{٩٨٦}، والخليفة لم يكن ليظلم ولكن يجب عليه عدم السكوت على الظلم، وأن يمنع الظالم من أن ينال من العباد إلى أن يحقق العدل، وهو بعد ذلك يجب عليه قبول توبة الظالم إذا عاد عن ظلمه بالمطلق. فإذا كان الله توابا رحيمًا فلماذا لا يكون عباده كذلك وهم يستمدون هذه الصفة منه توابا عظيمًا؟.

١٠- للمنافق: النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر، وهذا أمر يصعب على الإنسان تمييزه لدى الآخر لكونه من بواطن الأمور، لكن العليم الخبير الذي يعلم السر وأخفى ويعلم كل شيء في السموات والأرض مصداقا لقوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ^{٩٨٧}، فهؤلاء تبقى توبتهم موقوفة على أمر الله لا يعلم تحققها من عدمه إلا هو: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا} ^{٩٨٨}.

١١- للمتذبذب بين الخير والشر: {وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{٩٨٩}، ويواجه الخليفة في مهمته الكثير من هؤلاء وعليه أن يصبر عليهم، وأن يدعوهم في كل حين إلى الصواب، وأن يعلمهم العمل الصالح الذي ينجيهم من

٩٨٥ المائدة ٣٩.

٩٨٦ النساء ٦٤.

٩٨٧ التغابن ٤.

٩٨٨ الأحزاب ٢٤.

٩٨٩ التوبة ١٠٢.

السوء المهلك، فإذا وعوا ما هم فيه وعادوا إلى الحق وجب عليه قبول توبتهم، وهو بعد ذلك مراقب لما هم فيه فإن عادوا إلى السوء وجب عليه العودة إلى العقاب. قال تعالى: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} ^{٩٩٠}.
هذه هي التوبة، فما هي شروط التوبة؟.

أولاً: النية: تتعلق النية بأعمال الضمير التي تخفى عن العباد ولا تخفى عن خالق العباد جل جلاله، وهي دليل على عدم المناقفة عندما تكون خالصة لوجه الله تعالى، وصفاء النية صلة تربط التائب بمن تاب إليه، فتصبح معلومة لأثنين فقط هما: التائب والمتوب إليه وهو الله عز وجل، وإما الآخرين ستنزل استقراءاتهم استنتاجيه فقط. ولذا تعد النية مكنم الحقيقة تجاه الموضوع الإيماني أو أي موضوع آخر، والنية دائماً تكمن في الصدور التي علم حقيقتها عند الله جل جلاله. قال تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ^{٩٩١}، ولذا إن خلصت النية صفت القلوب ووضحت الرؤية واستقام الأمر، وإن لم يتم ذلك يكون النفاق سيدا في ميادين التعامل بين الناس، وحينها لا تجد المصادق مكانا تستقر فيه. قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} ^{٩٩٢}. ولأن النية هي مكنم الحقيقة جاءت العبادات بكاملها قائمة على هذه الركيزة، فالشهادة النية مع الإظهار، والصلاة النية ثم الإظهار، وهكذا الحج النية شرطه الأساس، والزكاة والصوم كذلك. ولهذا قلنا: إن الظاهر هو ما ليس بكامن أو بباطن. فالظاهر هو:

^{٩٩٠} الإسراء ٨.

^{٩٩١} آل عمران ١٥٤.

^{٩٩٢} الحج ٤٦.

ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعا للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحا، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الظاهر هو الذي لا يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيّن للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابل للامتداد والحركة ويتجسد في السلوك والفعل بالنسبة لما يتعلق بالحياة البشرية. الظاهر ما ليس بكامن، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر.

وعليه، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة. وكثيرا ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سويا، أو مثلا أو فيه القدوة، ولكنه في الواقع، قد يكون غير ذلك، فالابن، أو الابنة كما سبق أن أوضحنا كثيرا ما يكونا أمام أسرتهما، وخاصة الوالدين، على خلق والتزام وأدب، ولكنهما في حقيقة الأمر قد يكونا غير ذلك من ورائهما، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف

مع الاتجاهات السلبية، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضب هذا الإدعاء، مع أنه الحقيقة، ولذلك الحكم بالظاهر على الظاهر قد لا يؤدي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكلاً وصورةً، وقد يكون قولاً أو سلوكاً، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصي الحقائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته، قد لا يؤدي إلى نتائج علمية، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها، والظاهر قد يكون مشاهداً، وقد يكون محسوساً (لموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي باللمس يتم التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة، ولكن الذي يود أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن ورائها، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي لمريض مصفر الوجه، هل يتوجه هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفرار الظاهر؟ أم إلى البحث عما يكمن ورائه من علل، وأسباب؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشراً إلى البحث عن كامن، لأن الاصفرار مسبب، وبما أنه مسبب، إذن لابد وأن تكون له أسباب، ومسببين له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر الله في الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفرار الوجه الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدين والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلى الهلاك، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له رأي، أو حتى وجهة نظر في ذلك.

أما الكامن فهو:

الذي لم يبح به بعد برغم وجوده شاغل لحيز، وهو المضمون الذي عليه الظاهر، ولهذا فالمعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يهتم بالظاهر والكامن في التعرف على الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية.

الكامن ما ليس بظاهر، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس. ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي الكمون هو: أن تكمن بعض الأشياء في بعض. وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدث الاستجابة. ولذا فإن الكمون هو مكن كل حقيقة، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزا لا تراه العينين ولكن يدركه كل عقل ناضج سليم. وهكذا تكمن الأسرار في الصدور حتى يباح بها فنتشر في ميادين المعرفة^{٩٩٣}.

والكامن في حاجة للاستتارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جهدٍ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان، ولهذا لا ينبغي أن يغفل الخليفة في حال توليه المسؤولية عما يرد من فلتات اللسان، مع الملاحظة والمشاهدة الواعية واتقاء الله في كل كبيرة وصغيرة حتى لا يظلم أحدا.

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف على جوهره، على أسراره وخفاياه، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته، وعليه فدراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاتها، بل الغاية فيما وراءها. ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف على البصمة، بل الغاية معرفة صاحبها أولا، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانيا، وثالثا معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلى ارتكابه، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث. وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامنا في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد، فكثيرا من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن

^{٩٩٣} عقيل حسين عقيل، المفاهيم العلمية (دراسة في فلسفة التحليل) ص ٢٣١.

السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة، وكأنه لم يكن سارقاً، وبعد إجراء عملية المقارنة البصماتية، تم القبض عليه فكان هو السارق.

إن الإنسان كظاهر يكمن في بصماته، كما تكمن المطر في السحب، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون، وهكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبل في البذرة.

وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهداً، وقد لا يكون كذلك. وقد يتوحد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها، والمجتمع في حشوده. ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع، لا يمكن أن تشاهد، ولكنها تُلاحظ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يرى (يشاهد) الزواج؟. لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) على موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعى الناس إليه. إن الذي تتم مشاهدته، هو الزوجين الذكر والأنثى، والعقد المكتوب بينهما على ورق، والناس الذين حضروا لأجل ذلك، وهذا كله لم يكن الزواج، بل هذه مراسم الزواج. الزواج توادد، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلى التباس بعضهما، حبا واشتياقا وفق اتفاق على مستقبل مشترك، يجعل الآخرين شاهدين على ذلك بأنه الحق، ومحرضين عليه. إن الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة، وذكر وأنثى، وهذه تُلاحظ، ولا تشاهد بالعينين. والطلاق كموضوع هو الآخر يُلاحظ، ولا يشاهد، وهكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما، ولا يخضعان للمشاهدة، لأن الذي يشاهد هم الأفراد، كباراً وصغاراً، ذكوراً وإناثاً، وحشوداً من البشر، وهؤلاء لم يكونوا هم الأسرة، ولا المجتمع، مع أنهم عناصر تكوينهما، فبدون علاقات مشتركة ذات معنى لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنى للأسرة، أو المجتمع، ولهذا تتكون معارفنا من ظاهر وكامن وتوحد بينهما. فنحن نعرف الأبوة، والأمومة، والأخوة، ونعرف الخال والجد، ونعرف أيضاً أن هذه المفاهيم جميعها لا تشاهد، لأنها كامنة ومرتبة على علاقات يمكن ملاحظتها.

هكذا النية تكمن خلف كل ظاهر من القول أو العمل أو السلوك أو الفعل، ولا وجود لصدق إلا بالنية التي لا يعلمها إلا صاحبها والله عز وجل، ولذا يقال إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

الكامن، غير متيسر للمشاهدة مع أنه يشغل حيزاً وقابلاً للظهور: وهكذا النية تشغل حيزاً ولا تقبل المشاهدة، إنها ذات علاقة بالضمير الذي يَكُنُّ في الصدور، ولأن النية كامن والكامن غير متيسر للمشاهدة برغم أنه يشغل حيزاً، إلا أنه السابق على القول والفعل. فلو لم يكن الكامن ما كان الظاهر، الفكرة أولاً وإظهارها والعمل بها ثانياً.

ولهذا فالكمون هو الأصل (النية هي الأصل)، حيث تكمن الأعمال في النيات، كما النخلة في النواة.

لذا: الظاهر هو النواة، والكامن هو النخلة. مثلما الزيت هو الكامن وثمره الزيتون هي الظاهرة. وعليه كل كامن قابل للظهور كلما توفرت اشتراطاته. وقابل للاستقراء والاستنباط كلما لوحظت ردود أفعاله، وقابل للإثبات والمقارنة كلما تلمسنا الأثر وشاهدناه. ولهذا فالقاعدة هي:

١ . الكامن غير متيسر لمشاهدة.

٢ . الكامن يشغل حيزاً.

٣ . الكامن قابل للظهور كلما توفرت معطياته.

والاستثناء هو:

١ . تيسر الكامن للمشاهدة.

٢ . أن لا يشغل الكامن حيزاً.

٣ . انعدام قابلية الكامن للظهور.

وعليه:

١- يسر الأمر تُيسر لك الأمور.

٢- يسرّ يتم تقبلك .

٣- يسرّ تُغرس الثقة فيك .

٤- يسرّ يتم الاعتراف بك .

ولهذا فالتيسير يُمكن من الآتي :

. التيسير يُمكن من نيل الاعتراف .

. التيسير يُمكن من غرس الثقة .

. التيسير يُمكن من إنجاز الأهداف .

. التيسير يُمكن من المشاركة والتفاعل .

. التيسير يُمكن من التقبل المتبادل .

. التيسير يُمكن من بلوغ الأغراض والغايات .

. التيسير يُمكن من أحداث النقلة .

اعرف الكامن تعرف الحقيقة في النية :

وبما أنه لا يمكن أن تعرف الحقيقة إذا لم تعرف الكامن من أمرها .

وبما أن الفعل والسلوك ظاهرين والحقيقة موضوع احتمال (في حالة شك) إذن قد تُرتكب الأفعال

والسلوكيات وهي لا تحمل أو تُجسّد حقائق (بلا مصادق) ولهذا فلا يغرّك الظاهر .

إذن الظاهر قد يُغرر بمن يضع الثقة فيه .

وعليه:-

. تأكد قبل أن تُقدّم .

. تبين قبل أن تتخذ قرارا .

. خطط قبل أن تعمل .

. فكر حتى تعرف .

. لا تتسرع فالتسرع مصيدة .

. تأنى فكل شيء ممكن.

. تحقق بمقارنة.

. دقق بملاحظة.

. استتبط بفطنة.

. حل بمنهج.

. ابحث بطريقة ووسيلة وأسلوب.

. شك حتى ترى الحقيقة بين يديك.

ولأجل أن يُسهم الخليفة في غرس الثقة، ويُسهم في إحداث النقلة، وفي صناعة المستقبل المفيد

والنافع، عليه بمراعاة الآتي:

. التقصي والتتبع الدقيقين.

. الوقوف عند كل ردة فعل.

. تقييم السالب وتقويمه.

. اعتماد الموجب وعرضه.

. تحديد الأهداف بكل وضوح.

. الإصرار و إن واجهته الصعاب.

. تنفيذ الأهم قبل المهم .

الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة والكامن من ورائه ساكن:

كل خاضع للمشاهدة أو الملاحظة هو ظاهر، قولاً كان أم فعلاً أم سلوكاً أم أثراً. وكل ما خُفي

عن ذلك في حيز الوجود هو كامن كمثل كمن النية في الحقيقة. فعندما تكون الفرحة ظاهرة على

السطح، يكون الحزن فينا كامناً، وعندما تتوفر اشتراطاته أو معطياته يفور من حينه ليعلن أنه قوة

قادرة على مداهمة واختراق كل الحواجز التي سترته قبل الظهور.

الحواس هي المُمكَّنة من الإدراك العقلي لكل ما هو ظاهر وما هو كامن، وحيث ما يكون الظاهر في الصدارة متحركا يكون الكامن من ورائه ساكنا، وقد يتماثل الظاهر مع الكامن وقد لا يتماثل، فعندما يكون القول كاذبا بطبيعة الحال يكون مخالفا للحقيقة. وعندما يكون صادقا يصبح مماثلا لها، وهكذا في كل أمر. وعندما تُترجم الأقوال الظاهر في سلوكيات وأفعال تمر شخصية الإنسان حسب مواقفها من الحقيقة بخمسة مستويات قيمية هي:

- ١ . الاتزان الانفعالي لا سالب ولا موجب (ذاتية حيث التمرکز على قيم المجتمع).
- ٢ . الميل لأخذ المواقف السالبة (الميل إلى ما لا يُرضي الآخرين، حيث الانسحاب من بعض القيم الاجتماعية).
- ٣ . بلوغ قمة المواقف السالبة (الشخصانية حيث ظهور السلوك الأناني والتفكير في الأنا فقط).
- ٤ . الميل لأخذ المواقف الموجبة (التطلع لكل مرضي حيث المنطق والحُجة).
- ٥ . بلوغ قمة المواقف الموجبة (الموضوعية حيث العقل سيد الميدان مع الرقي في حُسن التصرف).

وبناء على ما سبق فإن القاعدة هي:

- ١ . الظاهر يُشاهد.
- ٢ . الظاهر يُلاحظ.
- ٣ . الكامن ساكن.
- ٤ . وراء كل ظاهر كامن.

والاستثناء هو:

- ١ . انعدام مشاهدة الظاهر.
- ٢ . انعدام ملاحظة الظاهر.
- ٣ . انعدام سكون الكامن.
- ٤ . أن لا يكون وراء الظاهر كامن.

الظاهر مثبت بالقول والفعل والسلوك والأثر:

بما أن الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة، ومثبت بالفعل والسلوك ويترك أثرا. إذن فهو قابل للنفي والإثبات.

ولذا فالقاعدة هي:

- ١ . الظاهر مثبت بالقول.
- ٢ . الظاهر مثبت بالفعل.
- ٣ . الظاهر مثبت بالسلوك.
- ٤ . الظاهر مثبت بالأثر.

والاستثناء هو:

- ١ . الظاهر لا يُثبت بالقول.
- ٢ . الظاهر لا يُثبت بالفعل.
- ٣ . الظاهر لا يُثبت بالسلوك.
- ٤ . الظاهر لا يُثبت بالأثر.

ولذا، فالقواعد تُثبت وجود قضايا، والاستثناءات تنفي وجودها. ومع ذلك تخضع أدلة الإثبات إلى التقويم في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

ولهذا ليس كل فعل أو سلوك يُحَثُّ أو يُحَرِّض عليه فهناك البعض السلوكي يُنهي عن ارتكابه، وهناك المحرم منه، حيث لا يُحَرِّض عاقل على فعل مُشِين، ولا يُحَرِّض خليفة على محرم أو منهي عنه، إنه المتقي لله في كل قول، وبما أنه لا يتم التحريض من قبل عاقل على كل فعل أو سلوك لا يليق بالخلق.

إذن الانتباه إلى القواعد هو الأساس في التمييز بين ما يجب وما لا يجب. فالقاعدة تتمركز على التبيين. والاستثناء يتمركز على الغموض.

وعليه:

- تبيّن قبل أن تقدّم.
- تبيّن قبل أن تتسحب.
- تبيّن قبل أن تفعل.
- تبيّن قبل أن تسلك.
- تبيّن قبل أن تحكّم.
- تبيّن قبل أن تقدّم.
- تبيّن لتقف على اليقين.
- يخرج الظاهر من الكامن:

يتداخل الظاهر مع الكامن في علائق قيمية وترابط متين مثلما يتداخل المتوقع وغير المتوقع في دائرة الممكن. وعليه يكون الإيمان سابقا على السلوك والفعل المترتب عليه، كما تسبق الخيانة أو الردة السلوك أو الفعل الذي يرتكبه الخائن أو المرتد.

ولأن علاقة قوية تربط دائرة الظاهر والكامن، بدائرة المتوقع وغير المتوقع، لذا فبالضرورة أن يكون في دائرتيهما ما هو محتمل بالسالب وما هو محتمل بالموجب.

ولذلك فعلى الخليفة أن يضع في حسابه واحتمالاته ظهور السالب والموجب المتوقع، وأن يضع في حسابه أيضا ظهور السالب والموجب غير المتوقع. وفي مقابل ذلك يتوقع الكامن السالب والكامن الموجب، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب.

وعليه إذا لم يضع في حسابه واحتمالاته كل ذلك سيفاجأ بما هو غير متوقع وبالتالي لن يتمكن من ترسيخ القيم والفضائل التي تجعل من البشر خلائف في الأرض مصلحين غير مفسدين ولا سافكي دماء بغير حق، ولذا:

- في حالة التماثل العلائقي، يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب.
- في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل السالب مع الكامن الموجب.
- في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب.

الثقة في حالة اهتزاز بين كامن وظاهر:

الثقة قيمة أخلاقية تُغرس في من يستطيع حملها، وتُنزع ممن لا يستطيع. ومع أنها لا تُغرس بقرار، إلا أنها قد تنزع به. غرسها يحتاج إلى زمن ومعطيات مرضية وقبول إرادي، أما نزعها فمترتب على فعل أو سلوك سالب أو مجموعة أفعال سلبية، مرتكبة عن وعي وقصد. ولهذا يتضح اهتزاز الثقة وثباتها في الآتي:

قول موجب + فعل سالب. لا يؤدي إلى غرس الثقة.

قول سالب + فعل موجب. لا يؤدي إلى غرس الثقة.

نية صادقة + قول صادق + فعل صادق = حقيقة نافعة. تؤدي إلى غرس الثقة.

نية كاذبة + قول صادق (ظاهرياً) لا يساوي حقيقة.

بلا شك هناك علاقة موجبة أو سالبة تربط الظاهر بالكامن .

في حالة التماثل العلائقي يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي لا يتماثل الفعل السالب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب .

وعليه أينما يكمن السالب يكمن الضعف فيه.

وأينما يكمن الموجب أو يظهر تكمن القوة فيه.

يستقر الكامن من الفعل الظاهر:

اللسان ينطق يتكلم وقد يقسم لك بما يعتقد أنه مُمكن لك من تصديقه، ومع ذلك قد لا يكون صادقا.

المزور أو الخائف قد يُظهر لك الوثوق وعدم الخوف في نفسه، ومع ذلك بالملاحظة ينكشف سره أو أمره.

وعليه لحن القول علامة تستوجب أخذ الحيطة من الذي يَلْحَنُ في قوله.

عدم الثبات أثناء الحديث الموضوعي يستوجب وضع علامة الشك على صاحبه.

جفاف الحلق، واصفرار الوجه، وتصيب العرق، وعدم السيطرة على حركة اليدين (ارتعاشهما) أثناء المواجهة التقييمية أو الاختبارية لما هو كائن، هي علامات دالة على الخوف والارتباك في اتخاذ المواقف والتردد عنها. ولذا فهي تتأرجح بين المتوقع حيناً وبين غير المتوقع حيناً آخر. ولذا فالقضايا الصادقة ذات الحقائق الظاهرة تُمكن من الآتي:

- ١ . نيل الاعتراف .
- ٢ . غرس الثقة .
- ٣ . إنجاز الأهداف .
- ٤ . المشاركة الفعّالة .
- ٥ . التقبل المتبادل .
- ٦ . بلوغ الأغراض والغايات .

ثانياً: الإدراك عن وعي: يعد الإدراك شرطاً من شروط التوبة، وإلا هل يظن بأن يتوب الإنسان وهو لا يدرك الأمر الذي به يؤمن؟. الإدراك استيعاب عن وعي، وهو قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر. النظر فيها لا يُغض بين الأنا والآخر، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرّق بين المرء وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها لا يُغيب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدي ومسؤوليات يتم تحملها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غط النظر عن من هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية أو دينية إيمانية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى أبداً، ولذا فهي تُقدّر. والقاعدة تقول اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك.

ثالثا: التفهم: التفهم إلمام بالموضوع والظروف المحيطة به والمعطيات التي أظهرته على السطح أو أنتجته بين الأيدي، وهو دراية عن كذب ومعرفة تامة بأسبابه وعلله ومبرراته وخفاياه المؤلمة والمفرحة السالبة والموجبة.

إنه تقدير للظروف التي أثرت في الحالة أو أثرت على السلوك والفعل، وهو دراية بما ينبغي أن يتم حيالها، وكيف ومتى وأين يتم؟.

التفهم قيمة تقديرية يُقدَّر فيها الأنا الآخر. ويفسح له مجالا واسعا يسمح له بالحركة والامتداد الحر، وباعتماد التفهم قيمة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تقدر ظروف كل خصوصية وتحترمها مما يؤدي إلى تفعيل مبدأ التقبل الذي يترتب عليه تأثير وتأثر موجب، وتخفيف للآلام وعلى ضوئه يتحقق التوافق الاجتماعي. ولذا فالتفهم لا يتم إلا بالتبيين الذي هو مأمور به في القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} ^{٩٩٤}

ولأن التفهم قيمة ذات فضائل محببة بين المستخلفين فيها لذا لا إكراه في الدين مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ^{٩٩٥}.

رابعا: الاعتبار: الاعتبار فيه الانتباه وأخذ العبر مما سبق وهو مفيد لأن يوضع في الحسبان في الوقت الحاضر والمستقبل فيكون للخليفة نصب العينين، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، فلا تغررك أيها الخليفة بالله الغرور، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي

^{٩٩٤} النساء ٩٤.

^{٩٩٥} البقرة ٢٥٦.

الْأَبْصَارِ^{٩٩٦}. والخليفة المعتبر هو الذي ينال التقدير والاحترام من الآخرين عندما يكون قدوة لهم في القول الحق والفعل الحق، ولهذا كان جميع الأنبياء والرسل قدوة حسنة في شعوبهم وبلدانهم وقراهم وأممهم وكان محمد عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة للكافة، فمن اقتدى بسنة محمد كان معتبرا ومن لم يقتد به بعد هو في حاجة لمن يهديه للحق، وهذه رسالة الخليفة فلا ينبغي أن يتأخر عنها بالتي هي أحسن. قال تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا^{٩٩٧}، وقال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ^{٩٩٨}.

خامسا: التوفيق للتوبة: قال تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^{٩٩٩}. وقد وفق التواب آدم إلى التوبة بأن تلقى آدم من ربه كلمات "الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربي إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إني ظلمت نفسي فتاب عليّ إنك أنت التواب الرحيم"^{١٠٠٠}.

خامسا: الترك المطلق للفعل، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأساءت وقد أقلعت، وهذا الأخير هو

^{٩٩٦} الحشر ٢.

^{٩٩٧} الإسراء ٥٣، ٥٤.

^{٩٩٨} المؤمنون ٩٦ - ٩٩.

^{٩٩٩} البقرة ٣٦-٣٧.

^{١٠٠٠} تفسير الطبري، ج ١، ص ٥٤٥.

التوبة، والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعادة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة. قال تعالى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ} ١٠٠١.

والتواب من العباد هو العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كل الوقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركا لجميعه، وقوله: {ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا} ١٠٠٢، أي: التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل ١٠٠٣.

سادسا: الإنابة إلى الله: فالتوبة إلى الله، تقتضي الإنابة. نحو: {فتوبوا إلى بارئكم} ١٠٠٤، ونحو قوله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا} ١٠٠٥، حيث يشعر العبد أن لا أحد يستطيع إنقاذه مما وقع منه من عمل إلا التواب فيعود إليه: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ١٠٠٦.

سابعا: التصدق: {وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَأَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ١٠٠٧، فليس المراد من الصدقة، الصدقة المفروضة أعني الزكاة لكونها مأمورا بها وإنما هي على ما قيل كفارة لذنوبهم حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل تُطَهِّرُهُمْ أَي عَمَّا

١٠٠١ الرعد ٣٠.

١٠٠٢ الفرقان ٧١.

١٠٠٣ مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج ١، ص ١٤٩.

١٠٠٤ البقرة ٥٤.

١٠٠٥ النور ٣١.

١٠٠٦ التوبة ١١٨.

١٠٠٧ التوبة ١٠٢-١٠٤.

تلطخوا به من أَوْضَارِ التَّخْلَفِ . نُظَهَّرَهُمْ بِمَعْنَى طَهْرِهِ، وَتُرَكَّبَتْ بِهِمَا أَي وَأَنْتَ تَرْكِبُهُمْ بِهَا فَتَنْتَمِي بِتِلْكَ الصَّدَقَةِ حَسَنَاتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَوْ تَبَالِغُ فِي تَطْهِيرِهِمْ، وَكُونَ الْمُرَادُ تَرْفَعُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ مَنَازِلِ الْمُنَافِقِينَ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ الْمَخْلِصِينَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا مُنَافِقِينَ، وَبِهَا وَصَلَ عَلَيْهِمْ أَي ادْعَ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ^{١٠٠٨} .

وكما للتوبة شروط فإن لها موانع، ومن أهم موانعها الإصرار، وهو أنواع، كالإصرار على الكفر، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ وَالْهَكَمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}^{١٠٠٩}، واضح من سياق الآية أن الكلام فيها يخص نوعين من العباد، نوع لم يصبر فكانت له توبة، والآخر أصر على الكفر فليس له إلا العذاب الأليم.

ومن موانعها التأخير وهو وجه من وجوه التهاون والإهمال في طاعة التواب الرحيم فقابله بمثله: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}^{١٠١٠} .

والإشراك بالله من موانع التوبة: {قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}^{١٠١١} .

والنفاق من موانعها أيضاً: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ}^{١٠١٢}،

^{١٠٠٨} تفسير الالوسي ، ج ٧، ص ٣٥١ .

^{١٠٠٩} البقرة ١٦٠-١٦٣ .

^{١٠١٠} النساء ١٨ .

^{١٠١١} المائدة ٧٤ .

^{١٠١٢} التوبة ١٢٥-١٢٦ .

ويقترن النفاق بالعقيدة إذ أن هذا التردد بين التوبة وعدمها من خلال العودة إلى الذنوب السالفة مرده فساد الاعتقاد عند العبد، فتراه يظن بالله ظناً لا يليق بجلاله: {يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانِ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ١١٣، بينما يذهب بعض فُساد العقيدة إلى نفي الوجود، فلا جنة في اعتقادهم ولا نار وإنما هي الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} ١١٤، ودور الخليفة يكمن في مراقبة العقائد من حوله والأخذ على الفاسد منها بالحسنى أولاً: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} ١١٥، ومناصرة عقيدة الحق عقيدة التوحيد والإخلاص لله وحده.

من ذلك كله يجب أن يفهم الخليفة أن من مهماته أن يقبل التوبة، وأن يشيع التسامح، وأن لا يميز قريب بالقبول، ويحرم بعيد بالرفض بل يكون عادلاً في النظرة إلى العباد فيساوي بينهم إلا بالعمل الصالح لأن التواب الذي استخلفه يقول: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} ١١٦.

اللهم إننا نعلم يقينا إنك أنت التواب الرحيم، فنستغفرك من كل ذنب وغفلة أنت لا ترضاها لعبادك الصالحين، ونتوب إليك، بك آمنا ربا واحداً واحداً لا شريك لك في الملك ولا في أي شيء مما يذكر أو يعد أو يسمى، عليك توكلنا فلا تجعلنا من الخائبين، وأولينا أمرنا إليك فتقبله يا تواب رعاية وعناية وحفظاً وسلامة، والحمد لله عليك توكلنا.

١١٣ آل عمران ١٥٦.

١١٤ الجاثية ٢٤.

١١٥ النحل ١٢٥.

١١٦ غافر ٥٨.

اللهم يا التواب اقبل توبتنا واجعلنا من التائبين وطهر نفوسنا من الرياء وطهر قلوبنا من النفاق
 وألسنتنا من الكذب، وجوارحنا من المعاصي، اللهم وفقنا للتوبة إليك فاجعل لكل ذنب توبة ولكل
 توبة مغفرة ورحمة، وتب علينا فأنت التواب الرحيم، واجعل أعمالنا وصلاتنا وسلامنا على محمد
 طمأنة للقلوب ومغفرة للذنوب وسترة عن ارتكاب الخطايا والعيوب، ويسر لنا عمل الخير في
 الغيب والشهادة، وارض عنا وتب علينا واقبلنا يا تواب.

اللهم طهرنا من الذنوب إنك أنت التواب الرحيم واجعل لنا مع كل شروق توبة ومع كل غروب
 توبة وتب علينا بنومٍ سباتٍ وليلٍ لباسٍ ونهارٍ معاشٍ، واملاً قلوبنا بفرحة مغفرتك لذنوبنا.
 اللهم لا تغلق باب رحمتك ومغفرتك في وجهنا فإنه لا سبيل للنجاة إلا برضاك عنا وقبولك توبتنا،
 وبدل يا التواب سيئاتنا حسنات إنك سميع مجيب الدعاء يا الله.

موسى وعيسى عليهما السلام والحسن

وأثرهما في استيخلاف الإنسان في الأرض

تأليف
أ. د. عقيل حسين عقيل
جامعة القادح - كلية الآداب

الجزء الثاني

دار الزكوة

دمشق - بيروت